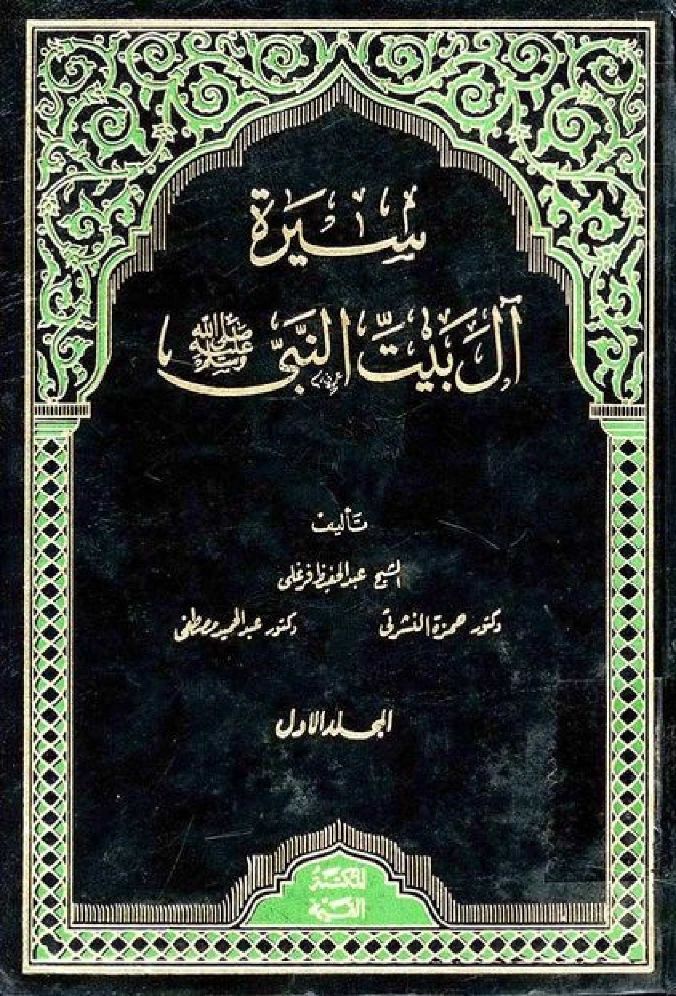

سيرة
آل بيت النبي ﷺ
تأليف
الشيخ عبد الحفيظ فرغلي
دكتور حمزة النشرتي
دكتور عبد الحميد مصطفى
المجلد الأول

سلسلة

آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم



دكتور
حمزة النشرتي

الشيخ
عبد الحفيظ فرغلي

دكتور
عبد الحميد مصطفى

المجلد الأول



البيت الهاشمي

- مقدمة .
- البيت الهاشمي .
- هاشم بن عبد مناف .
- عبد المطلب بن هاشم .
- بيت النبوة .
- من أهل البيت ؟ .
- فضائل أهل البيت .
- حب أهل البيت .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه الغر الميامين .

وبعد ، فإن أهل بيت النبوة يحتلون مكانة سامية فى قلوب المسلمين جميعاً على اختلاف أممهم وأجناسهم ومذاهبهم ولغاتهم .

وقد احتلوا هذه المكانة ، لا لقرابتهم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحسب ، بل لأنهم حافظوا على التمسك بآداب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخلاقه ، واقتدوا به فى منهجه وسلوكه ونفذوا سنته تنفيذاً عملياً ، فرأى فيهم المسلمون الصورة المثالية للأخلاق الفاضلة والسلوك الحميد ، وكانوا جديرين بالحديث الشريف الذى ذكره ابن كثير فى تفسيره ورواه مسلم فى صحيحه : عن زيد بن أرقم قال : قام فينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس ، إنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ، أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به »

فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتى ـ أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » قالها ثلاثاً[1] .

وهذا الحديث يشير إلى ما بين أهل البيت وبين المحافظة على السنة من

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٦ صـ ٤١١ سورة الأحزاب . صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ـ من فضائل على حـ ٧ صـ ١٢٢

صلة وثيقة ووشيجة قريبة ، فقد روى الرواة فى حديث آخر قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا : كتاب الله وسنتى » .

وقد عرف المسلمون الأوائل ـ ومازال الصادقون من المسلمين يعرفون ـ لأهل البيت منزلتهم ومكانتهم فيحبونهم لذلك .

ولكن الحب الذى يجب أن يكون لأهل البيت هو الحب الذى تدعو إليه الشريعة ، وينأى عن المبالغة التى يأباها الشرع ، فحب أهل البيت لا يدعو إلى كره غيرهم من أهل الفضل ، أو الحط من شأن أى من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين جاهدوا معه فى الله حق جهاده ، وأيدوا النبى فى دعوته وآزروه .

ولقد كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحبون أهل بيت نبيهم ، كما كان أهل البيت يحبون هؤلاء الأصحاب ويقدرونهم حق قدرهم .

ولقد أثر عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يقول للناس : أيها الناس ارقبوا محمداً فى أهل بيته .

وكان عمر بن الخطاب يؤثر قرابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قرابته ويفضلهم فى العطاء على أولاده ، وكان يقول : لولا علىٌّ لهلك عمر . .

إن أهل البيت جديرون بقول القائل فيهم : أولئك قوم بنور الصحبة يشرقون ، وبلسان النبوة ينطقون .

لو كـان يوجـد عـرْف مجـد قبلهـم　　　لوجدتـه منهم على أميـال
إن جئتهـم أبصـرت بين بيوتهـم　　　كرمـاً يقيـك مواقـف التسـآل
نـور النبـوة والمكـارم فيهـم　　　متوقـد فى الشيـب والأطفـال[٢]

لقد وردت فى فضل أهل البيت آثار كثيرة ، أوجبتْ على الناس معرفة حقهم والتعرف عليهم .

وفى هذا الوقت الذى اختلط فيه الباطل بالحق ، والشر بالخير ، وذاع بين الناس منطق إنكار الفضل على أصحابه ، وشاع ذهاب العقل عن صوابه ، وغالى البعض فى التشيع مغالاة بعدت بهم عن الدين ، وبالغ البعض فى الرفض مبالغة عزفت بهم عن محجة اليقين ، وأنكر البعض منارات الهدى ، وغض البعض من قدر أهل التقى .

وجدنا لزاماً علينا أن نقدم لجماهير أمتنا الاسلامية هذه السلسلة إلحاقاً بسلسلة القصص القرآنى ـ نتحدث لهم فيها عن أهل البيت وحقهم الشرعى ، ونُعرِّف فيها بهؤلاء الأئمة الأعلام الذين قال فيهم الشاعر :

ما فيهـم إلا مُـرَدَّى بالحِجـا　　　أو مُبْشَـرٌ بالأحْوَذِيَّـة مـؤدم[٣]

مستلهمين الله التوفيق ، راجين منه النفع والرشاد ، والإخلاص والسداد ، وهو من وراء القصد خير معين ، وبه نستعين .

---

(٢) زهر الأداب للحصرى حـ١ صـ٩٤
(٣) مُردَّى بالحجا : اتخذ العقل رداء ، والأحوذية : الحذق ، ومُبْشَرٌ بها أى أن جسمه وجلده حُشِى بالحذق والمهارة والفطنة

البيت الهاشمى

فى الذروة من قريش كان هاشم بن عبد مناف الذى تنتمى إليه الأسرة الهاشمية الكريمة ، ذات المناقب العظيمة ، والأفعال الحميدة ، والمآثر المجيدة . .

وكانت قريش بالنسبة للعرب أكرم بيت إليه يلجأون ، وبه يفتخرون ، وعليه يعولون ، وإلى جنابه يلوذون .

وقد تحدث الجاحظ وهو من أئمة البيان والتبيين عن قريش وبنى هاشم فقال :

قد علم الناس كيف قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف إيجازها وتحسيرها[٤] ، وكيف رجاحة أخلاقها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كَلَّ الحديد[٥] ، وكيف سيرها عند اللقاء ، وثباتها فى اللأواء[٦] ، وكيف وفاؤها إذا استُحسن الغدر ، وكيف جودها إذا حُبَّ المال . وكيف ذكرها لأحاديث غد وقلة صدورها عن جهة القصد[٧] وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه ، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراقها ، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم

---

(٤) التحسير : الكشف والاطناب
(٥) الحديد : القوى الذهن
(٦) اللأواء : الشدة
(٧) القصد : الغرض

سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم إلا قدر بُعْدِ غوْرِه[٨] ؟ وهل غفلته إلا فى وزن صدق ظنه ؟ وهل ظنه إلا كيقين غيره ؟

بل قد علم الناس كيف جمالها ، وكيف نماؤها وبهاؤها ، وكيف سَرْوُها[٩] ونجابتها ، وكيف بيانها وجهارتها ، وكيف تفكيرها وبداهتها ، فالعرب كالبدن وقريش روحها .

وقريش روح وبنو هاشم سرُّها ولبُّها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاشم ملح قريش والسنام الأضخم والكَاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والأصل الوثيق ، والسيف الحسام فى العزم ، مع الأناة والحزم ، والصفح بعد المقدرة .

وهم الأنف المقدم والسنام الأكرم . . . وهم كالشمس التى لا تخفى بكل مكان ، وكالذهب لا يعرف بالنقصان ، وكالنجم للحيران ، والماء البارد للظمآن .

ومنهم السبطان[١٠] ، وأسد الله[١١] ، وذو الجناحين[١٢] ـ والأنصار أنصارهم ، والمهاجر من هاجر معهم ، والصِّدِّيق من صدقهم ، والخير لهم أو فيهم أو معهم أو يضاف إليهم .

---

(٨) الغور : العمق

(٩) سروها : شرفها

(١٠) السبطان : الحسن والحسين

(١١) أسد الله : حمزة

(١٢) ذو الجناحين : جعفر بن أبى طالب

وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، ونجيب المرسلين ، وخاتم النبيين الذى لم يتم لنبى نبوة إلا بعد التصديق به والبشارة بمجيئه ، الذى عم برسالته ما بين الخافقين ، وأظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون[13] » .

فقد أبان الجاحظ فى عبارته هذه عن فضل قريش وبنى هاشم .

أما قريش فهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن النضر . . . . .

وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى نسبه إلى النضر : « أنا ولد النضر بن كنانة لانقفو أمَّنا ولا ننتفى من أبينا » .

وأشار العلماء إلى أنه يريد أننا لا ننتسب إلى أمهاتنا ولا نترك نسبتنا إلى آبائنا .

وقد اصطفى الله قريشاً من كنانه كما أخبر النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى من بنى كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم[14] .

هاشم بن عبد مناف

ومؤسس البيت الهاشمى فى قريش هو هاشم بن عبد مناف . . وكانت قريش تتكون من بطون عدة قدرها المسعودى بخمسة وعشرين بطناً ، منهم ما يسمى بقريش البطاح ، ومنهم ما يسمى بقريش الفضول - ومن هذه

---

(١٣) زهر الآداب للحصرى جـ ١ صـ ٩٥

(١٤) رواه البخارى وغيره

البطون بنو هاشم ، وبنو المطلب بن عبد مناف ، وبنو الحارث بن عبد المطلب ، وبنو أمية بن عبد شمس ، وبنو نوفل بن عبد مناف ، وبنو الحارث بن فهر ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وبنو عبد الدار بن قصى - وكانت فيهم الحجابة - وبنو زهرة بن كلاب - ومنهم خديجة بنت خويلد زوج الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومنهم بنو تيم بن مرة - قوم أبى بكر الصديق - ومنهم بنو مخزوم ، ومنهم بنى عدى - قوم عمر - ومنهم غير هؤلاء .

وكان بين هذه البطون تنافس ، حول المآثر المشهورة فى الجاهلية ، حتى اتفقوا على تقسيمها بينهم ، فكانت السقاية والرفادة فى بنى هاشم ، والحجابة فى بنى عبد الدار ، والسفارة فى بنى عدى ، وأعنة الخيول فى بنى مخزوم - وهكذا . .

ولكن هاشم بن عبد مناف اتصف بعدة مناقب جعلت العرب كلهم يقرون له بالفضل . فهو الذى سنّ لقريش نظام الإيلاف الذى أشار إليه القرآن الكريم بقوله - تعالى -

« لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » .

فقد كان لهاشم نفوذ واسع وكلمة مسموعة لدى الملوك المعاصرين له ، فاتفق معهم على عقد - ما يشبه - المعاهدة التجارية أو التبادل الاقتصادى بين مكة والجهات الأخرى ، بحيث تسير القوافل التجارية آمنة لا يعتدى أحد عليها ، فتسير قافلة تجارية فى الشتاء من مكة إلى اليمن والحبشة تحمل من بضائع العرب وتعود ببضائع هذين القطرين .

وتسير قافلة أخرى فى الصيف إلى غزة ، وربما بلغت أنقرة كذلك . . .
وكان هاشم كثيراً ما يرأس هذه القوافل فيقابل الزعماء فى تلك البلاد ، وكان يقابل قيصر الروم فيكرمه ويقربه .

وأثرى هاشم من تجارته ، فلم يبخل بما جمعه ، بل جعل ما اكتسبه فى خدمة أهله وعشيرته وحجاج بيت الله الحرام . وحين شعر أن قريشاً أصابتها سنون عجاف ، قدم بالخبز محمولاً على الإبل حتى وافى مكة ، وهناك هشم الخبز ونحر الإبل وصنع ثريداً لأهل مكة فأكلوا حتى شبعوا ، ومن ذلك الوقت نسى الناس اسمه الحقيقى وهو عمرو بن عبد مناف ، ولم يتذكروا إلا اللقب الذى خلعوه عليه وهو هاشم بن عبد مناف ، وفى ذلك يقول الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستون عجاف

حسد قومه له

وكل ذى نعمة محسود كما تقول الحكمة المشهورة - فحين ذاع صيت هاشم بين العرب ، وبلغ تلك المنزلة التى وصل إليها بين الناس ، حسده أقرب الناس إليه وهو ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

وكان أمية - فيما يقول ابن سعد - صاحب مال وثراء ، ولكنه لم يضع المال حيث وضعه هاشم ، وحين تكلف أن يصنع صنيع هاشم لم يقدر ، فشمت به ناس من قريش .

فغضب أمية ونال من هاشم ، ودعاه إلى المنافرة .
ولكن هاشما لسنه وقدره كره ذلك ، وأبى الاستجابة له . ولم يرض

القرشيون عن سكوت هاشم فمازالوا به حتى أحفظوه وأثاروه ، وكان أمية لا يكف عن طلب المنافرة ، فقبل هاشم ، وقال لأمية أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر ببطن مكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين . ورضى أمية بذلك ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى[١٥] وحين تنافرا أمامه حكم الكاهن لهاشم على أمية . فنحرت الابل ، وطعم الناس ، وجلا أمية عن مكة الى الشام وأقام بها عشر سنين .

إكرام الحجيج

وكان هاشم يكرم حجاج بيت الله ، وكان يكفيهم مئونتهم من الطعام والشراب طيلة الموسم ، وكان يحض قومه على مشاركته ذلك لأنه شرف لهم .

ومن خطبه فى ذلك .

يامعشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما ، وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما .

يامعشر قريش ، أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته ، وخصكم بجواره ، دون غيركم ، وحفظ منكم أحسن ماحفظ جار من جاره .

فأكرموا ضيفه ، وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعثا غبرا من كل بلد ، فورب هذه البَنِيَّة لو كان لى مال يحمل ذلك لكفيتكم مؤونة ذلك . . . ألا وإنى مخرج من طيب مالى وحلاله مالم تقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام فواضعه ـ فمن شاء أن يفعل منكم مثل ذلك فعل .

---

(١٥) المنافرة هى ان يذكر كل واحد منهما مآثره وأفضاله

وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبا ، لم يؤخذ ظلما ولم تقطع فيه رحم ، ولم يُغتصب .

قال ابن سعد : فكانت قريش تعينه على ذلك ، حتى كان كل منهم يسهم بقدر مايستطيع . وكان هاشم يخرج فى كل عام مالا كثيرا . . وكان يطعمهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر ، ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى - والماء يومئذ - قليل - ويظلون كذلك حتى يتفرقوا إلى بلادهم .

هذا هو هاشم بن عبد مناف الذى تنتسب إليه الأسرة الهاشمية ، وقام ولده من بعده بما كان يقوم به وفى مقدمتهم عبدالمطلب بن هاشم .

عبدالمطلب بن هاشم

واسم عبدالمطلب شيبة ، وأمه من المدينة المنورة كان هاشم قد تزوجها فى أثناء رحلة من رحلاته ، فولدت شيبة وبقى عند أمه فى المدينة ، وكان هاشم قد مات فى غزة ودفن بها .

وكبر شيبة ، حتى قدم ثابت بن المنذر - وهو أبو حسان الشاعر - الى مكة معتمرا ذات عام ، فلقى المطلب بن عبد مناف - وكان له صديقا - فقال له : لو رأيت ابن أخيك شيبة عندنا لرأيت جمالا وهيبة وشرفا .

فقال المطلب : لاأمسى حتى أعود به . .

وسار المطلب ، من فوره حتى قدم المدينة - وكان اسمها يثرب - ولقى سلمى زوجة أخيه هاشم وأم شيبة ، فضنّت بابنها أن تتركه يرحل إلى مكة ، ولكن المطلب أصر على حمله معه . .

وعاد به يُرْدِفه خلفه على بعيره ، فلمّا دخل مكة نهاراً رآه الناس خلفه

فظنوه عبداً اشتراه فقالوا : هذا عبدالمطلب .

فقال لهم : بل هو ابن أخى هاشم ، هذا شيبة بن هاشم . ولكن اسم عبدالمطلب غلب عليه .

وتحمل عبدالمطلب ماكان أبوه قد تحمله قبله ـ وسار على نهجه فى إطعام الحجيج وسقيهم . وكان يلقى فى توفير المياه للحجيج متاعب جمة ، فطلب من الله أن يعينه على ذلك ، وييسر له أمر الماء ، فأراه فى المنام مكان زمزم وأمره أن يحفرها ، وكانت قد طمرت وضاعت معالمها ونسى الناس مكانها . فحفرها عبدالمطلب ، وأعادها الى ماكانت عليه .. وأعانه فى حفرها ابنه الحارث .

وبلغ عبدالمطلب بن هاشم من الفضل مابلغه أبوه وزاد عليه ، وارتفعت مكانته فى قريش والعرب ـ وأكرمه الله بأن كانت هزيمة الحبشة وإهلاك الفيل بالطير الأبابيل فى زمنه ، وقد سجل القرآن هلاك أصحاب الفيل فى سورة نزلت فى ذلك .

وكان هلاك الفيل إرهاصا بمولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ولد فى هذا العام .

وكان عبدالمطلب يستسقى لقومه فيسقيهم الله .

حدث ابن سعد فى طبقاته قال : قالت رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم : تتابعت على قريش سنون ذهبت بالأموال ـ فسمعت فى المنام قائلا يقول : يامعشر قريش إن هذا النبى المنتظر منكم ، وهذا إبان خروجه ، وبه يأتيكم الحيا والخصب ، فانظروا رجلا من أوسطكم نسبا طُوَالا عُظاما ، أبيض ، مقرون الحاجبين ، سهل الخدين ، رقيق العِرنين ، فليخرج هو وجميع

ولده ، وليخرج منكم من كل بطن رجل ، فتطهروا وتطيبوا ، ثم استلموا الركن ثم ارقوا رأس أبي قبيس - اسم جبل - ثم يتقدم هذا الرجل فيستسقى ويدعو وتدعون معه فإنكم ستسقون .

قالت : فأصبحت فقصصت الرؤيا . فوجدوا هذه الصفات تنطبق على عبدالمطلب ، فتقدم ، وتقدموا معه ، ومعهم النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو غلام .

وقال عبدالمطلب : اللهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك ، وإماؤك وبنات إمائك وقد نزل بنا ماترى . . فأذهب عنا الجدب ، وائتنا بالحيا والخصب .

فما برحوا حتى سالت الأودية - وبالنبي - صلى الله عليه وسلم - سقوا - فقالت رقيقة :

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا   وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر
فجاد بالماء جونى له سبل   دان فعاشت به الأنعام والشجر
مناً من الله بالميمون طائره   وخير من بشرت يوما به مضر
مبارك الأمر يستسقى الغمام به   مافى الأنام له عدل ولا خطر[16]

وأعقب عبدالمطلب أولاداً تحملوا الأمر من بعده ، فتحمله ابنه الزبير ، وأوصى الزبير إلى أبي طالب فتحمله بعده ، وأوصى أبو طالب إلى العباس فتحمله بعده ، وظلت الأسرة الهاشمية تقوم بالواجب نحو حجاج بيت الله خير قيام . . ونشأ النبي - صلى الله عليه وسلم - فى ظلال هذه الأسرة

---

(١٦) الطبقات الكبرى جـ ١ صـ ٥٤ ط التحرير
اجلوذ : ابتعد - جونى : سحاب . . . . . ويقصد : بخير من بشرت به مضر - النبى - ﷺ -

الرفيعة فازدادت به شرفا ورفعة ، وكملت به سموا وعظمة .. وجاء الإسلام فتوج هامتها بعز لايزول ولا يحول ، وامتدت به قامتها حتى طاولت الجوزاء ونافست السماء ... وأصبح البيت الهاشمى بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بيت النبوة ، وهل هناك شرف أسمى من ذلك أو كرامة أرفع من تلك الكرامة التى أضاء بها الزمان وأشرق بنورها كل مكان ؟

بيـت النبـوة :

بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مكة ، فلم يحسن القرشيون استقبال دعوته التى جاءت لترفع من شأنهم وتعز من قدرهم .. وناصبوه العداء ، ولكنه وجد من عَضُد عمه أبى طالب - كل معاونة ومساندة ، على الرغم من بقائه على دينه وإصراره على التمسك به ..

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد تزوج قبل بعثته بخمسة عشر عاما من زوجته العظيمة خديجة بنت خويلد التى كانت وزير صدق له تؤيده فى دعوته وتناصره فى تبليغ رسالة ربه .. وفى بيتها كان ينزل الوحى من السماء بالقرآن الكريم ، فيرتله النبى - صلى الله عليه وسلم - ويقرؤه على أصحابه القلائل الذين آمنوا به وأسلموا على يديه .

وفى هذا البيت المتواضع كان يعيش النبى - صلى الله عليه وسلم - مع زوجه وأولاده ولم يعش الذكور منهم ، بل عاشت الفتيات فقط : رقية وأم كلثوم ، وزينب ، وفاطمة .

ووجدن فى ظل أبيهن وأمهن كل رعاية وعطف ، ولمسن الإشراق الإلهى الذى يضىء جوانب البيت ، ونعمن بنور الوحى الذى ينزل من وقت لآخر فيملأ هذا البيت الربانى بهجة وإشراقا ..

إنه بيت لايغيب عنه جبريل ـ عليه السلام ـ فهو يتردد عليه دائما يصعد الى السماء ثم يعود بآيات من القرآن الكريم ، أو بتوجيه سماوى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو بتبليغ بُشْرى من الله إلى أهل هذا البيت المبارك .

عن أبي زرعة قال : سمعت أبا هريرة يقول : أتى جبريل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء فيه إدام ـ أو طعام أو شراب ـ فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب[١٧] .

ولم تخل الحياة فى هذا البيت النبوى من مشاق . فقد نال أهله من مضايقات المشركين الكثير ، ولكنهم كانوا يقابلون هذه المضايقات بصدر رحب ، لأن الإيمان يضيء القلوب ويهون الصعاب ويذلل المشاق . . ولم تكن الحياة فيه حياة بذخ ، ولكنها كانت حياة زهد وتواضع ـ وإيثار ، فقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يواسي المسلمين الذين أقبلوا على الإسلام طواعية واختيارا ـ وأغلبهم من المستضعفين الفقراء ـ وذلك مما كان لديه ، ومن مال خديجة الذى وضعته تحت تصرفه لينفقه فى سبيل الله وفى سبيل تبليغ هذه الدعوة المباركة .

لقد اعتبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه مسئولا عن رعاية هؤلاء وكفالتهم . .

وفى هذا البيت النبوى كان يعيش على بن أبي طالب الذى تكفل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ به وضمه إليه فنشأ فى كنف النبى ـ صلى الله عليه

---

(١٧) أسد الغابة جـ ٧ صـ ٨٤ والحديث فى مسلم ـ فضائل الصحابة ـ ٧ / ١٣٣

وسلم ، وكان أول من آمن به من الصبيان . وفيه أيضا كان يعيش زيد بن حارثة - الذى اشتراه حكيم بن حزام ثم وهبه لعمته خديجة بنت خويلد ، فوهبته للنبى - صلى الله عليه وسلم - فأعتقه وتبناه . وأصبح يعرف بزيد بن محمد ، وظل كذلك حتى نزل قوله تعالى :

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٥﴾ (١٨)

هذه الأسرة المباركة هى التى كان يتكون منها البيت النبوى فى مكة قبل الهجرة .

وفى المدينة المنورة تطور هذا البيت النبوى ، فقد تمت الهجرة بعد أن اختار الله خديجة لجواره بثلاث سنين - وتزوجت بناته - صلى الله عليه وسلم - ماعدا فاطمة التى تزوجت من ابن عمها على - كرم الله وجهه - بعد الهجرة .

وأصبح البيت النبوى يضم زوجات النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد بنى لكل منهن حجرة حول المسجد النبوى بالمدينة .

وأصبحت هذه الحجرات بمثابة بيت النبوة الكبير ، وهذه الحجرات هى التى نزل فيها قوله - تعالى :

---

(١٨) الأحزاب ٥

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾[19]

وكان الذين فعلوا ذلك قوم من بنى تميم جاءوا فى وقت الظهيرة والنبى - صلى الله عليه وسلم - نائم ، فجعلوا يصيحون قائلين : يامحمد اخرج الينا فاستيقظ النبى - صلى الله عليه وسلم - وخرج إليهم ..

وفى هذا البيت النبوى كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يستقبل أصحابه ، وكثيرا ماكانوا يزورونه فيجدون لديه الكرم والتواضع وحسن اللقاء ، وكثيرا ماكانوا يطيلون الجلوس لديه وهو يستحيى منهم ، فتولى القرآن الكريم توجيه المسلمين الى ماينبغى أن يكونوا عليه من مراعاة لمشاعر نبيهم - صلى الله عليه وسلم - فإنه فى حاجة إلى الراحة والسكون ، وعليه تبعات نحو ربه لابد أن يقوم بها وهم لايعرفون عنها شيئا ولا يُكلِّفونها .

لذلك نزل قوله - تعالى -

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾[20]

---

(١٩) الحجرات ٤

(٢٠) الأحزاب ٥٣

واستقبل بيت النبوة إلى جانب الزوجات المطهرات ضيوفاً جُدُداً هم الأحفاد الذين أنجبتهن بنات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبخاصة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ التى أنجبت الحسن والحسين وزينب فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كما ولدت ابنته زينب ـ رضى الله عنها ـ من زوجها أبى العاص بن الربيع غلاماً اسمه على ، توفى وقد ناهز الاحتلام ، وكان رديف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الفتح ، وولدت أيضاً بنتاً اسمها أمامة .

وولدت رُقَيَّة ـ رضى الله عنها ـ من زوجها عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ولداً اسمه عبدالله توفى وهو ابن ست سنين . .

وكان عثمان قد تزوج رقية فى المدينة بعد الهجرة ، وكانت رقية مخطوبة فى مكة قبل الهجرة لعتبة بن أبى لهب ، كما كانت أختها أم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ مخطوبة لعتيبة بن أبى لهب ، فلما نزلت سورة « تبت يدا أبى لهب وتب » قالت أم جميل وهى زوجة أبى لهب وأم هذين الولدين : فارقا ابنتى محمد . ففارقاهما قبل الدخول بهما . وكان هذا كرامة من الله لابنتى نبيه صلى الله عليه وسلم ـ وهوانا لابنى أبى لهب .

وهاجرت الفتاتان ، فتزوج عثمان من رقية أولا . . ثم ماتت يوم جاء البشير بنصر المسلمين فى غزوة بدر ، وكان عثمان قد بقى فى المدينة بأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليمرض زوجته رقية ـ ابنة رسول الله .

ثم تزوج عثمان أيضاً من أم كلثوم بعد وفاة أختها ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ثلاث ، وبنى بها فى جمادى الأولى ، ولكنها لم تنجب . .

وكان جبريل ـ عليه السلام ـ قد نزل من السماء بأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتزويج عثمان من أم كلثوم .

روى ابن الأثير قال : رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عثمان بعد وفاة رقية مهموماً فقال له : مالى أراك مهموماً ؟

فقال : يارسول الله ، وهل دخل على أحد مادخل علىّ ؟ ماتت ابنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى كانت عندى ، وانقطع ظهرى ، وانقطع الصهر بينى وبينك .

فبينما يتحادثان إذ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ياعثمان ، هذا جبريل ـ عليه السلام ـ يأمرنى أن أزوجك أختها أم كلثوم على مثل صداقها وعلى مثل عشرتها ، فزوجه إياها »[21]

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيته المثل الأعلى للزوج الصالح والأب الصالح ـ وهو الذى يقول : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »

وسئلت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيته فقالت : كان فى حاجة أهله . .

أما بالنسبة لأولاده فكان رحيماً عطوفاً براً ، بل فى منتهى الرحمة والعطف والبر ، وقد اتسعت رحمته فشملت إلى جانب ـ أولاده وأهله ـ الناس جميعاً ، حتى صار لهم جميعاً أباً رحيماً يجدون فى كنفه الرعاية والحب ، ويلمسون فى

---

(٢١) أسد الغابة حـ ٧ صـ ٣٨٤

جانبه الأمن والحنان . وأصبح مسئولاً عنهم وأولى بهم من أنفسهم ـ مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾[٢٢]

وبلغ من ولايته لهم أنه كان يقضي ديونهم ويزوج راشديهم ويأخذ بأيديهم الى طرق الهدى والرشاد ، ويسلك بهم طريق الحق والصواب .

وقد قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى وعليه دين فعليَّ قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته »[٢٣] وقال : « أيكم ترك ديناً فأنا مولاه »[٢٤]

فانظر إلى هذه الرحمة السابغة التى شملت المسلمين ، يتحمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم الغرم ، وليس له فى الغنم .

وأى رحمة أوسع من أن يأخذ بأيديهم ليحول بينهم وبين النار ؟ أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن

---

(٢٢) الأحزاب ٦

(٢٣) أخرجه الصحيحان

(٢٤) تفسير القرطبى حـ ١٤ صـ ١٢١ ـ سورة الأحزاب

فيه ، وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تَقَحَّمون فيه »

وهذا مثل لاجتهاده - صلى الله عليه وسلم - فى نجاة أمته ، وحرصه على تخليصهم من الهلكات التى بين أيديهم ، فهو أولى بهم من أنفسهم .

وقول الحق - سبحانه وتعالى - « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » أى أنه - صلى الله عليه وسلم - إذا أمرهم بشىء ، ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أولى . .

وهذه هى الأبوة الحقيقية والرعاية المثلى ، ولتأكيد هذه الحقيقة جعل الله أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - فى منزلة أمهات المؤمنين - بقوله - تعالى -

« وأزواجه أمهاتهم »

فلهن من التعظيم والتكريم ماللأم وأكثر - ولهن من الإجلال وحرمة النكاح ماللأمهات الحقيقيات . .

إن هذا كله يعنى أن بيت النبوة حقاً هو البيت الكبير الذى يسع المؤمنين جميعاً عطفاً وحباً ورحمة ، ورب هذا البيت هو النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى هو بمثابة الأب للمسلمين جميعاً ، وأزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - هن أمهات المؤمنين جميعاً « فلا يجب أن يكون بين الأبناء إلا التراحم والتعاطف الذى يكون بين الإخوة الأشقاء - وهذه هى العلاقة الجديدة التى فرضها الإسلام ، وكونت المجتمع الإسلامى الرشيد الناهض ، الذى يتكافل فيه المسلمون ويؤثر فيه بعضهم بعضاً على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة . .

ولقد كان هذا البيت يقوم بكفالة الغريب والمحتاج فيستقبل الضيوف ويقدم لهم القرى ويؤدى لهم حق الضيافة كما يجب أن يكون .

كانت الوفود تأتيه من كل ناحية فيجدون فى ظل هذا البيت الترجيب والإكرام ، فقد أصبح البيت النبوى فى المدينة مقصد الناس من جميع الجهات ، وفى المسجد النبوى كانت الوفود تجد الإكرام من بيت النبوة .

« فكان يكرم الوفود التى تأتيه فينزلها منازلها ويقريها ويعطيها ، فما ينصرف أفرادها إلا وقد رضوا وأثنوا عليه بما هو أهله .

حدث ضرار بن القعقاع قال : وفد أبى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا معه ومعنا رجال كثير ، فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكل رجل منا ببردين .(٢٥)

لم يكتف ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتقديم الطعام ، بل قدم لهم الكساء أيضاً .

وحدث الطيب بن عبدالله الدارى قال : قدمنا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن ستة نفر فأسلمنا وسألناه أن يعطينا أرضاً فأعطانا وكتب لنا(٢٦)

فقد قدم القرى ووهب الأرض والسكن . .

وحدث علقمة بن سفيان قال : كنت فى الوفد الذين وفدوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ثقيف فضرب لنا قبتين عند دار المغيرة ،

---

(٢٥) أسد الغابة ٢ / ٥٤

(٢٦) أسد الغابة ٣ / ١٨

فكان بلال يأتينا بفطرنا فى رمضان »[٢٧]

ويديهى أن بلالا كان يأتى بالطعام من بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وحدث سعيد بن ربيعة الثقفى قال : كان بلال يأتينا حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مابقى من رمضان بفطورنا وسحورنا من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٢٨]

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفرح بالوفود ويستبشر لما فى ذلك من علامة انتشار الإسلام وقبول دعوته .

قال عبدالله بن أنيس العامرى : قدمت على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبشره بإسلام قومى فقال : أنت الوافد المبارك ، فلما أصبح صبحته عامر فأسلموا ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يأبى الله عز وجل لبنى عامر الا خيراً . قالها ثلاث مرات »[٢٩]

وفى ترجمة عوف بن القعقاع قال ابن الأثير على لسان عوف : وفد أبى إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا معه غُلَيِّم ، فأمر لكل رجل ببردين ، وأمر لى ببردة ، فلما انصرفنا باع كل رجل أحد برديه ، فأتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بردين ، فنظر إلىَّ وقال : من أين لك هذا ؟ قلت : اشتريتها من فلان . قال : أنت كنت أحق به إذ ضيع ماأعطاه رسول الله .[٣٠]

---

(٢٧) أسد الغابة ٤ / ٨٤
(٢٨) أسد الغابة ٢ / ٣٨٦
(٢٩) أسد الغابة ٣ / ١٨١
(٣٠) أسد الغابة ٤ / ٣١١

وحقاً ذلك فإن ماأعطاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايعوض بثمن لما فيه من الخير والبركة ، وقد عرف أصحابه ذلك ، فكانوا يحرصون على آثاره حرصاً شديداً ويتنافسون فى اقتنائها تبركا بها وتفاؤلا باصطحابها »[٣١]

فهذه أمثلة تشير إلى أن البيت النبوى فى المدينة قد اتسع ليجد فى ظله المسلمون جميعاً الأمن والبر والصلة ، والعطف ، وأصبح يمثل قصر الرياسة أو الحكم فى عصرنا الحاضر ، مع فارق مابين النبوة والملك ، والأبهة والبساطة .

ذلك أن جبريل عليه السلام كان يظلل هذا البيت بالوحى الإلهى . يهبط بين الحين والحين بالقرآن الكريم الذى يرسم للناس مناهجهم ، ويجيب على أسئلتهم ، ويوضح لهم أحكامهم . ويصحح لهم أخطاءهم ، والنبوة مع ذلك تبسط أجنحة الرحمة والهداية فوقهم وحولهم . وتبارك خطواتهم ، وينظر الناس إلى نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتمتلىء قلوبهم ثقة وإيمانا . وتتبدد غياهب الشك والقلق من نفوسهم ، فيمضون معه يخترقون الصعاب ، ويخوضون المعارك مع قلة عددهم ، فينتصرون على عدوهم وهم فى أضعاف عددهم وعدتهم .. قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ

---

(٣١) راجع : النبى ـ ﷺ ـ فى مرآة أصحابة لعبد الحفيظ فرغل صـ ١٠٠

كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ (٣٢)

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صلته بربه وقربه منه ، ووقوف الملائكة معه ، ومحاربتها تحت لوائه ، واستمداده سلطته العليا من السماء التى لاترد له دعاء ، ولاترفض له نداء .

وعلى هيبته التى زانه الله بها ، فينصره على عدوه بالرعب من مسيرة شهر ، ويزلزل الأرض تحت قدم من يكيد له ، ولايراه أحد الا امتلأ قلبه بالهيبة منه اجلالا له ، وتعظيماً لحقه ـ

كان مع ذلك كله مثلاً أعلى فى التواضع والسماحة ولين الجانب ، يجلس مع أصحابه على الأرض ، ويركب الحمار ، ويسير على قدميه ، ويمشى خلف أصحابه ، ويقول لهم : لاتطرونى كما أطرت النصارى نبيهم ، ويقول لمن رجف قلبه منه : هون عليك فأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . . . . . » ويقول لمن أكثر القيام له : لاتقوموا لى كما تقوم الأعاجم ، وينهى عن الشدة والبطش والعنف ، ويمسح على رأس اليتيم ، ويداعب الأطفال والصبيان ويقبلهم ويحنو عليهم ، ويقول لمن أنكر عليه ذلك : من لايَرْحَم لايُرْحَم لقد اتسعت رحمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكل الناس وشملهم بره وعطفه ، حتى كان يواسيهم فى آلامهم ، ويعودهم فى مرضهم ، ويشيع جنائزهم ، ويبكى على موتاهم ، إن عيادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمرضى المسلمين رحمة وشفاء ، وفيها تعليم ودلالة على الخير ، وحسن ختام لمن أراد الله له السعادة .

---

(٣٢) الأنفال ٦٥

روى مسلم والنسائى والترمذى عن ثابت بن أنس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ ـ وفى رواية الترمذى ـ قد جهد فصار مثل الفرخ ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل كنت تدعو الله بشىء ؟

قال : نعم . كنت أقول : اللهم ماكنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سبحان الله ، إنك لاتطيقه ولا تستطيعه ، أفلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ؟[٣٣]

ويؤيد أن عيادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة للمريض ـ ماذكره أنس بن مالك من أن غلاماً يهوديا كان يخدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرض . . . فأتاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعوده ، فقعد عند رأسه ، فقال له : أسلم . فنظر الى أبيه وهو عنده ، فقال له : أطع أبا القاسم ، فأسلم ـ فخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عنده يقول : « الحمد لله الذى أنقذه من النار »[٣٤]

وروى ابن الأثير فى ترجمة خزرج بن أبى الحارث أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نظر إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ـ كان مريضاً .

---

(٣٣) حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ صـ ٣٦٦

(٣٤) أسد الغابة حـ ٦ صـ ٤٠٦

فقال ياملك الموت ارفق بصاحبى فإنه مؤمن ، فقال ملك الموت : يامحمد طب نفساً وقر عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق .[٣٥]

وحدث الأدرع السلمى قال : بت ليلة أحرس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاذا رجل ميت فقيل : هذا عبدالله ذو البجادين ، توفى بالمدينة وفرغوا من جهازه وحملوه ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ارفقوا به رفق الله بكم فإنه كان يحب الله ورسوله »[٣٦]

وإن رحمته لتمتد حتى تشمل أمته فى الآخرة فيشفع لهم . . . . وهذه هى الشفاعة العظمى التى أعطاها الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ روى عامر بن عمير قال ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ « أعطانى ربى سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب مع كل واحد من السبعين سبعين ألفاً »[٣٧]

وحدث عبدالله بن بسر قال : بينا نحن بفناء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جلوس إذ خرج علينا مشرق الوجه يتهلل ، فقلنا : إنه ليسرنا مانرى من إشراق وجهك .

قال : « إن جبريل أتانى آنفاً فبشرنى أن الله ـ عز وجل ـ أعطانى الشفاعة »[٣٨]

وإن فضله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليتسع ورحمته لتقترب حتى يدخل

---

(٣٥) أسد الغابة ٢ / ١٣٢
(٣٦) أسد الغابة ١ / ٧٠
(٣٧) أسد الغابة ٣ / ١٣٥
(٣٨) أسد اللغابة ٣ / ١٨٧

الجنة كل من رآه من المسلمين أو رأى من رآه . . . روى عقبة أبو عبدالرحمن الجهنى قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « لايدخل النار مسلم رآنى ولا رأى من رآنى ولارأى من رأى من رآنى »[39]

فما أعظم هذه الرحمة التى اتصف بها هذا النبى العظيم الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

وكان فى تواضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه مثل كريم يدل على احترامه لهم وحرصه على معرفة أقدارهم ، وتعليما لمن جاء بعدهم أن يعرفوا لهم حقهم .... فقد ورد عنه أنه قال : « إذا ذكر أصحابى فأمسكوا ، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القرآن فقولوا ـ كلام الله ـ ومن قال غير هذا فهو كافر »[40]

أما حب أصحابه له فقد كان عقيدة ترتوى بها قلوبهم وتتجاوب بها عواطفهم وتسرى فى عروقهم سريان الدم . وقد أمر الله ـ تعالى ـ بهذا الحب لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[41]

---

(٣٩) أسد الغابة ٤ / ٥٦ ـ الاصابة لابن حجر ٥ / ٢٧٨

(٤٠) أسد الغابة جـ٣ صـ٣٠٢ ترجمة عبد الله بن عبدالغافر

(٤١) التوبة ٢٤

فأين حب الرعايا لملوكهم من هذا الحب الذى يجلله الاحترام والتسابق إلى الفداء والتضحية إذا دعا داعى الجهاد ؟

إنه تسابق إلى جنة عرضها السموات والأرض .. وإلى سعادة أبدية لاتفنى ، وغاية سامية تهون بجانبها كل غاية تطمح إلى نيل مال أو وسام أو جاه أو قرب من مخلوق يستمد سلطته من منصب زائل أو عرش حائل . . .

هذا هو بيت النبوة بمعناه الواسع ، ومدلوله الأعم الشامل ـ ولكن مع ذلك فكل بيت له أخصَّاء ، لهم مزيد فضل ومزية ، لما وضعه الله فيهم من خصائص ومامنحهم من مزايا . وكما أن الله هو أعلم حيث يجعل رسالته فقد كان من بين هذا البيت الكبير أفراد جعلهم الله محل رعايته وقال فى حقهم : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » فمن هم أولئك ؟

أهل البيت

المفهوم اللغوى والاصطلاحى :

جاء فى لسان العرب : أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه ، والجمع أهلون . .

وجاء فى الحديث : « أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » أى حفظة القرآن هم أولياء الله المختصون به اختصاص أهل الانسان به . . .

وحين استخلف أبوبكر عمر ـ رضى الله عنهما ـ قالوا له : ماذا تقول لربك إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمر بن الخطاب ؟ قال : أقول له : استعملت عليهم خير أهلك . يريد بذلك خير المهاجرين . فقد كانوا

يسمون أهل مكة - أهل الله تعظيما لهم ، كما يقولون بيت الله .

وأهل المذهب هم الذين يدينون به ، وأهل الإسلام هم الذين يدينون ، وأهل الرجل هم أخص الناس به ، وأهل البيت سكانه .

وأهل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - أزواجه وبناته وصهره . . وآل مثل أهل ، بل أصلها أهل أبدلت الهاء همزة فلما توالت الهمزتان أبدلوا الثانية ألفا بدليل رجوعها الى أصلها فى التصغير فتقول فى تصغير آل : أهيل . .

وقد جرت عادة العرب أن يخصوا بكلمة « آل » الأشرف الأخص دون الشائع الأعم ، فلا يقال إلا فى مثل : القراء آل الله ، وفى مثل حديث الصلاة « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد »

وجاء فى القرآن الكريم . .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[٤٢] اى من أخصائه .

وقد اختلف الناس فى آل النبى - ﷺ - فقال بعضهم : آل النبى - صلى الله عليه وسلم - من اتبعه ، قرابة كانت أو غير قرابة - وعلى هذا يدخل فى

---

(٤٢) غافر ٢٨ .

الصلاة كل من اتبع النبى - صلى الله عليه وسلم - قرابة كان أو غير قرابة .

وقال بعضهم : آله أهله وأزواجه .

وقال بعضهم : آله أهل دينه

وقال بعضهم : آله الذين حرمت عليهم الصدقة وعوضوا عنها الخمس - وهم أصلاب بنى هاشم وبنى المطلب . . . . جاء فى الحديث : « لاتحل الصدقة لمحمد وآل محمد »

وقال بعضهم : أهل البيت هم نساؤه الطاهرات .

ويؤيد هذا المعنى الأخير مناسبته للسياق فى الآية التى نزلت فيهن - قال تعالى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[٤٣]

كما يؤيده أيضاً ماجاء فى تفسير سورة الأحزاب[٤٤] من أن عكرمة روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن هذه الآية نزلت فى نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - خاصة

وعن عروة - رضى الله عنه أنه قال : أهل البيت فى هذه الآية يعنى أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(٤٣) الأحزاب ٣٣ ، ٣٤

(٤٤) تفسير سورة الأحزاب للشيخ عبد الفتاح خليفة صـ ٨٤

وعن علقمة : كان عكرمة ينادى فى السوق : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » نزلت فى نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - خاصة - ولكن صح فى روايات كثيرة أن أهل البيت هم المتصلون بنسبه من الأصول والفروع .

فعن زيد بن أرقم - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أذكركم الله فى أهل بيتى » فقيل لزيد - رضى الله عنه - : ومن أهل بيته ؟

أليس نساؤه هم أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس .

إن الاستدراك فى قول زيد - رضى الله عنه - لاينفى أن نساءه من أهل بيته ولكنه يوسع هذا المفهوم .

وذكر المفسرون أيضاً ماروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله قسم الخلق قسمين فجعلنى فى خيرهما قسماً فذلك قوله وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين . ثم جعل القسمين ثلاثاً فجعلنى فى خيرهما ثلثا - فذلك قوله : وأصحاب الميمنة ماأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة . والسابقون السابقون . فأنا من السابقين وأنا خير السابقين . ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة - وذلك قوله :

« وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ـ تعالى ـ ولا فخر . ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلنى فى خيرها بيتاً فذلك قوله

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » فأنا وأهل بيتى مطهرون من الذنوب »

فهذا الحديث يبين أن أهل البيت لها مفهوم واسع

ولكن هناك قول آخر يخصص هذا المعنى ـ فقد روى أبوسعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لما دخل عَلِىٌّ ـ رضى الله عنه ـ بفاطمة ـ رضى الله عنها ـ جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربعين صباحاً إلى بابها يقول : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته : الصلاة رحمكم الله ـ « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً »

وروى حكيم بن سعيد قال : ذكرنا على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ عند أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ فقالت : فيه نزل « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

وقالت أم سلمة أيضاً : جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيتى فقال : « لاتأذنى لأحد » ـ فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه ، وجاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا حول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على بساط ، فجللهم نبى الله بكساء كان عليه ، ثم قال : هؤلاء أهل بيتى ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط .

قالت أم سلمة : فقلت : يارسول الله ، وأنا ؟

قال : إنك إلى خير .

وروت أيضاً قالت : لما نزلت هذه الآية « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليا وفاطمة وحسنا وحسيناً فجلل عليهم كساءً فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ـ فقالت أم سلمة : ألست منهم ؟ قال : أنت إلى خير ..

فهذه الروايات التى روتها أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ خصصت مفهوم أهل البيت وصرفته إلى على وفاطمة ونسلهما ..

ولكن صح فى روايات أخرى أيضاً ، أن أهل بيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشمل زوجاته الطاهرات ويشمل المتصلين بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من النسب ، فقد روى فى قصة الكساء أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضم الى أهل الكساء ـ وهم على وفاطمة والحسن والحسين ـ رضى الله عنهم ـ بقية أقاربه وأزواجه .

ويؤيد ذلك ماسبق أن ماذكرناه من رواية ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهذا هو المراد من الآية ..

كما يؤيده أيضاً ماذكرناه من رواية زيد بن أرقم حين سئل عن أهل البيت فقال : أهل بيته من حرم الصدقة بعده ـ آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس .

إن قصر أهل البيت على على وفاطمة ونسلهما ـ رضى الله عنهم ـ هو مفهوم من يحجر واسعاً ...

قال ابن سعد فى طبقاته : إن أهل البيت تطلق على أسرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمييزاً لهم عن المهاجرين والأنصار ـ وذلك حين قال : سلمان منا أهل البيت(٤٥)

وللقرطبى ـ رحمه الله ـ رأى فى تفسيره يوضحه بقوله : والذى يظهر لى من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم . وانما قال « ويطهركم » لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليا وحسنا وحسينا كانوا فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر . فاقتضت الآية ان الزوجات من أهل البيت ، لأن الآية فيهن والمخاطبة لهن .

وقال القرطبى ـ قال الثعلبى : هم بنو هاشم . . فهذا يدل على أن البيت بيت النسب فيكون العباس منهم .

أما مايحتج به البعض ـ من أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فغطاهم بكساء وقال : هؤلاء أهل بيتى وقرأ الآية ـ على أن أهل البيت هم ـ على وفاطمة وأبناؤهما ـ فقد يرد على ذلك بأن هذا دعاء من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد نزول الآية فهو بذلك يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج .

ولقد اتسع بعض العلماء فى مفهوم أهل البيت أكثر من ذلك فقالوا : إن أهل بيته يشمل كل من عمل بشريعة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستندوا فى ذلك الى ماقاله سفيان الثورى ـ رضى الله عنه ـ وقد سئل : من آل محمد ؟ فقال : أمته(٤٦)

---

(٤٥) الطبقات الكبرى حـ ٤ صـ ٥٩

(٤٦) سفيان الثورى حـ ٩ د عبد الحليم محمود . أعلام العرب

وقد يشفع لهذا المفهوم ماذكرناه فى حديثنا عن البيت النبوى ، وأن النبى - صلى الله عليه وسلم هو عميد الأسرة الإسلامية جمعاء ، وقد جعله الله ولى المؤمنين جميعاً وقال فى حقه « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم »

ولاشك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - يفخر بكل تقى وينسب إليه كل مخلص ، ثم أليس هو القائل « سلمان منا أهل البيت ؟

ومن دعاء الصالحين : اللهم ألحقنا بنسبه وحققنا بحسبه وارونا من شربه واجعلنا من حزبه ولايمنع هذا التأويل من فضل علىّ وزوجه وأبنائهما

فقد ورد فى ذلك أحاديث متعددة ، رواها القرطبى وابن كثير وغيرهما من المفسرين وعلماء الحديث فى كتبهم - وسيرد بعض ذلك فيما سيأتى إن شاء الله تعالى .

ومما رواه الإمام أحمد من حديث واثلة بن الأسقع ماحدث به شداد بن عمار ، قال : دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم فذكروا عليا - رضى الله عنه - فلما قاموا قال لى : ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قلت : بلى . قال : أتيت فاطمة أسألها عن علىّ ، فقالت : توجه الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعه على وحسن وحسين وهو آخذ كل واحد منهما بيده ، حتى دخل ، فأدنى عليا وفاطمة فأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على رجله ، ثم لف ثوبه - أو قال كساءه - ثم تلا هذه الآية « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت . . . »

ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتى وأهل بيتى أحق .

ورواه الطبرى بزيادة ـ قال واثلة : فقلت وأنا يارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مِنْ أهلك ؟ قال : وأنت من أهلى . قال واثلة : إنها من أرجى ماأرتجى .

إن هذه الرواية تؤيد أن أهل البيت مفهوم يسع كل صالح وتقى من أمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قيل لجعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ : الناس يقولون : المسلمون كلهم آل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : كذبوا وصدقوا .

فقيل له : مامعنى ذلك ؟

فقال : كذبوا فى أن الأمة كافتهم آله ، وصدقوا إذا قاموا بشرائط شريعته فهم آله .

وتفسير ذلك كما أوضحه بعض العلماء ـ أن أهل الدين ضربان ، ضرب متخصص بالعلم المتقن والعمل المحكم ، فهؤلاء يقال لهم : آل النبى وأمته .

وضرب يختصون بالعلم على سبيل التقليد ، فهؤلاء يقال لهم أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يقال لهم آله ، فكل آل للنبى أمة له ، وليس كل أمة له آله . .

وهذا يعود بنا إلى ماسبق أن ذكرناه فى صدر هذا الكلام من أن كلمة الآل تطلق على الأشرف الأخص دون الشائع الأعم .

فضل متوارث

ولنمض مع الذين يتوسطون فى مفهوم أهل البيت . فيطلقونه على من آمن من أسرته الهاشمية وعلى أزواجه الطاهرات ولا يقصرونه على الأزواج فقط ، أو على على وفاطمة وأبنائهما وحدهم . .

وهذا هو المتبادر الذى يشير اليه أهل السنة الذين يقولون إن أهل البيت مفهوم يتسع ليشمل فروع بنى هاشم كما يشمل أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لنمض مع هؤلاء ، ولنتحدث عن فضائل أهل البيت بهذا المفهوم . . وقد أشرنا فيما سبق الى أصل هذه الشجرة المباركة التى ضربت فى المجد بأعظم سهم ، وحققت أعلى شرف ، واستحقت من العرب جميعاً كل تجلة واحترام .

بل إن هذا الاحترام تخطى الجزيرة العربية إلى ماوراءها من أقطار أخرى . .

وفى حادث الفيل حين جاء أبرهة ليهدم الكعبة ، لم يملك نفسه حين رأى عبدالمطلب من أن يعجب به ويكرمه ويهابه وينزل من على سريره ليجلس معه على البساط ، لأنه لم يستطع أن يعلو فوقه ، أو يفضل نفسه عليه فيجلس هو فوق السرير ويترك عبدالمطلب واقفاً أو يجلسه دونه على البساط . .

إنها هيبة أودعها الله لهؤلاء فى قلوب الناس جميعاً .

وإن شرف هذه الأسرة الطاهرة يتصل آخره بأوله ، لأن الله أراد أن

يخص هذه الأسرة الهاشمية بفضل دائم لاينقطع ، فجعل أولها إسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ الذى ورد فى حقه قوله ـ تعالى ـ

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٤٧)

وجعل فى آخرها محمداً صلى الله عليه وسلم ـ الذى لاينقطع له نسب ولا سبب إلى يوم القيامة ـ مصداقاً لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى » (٤٨)

وكما نزل فى شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ الآية المتقدمة ، فقد نزل فى شأن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله ـ تعالى ـ

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً »

وهذه الآية صريحة فى فضل أهل البيت وأن الله طهرهم من الإثم والنقص وكل مايعيب . .

وقد خصهم الله بفضائل منها ـ تحريم الزكاة عليهم .

قال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم ، تحرم الزكاة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى آله وهم ، بنو هاشم وبنو المطلب . قال : وهذا هو

---

(٤٧) الآية ٧٣ سورة هود

(٤٨) والحديث رواه عمر بن الخطاب عن النبى ـ ﷺ ـ وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ قال لعلى ابن أبى طالب : زوجنى يا أبا الحسن ـ يقصد من ابنته أم كلثوم بنت فاطمة ـ فإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى » فزوجه أم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ

مذهب الإمام الشافعى وموافقيه . وبه قال بعض المالكية .... وقد استدلوا بقوله - صلى الله عليه وسلم - « إنّ بنى هاشم وبنى المطلب شىء واحد »

وقال الإمامان أبو حنيفة ومالك : هم بنو هاشم خاصة

وتعليل تحريم الصدقة على هؤلاء أن الصدقة كما يقول النبى - صلى الله عليه وسلم - هى أوساخ الناس ، فلا تحل لمحمد ولا لآل محمد .

وروى أنس بن مالك أن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أخذ يوماً ثمرة من ثمر الصدقة فجعلها فى فيه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له . ارم بها ، أما علمت أنا لانأكل الصدقة ؟

وقد عوض الله أهل البيت عن ذلك خمس الخمس ، قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لبنى هاشم وبنى المطلب « إن لكم فى خمس الخمس مايكفيكم »

وسأل الفضل بن العباس النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يستعمله على الصدقات فقال له : « معاذ الله أن أستعملك على غسالة ذنوب الناس »

ذلك أن الصدقة تطهير للعباد من ذنوبهم قال - تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[٤٩]

وقد خصهم الله أيضاً بشرف النسب وطهارة الحسب ، وقد أشرنا الى

---

(٤٩) التوبة ١٠٣

ذلك ، وذكرنا الحديث الذى رواه ابن عباس - رضى الله عنهما - ويزكيه ماورواه أحمد من حديث عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « قال لى جبريل : قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد أحدا أفضل من محمد ، وقلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم »

ولقد دعا القرآن الكريم إلى إكرام النبى - صلى الله عليه وسلم - فى أهل بيته ، فقال - تعالى -

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ٢٣﴾ (٥٠)

وقد جاء فى تفسير هذه الآية أقوال عدة .

منها ماقاله ابن عباس - رضى الله عنهما - : هى آية مكية نزلت فى صدر الإسلام ومعناها استكفاف شر الكفار ودفع أذاهم ، أى إنى ماأسألكم على القرآن والدين والدعاء إلى الله أجرا إلا أن تودونى لقرابة هى بينى وبينكم ، فتكفوا عنى أذاكم .

فلم يكن فى قريش بطن إلا ولرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم نسب أو صهر .

ولابن عباس تفسير آخر أيضاً فيها يشير إلى أن الآية مدنية - وسببها أن

---

(٥٠) الشورى ٢٣

قوماً من شباب الأنصار فاخروا المهاجرين وطالوا بالقول على قريش ، فنزلت الآية فى ذلك . . . على معنى : إلا أن تودونى فتراعونى فى قرابتى وتحفظونى فيهم .

ويؤيد هذا المعنى ، ماذكر عن السُّدى عن أبى الدَّيْلَم قال : لما جىء بعلى ابن الحسين أسيراً ، وأقيم على دَرجِ دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة .

فقال على : أقرأت القرآن ؟

قال الرجل : نعم

قال علىّ : أقرأت : « قل لاأسألكم عليه أجراً الا المودة فى القربى » ؟

قال : فإنكم لإياهم ؟

قال : نعم[51]

وعلى هذا التأويل جاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : قيل يارسول الله من قرابتك الذين أُمِرْنا بمودتهم ؟ فقال : «هم على وفاطمة وأبناؤهما »[52] . .

وقال المقريزى : إن الخطاب فى الآية عام لجميع من آمن ، وذلك أن العرب بأسرهم قوم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيتعين على من سواهم من العجم أن يوادوهم ويحبوهم

---

(٥١) فضل أهل البيت للمقريزى صـ ٧١ عن تفسير الطبرى

(٥٢) المرجع السابق نقلا عن مجمع الزوائد ـ رواه الطبرانى ، وفيه جماعة من الضعفاء وقد وثقوا ٩ / ١٦٨

وقد ورد فى الأمر بحب العرب أحاديث ، كما وردت أحاديث فى تفضيل قريش وتقديمها على غيرها . . . وبنو هاشم رهط النبى وأسرته فيتعين على من عداهم من قريش محبتهم ومودتهم ، وعلى وفاطمة وأبناؤهما أقرب العرب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتتأكد مودتهم .

وإلى هذه الآية أشار الكميت بن زيد فى قوله :

وجدنا لكم فى آل حاميم آية تأولها منا تِقىٌّ ومُعْرِب
وفى غيرها آيا وآيا تتابعت لكم نصبٌ فيها لدى الشك مُنْصبُ[٥٣]

ولقد كان أبوبكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يفهم أن المقصود من هذه الآية مودة أهل بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذلك كان يقول : « ارقبوا محمداً فى أهل بيته »[٥٤]

وكان يقول لعلى ـ كرم الله وجهه ـ : « والله لقرابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحب إلىَّ من أن أصل قرابتى .

وكذلك كان يفعل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وهو الذى بادر بالتزوج من أم كلثوم بنت على وفاطمة ، لحرصه على الانتفاع بحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى »

وقد دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صراحة إلى حب أهل بيته فقال :

---

(٥٣) هاشميات الكميت صـ١٨ ، والنصب بالفتح : العَلَم ، والمنصب : المتعب ـ والتقى : الذى يقول بالتقية : والمعرب : المفصح عما فى نفسه

(٥٤) البخارى فضائل الصحابة ـ مناقب قرابة رسول الله ـ ٥ / ٢٦

« أحبوا الله لما يغذوكم من نعمة ، وأحبونى بحب الله وأحبوا أهل بيتى بحبى »[55]

وقد أمِرنا بالصلاة على آل بيت رسول الله مع الصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال العدوى فى كتابه « مشارق الأنوار » : وكفى بأهل البيت شرفاً أن الصلاة المفروضة لاتقبل على وجه الكمال إلا بانضمام الصلاة عليهم معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففى الحديث عن ابن مسعود الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ كما أخرجه الدار قطنى والبيهقى عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من صلى صلاة لم يصل فيها علىّ وعلى أهل بيتى لم تقبل »

وقد أخذ الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ بظاهر هذا الحديث ، وحكم بوجوبها على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما على آله فقال : إنها سنة .

وجاء فى كتاب الأم فى صيغة الصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم »[56] وهذه هى الصلاة المأثورة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقد قال الشافعى شعراً فى ذلك :

يا أهــل بيت رسول الله حبــكم فــرض من الله فى القرآن أنزله
كفاكمــو من عظيـم القــدر أنكـــم مــن لـم يصـلِ عليكـم لاصـلاة لــه

---

(٥٥) تحفة الأحوذى حديث رقم ٣٨٧٨ حـ ١٠ صـ ٢٩٢
(٥٦) الأم حـ ١ صـ ١٠٢

وبما رواه الطبرانى فى دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى وجوب محبة أهل بيته .

قال : الزموا مودتنا أهل البيت فإن من لقى الله عز وجل وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا ، والذى نفسى بيده لا يكمل عمل عبد إلا بمعرفة حقنا »(٥٧)

ومما خص به أهل البيت من فضل أن نسبهم لاينقطع يوم القيامة ، على عكس أنساب الناس الذين ورد فيهم قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ ﴾(٥٨)

وقد جاء ذلك فى الحديث الذى رواه عمر بن الخطاب ، وذكرناه قبل ذلك ـ وهو الذى جعل عمر يحرص على مصاهرة على وفاطمة ـ رضى الله عنهما ـ وقد فرح عمر بهذه المصاهرة حتى أقبل على أصحابه يقول لهم : رفِّئونى رفئونى . . .

فقالوا له على من ؟ فقال على أم كلثوم بنت على . .

وكان عمر قد تقدم لعلى يقول له : زوجنى ياأبا الحسن فإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى »

وفى رواية : أن عليا قال له : إنها صغيرة ، فقال عمر : زوجنيها ياأبا الحسن

---

(٥٧) مشارق الأنوار للعدوى نقلا عن الطبرانى فى الأوسط عن الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ

(٥٨) المؤمنون ١٠١

فقال علىّ : أنا أبعثها إليك فإن رضيت فقد زوجتكها .

فبعثها ببرد وقال لها : قولى له : هذا البرد الذى قلت لك ، فقالت ذلك لعمر .

فقال عمر : قولى له قد رضيته . رضى الله عنك[٥٩]

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضاً قوله فى هذا المعنى : « مابال أقوام يقولون : إن رحمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاتنفع يوم القيامة ، بلى إن رحمتى موصولة فى الدنيا والآخرة ، وإنى أيها الناس فرط لكم على الحوض »[٦٠]

وليس عجيباً أن يكرم الله أهل بيت نبيه فيوفقهم للأعمال الصالحة التى تقربهم إلى الله تعالى . .

وإليك بعض الآثار الواردة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك :

ـ أخرج الحاكم فى المستدرك من حديث معاوية بن هشام قال : حدثنا عمر بن غياث عن عاصم عن زِرّ بن حُبَيْش عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن فاطمة أحسنت العمل فحرم الله ذريتها على النار »

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد[٦١]

---

(٥٩) جمع الجوامع جـ٣ صـ٢٢٨

(٦٠) الشرف المؤبد لآل محمد ليوسف النبهانى صـ٩٤

(٦١) المستدرك ٣ / ١٥٢ ـ معرفة الصحابة ـ مناقب فاطمة رضى الله عنها ـ

وذكر الفقيه الحافظ محب الدين أحمد بن عبدالله الطبرى فى كتابه « ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى » ماروه عمران بن حصين ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « سألت ربى ألا يدخل النار أحداً من أهل بيتى فأعطانى ذلك »[٦٢]

● وروى على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفاطمة ـ رضى الله عنها ـ : « يافاطمة أتدرين لم سميت فاطمة » ؟ قال علىّ ـ رضى الله عنه ـ :

لم سميت ؟ قال : « إن الله عز وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة »[٦٣]

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون لأهل البيت حقهم وفضلهم حتى لقد كان عبدالله بن عمرو بن العاص حزيناً جداً حين استشف أن الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ معرض عنه ـ

ويقص علينا ابن الأثير قصة استرضاء عبدالله بن عمرو للحسين فيقول :

عن اسماعيل بن رجاء عن أبيه قال : كنت فى مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حلقة فيها أبوسعيد الخدرى ، وعبدالله بن عمرو ، فمر بنا حسين بن على ، فسلم ، فرد القوم السلام ، فسكت عبدالله حتى فرغوا

---

(٦٢) ورد فى مجمع الزوائد بلفظ يقاربه : قال رسول الله لفاطمة : « إن الله غير معذبك ولا ولدك » رواه الطبرانى ورجاله ثقات ٩ / ٢٠٢

(٦٣) فضل أهل البيت للمقريزى صـ ٥١

-ثم رفع صوته . وقال : عليك السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم أقبل على القوم ، فقال : ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء الآن ؟

قالوا : بلى .

قال : هذا الماشى ، ماكلمنى كلمة منذ ليالى صفين ، ولأن يرضى عنى أحب إلىّ من أن يكون لى حمر النعم .

فقال أبوسعيد : ألا تعتذر إليه ؟

قال : بلى . . .

قال : فتواعدا أن يَغْدُواً إليه

قال : فغدوت معهما ، فاستأذن أبوسعيد ، فأذن له فدخل ، ثم استأذن لعبدالله ، فلم يزل به حتى أذن له .

فلما دخل قال أبوسعيد : يابن رسول الله ، إنك لما مررت بنا أمس حدث كذا وكذا . .

فأخبره بالذى كان من قول عبدالله بن عمرو ...

فقال حسين : أعلمت ياعبدالله أنى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء ؟

قال : إى ورب الكعبة .

قال : فما حملك على أن قاتلتنى وأبى يوم صفين ؟ فوالله لأبى كان خيراً منى ،

قال : أجل ، ولكن عَمْراً - يقصد والده - رضى الله عنهما - شكانى إلى

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، إن عبدالله يقوم الليل ، ويصوم النهار .

فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا عبدالله ، صل ونم ، وصم وأفطر ، واطع عَمْراً .

قال : فلما كان يوم صفين أقسم علىَّ ـ أى أبوه عمرو ـ فخرجت ، أما والله مااخترطت سيفاً ولا طعنت برمح ، ولا رميت بسهم . .

وذكر ابن الأثير عن عبدالله بن عمرو أنه كان يقول : مالى ولصفين ، مالى ولقتال المسلمين ، لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة(٦٤)

ومن نافلة القول التحدث عن أخلاق أهل البيت وسلوكهم ، فقد كانوا أشبه بملائكة يمشون على الأرض ، وعطراً تتنسمه أرواح الناس فيحيون ، وربيعاً تحيا به الأرض الموات ، وبلسماً تشفى به الجروح والقروح ، وإكسيراً تتحول به المعادن إلى ذهب إبريز . .

إنهم قبس من روح جدهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى قال الله فى حقه

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾(٦٥)

ودعا القرآن الناس الى التأسى به فى أخلاقه فقال

---

(٦٤) أسد الغابة لابن الاثير حـ٣ صـ٣٥١ ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص
(٦٥) القلم ٤

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٦٦)

ولقد كان خصومهم يعرفون لهم ذلك قبل أنصارهم .

وكيف لايكون كذلك والله يقول فى حقهم :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً »

لقد كانوا خيرة الله من خلقه ، نسجوا على منوال جدهم .

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل ؟

فلم يجتمع فى نسل أحد من العالمين ماإجتمع فى نسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأدب الرفيع والخلق القويم والسلوك العظيم . . وإن سيرتهم الزكية خير شاهد على ذلك . .

إنهم كانوا التطبيق العملى لمكارم الأخلاق ، والنماذج المثلى تسير على الأرض . واقرأ هذه الأمثلة الدالة على ذلك :

● وقع بين الحسن بن على وأخيه محمد بن الحنفية ـ جفاء ـ وانتهز الحسدة من الناس هذه الفرصة فمشوا بينهما بالنمائم .

فأسرع ابن الحنفية يكتب لأخيه قائلا : ـ

أما بعد ، فإن أبى وأباك على بن أبى طالب ، لاتفضلنى فى ذلك ولا أفضلك ، ولكن أمى امرأة من بنى حنيفة ، أما أمك فهى فاطمة الزهراء

---

(٦٦) الأحزاب ٢١

بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلو ملئت الأرض بمثل أمى لكانت أمك خيراً منهم فإذا قرأت كتابى هذا فأقبل حتى تترضانى ، فإنك أحق بالفضل منى[٦٧]

- ولو قدمت أنا إليك لكنت أحق بالفضل . .

أى أدب ، وأى اعتذار ، وأى اعتراف بالحق لأصحابه أفضل من هذا ؟

● وانظر إلى قول جعفر الصادق الذى يخرج من قلب كبير وعقل واع وتجربة صادقة : « ماتوسل إلىّ أحد بوسيلة هى أقرب إلىّ من يد سبقت منى إليه أتبعها أختها لتحسن تربيتها وحفظها .

أجل ، إن موالاة المعروف يستديم النعمة ، ويستدر الشكر ، ويجزل الإحسان . . وتفيد عبارة جعفر الصادق - رضى الله عنه - أنه يشجع عوّاده على زيارته لطلب حقوقهم عنده ، فقد اعتبر أن المنحة السابقة منه لهم أصبحت حقاً عليه لهم ، وهو لايريد أن يحبس الحقوق عن أصحابها ، إن هذا قولٌ دونه قول زهير فى هرم :

تراه إذا ماجئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وان جعفراً هذا هو الذى يقول : « إنى لأملق أحيانا فأتاجر مع الله بالصدقة فيربحنى » .

فهل رأيت أروع من هذه التجربة العملية التى تؤكد الحديث الشريف . . « خير الصدقة أن تصدّق وأنت فقير شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى » ؟

---

(٦٧) زهر الآداب جـ ١ صـ ٩٦

وإن فى ذلك معنى الإيثار العظيم الذى يمتدحه الله بقوله

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[٦٨]

ثم إن فى ذلك التصرف ثقة كاملة فى الله - تعالى - وليست الثقة أمراً سهلاً يستطيع أى أحد من الناس أن يتحلى بها . إنها توفيق من الله وما أندر التوفيق فى حياة الناس .

وهذه الثقة هى التى كانت تملى عليه أن يدعو الله بهذا الدعاء دائما : « اللهم إنك بما أنت أهل له من العفو أولى بما أنا أهل له من العقوبة »[٦٩]

وإننا لنتحدث عن جعفر الصادق على أنه نموذج واحد من نماذج كثيرة بين أهل البيت الذين ضربوا جميعاً أروع المثل فى مكارم الأخلاق .

ولقد كانت شجاعته الأدبية الرائعة مثار الإعجاب . . . . كان لا يهاب سلاطين الأرض ولا الباطشين منهم . إنها أيضاً الثقة بالله ، التى تعلمها من جَدِّه - صلى الله عليه وسلم - الذى لقَّن عبدالله بن عباس . دروس الاعتزاز بالله والثقة فيه قائلاً له : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن الأمة لو

---

(٦٨) الحشر ٩
(٦٩) زهر الآداب جـ١ صـ ١٢٤

اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ماانفعوك إلا بما كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء ماضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . . »

كتب أبوجعفر المنصور - إلى جعفر الصادق قائلا : لم لاتغشانا كما يغشانا الناس ؟

فأجابه جعفر الصادق : ليس لنا مانخافك من أجله ، ولاعندك من أمر الآخرة مانرجوك له ، ولا أنت فى نعمة فنهنّيك ، ولاتراها نقمة فنعزيك .

فكتب إليه المنصور مرة أخرى يقول له : تصحبنا لتنصحنا .

فأجابه جعفر الصادق : من أراد الدنيا لاينصحك ، ومن أراد الآخرة لايصحبك[٧٠]

ولو كان هذا الرد على واحد من الحكام الذين لايعرفون أقدار الناس لأرسل إلى جعفر الصادق من يسوقه إليه مقيداً بالأغلال .

ولكن السلطان هو أبو جعفر المنصور العباسى ، من ذرية العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو من هذه الذرية الطيبة ، ولذلك كان تعليقه على هذا الرد أن قال : لقد ميز عندى من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة ، وإنه ممن يريد الآخرة ولايريد الدنيا .

لقد حمل سريره - يوم مات - أبان بن عثمان بن عفان وكان واليا على المدينة ، وسار ودموعه تسيل على خديه حتى وضعه فى قبره وهو يقول : كنت والله خيرا لا شر فيك ، وكنت والله شريفاً ، واصلا ، برا .

---

(٧٠) الكشكول للعاملى حـ ١ صـ ١٢٩

ولقد كان أهل البيت فى عبادتهم خير مثال يقتدى به . لم يتكلوا على ما آتاهم الله من شرف النسب وفضل الحسب . .

بل كانوا سائرين على قدم المصطفى - ﷺ - الذى كان يقوم الليل حتى ورمت قدماه ، وقيل له فى ذلك - لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : « ألا أكون عبداً شكوراً » ؟

لقد فهموا أن الله خلق الخلق لعبادته ، وأمرهم بالإخلاص فيها ، فأخلصوا العبادة لله ، واجتهدوا فى ذلك اجتهاداً كبيراً .

وسيرتهم المباركة الطيبة تشهد بذلك . .

يروى محمد بن كعب القرظى عن الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : لقد رأيتنى وإنى لأربط الحجر على بطنى من الجوع وإن صدقتى لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار .

وروى أحمد عن وكيع فى سند متصل : رأيت على علىّ - عليه السلام - إزارا غليظا قال : اشتريته بخمسة دراهم[71]

واقتفى أبناء على وذريته خطواته فى الزهد والتواضع والدأب على العبادة ، ولم تثنهم الشدائد التى لاقوها فى حياتهم ومضايق السجون التى تعرضوا لها عن القيام بحق الله خير قيام ، ولم يلجئوا إلى الرخص التى يلجأ

---

(٧١) أسد الغابة حـ ٤ ترجمة على بن أبى طالب

إليها غيرهم من الناس ـ ولهم مندوحة فى ذلك ـ لو أرادوا ـ فحين قبض على عبدالله بن الحسن ومن معه من أهل البيت وألقوا فى غيابات السجون بتهمة الخروج على السلطان . وأودعوا سردابا تحت الأرض لا يفرقون فيه بين ضياء النهار وسواد الليل كانوا يتوضأون فى أماكنهم ، وأشكل عليهم أوقات الصلاة فجزءوا القرآن خمسة أجزاء فكانوا يصلون على فراغ كل واحد من حزبه(٧٢)

فانظر كيف لم تشغلهم شدتهم التى هم فيها ، والبلاء العنيف الذى تعرضوا له عن عبادة ربهم وتحرى أوقات الصلاة وملازمة الذكر والمواظبة على قراءة القرآن !! ـ

ولقد لازمت بعض الصفات المقترنة بالعبادة بعضهم . . فلقب على بن الحسين بزين العابدين لعلو كعبه فى العبادة ، وإخلاصه فيها ، كما لقب أيضا بالسجاد لكثرة سجوده ، وكانت إذا حضرت الصلاة ارتعد واصفر لونه ، فسئل عن ذلك فقال : أتدرون بين يدى من أقف ؟

واشتعلت النار فى بيته وأطفئت وهو ساجد لم ينفتل من صلاته ، فقيل له فى ذلك فقال : ألهتنى عنها النار الكبرى .

أما ابنه زيد فيقول عنه الرواة : كان نور التقوى يبدو فى وجهه وعلى لسانه وفى أفعاله ، وقد قال فيه بعض معاصريه : كنت إذا رأيت زيدا بن

---

(٧٢) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ صـ٢٣٦

على رأيت أسارير النور فى وجهه . وكان ملازما لقراءة القرآن ومذاكرته ـ وقد قال بعض الذين طلبوا لقاءه : قدمت المدينة فجعلت أسأل عن زيد بن على ، فقيل لى : ذاك حليف القرآن ـ

ولقد وصف نفسه بقوله : « إن زيد بن على لم يهتك لله محرما منذ عرف يمينه من شماله »

وسيأتى فى تراجم من ستعرض لهم من أهل البيت ـ إن شاء الله تعالى ـ أمثلة من ذلك . . .

لقد وصف الفرزدق على بن الحسين الملقب بزين العابدين وهو أبوزيد هذا . . بقوله فى قصيدة له :

هـذا الذى تعـرف البطحـاء وطأته والبيـت يعـرفه والحـل والحـرم

هـذا ابـن خيـر عبـاد اللـه كلهـم هـذا التقـى النقـى الطاهر العـلم

إذا رأتـه قريـش قـال قائلهـا إلى مـكارم هـذا ينتـهى الكـرم

هـذا ابـن فاطمـة إن كنـت جـاهله بجـده أنبيـاء اللـه قـد ختـموا

مـن معشـر حبـهم ديـن ، وبغضـهم كفـر ، وقربـهم منجـى ومعتصـم

إن عـد أهـل التقـى كانـوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل : هم

حب أهل البيت

إن حب أهل البيت فرض يحتمه الدين ويدعو إليه الإسلام ، وتستوجبه المروءة والوفاء لهذه العترة الطاهرة التى أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيرا . ودعا إلى مودتها ومحبتها فى قوله ـ تعالى ـ « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » على التفسير الذى ذهب إليه بعض العلماء من أن المقصود منه مودة أهل البيت وحبهم . .

ولكن الحب المطلوب هو الحب الشرعى الذى لا يخرج على تعاليم الكتاب والسنة ، ولا يغالى به صاحبه فيخلع على المحبوب صفات الخالق .

إن العلاقة بأهل البيت يجب أن تكون فى حدود معرفة الفضل لأهله ، من أنهم بشر أعطاهم الله فضلا حافظوا عليه بسلوكهم الطيب واقتفائهم أثر جدهم ـ ﷺ ـ والتأدب بأدب الدين الذى بعث الله به محمداً ـ ﷺ ـ

ويجب أن نعرف أن هذا الفضل لم يرتفع بهم فوق البشرية ، ولم يعطهم العصمة التى أعطاها الله الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ولكنه حفظهم كما حفظ الأولياء الذين قال الله فيهم :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـٰاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٧٣)

---

(٧٣) الحجر ٤٢

ومنحهم منزلة سامية .

وقد تعرض أهل البيت فى حياتهم لتجارب متعددة ومحن شديدة .

ولكنهم مع ذلك لم يتركوا طريق الهدى ، ولم ينأوا بجانبهم عن الفضائل وكرم الأخلاق .

وأهل البيت لا يقرون ما يحدث ممن يغالون فى حبهم ، بل يرفضونه رفضا باتا . فحين قام المختار بن عبدالله الثقفى يدعو لنصرة أهل البيت ويبالغ فيما نسبه إليهم قام على بن الحسين على باب الكعبة يكذب المختار فى مغالاته . فقال رجل : جعلنى الله فداك ـ تكذبه وإنما ذبح فيكم ؟ فقال : إنه كان كذابا يكذب على الله ورسوله(٧٤)

وقال يحيى بن سعيد : سمعت عليا بن الحسين ـ وكان أفضل هاشمى أدركته ـ يقول : يأيها الناس أحبونا حب الإسلام . . . وفى رواية : أحبونا حب الإسلام فوالله مازال حبكم بنا حتى بغضتمونا إلى الناس .

وقال عبدالله بن عبدالرحمن بن موهب : جاء نفر إلى على بن الحسين فأثنوا عليه ، فقال : ما أكذبكم وما أجراكم على الله ، نحن من صالحى قومنا وحسبنا أن نكون من صالحى قومنا .

لم يرض أهل البيت عن شىء مما قاله فيهم شيعتهم مما لا يوافق طبيعة البشر وأبى لهم تواضعهم الجم ومعرفتهم لقدر أنفسهم إلا أن ينكروا على

---

(٧٤) الطبقات الكبرى جـ ٥ قسم ١ صـ٧٢

هؤلاء الغلاة مغالاتهم ، ويتبرءوا مما يقولونه فيهم . لقد أساء هؤلاء الغلاة إلى أهل البيت وهم يظنون أنهم يحسنون إليهم . فما أشبههم بالدبة التى قتلت صاحبها . وهى تظن جهلاً أنها تحبه وتدفع عنه .

كان أهل البيت لا يعرفون لأنفسهم إلا أنهم بشر لهم حظهم من الصواب والخطأ وكانوا لا يقصرون فى العبادة بل كانوا يبالغون فيها مع تحرى الإخلاص ويؤدونها على أكمل وجه وأرضاه .

وكانوا يعرفون حق أصحاب رسول الله ، وحق الفضلاء من الناس .

سار زيد بن ثابت وهو راكب بغلته فقادها له عبدالله بن عباس ، فقال زيد : مه يابن عم رسول الله ، فقال عبدالله : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فقال له : زيد ، أرنى يدك ، فقبلها زيد وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ـ ﷺ ـ

ذكر صاحب كتاب المحاسن والمساوى أن الإمام عليا ـ رضى الله عنه ـ قال : هلك فىَّ رجلان ـ عدو مبغض ومحب مفرط .

وقال أيضا : ليحبنى أقوام حتى يدخلهم حبى النار ، ويبغضنى أقوام حتى يدخلهم بغضى النار ، هم الرافضة والناصبة . . وروى عن فاطمة رضى الله عنها ـ قالت : دخل علىّ علىّ ـ رضى الله عنه ـ وأنا عند النبى ـ ﷺ ـ فقال له النبى : أبشر يا أبا الحسن . . أما إنك فى الجنة وإن قوما يزعمون أنهم يحبونك يرفضون الإسلام يمرقون منه كما يمرق السهم من

الرمية فإن أدركتهم فقاتلهم فإنهم مشركون »[75]

إن محبة أهل البيت التى ندعو إليها يجب أن تكون فى إطار الشريعة السمحة التى تدعو إلى نبذ الخلافات والخصام ، وتدعو إلى الود والتعاون والإخاء بين المسلمين جميعا ، وتدعو إلى معرفة أقدار الناس واحترام حقوقهم وأفضالهم ، وتذكر لأهل البيت منزلتهم من رسول الله - ﷺ - ومحافظتهم بأخلاقهم وسلوكهم على هذه المنزلة السامية .

ويجب أن يكون أساس هذا الحب العمل على نهج هؤلاء الأئمة الأطهار واقتفاء آثارهم فى أخلاقهم وسلوكهم وعبادتهم ، وإلا أصبح الحب دعوى لا سند لها ولا أساس لها .

وإذا اقتضى هذا الحب زيارة مشاهدهم فتجب أن تكون هذه الزيارة فى إطارها الشرعى الصحيح ، بحيث لا يخرج الزائر على حدود الشرع فى قول أو عمل . وأن يكون الهدف من الزيارة العبرة والعظة وصلة الرحم لرسول الله - ﷺ -

لقد دعانا النبى - ﷺ - إلى حبه وحب آل بيته فقال فيما يرويه أبى بن كعب - رضى الله عنه - : « أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب أهل بيته ، وعلى قراءة القرآن ، فإن حملة القرآن فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه »[76]

---

(٧٥) المحاسن والمساوى لابراهيم بن محمد البيهقى جـ ١ صـ ٢٩

(٧٦) جامع الأحاديث : للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير جـ ١ صـ ١٧٠

ولنعرض بعد هذه المقدمة - التى رأينا أنه لابد منها - سيرة أهل بيت رسول الله - ﷺ - بادئين فى ذلك بالزوجات الطاهرات .



زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم

- عدد زوجات الرسول .
- افتراءات المستشرقين .
- لماذا عدد النبى زوجاته ؟
- السيدة خديجة رضى الله عنها .
- زواجها من النبى صلى الله عليه وسلم .
- إسلام خديجة .
- مساندتها للرسول فى دعوته .
- مكانتها عند الله .
- سودة بنت زمعة .
- أخلاقها وقوة إيمانها .
- عائشة بنت أبى بكر .
- متى تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ؟
- منزلة عائشة رضى الله عنها .
- مكانتها العلمية .

زوجات الرسول رضى الله عنهن

قال ـ تعالى : ـ

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (٧٧)

تشير هاتان الآيتان إلى منزلة نساء النبى ـ ﷺ ـ بين نساء العالمين ، وأن الله أعطاهن شرفا لم تنله غيرهن من النساء الأخريات .

لقد جعلهن الله فى مكان القدوة بالنسبة لغيرهن ، فلابد من أن يكُنَّ على غاية مثلى من الأدب وحسن الأخلاق ورفعة السلوك لتتحقق هذه القدوة ـ ومن أولى منهن بذلك وهن الملاصقات لسيد الخلق الذى يضع التشريع للناس ـ بهذه القدوة ؟ وقد جعلهن الله أمهات المؤمنين . والأم يسير على هديها أبناؤها ، ويهتدى بفعلها أولادها وأحفادها . .

والحديث عن هؤلاء الزوجات ـ اللاتى كرمهن الله من بين النساء فجعلهن أزواجا لخيرة الله من خلقه وصفوته من عباده ، وفضلهن بالحياة فى منزل ترقبه السماء بالعون ، وتمطره بالوحى ، وتحفه بالعناية ، وتزوره الملائكة فى كل حين ، وفى جنباته ينزل الروح الأمين ، وتتلى آيات الذكر

(٧٧) الأحزاب ٣٢ ، ٣٣

المبين ، وتتوارد فى حناياه أشعة النور الأسنى ، وتصعد من رحباته الدعوات والابتهالات إلى الأفق الأعلى .. وتشمل كل من فيه نفحات الرضوان ، وتغمر أهله بالبركات والبر والإحسان ـ ..... وهذا الحديث لابد أن يسبقه حديث عن عدد هؤلاء الزوجات وحكمة تعددهن ، وعن الحكمة فى عدم الجمع بين خديجة وغيرها من الزوجات ، كما حدث بعد وفاتها .

عدد زوجات الرسول

لم يتزوج النبى ـ ﷺ ـ قبل خديجة ـ رضى الله عنها ـ ومكث معها حوالى خمسة وعشرين عاما . دون أن يتزوج عليها ، حتى توفيت قبل هجرته إلى المدينة بحوالى ثلاث سنوات .. ثم تزوج بعدها ـ سودة بنت زمعة ـ قبل الهجرة بقليل .

وفى المدينة تزوج النبى ـ ﷺ ـ أكثر من واحدة عددهن فى تقدير أغلب المؤرخين وكتاب السيرة عشر زوجات ، توفيت منهن فى حياة النبى ـ ﷺ ـ واحدة هى : زينب بنت خزيمة الهلالية ـ رضى الله عنها ـ وبقى بعده ـ ﷺ ـ : تسع نساء هن :

سودة بنت زمعة

وعائشة بنت أبى بكر

وحفصة بنت عمر

وأم سلمة بنت أمية

وأم حبيبة بنت أبى سفيان

وزينب بنت جحش

وميمونة بنت الحارث الهلالية

وجويرية بنت الحارث من بنى المصطلق

وصفية بنت حيى بن أخطب

وسنتحدث عن كل أولئك بتوفيق الله ـ تعالى ـ فيما بعد .

هل هناك نساء أخريات ؟

يقول المؤرخون : إن هناك نساء أخريات كن على وشك أن يصبحن زوجات للرسول ـ ﷺ ـ ولكن لم يحظين بهذا الشرف .

فمن أولئك أم شريك التى قيل فيها إنها وهبت نفسها للنبى ـ ﷺ ـ وفى الواهبة نفسها نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ (٧٨)

وقد كثرت أقوال العلماء حول ـ من الواهبة نفسها ؟

فمنهم من قال : إنها ميمونة بنت الحارث ، ومنهم من قال : إنها زينب بنت خزيمة ـ أم المساكين ـ وهى امرأة من الأنصار ، ومنهم من قال : إنها

---

(٧٨) الأحزاب ٥٠

أم حكيم بنت الأوقص السلمية ومنهم من قال : إنها أم شريك بنت جابر الأسدية . .

وقال الزمخشرى فى تفسيره : هن أربع لا واحدة ، ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم .

وبعضهم يؤكد : أنها أم شريك الأنصارية ، وبعضهم يقول : إنها أم شريك العامرية وقالوا : إن رسول الله تزوجها ، ولكن ذلك لم يثبت .

وهذه الهبة من خصائص النبى - ﷺ - ولا تجوز لأحد غيره ، بدليل قوله - تعالى -

« خالصة لك من دون المؤمنين »

وقد تحدث ابن سعد فى طبقاته عن النساء اللاتى وهبن أنفسهن للنبى - ﷺ - ونوجز عنه القول فيهن :

ليلى بنت الخطيم

● منهن ليلى بنت الخطيم ، وهى أخت قيس بن الخطيم بن عدى - من بنى الخزرج . وكانت قد جاءت للنبى - ﷺ - وهو مولٍ ظهره للشمس ، فضربت على منكبه فقال : من هذا ؟

فقالت : يا رسول الله ، أنا ابنة مطعم الطير ومبارى الريح ، أنا ليلى بنت الخطيم ، جئتك لأعرض عليك أن تتزوجنى .

قال النبى - ﷺ - قد فعلت .

فرجعت إلى قومها فقالت : تزوجنى النبى - ﷺ -

فقالوا : بئسما صنعت ، أنت امرأة غَيْرَى ، والنبى - ﷺ - صاحب نساء

تغارين عليه فيغضب منك ـ فاستقيليه نفسك ـ فرجعت ، فقالت : يا رسول الله أقلنى .

قال : قد أقلتك (٧٩)

أم هانىء

● ومنهن أم هانىء بنت أبى طالب بن عبدالمطلب ـ ابنة عمه وأخت على ـ كرم الله وجهه ـ

وكان النبى ـ ﷺ ـ قد خطبها إلى عمه فى الجاهلية ، وخطبها هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، فزوجها أبوطالب من هبيرة .

فقال له النبى ـ ﷺ ـ يا عم ، زوجت هبيرة وتركتنى ؟

فقال : ياابن أخى إنا قد صاهرنا إليهم والكريم يكافىء الكريم .

وأسلمت أم هانىء بعد الفتح ففرق الإسلام بينها وبين هبيرة ، فخطبها النبى ـ ﷺ ـ فقالت : يا رسول الله ؛ إن لى أولادا صغارا وأخشى أن يكرهوك .

فقال النبى ـ ﷺ ـ خير نساء ركبن المطايا نساء قريش ، أحناهم على ولد فى صغره وأرعاهم على زوج فى ذات يده . .

وجاءت أم هانىء بعد أن أدرك أولادها فعرضت نفسها على النبى ـ ﷺ ـ فقال لها : أما الآن فلا ، لأن الله أنزل :

« يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك . . . »

---

(٧٩) الطبقات الكبرى جـ ٨ ص ١٠٧

ولم تكن أم هانىء ممن هاجر مع الرسول - ﷺ -[٨٠]

أم شريك

هى أم شريك بنت جابر بن حكيم - وهى دوسية من الأزد .

ولها قصة تتفق مع إخبار القرآن عنها بأنها مؤمنة « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى »

قالوا : أسلم زوج أم شريك ، وهاجر إلى رسول الله - ﷺ - مع أبى هريرة وقبيلة دوس حين هاجروا .

قالت أم شريك : فجاءنى أهل زوجى فقالوا لى : لعلك على دينه ؟

قلت : إى والله إنى لعلى دينه .

قالوا : لا جرم والله لنعذبنك عذابا شديدا . . . . . . فارتحلوا بنا عن دارنا . وقد كنا بذى الخلصة وهو موضعنا ، فساروا يريدون منزلا ، وحملونى على جمل ثفال شر ركابهم[٨١] وأغلظه ، يأكلون الخبز بالعسل ، ولا يطمعوننى ولا يسقوننى قطرة ماء ، حتى إذا انتصف النهار وسخنت الشمس ونحن قائظون ، نزلوا فضربوا أخبيتهم وتركونى فى الشمس حتى ذهب عقلى وسمعى وبصرى .

ففعلوا ذلك بى ثلاثة أيام ، فقالوا لى فى اليوم الثالث : اتركى ما أنت عليه .

قالت : فما دريت ما يقولون إلا الكلمة بعد الكلمة ، فأشير بإصبعى إلى السماء بالتوحيد .

---

(٨٠) طبقات ابن سعد حـ ٨ صـ ١٠٩

(٨١) الجمل الثفال - بالفاء - البطىء الثقيل

قالت : فوالله إنى لعلى ذلك وقد بلغنى الجهد - إذ وجدت برد دلو على صدرى ، فأخذته فشربت منه نفسا واحداً ثم انتزع منى ، فذهبت أنظر إليه ، فإذا هو معلق بين السماء والأرض فلم أقدر عليه .

ثم نزل إلىّ ثانية فشربت منه نفسا ثم رفع ، فذهبت أنظر إليه فاذا هو بين السماء والأرض .

ثم دلِّ إلىَ الثالثة فشربت منه حتى رويت ، وأهرقت على رأسى ووجهى وثيابى .

قالت : فخرجوا فنظروا فقالوا : من أين لك هذا يا عدوة الله ؟

قالت : فقلت : إن عدو الله غيرى ، إن عدو الله من خالف دين الله وأما قولكم من أين هذا ؟

فمن عند الله رزقا رزقنيه الله .

فانطلقوا سراعاً إلى قربهم وأداواهم[٨٢] فوجودها موكأة لم تحل .

فقالوا : نشهد أن ربك هو ربنا ، وأن الذى رزقك فى هذا الموضع - بعد أن فعلنا بك ما فعلنا - هو الذى شرع الإسلام . فأسلموا وهاجروا جميعا إلى رسول الله - ﷺ -

ويبدو أن زوجها كان قد هلك بعد هجرته . . قال ابن سعد : وهى التى وهبت نفسها للنبى - ﷺ - وكانت قد أسنت - فقالت : إنى أهب نفسى لك . فقبلها النبى - ﷺ -[٨٣]

---

(٨٢) أداواهم : جمع إداوة وهى القربة الكبيرة ، وموكأة أى مربوطة

(٨٣) الطبقات حـ ٨ صـ ١١١ ، اسد الغابة حـ ٦ صـ ٢٢٣

خولة بنت حكيم

وهى بنت حكيم بن أمية بن حارثة ـ أصلها من بنى سليم ، وقد وهبت نفسها للنبى ـ ﷺ ـ ولكن النبى أرجأها . وتزوجها عثمان بن مظعون فمات عنها[٨٤]

وكانت امرأة صالحة ، ولها رواية فى حديث رسول الله ـ ﷺ ـ[٨٥]

رد على الافتراءات

تحدث المغرضون حول زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكثرته وقالوا ماقالوا فى ذلك .

وقد حمل راية التشهير هذه المستشرقون ، وانساق وراءهم بعض أتباعهم من الجهلة ـ ولكن مقولة السوء يقيض الله لها دائماً من يقطعها ، ويجتثها من جذورها ويرد أصحابها على أعقابهم مخذولين مدحورين . وما أصدق الشاعر الحكيم فى قوله :

مقالة السـوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

وللمساهمة فى تفنيد ادعاءات هؤلاء المدعين نشير إلى تعدد الزوجات قبل الإسلام .

ليس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدْعاً بين الرسل الذين تزوجوا أكثر من واحدة ، ولكنه كان واحداً منهم ، مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ

---

(٨٤) الطبقات جـ ٨ صـ ١١٣

(٨٥) أسد الغابة ٧ ، ٩٣

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ (٨٦)

إنه كغيره من الأنبياء - جميعهم - عدا اثنين منهم ، وهما يحيى وعيسى - تزوج وأنجب وقد قال الله - تعالى - فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٨٧)

أما يحيى فقد جعله الله عازفاً بطبيعته عن النساء لايرغب فيهن ، وبشَّر الله أباه بذلك حين قال له على ألسنة الملائكة

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٨٨)

قال العلماء فى تفسير هذه الآية : الحصور - من الحصر وهو الحبس ، والحصور هو الذى لايأتى النساء كأنه مُحجم عنهن .

وقال بعضهم : هو الذى يكف عن النساء ولايقربهن مع القدرة . وقد كان ذلك مستساغاً فى شرعهم . . . .

وأما عيسى - عليه السلام - فلم يطل مكثه بين قومه فقد رفعه الله إليه . .

---

(٨٦) الأحقاف ٩

(٨٧) الرعد ٣٨

(٨٨) آل عمران ٣٩

لماذا عدَّد النبى زوجاته ؟

لقد أكثر أعداء الإسلام الكلام حول زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعدده متخذين من ذلك حجة للنيل من الإسلام ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنهم كانوا واهمين ، لأن الذى ارتأوه حجة لهم كان حجة عليهم ، إذ كان هذا الزواج وسيلة من وسائل إذاعة الدعوة الإسلامية وتثبيتها وتقويتها . . ولم يكن الغرض منه المتعة كما ظن هؤلاء المفترون .

ولنقرأ ماكتبه المرحوم العقاد فى رده على هؤلاء . .

« ما الذى يفعله أى رجل إذا بلغ من المكانة والسلطان مابلغه محمد بين قومه ؟

لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأفتن جوارى الفرس والروم .

ولم يكن عسيراً عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة مالم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة فى زمانه .

فهل فعل محمد ذلك بعد ظهور دينه ؟ وهل فعله فى مطلع حياته ؟

كلا لم يفعله قط . . . فلم يحدث أبداً أن اختار ـ صلى الله عليه وسلم ـ زوجة واحدة لأنها مليحة أو جميلة الشكل فقط .

وإنما كان يتزوج لأهداف سامية دون نظر إلى المتعة أو اللذة التى ينظر إليها هؤلاء .

لقد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين ، وكان هو فى عنفوان الشباب لايجاوز الخامسة والعشرين ، وقد اختارته زوجاً لها لأنه الصادق

الأمين . . . وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال ـ من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفى لها بعد موتها ، فلم يفكر فى الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقت له ، فخطبت له السيدة سودة بنت زمعة ، ثم بعد ذلك السيدة عائشة بإذنه ـ ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة فى حق زوجته الراحلة غير ثنائه عليها ووفائه لذكراها .

وما تزوج ـ عليه السلام ـ بواحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم والخوف على بعضهن من المهانة هى الباعث الأكبر فى زواجه بهن ، ومعظمهن كن أرامل فقدن الأزواج أو الأولياء ، وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فالسيدة سودة بنت زمعة مات زوجها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ، ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها ـ وهم مازالوا على الكفر ـ فيكرهونها على الردة .

والسيدة هند بنت أمية ـ أم سلمة ـ استشهد زوجها وهو ابن عمها فى أحد . .

فتزوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تطييبا لخاطرها وجبراً لكسرها . .

والسيدة رملة بنت أبى سفيان ـ تركت أباها وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها ، وتنصر زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها . فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى النجاشى يطلب الزواج منها وهى فى هذه الغربة

المهلكة لينقذها من أهلها إذا عادت إليهم راغمة من هجرتها فى سبيل دينها . ولعل فى الزواج بها سبباً يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب ، فتميل به من جفاء العداوة إلى مودة تخرجه من ظلام الشرك إلى نور الإسلام .

والسيدة جويرية بنت الحارث ـ سيد قومه ـ كانت بين السبايا فى غزوة بنى المصطلق ، فأكرمها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنقذها من السباء وأعتقها وتزوجها ، وحض المسلمين على إعتقاق سباياهم ، فأسلموا جميعاً وحسن إسلامهم .

والسيدة حفصة بنت عمر مات زوجها ، فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت ، وعرضها على عثمان فسكت ، وبثَّ عمر أسفه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطيب خاطره بزواجها .

والسيدة صفية بنت حيى بن أخطب ـ سيد بنى قريظة ، خيرها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة .

والسيدة زينب بنت جحش ـ ابنة عمته ـ زوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمولاه ومتبناه زيد بن حارثة ، فنفرت منه وعز على زيد أن يروضها على طاعته ، فأذن له النبى فى طلاقها وتزوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبطل بذلك عادة كانت متفشية فى الجاهلية وهى تحريم زوجة الولد المتبنى ، ونزل فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (89)

والسيدة زينب بنت خزيمة مات زوجها عبدالله بن جحش قتيلاً فى أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل فى صحبته من تقدم لخطبتها ، فتكفل بها ـ عليه السلام ـ لأنه لاكفيل لها من قومها .

وقد أقام هؤلاء الزوجات فى بيت لايجدون فيه من الرغد ماتجده الزوجات فى بيوت الكثير من الرجال ـ مسلمين كانوا أو مشركين . . . . . وعلى هذا الشرف الذى لايدانيه عند المرأة المسلمة شرف الملكات أو الأميرات عاش هؤلاء فى شدة العيش ، حتى اشتكين من قسوة الحياة عليهن . . وفى ذلك نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (90)

---

(٨٩) الأحزاب ٣٧

(٩٠) الأحزاب ٢٨ ، ٢٩

إن المستشرقين المحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج فى السيرة النبوية شيئاً يصيب محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو يصيب دعوته من ورائه ، ولكنهم كشفوا منها حجة لاحجة مثلها فى الدلالة على صدق دعوته وإيمانه برسالته وإخلاصه لها فى سره كإخلاصه لها فى علانيته ، ولولا أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا فى السكوت عن مسألة الزواج أشد من اجتهادهم فى التشهير بها واللغط فيها[٩١] »

ومن هنا يظهر لنا أن زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان للدين لاللدنيا ، وكان للحكمة لاللهوى ، ولتوطيد الدعوة ونشرها وتقويتها ، لاللمتعة أو التباهى والاستكثار .

لقد ابتغى من الزواج بعد وفاة السيدة خديجة الخير للاسلام والمسلمين ، وذلك أنه كان يعمد حيناً إلى أن يزيد القريب قرابة ، وأن يضيف إلى أحبائه محبة ، وإلى المخلص لله ورسوله إخلاصاً .

وكان يتوخى تارة أن يستكثر من الأصهار ليناصروه ويؤازروه فى نشر دين الله ، فى مجتمع يعتبر المصاهرة صلة حميمة تستوجب النصرة والوفاء . .

وليس من شك فى أن زوجات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفدن الإسلام بكثير من الحقائق الوثيقة الصلة بالدين ، فقد أخبرن بسلوك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأعماله التى لم يرها غير زوجاته .

---

(٩١) راجع حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ـ فصل زواج النبى

وهن اللاتى كن منابع التشريع المستنبط من أحوال لايعرفها غير النساء ، ولايعلمها إلا أزواجهن ، وبعضها يختلف من امرأة إلى أخرى .

وهن اللاتى روين أحاديثه الشريفة التى قالها فى بيته ولم يسمعها غيرهن ، وصححن رواية ماسمعه غيرهن إذا كان على خلاف حقيقته .

ولبعضهن آراء فى الفقه وأسباب نزول بعض الآيات القرآنية الكريمة ، ولا عجب فى هذا فقد كن حريصات أشد الحرص على تطبيق مفهوم هذه الآية الكريمة

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[92]

وقد روى عنهن الثقات كثيراً من الأحاديث الشريفة[93]

السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ

نسبها

هى أم المؤمنين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعُزّى بن قصى القرشية الأسدية .

وأمها : فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن الهرم بن رواحة ـ يجتمع أبوها وأمها فى لؤى بن غالب

---

(٩٢) الأحزاب ٣٤

(٩٣) راجع لماذا عدد النبى زوجاته ـ د أحمد الحوفى صـ٥١ وما بعدها ـ مؤسسة الخليج العربى

كما يجتمع نسبها مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى قُصَىّ .

وكانت تدعى فى الجاهلية : الطاهرة .

زواجها من النبى - ﷺ -

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إن نساء أهل مكة احتفلن فى عيد كان لهن فى رجب ، فلم يتركن شيئاً من إكبار هذا العيد إلا أتينه ، فبينماهن عكوف عند آلهتهن سمعن رجلاً قريباً منهن ، ينادى بأعلى صوته : يانساء تيماء ، إنه سيكون فى بلدكن نبى يقال له أحمد ، يبعث برسالة الله ، فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فلتفعل ، فحصبته النساء وقبحته وأغلظن له القول ، وأغضت خديجة على قوله ، ولم تعرض له فيما عرض فيه النساء .

ويبدو أن هذا الكلام قد وقع فى قلبها موقعاً ، وأدركت منه جلال النبوة المرتقبة وسعادة من يحالفها القدر لتكون زوجة هذا النبى المنتظر . .

وظل هذا الكلام مرقوما فى قلبها لايبارحه . . حتى جاء الوقت المعلوم لتكون هى صاحبة الحظ الأوفر بين نساء العالمين فتتزوج من خاتم الأنبياء والمرسلين .

أما كيف تم هذا الزواج فله أسبابه التى يحكيها لنا الرواة فيما يأتى : كانت خديجة ذات شرف وسيادة فى قومها ، وكان لها مال وفير تتاجر فيه ، وكانت تستأجر الرجال الأكفاء ذوى الخبرة ليتاجروا لها فى مالها ، تضاربهم إياه بشىء تجعله لهم .

والمضاربة نوع من أنواع المعاملة التجارية ، يعطى فيه صاحب المال غيره

قسطاً من المال يتجر له فيه على أن يكون له من الربح سهم معلوم . .

وبلغها عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفاته الكريمة التى اشتهر بها قبل البعثة من صدق وأمانة وطالع ميمون فأحبت أن تستأجره وتعطيه أفضل ماكانت تعطى غيره من التجار .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شبابه يعمل بالتجارة . فأرسلت إليه ليقوم بهذه المهمة التى أرادتها مع غلام لها اسمه ميسرة ، وعرضت عليه العمل فى تجارتها فقبل .

وخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الشام ومعه ميسرة .

ورأى ميسرة فى مصاحبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالم يره من أحد غيره أبداً ، لقد رأى دماثة الخلق ، وحسن الأدب ، وكرم العشرة ، وصدق الحديث ، وجمال الصحبة ، ولين الجانب ، وجلال التواضع ، فامتلأ قلب ميسرة إعجاباً بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعلقاً به ، وأضمر فى نفسه أن يخبر سيدته عند رجوعه بكل مارآه من عظمة هذا الرجل وكماله . .

ومما زاد جلاله فى نظره مارآه من راهب شامى حين نزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه ميسرة تحت شجرة قريبة من صومعة هذا الراهب .

فاطلع الراهب إلى ميسرة وقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

قال ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم .

فقال الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى . .[٩٤]

لقد ملأت هذه الكلمة قلب ميسرة روعة . . وأيقن فى نفسه أن هذه الأخلاق التى لمسها فى رفيق رحلته لايمكن أن تكون لإنسان عادى ، لقد طالما صاحب رفاقاً قبل محمد فى مثل هذه الرحلة ، فلم ير مارآه من محمد ، لقد تعود أن يرى الأثرة والخداع ، وحب السيطرة ، والتعالى ، والغش وغير ذلك مما تنطوى عليه غالباً أخلاق كثير من التجار .

فلابد أن يكون كلام هذا الراهب صادقاً . .

وباع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلعته التى خرج بها ، واشترى ماأراد ، وقفل عائداً . .

وذكر بعض الرواة أن ميسرة رأى ظلاً يظلل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الشمس وقت الهاجرة . .

وعند مَرِّ الظهران قريباً من مكة ، قال ميسرة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل لك أن تسبقنى إلى خديجة فتخبرها بالذى جرى فى سفرتك هذه وما صنعه الله لها على وجهك الميمون ؟

فركب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقدم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة ، وخديجة فى بيت مرتفع لها ـ ومعها نساء من قومها ـ فرأت النبى صلى الله عليه وسلم ـ قادماً على بعيره ، وفوقه ظل يظلله ، فعجبت من ذلك كما عجبت النساء معها . .

---

(٩٤) أسد الغابة حـ٧ صـ٨٠ ـ السيرة الحلبية حـ١ صـ٢١٧

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرها بما ربح ، وهو ضعف ماكانت تربح فسرت بذلك . وسألته عن ميسرة ، فقال : خلفته بالبادية .

وجاء ميسرة فصدق ماقاله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبرها بما رآه منه فى حال سفره ، وبما أخبره الراهب حين نزلا تحت الشجرة .

فاستيقنت أنه هو النبى الذى أخبرت به الكتب السابقة ، فعزمت على أن تفوز به زوجاً .

وأسرت خديجة إلى نفيسة بنت منية برغبتها . .

قالت نفيسة : كانت خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة ، وهى يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالا وأحسنهم جمالاً ، وكانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة . وكان يقال لها : سيدة قريش ، وكل رجال قومها كان حريصاً عل أن يتزوجها لو قدر على ذلك ، وقد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل .

وتضيف صديقتها قائلة ـ كما ذكر الرواة ـ فأرسلتنى خديجة إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن رجع فى عيرها من الشام .

فقلت : يامحمد ، مايمنعك أن تتزوج ؟

قال : مابيدى ماأتزوج به .

قلت : فان كفيت ذلك ، ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب ؟

قال : فمن هى ؟

قلت : خديجة .

قال : وكيف لى بذلك ؟

قلت : بلى ، وأنا أفعل

قالت : فذهبت فأخبرتها . فأرسلت إليه أن ائت . .

فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها . . .

وفى رواية أن خديجة ـ رضى الله عنها ـ هى التى عرضت بنفسها على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تتزوجه فقد بعثت إليه ـ فيما يرويه ابن الأثير فى أسد الغابة ـ فقالت له : إنى اخترتك لقرابتك منى وشرفك فى قومك وأمانتك عندهم وحسن خُلقك وصدق حديثك .

فلما قالت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماقالت ـ ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه حمزة بن عبدالمطلب ، حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه فتزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ(٩٥)

ولكن المشهور أن الذى خطبها للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو عمه أبو طالب ، وأنه خطبها إلى عمها عمرو بن أسد .

وخطب أبوطالب خطبة قال فيها :ـ

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ونسل معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حَضَنَة بيته ، وسُوّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس .

ثم إن ابن أخى محمد بن عبدالله لايوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية

---

(٩٥) أسد الغابة ٧ / ٨٠

مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ماعاجله اثنتى عشرة أوقية ونَشًا .(٩٦)

وخطب ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة فقال : الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ماعددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لاينكر العرب فضلكم ، ولايرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، ورغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا علىَّ معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمدا بن عبدالله ، وذكر المهر .

فقال أبوطالب : قد أحببت أن يشركك عمها .

فقال عمها : اشهدوا علىَّ معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد .

وأولم - صلى الله عليه وسلم - فنحر جزوراً ، وقيل : جزورين ، وأطعم الناس . وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن بالدفوف .

وفرح أبوطالب فرحاً شديداً وقال : الحمد لله الذى أكرمنا ، ووفقنا إلى الخير .

وكانت هذه أول وليمة أولمها النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(٩٦) الأوقية قيمتها أربعون درهما ، والنش قيمته عشرون درهما قالوا : وقيمة الصداق خمسائة درهم .

وكان خبر هذا الزواج قد شاع قبل تمامه فوصل إلى بادية بنى سعد ، فأسرعت حليمة بنت أبى ذؤيب ، وهى أم النبى - صلى الله عليه وسلم - من الرضاعة - لتشهد زفاف ابنها وكأنَّ الله قد أراد أن يعوض النبى - صلى الله عليه وسلم - شيئاً من فرح الأم بابنها ليلة زفافه فأرسل أمه من الرضاعة لتنوب عن آمنة بنت وهب التى فقدها ابنها وهو طفل . .

وفرحت خديجة بحليمة ، وأهدتها أربعين شاة عادت بها إلى باديتها ، وكانت هذه لمسة رقيقة من خديجة تشير إلى ماسوف يجده النبى - صلى الله عليه وسلم - فى جوارها من سكن ومودة وحنان . .

ولم تنقطع زيارة حليمة لابنها وزوجه بعد ذلك . . . . ووجد النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ظل هذه الزوجة البرة كل ماينشده الرجل من أمن واستقرار وتفرغ لما يستقبله فى حياته من عظائم الأمور وجلائل الأعمال .

وأنجبت خديجة من النبى - صلى الله عليه وسلم - أولاده كلهم ماعدا إبراهيم الذى ولدته مارية القبطية .

وأولاده منها هم : زينب ، وأم كلثوم ، ورقية ، وفاطمة ، والقاسم ، وبه كان يكنى - صلى الله عليه وسلم - والطاهر والطيب . . . . وقد توفى هؤلاء الأولاد الذكور قبل البعثة ، أما البنات فقد أدركن الإسلام وأسلمن وهاجرن

ويقال : إنها ولدت ذكرين فقط هما القاسم وعبدالله ، وأما الطاهر والطيب فهما لقبان لعبدالله .

وترتيب أولاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما جاء فى أسد الغابة : القاسم وهو أكبر ولده ، ثم زينب

وقال الكلبى : زينب ، والقاسم ـ ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، ثم عبدالله ـ وكان يقال له الطيب والطاهر ، وولد عبدالله فى الإسلام ، ومات بمكة ، وكان قد سبقه أخوه القاسم . .

إسلام خديجة

لقد وقفت خديجة خلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسانده فى حياته ، وكانت تتوسم فيه ـ كما قلنا ـ أنه سوف يكون نبى هذه الأمة المنتظر ، فلماذا لاتعينه على الاستعداد لهذا اليوم ؟ فكانت تتركه لعبادة ربه حيث كان يذهب إلى غار حراء بعيداً عنها يتسلق قمته ، ويخلو إلى الله فى تفكير عميق بعيداً عنها ، ليالى قد تطول . .

وكانت تحمل له زاده أحياناً متجشمة فى سبيل ذلك مشقة صعود الجبل والهبوط منه .

وربما أرسلت خلفه من يحرسه ويرد عنه الغوائل من وحش أو غيره . .

وكانت تراود النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إرهاصات النبوة فى صورة أحلام صادقة فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ـ أو فى صورة إلهام صائب ، أو حديث يوجه ، أو تحية تزف إليه أو بشرى تخبره أنه رسول رب العالمين .

حتى جاء اليوم المنتظر ـ حيث كان فى غار حراء وهناك جاءه جبريل يقول

له : اقرأ ، فقال : ماأنا بقارىء ، ثم يقول له : اقرأ فيقول : ماأنا بقارىء ، ثم يقول له :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ ﴾[97]

ويرتاع النبى - صلى الله عليه وسلم - لما رأى وسمع ..

ويرجع إلى خديجة مسرعاً يرجف فؤاده وترتعد أوصاله ، قائلاً لها : زملونى زملونى ..

وتزمّله خديجة ، وتضمه إلى صدرها حتى يذهب عنه الروع ، ثم تستمع إلى مايخبرها به ، قائلاً لها : لقد خشيت على نفسى ..

ولكن خديجة - رضى الله عنها - تقول له : كلا ، والله لايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ،[98] وتكسب المعدوم ،[99] وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .[100]

وتطمئنه وتبشره قائلة : أبشر يابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة المنتظر .

وتركته خديجة يستريح فى فراشه ، حتى إذا رأت النوم قد تسلل إلى جفونه ، انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لتخبره بما حدث لزوجها .

---

(٩٧) العلق . ١ - ٣

(٩٨) الكل : الثقل

(٩٩) المعدوم : أى تعطى الناس الشىء المعدوم عندهم

(١٠٠) أسد الغابة ٧ /٨٣

وينتفض ورقة فى حماسة ويقول : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى ياخديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .[١٠١]

وعادت خديجة مسرورة بما سمعت ، لقد ظفرت بما كانت تتوق إليه وهى أن تكون زوجة خير البرية .

وروت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن خديجة انطلقت بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بيت ورقة ، فقالت له خديجة : ياابن عم اسمع من ابن أخيك ، فأخبره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخبر ماراى وسمع . .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل على موسى ـ عليه السلام ـ ياليتنى فيها جَذَعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أومخرجى هم ؟ »

قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً »[١٠٢]

وطابت نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما سمع ، وعاد إلى بيته مطمئناً مع زوجه أم المؤمنين الأولى ليبدأ جهاده من أجل رسالته ، وليلقى فى سبيلها أشق ماوعى التاريخ من أذى واضطهاد . .

وكانت خديجة أول من آمن بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جاءته

---

(١٠١) تاريخ الطبرى حـ ٢ صـ ٢٠٦

(١٠٢) المرجع السابق

الرسالة ، ولاعجب فقد آمنت به قبلها حين أحست بصادق شعورها وإلهامها الصادق أنه هو نبى آخر الزمان . .

ووقفت خلف النبى - صلى الله عليه وسلم - تؤازره وتشد من عضده ، وكان لايسمع من قومه شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله بها عنه مايكرهه ويحزنه ، كانت تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس .

ولقد قالت له يوماً حين بدأه الوحى تريد أن تثبته وتتثبت من أمر الوحى : ياابن عم ، هل تستطيع أن تخبرنى بصاحبك الذى يأتيك إذا جاءك ؟

قال : نعم .

فبينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندها إذ جاءه جبريل ، فأخبرها أنه جاء ، فقالت : أتراه الآن ؟

قال : نعم .

فتحسرت وألقت خمارها ، ثم قالت : هل تراه الآن ؟

قال : لا

قالت : ماهذا شيطان ، إن هذا لملك ياابن عم ، أثبت وأبشر . .(١٠٣)

وزادها هذا بصيرة فى أمرها . .

وظلت خديجة خلف النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد وضعت كل ماتملك من جهد ومال فى خدمة النبى - صلى الله عليه وسلم - وتبليغ

(١٠٣) أسد الغابة ٧ /٨٣ ، سيرة ابن هشام ١ /٢٣٨

الرسالة . فكانت بالنسبة له وزير صدق ، ورفيق جهاد ، وواحة أمان وملاذ أمن . .

مع النبى فى شعب أبى طالب

واجتمعت كلمة الكفر على محاصرة بنى هاشم الذين يعضدون النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شِعب أبى طالب . وأعلنت قريش عليهم حرباً ضارية قوامها التجويع والمقاطعة ، وقد سجلت هذا الإعلان فى صحيفة قاطعة ظالمة أودعت جوف الكعبة .

ووقفت خديجة خلف النبى - صلى الله عليه وسلم - تؤيده فى سنوات المقاطعة بكل ماأوتيت من قوة وجهد ، وقد تركت دارها الفسيحة الأنيقة لتقيم مع زوجها فى ركن من أركان هذا الشِّعب تقاسى مع من فيه ضروب الأذى وألوان العناء وصنوف الاضطهاد وضراوة الجوع ، فى الوقت الذى كانت فيه قد كبرت وضعفت بسبب فقد أولادها الذكور من حبيبها المصطفى - صلى الله عليه وسلم -

ثلاث سنوات قضتها مع بنى هاشم وبنى عبدالمطلب فى هذا الشعب القاسى لاتبوح بشكوى ، ولاتصرح بألم . حتى قيض الله من قيض لنبذ هذه المقاطعة ، وفك هذا الحصار العنيف .

وانجابت المحنة ، وخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - من الشعب ، وعاد إلى بيته مع زوجه البرة المؤمنة الصادقة .

ولم يمض وقت طويل بعد انتهاء هذه الأزمة حتى مات أبوطالب ، ومن بعده بقليل ودعت خديجة الحياة ، ولفظت أنفاسها الأخيرة بين يدى زوجها

الذى أحبته ملء فؤادها وآمنت به وصدقته وآزرته ، فواراها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى قبرها بالحجون قبل الهجرة بثلاث سنين .

وحزن النبى - صلى الله عليه وسلم - لفراقها حزناً شديداً .
بل سمى هذا العام الذى ذهب فيه أبوطالب ومن بعده خديجة بقليل عام الحزن .

لقد فقد النبى - صلى الله عليه وسلم - بفراقهما ساعدين قويين كانا يذبان عنهماينوشه من سهام قريش وأذاها . ويكفان عنه ذئاب الوثنية والشرك .

ولقد تلفت النبى - صلى الله عليه وسلم - حوله فإذا الدار بعد خديجة موحشة وإذا مكة تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان .

قال ابن إسحاق : فتتابعت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الشدائد بموت خديجة وكانت له وزير صدق على الإسلام .

قال عبدالله بن ثعلبة : لما توفى أبوطالب وخديجة بنت خويلد - وكان بينهما شهر وخمسة أيام - اجتمعت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شدتان فلزم بيته وأقل الخروج ، ونالت منه قريش مالم تكن تنال ولاتطمع به ؛[١٠٤] .

الله يرعاه

وظنت قريش أن الدعوة قد خذلت ، ولم يصبح فى طوق محمد أن يمضى

---

(١٠٤) نساء النبى لبنت الشاطىء صـ٥١

بها إلى الأمام ، ولكن ظنها كان واهماً ، وأملها كان خائباً ، فعين الله ساهرة ، وأشد الساعات حلكة أقربها إلى طلوع الفجر ، فلئن كان أبوطالب مات فالله حى لايموت ، ولئن كانت خديجة قد مضت فقد رضى الله عنها وأرضاها ، وذهبت إلى بيت فى الجنة لاصخب فيه ولانصب ، ولقد تركت بعدها السابقين الأولين من المسلمين يحيطون بالرسول ويبذلون أرواحهم فداء له . .

وأذن الله لدعوته أن تمضى فى طريقها فقيض لها من عنده من يؤمن بها ويتفانى فى سبيلها ، لقد تلقف الدعوة رجال من الأنصار بعيداً عن مكة أقبلوا فى الموسم يحجون ، فبايعوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإيمان والنصر ، ومازالوا يتوافدون فى الموسم حتى هاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة ، وقد سبقه أصحابه إليها فوجدوا هناك النصر والتأييد والحب والإيثار والبطولة والاستشهاد .

فضل خديجة

لقد وردت الأخبار الشريفة تشير إلى فضل هذه الزوجة الكريمة الصادقة .

روى أنس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « خير نساء العالمين مريم بنت عمران ، وآسيه بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد »[١٠٥]

---

(١٠٥) أخرجه ابن مردوية عن طريق أبى جعفر الرازى ، وذكره ابن كثير فى التفسير سورة آل عمران آية ٤٢

وروى ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : خط رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الأرض أربعة خطوط . ثم قال : أتدرون ماهذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون »(١٠٦)

لقد استحقت خديجة ذلك عن جدارة ، فقد كانت أول من صلى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سراً وجهراً .

ذكر ابن سعد فى طبقاته عن الزهرى قال : مكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخديجة يصليان سراً ماشاء الله .

وذكر ماأخبر به عفيف الكندى قال : جئت فى الجاهلية إلى مكة وأنا أبتاع لأهلى من ثيابها وعطرها ، فنزلت على العباس بن عبدالمطلب ، قال : فأنا عنده وأنا أنظر إلى الكعبة ، وقد حلقت الشمس فارتفعت ، إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة فرفع رأسه إلى السماء ، فنظر . ثم استقبل الكعبة ثم جاء غلام حتى قام عن يمينه ، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، ثم ركع الشاب فركع الغلام وركعت المرأة ، ثم رفع الشاب رأسه ورفع الغلام رأسه ورفعت المرأة رأسها ، ثم خر الشاب ساجداً وخر الغلام ساجداً وخرت المرأة ساجدة .

---

(١٠٦) مسند الامام أحمد ١ /٣١٦

قال : فقلت : ياعباس ، إنى أرى أمراً عظيماً .

فقال العباس : أمر عظيم ، هل تدرى من هذا الشاب ؟

قلت : لا . ماأدرى .

قال : هذا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ـ ابن أخى . . . هل تدرى من هذا الغلام ؟

قلت : لا ، ماأدرى

قال : على بن أبى طالب ، ابن أخى . هل تدرى من هذه المرأة ؟

قلت : لا ، ماأدرى .

قال : هذه خديجة بنت خويلد ، زوجة ابن أخى هذا .

إن ابن أخى هذا الذى ترى قد حدثنا أن ربه رب السموات والأرض أمره بهذا الدين الذى هو عليه ، ولا والله ماعلمت على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة .

قال عفيف : فتمنيت أنى كنت رابعهم .(١٠٧)

لقد كان لخديجة ـ رضوان الله عليها ـ منزلة تعرفها السماء وتذكرها لها ، جزاء ماقدمت للدين من جهود طيبة وجهاد مشكور .

وفيما أخبر به أبوهريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « أتانى جبريل عليه السلام ـ فقال : يارسول الله ، هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء فيه إدام ، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها

---

(١٠٧) الطبقات الكبرى جـ ٨ صـ ١٠

ببيت فى الجنة من قصب ، لاصخب فيه ولانصب »[١٠٨]

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرف لها حقها وفضلها ، وكان لايكف عن الثناء عليها .

وقد ورد أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر مرة من الثناء على خديجة بمسمع من عائشة .

فأحست بالغيرة فقالت :

قد أبدلك الله خيراً منها .

فتغير وجهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزجر عائشة غاضباً . . وقال : « والله ماأبدلنى الله خيراً منها ، آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس . . . .

وزاد الطبرى فى هذه الرواية ـ قالت : قلت : يارسول الله اعف عنى ، ولاتسمعنى أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشىء تكرهه .[١٠٩]

إن هذا الخبر يشير إلى معرفة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضل خديجة ، وثنائه عليها بما هى أهل له .

ومما يدل على أنه كان وفياً لذكراها ماذكرته عائشة ـ رضى الله عنها ـ بقولها : ماغِرْتُ على أحد من نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماغرت على خديجة وما رأيتها ، ولكن كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم قطعها أعضاء ثم يبعثها إلى صديقات خديجة ،

---

(١٠٨) مسند أحمد ٦ /٥٨ ، البخارى ٧ / ٤٧ ، مسلم ـ فضائل خديجة ٧ /١٣٣

(١٠٩) نساء النبى صـ٥٤

فربما قلت له : كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ، فيقول : « إنها كانت وكانت ويثنى عليها »

وربما كان من وفائه لها حرصه على تتبع أثرها ، فقد اختار مكانا إلى جوار قبرها الذى دفنت فيه ليشرف منه على فتح مكة حين فتحها ، وضرب فيه قبة .

وكان يلتفت بين آونة وأخرى إلى بيتها الحبيب حيث أخذ من نبع الحب والحنان ماتزود به لذلك الكفاح المضنى الطويل »[110]

ويذكر المؤرخون أن دار خديجة فى مكة اشتراها معاوية بن أبى سفيان فى خلافته وجعلها مسجداً .[111]

لقد تركت خديجة من بعدها للنبى - صلى الله عليه وسلم - إلى جانب ماتركته من معانى خالدة - آثاراً مشهودة وذكريات محسوسة ممثلة فى بناتها الأربع زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وكلهن صورة من أمهن العظيمة المباركة ، وبخاصة فاطمة - رضوان الله عليها - التى بقيت بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - وحفظت نسله الشريف الطاهر ، مصداقاً لقول النبى - صلى الله عليه وسلم - « كل بنى أنثى فإن عصبتهم لأبيهم ماخلا ولد فاطمة فأنا عصبتهم أبوهم »[112]

وفى رواية « كل بنى آدم ينتمون إلى عصبته إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم »

---

(١١٠) المرجع السابق صـ٥٥

(١١١) الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب بنت على صـ١٨١

(١١٢) المعجم الكبير للطبرانى حـ٣ برقم ٢٦٣١ وجمع الجوامع حـ٣ صـ١٧٢

سودة بنت زمعة

رضى الله عنها

شعر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد وفاة خديجة ـ رضى الله عنها ـ بوحشة غريبة فى بيته ، ولاعجب فى ذلك فقد كانت ـ كما ذكرنا ـ ملء سمعه وبصره ، وكانت ركناً ركينا يلجأ إليه فى شدته فيجد فيه الأمن والهدوء والاستقرار .

وفى البيت بنات كن فى حاجة إلى أمهن التى تفهم عنهن ماهن فى حاجة إليه .

وقد سبق القول بأن رقية وأم كلثوم كانتا مخطوبتين أو معقود عليهما إلى ابنى أبى لهب ، وقد أقسمت أمهما على ولديها أن يفارقاهما فاستجاب الولدان لأمهما ،

وتزوجت رقية من عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى الحبشة .

وبقيت أم كلثوم وفاطمة مع أبيهما فى البيت أما زينب فكانت قد زفت إلى ابن خالتها أبى العاص بن الربيع .

ولم تغب حالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أصحابه فقد لمسوا ماهو فيه من حزن وأسى ..

فأقبلت إليه خولة بنت حكيم السلمية ـ الملقبة بذات الهجرتين ، لأنها هاجرت مع زوجها عثمان بن مظعون إلى الحبشة ثم إلى المدينة ـ وقالت له : يارسول الله كأنى أراك قد دخلتك خَلَّة لفقد خديجة ؟

فأجاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أجل ، كانت أم العيال وربة البيت »

أجل ـ ومن غير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدرك مكان المرأة فى بيتها ، ويعرف حقها بين أهله ؟

فقالت خولة : يارسول الله ألا تتزوج ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مَن ؟

قالت خولة : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً .

قال : فمن البكر ؟

قالت : بنت أحب الخلق إليك عائشة بنت أبى بكر

قال : ومن الثيب ؟

قالت : سودة بنت زمعة ـ قد آمَنَتْ بك واتبعتك .

فأذن لها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أن تخطب عليه سودة . . . . . .

ولنرجىء الحديث عن عائشة قليلاً ريثما نفرغ من حديث سودة . .

من سودة ؟

هى سودة بنت زَمَعَةَ بن قيس بن عبدشمس بن عبد ود بن نصر بن مالك القرشية العامرية .

وأمها الشموس بنت قيس بن زيد ـ من بنى عامر بن غنم النجارى الأنصارى .

لقد جمعت بين شرف قريش وشرف الأنصار .

وكانت سودة من السابقات إلى الإسلام هى وزوجها السكران بن عمرو ابن عبد شمس أخو سُهَيْلِ بن عمرو .

وكانا من المهاجرين إلى الحبشة فى الهجرة الأولى وعادا إلى مكة .

قال بعض الرواة : إن السكران مات بالحبشة فى هجرته ، وعادت سودة وحدها بدونه إلى مكة .

وقال بعضهم : بل عادا معا ، ومات هو بمكة قبل الهجرة إلى المدينة .

ومضت خولة بنت حكيم إلى سودة . . . لخطبتها على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قالت لسودة : ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ياسودة ؟

فتعجبت سودة من كلامها وقالت لها : وماذاك ياخولة ؟

فقالت خولة : أرسلنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخطبك عليه .

ولايمكن وصف ماانتابها من فرح لهذا الخبر السعيد . .

ولم يسعفها البيان إلا بكلمة فيها غناء كبير عما يعتمل فى نفسها ـ لقد قالت لخولة : وددت . . ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك . .

وكان زمعة فى ذلك الوقت شيخاً كبيراً قد خلفه كبره عن شهود موسم الحج

فدخلت إليه خولة ، وقالت له : إن محمدا بن عبدالله أرسلنى إليك لأخطب عليه ابنتك سودة .

فقال زمعة : إنه كفء كريم . فماذا تقول سودة ؟

فأخبرته خولة بأنها تود ذلك .

فقال لها : ادعيها إلىَّ .

فدعتها خولة ، فقال لها أبوها : أى بنية ، إن هذه تزعم أن محمدا بن عبدالله بن عبدالمطلب قد أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أتحبين أن أزوجك به ؟

قالت سودة : نعم .

فقال زمعة بن قيس لخولة : ادعيه . .

وعادت خولة إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبرته بموافقة زمعة وسودة ، فانطلق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيت زمعة حيث تم العقد والزواج .

وكان أخو سودة واسمه عَبْد بن زمعة فى الحج وعاد ، فلما سمع بزواج أخته من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حثى[113] التراب على رأسه حزناً وغضباً ، فقد كان أحد المشركين الذين يضيقون بالإسلام ويكنون لنبيه العداء . .

وأسلم عبد فيما بعد ، وكان كلما تذكر ماحدث منه يوم غضب لزواج أخته من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حزن وندم وقال : إنى لسفيه يوم أحثو على رأسى التراب أن تزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسودة بنت زمعة[114]

ولعلنا ندرك من ذلك أن سودة كانت فى أسرة مشركة ، فأبوها شيخ كبير مقيم على شركه ، وأخوها ممن يؤذون المسلمين ويكيدون لهم ، وقد كانت فى عصمة زوج مسلم هلك عنها ، فكيف يكون حالها والشرك محيط بها ؟

ومن يدفع عنها أذى أبيها وأخيها وهى الوحيدة بينهم التى تنطق بكلمة الإسلام ؟

---

(١١٣) حثا التراب يحثيه ويحثوه من باب عدا ورمى بمعنى هال وألقى ـ الصحاح ـ

(١١٤) البداية والنهاية لابن كثير حـ٣ صـ١٣٢ ـ أسد الغابة حـ٤ صـ٥١٦

فكان زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة بها وإنقاذاً لها من براثن الكفر، وتعزية لها عن زوجها المخلص الوفى للإسلام .

وانتقلت سودة إلى بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يخل تزوجها من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حديث الناس .

فقد قالوا : أين سودة من خديجة ؟ وماذا تصنع هذه المرأة الأرملة وما تغنى ؟

ولكنهم غفلوا عن حكمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهل يتزوج النبى لمآرب دنيوى ؟

وهل يشغله الشباب أو الثروة ؟

لم يكن زواجه لشىء من ذلك ، بل كان لهدف دينى قبل كل شىء . .

إنه لم ينظر إلى سودة تلك النظرة التى يرونها ، ولكنه نظر إليها نظرة نبى هو ولى المؤمنين ، يأخذ بأيديهم ليقيلهم من عثراتهم ويجبر كسرهم ويعزيهم عن مصائبهم . . .

لقد رأى فيها المرأة المؤمنة الصابرة المجاهدة التى آثرت دينها على أهلها ووطنها ، فخرجت مع زوجها مهاجرة فى سبيل الله . . . . فكيف تترك هذه لتكون فى أيدى المشركين المستهزئين بالدين ورسوله ؟

ولم تقصر سودة فى واجبها فى بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة . . . فقد قامت على شئون البيت ومن فيه ترعاه بكل ماأوتيت من جهد ، وتسهر على خدمة بنات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأسعدها غاية السعادة أن يكون لها مكان فى بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا حَسْبُها . .

ومرت الأيام ، وهاجر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ، وفى المدينة بَنَى النبى - صلى الله عليه وسلم - بزوجته عائشة .

ووهبت سودة ليلتها لعائشة راضية بذلك ، وكان ذلك إيثاراً جميلاً منها تحرت به رضا زوجها الكريم - صلى الله عليه وسلم -

أخلاقها

كانت - رضى الله عنها - مثالا فى حسن الخلق وقوة الإيمان وطيب النفس والصراحة . . . . صلت خلف النبى - صلى الله عليه وسلم - ليلة . ولكنها لم تطق مايطيقه النبى - صلى الله عليه وسلم - من طول قيام وركوع وسجود .

فلما أصبحت قالت له : يارسول الله صليت خلفك الليلة فركعت بى حتى أمسكت بأنفى مخافة أن يقطر الدم[١١٥]

فتبسم النبى - صلى الله عليه وسلم - من قولها . .

ويروى الرواة فى صراحتها أنها كانت ترد على عمر بن الخطاب رغم ماعرف من شدته ، فقد قالوا : إن زوجة عمر راجعته فأغلظ لها ، فقالت له : ومالى لا أراجعك والنبى - صلى الله عليه وسلم - تراجعه زوجاته ؟

فانطلق عمر إلى بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فلقى سودة فسألها : هل تراجعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟

فقالت له : ويحك ياابن الخطاب - دخلت فى كل شىء حتى بين النبى وأزواجه ، فاستحيا عمر وانصرف .

---

(١١٥) الطبقات الكبرى ٨ / ٥٤

وكان عمر قد رأى سودة قبل نزول الحجاب وقد خرجت مع بعض النساء لقضاء بعض حاجاتها ـ وكانت جسيمة لاتخفى على من يعرفها ـ فقال لها : ياسودة قد عرفناك ، وفى رواية : أما والله ماتخفين علينا ، فانظرى كيف تخرجين ؟

فانكفأت راجعة .... تقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ ورسول الله فى بيتى ، وإنه ليتعشى وفى يده عرق فدخلت فقالت : يارسول الله إنى خرجت لبعض حاجتى ، فقال لى عمر كذا وكذا ..

قالت : فأوحى الله إليه ونزلت آية الحجاب

لقد كانت آية الحجاب التى نزلت مما وافق فيه القرآن قول عمر ..

وقد استجابت سودة للنداء فى قوله ـ تعالى ـ « وقرن فى بيوتكن » فما خرجت من بيتها حتى وافاها أجلها فى آخر خلافة عمر ـ كما يقول البعض ، أو فى خلافة معاوية سنة أربع وخمسين كما يقول آخرون .

لقد قالت عنها عائشة ـ رضى الله عنها ـ « مامن امرأة أحب إلىّ أن أكون فى سلافها من سودة بنت زمعة .. »[116] وذكرت لها حسن صنيعها معها ـ رضى الله عنها وأرضاها .

---

(١١٦) صحيح مسلم كتاب ١٧ حديث رقم ١٤٦٣

عائشة بنت الصديق

رضى الله عنها

طلب الرسول من خولة بنت حكيم أيضا أن تخطب عليه ـ عائشة فمضت خولة إلى بيت الصديق ـ وأنهت إلى السيدة أم رومان زوجة الصديق ماجاءت من أجله .

قالت لها : ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟

فقالت أم رومان : وماذاك ؟

قالت خولة : أرسلنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخطب عليه عائشة .

فقالت أم رومان : وددت . انتظرى حتى يجىء أبوبكر . .

وجاء أبوبكر ، فأخبرته خولة الخبر .

ولكن أبابكر قال : إنها ابنة أخيه ، وهل يتزوج الرجل ابنة أخيه ؟

وعادت خولة ـ إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تخبره بذلك .

فقال لها : قولى له أنت أخى فى الدين ، وابنتك تصلح لى . .

وعادت خولة لتخبر أبابكر بما قال لها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال لها أبوبكر : إن المطعم بن عدى كان قد ذكرها لابنه وما وعد أبوبكر أحداً بشىء فأخلف وعده . .

ولكن إرادة الله شاءت ولا راد لمشيئته . . . فبينما كان أبوبكر يوماً فى بيت المطعم بن عدى ، إذا بامرأة المطعم تفاجئه بقولها .

ياابن أبى قحافة لعلنا إن زوجنا ابننا من ابنتك أن تُصْبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ؟

فلم يرد عليها أبوبكر ، والتفت إلى المطعم فقال له : ماتقول هذه ؟
فقال المطعم : إنها تقول ذاك . .

يعنى أنها قالت ماسمعته ، وفهم أبوبكر من ذلك أنهما تواطآ على هذا القول ، وأنه يعنى أشياء كثيرة . . فقد أراد المطعم بن عدى وزوجته أن يشترطا على أبي بكر أن لايدخل ابنهما فى دينه الجديد كشرط لهذا الزواج . . . ولم يوافق أبو بكر على ذلك إذ كيف يشترطان عليه مالايمكن أن يوافق عليه ؟

لقد وهب أبوبكر نفسه لهذا الدين ، يجاهد فى سبيله بماله ونفسه ، ويسترخص فيه كل غال ، فكيف يحول بيده بين ابنته وبين هذا الدين إذا هو زوَّجها بين هؤلاء المشركين الذين يشترطون عليه مالا يقبله ؟

وعاد أبوبكر سعيداً لأنه عرف أن الله قد أراد له ولابنته خيراً كثيراً . . . .

ثم أرسل لخولة وقال لها : ادعى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتم العقد ، وكانت عائشة بنت ست سنين ، ولكنه لم يدخل بها إلا فى المدينة بعد ثلاث سنوات وسنها تسع سنوات . . وكان مهرها ماقيمته خمسون درهما . .

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله « أقلهن مهوراً أكثرهن بركة »

من عائشة ؟

أما عائشة فهى بنت أبي بكر ـ واسمه عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو

ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، يلتقى مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مرة بن كعب . . وقيل : إن أبا بكر كان يسمى عبد الكعبة فغيره النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى عبدالله ، وكان يقال له عتيق لحسن وجهه وجماله ، ولأنه لم يكن فى نسبه شيء يعاب عليه ، أو لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : أنت عتيق الله من النار .

وأمها هى أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس من بنى كنانة وقد توفيت أم رومان سنة ست فى ذى الحجة بعد حادث الإفك ، ونزل النبى - صلى الله عليه وسلم - قبرها ، واستغفر لها ، وقال عنها : « من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان »(١١٧)

وورثت عائشة الفضل من والديها ، ومنحها الله صفات عظيمة أهلتها للقيام بدورها الكبير فى البيت النبوى الشريف ، وفى المجتمع الإسلامى بعد ذلك .

وقد فتحت عائشة عينيها على الإسلام ، فقد ولدت سنة أربع من المبعث فلم تع فى بيت أبويها إلا الإسلام فكأنها ولدت مسلمة ونشأت مسلمة .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يختلف كثيرا إلى بيت أبى بكر ، ولم يكد يمر يوم دون أن يذهب إلى هذا البيت الصديق . .

فقد كان أبو بكر أول من لبى نداء الإسلام من الرجال ، فلم يتردد فى قبوله حين عرضه عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال النبى فى ذلك : ماعرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة ماعدا أبا بكر .

---

(١١٧) أسد الغابة جـ٧ صـ٣٣١ ترجمة أم رومان

وقد لُقِّب بالصديق لذلك . .

وحين توفيت خديجة - رضى الله عنها - حزن النبى - صلى الله عليه وسلم - حزنا شديدا فبعث الله جبريل فأتاه بصورة عائشة فقال : يارسول الله هذه تذهب بعض حزنك ، وإن فى هذه خلفا من خديجة . .

فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين يختلف إلى بيت أبى بكر يقول : ياأم رومان ، استوصى بعائشة خيرا واحفظينى فيها .

فكان لعائشة بذلك منزلة فى بيت أهلها وهم لايشعرون بأمر الله فيها(١١٨)

وفى يوم جاء النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت أبى بكر كما كان يجىء ، فوجد عائشة متسترة بباب الدار وهى تبكى بكاء حزينا ، فسألها ، فشكت إليه أمها وأنها تقسو عليها .

فدمعت عينا النبى - صلى الله عليه وسلم - ودخل على أم رومان فقال : ياأم رومان ، ألم أوصك بعائشة أن تحفظينى فيها ؟

فقالت : يارسول الله ، إنها بلَّغت الصديق عنى ماأغضبه علىَّ . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : وإن فعلت .

فقالت أم رومان : لاجرم ، لا سُؤْتُها أبدا .(١١٩)

لقد عرف النبى - صلى الله عليه وسلم - أن عائشة ستكون زوجته ، أنبأه بذلك جبريل - كما رأينا فى الخبر السابق - وكما نرى فى هذا الخبر الذى ورد فى

---

(١١٨) طبقات ابن سعد حـ ٨ صـ ٥٤

(١١٩) طبقات ابن سعد حـ ٨ صـ ٥٤

الصحيحين . . من أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها : « أُريتك فى المنام مرتين ، أرى أنك فى سَرَقة ـ شقة بيضاء ـ من حرير ويقول : هذه امرأتك فأكشف عنها فإذا هى أنت ، فأقول : إن يك هذا من عند الله يمضه »

كيف تتزوج وهى صغيرة ؟

ولم يكن هذا الزواج بدعا عند العرب ، بل هو أمر مألوف .

فلا بأس أن تخطب البنت صغيرة . حتى إذا ماأدركت زُفّت ولم تُزَف عائشة إلا بعد الهجرة وبعد أن أدركت .

وفارق السن لايؤبه به إلا عند متحذلقى العصر الحديث .

وليست العبرة بالسن ولكن العبرة بالألفة التى تكون بين الزوجين . . . . فهل انقطعت الألفة بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخديجة وكانت تكبره بخمسة عشر عاما ، كلا بل كانت أوثق ماتكون .

وهل انقطعت الألفة بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعائشة ، وكان يكبرها بما يقرب من نصف قرن ؟ كلا ، بل كانت الألفة بينهما أوثق ماتكون لقد كان زواجا ناجحا بكل المقاييس .

وكان مثل هذا الزواج كثيرا مايحدث فى البيئة العربية ، ومازال يحدث فى الريف الذى يعنى بالمثل والمعانى أكثر مما يعنى بالمظاهر والشكليات والعقد النفسية الحديثة .

ولم تكن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أول فتاة تزف فى تلك البيئة الى رجل فى سن أبيها ولن تكون ـ لقد تزوج عبد المطلب الشيخ من هالة بنت عم

آمنة فى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه تِرب هالة ـ آمنة بنت وهب .

وتزوج بعد ذلك عمر بن الخطاب من أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وهو فى سن فوق سن أبيها .

وعرض عمر على أبى بكر ـ أن يتزوج ابنته الشابة حفصة وبينهما من فارق السن مثل الذى بين المصطفى وعائشة[١٢٠]

لقد اتضحت حكمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى زواجه من عائشة الصغيرة السن التى تفتحت عيناها على هذا الدين ، فوعت كل كلمة قالها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحفظتها وقدمتها للمسلمين كما سمعتها فانتفعوا بها . . . وكان الرواة يذهبون إليها فيسمعون منها مالم يسمعوه من غيرها .

ولم يتم زفاف عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا فى المدينة بعد الهجرة ، وقد بلغت التاسعة من عمرها أو زادت عليها قليلا .

وفى بيت متواضع شيد حول المسجد النبوى من لَبِن وسعف النخيل ووضع فيه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير ، وعلى فتحة الباب أسدل ستار من شعر ـ أقامت عائشة .

وقد سئلت عائشة متى بنى بك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

---

(١٢٠) نساء النبى لبنت الشاطىء صـ٨٢

فقالت : لما هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة خلفنا وخلف بناته فى مكة . . . . فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة ، ويعث معه أبا رافع مولاه ، فأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذها من أبى بكر . يشتريان بها مايحتاجان إليه من الظهر .

وبعث أبو بكر عبد الله بن أريقط الدئلى معهما ببعيرين أو ثلاثة ، وكتب إلى عبد الله بن أبى بكر يأمره أن يحمل أهله ، أمى - أم رومان وأنا وأختى أسماء - امرأة الزبير ، فخرجوا مصطحبين .

فلما انتهوا إلى قديد اشترى زيد بن حارثة بتلك الخمسمائة ثلاثة أبعرة ، ثم رحلوا من مكة جميعا ، وصادفوا طلحة بن عبدالله يريد الهجرة . . . فخرجنا جميعا وخرج زيد بن حارثة وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة .

وحمل زيد أم أيمن وأسامة بن زيد ، وخرج عبد الله بن أبى بكر بأم رومان وأختيه ، وخرج طلحة بن عبد الله . واصطحبنا جميعا ، حتى إذا كنا بالبيش من منى نفر بعيرى وأنا فى مَحَفَّة معى فيها أمى ، فجعلت أمى تقول : وابنتاه واعروساه .

حتى أدرك بعيرنا وقد هبط من مرتفع فسلَّم الله - عز وجل - ثم إنا قدمنا المدينة فنزلت مع عيال أبى بكر ، ونزل آل رسول الله،ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ يبنى المسجد وأبياتا حول المسجد ، فأنزل فيها أهله .

ومكثنا أياما فى منزل أبى بكر .

ثم قال أبو بكر : يارسول الله . مايمنعك أن تبنى بأهلك ؟
قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصداق .

فأعطاه أبو بكر الصداق « وكان اثنتى عشرة أوقية ونشا[١٢١] » فبعث بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلينا .

وبنى بى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيتى هذا الذى أنا فيه ، وهو الذى توفى فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنفسه بابا فى المسجد تجاه باب عائشة .

قالت : وكانت سودة فى أحد تلك البيوت التى إلى جنبى[١٢٢] .

منزلتها

نالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ منزلة عظيمة فى بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين زوجاته . فقد كانت حريصة أشد الحرص على تعلم فرائض الشريعة وأحاديث الرسول وفروع الدين .

حدث الأعمش عن مسلم عن مسروق أنه قيل له : هل كانت عائشة تعرف الفرائض ؟

فقال : والذى نفسى بيده ، لقد رأيت مشيخة أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأكابر يسألونها عن الفرائض . .

وإذا علمنا أن الفرائض هى من أدق علوم الفقه علمنا كيف كانت

---

(١٢١) النش : عشرون درهما ويبدو أنه من ذهب
(١٢٢) الطبقات ٨ /٤٢

منزلتها العلمية ـ ولم لا وهى الصديقة بنت الصديق .

ولقد بلغ من منزلتها أنها كانت ترى جبريل أحيانا .

حدث الشعبى عن مسروق قال : قالت لى عائشة : لقد رأيت جبريل واقفا فى حجرتى هذه على فرس ورسول الله يناجيه ، فلما دخل قلت : يارسول الله . من هذا الذى رأيتك تناجيه ؟

قال : وهل رأيتِ ؟

قلت : نعم .

قال : فيمن شبهتيه ؟

قلت : بدحية الكلبى .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لقد رأيت خيرا كثيرا ، ذاك جبريل .

قالت : فما لبثت إلا يسيرا حتى قال : ياعائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام .

قلت : وعليه السلام ، جزاه الله خيرا .

لقد كانت عائشة تعلم الرجال والنساء ـ لأنها تخرجت فى مدرسة النبوة، ورعاها نبى البشرية ومعلمها ، فجمعت من الفضل والبيان ماجعلها تخلِّف فى التاريخ دويا تتناقل أصداءه العصور .

لقد غدت عائشة معلمة لكل امرأة فى العالم الإسلامى على مر العصور ، وكانت خير زوجة اهتمت بالتلقى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فبلغت من العلم والبلاغة ماجعلها معلمة للفحول من الرجال ، ومرجعا لهم فى الحديث والسنة والفقه .

قال الزهرى : لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل »[١٢٣]

وقال عروة مارأيت أحدا قط كان أعلم بآية أنزلت ولا بفريضة ولا بسنة ولابيوم من أيام العرب ولا بنسب ولابكذا ـ ولا بكذا ولا بقضاء وطب من عائشة . . . فقلت لها : ياخالة ، الطب من أين علمته ؟

فقالت : كنت أمرض فينعت لى الشيء ، ويمرض المريض فينعت له ، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه »[١٢٤]

ويمكن الاستشهاد على براعتها فى الحفظ بما ذكر عنها فى كتاب الدر المنثور . . . .

قال القاسم بن محمد بن أبى بكر : لما قتل أبى بمصر ، جاء عمى عبد الرحمن بن أبى بكر فاحتملنى أنا وأختا لى من مصر ، فقدم بنا إلى المدينة .

فبعثت إلينا عائشة فاحتملنا من منزل عبد الرحمن إليها ، فما رأيت والدة قط ولا والدا أبر منها . فلم نزل فى حجرها حتى أدركنا . . . . .

ثم بعثت إلى عمى عبد الرحمن ، فلما دخل عليها تكلمت ، فحمدت الله ـ عز وجل ـ وأثنت عليه ـ فما رأيت متكلما ولامتكلمة قبلها ولابعدها أبلغ منها .

---

(١٢٣) المستدرك للحاكم فى معرفة الصحابة ٤ /١١

(١٢٤) نساء حول الرسول ـ لمحمود مهدى الاستانبولى ، د . مصطفى أبوالنصر صـ ٥٨ مكتبة السوادى / جدة

ثم قالت : ياأخى ، إنى لم أزل أراك معرضا عنى منذ قبضت هذين الولدين منك ، والله ماقبضتهما تطاولا عليك ، ولاتهمة لك فيهما ، ولا لشيء تكرهه ، ولكنك كنت رجلا ذا نساء ، وكانا صغيرين لايكفيان من أنفسهما شيئا ، فخشيت أن يرى نساؤك منهما مايتقذرن به من قبيح أمر الصبيان ، فكنت ألطف لذلك وأحق لولايته والآن فقد قويا على أنفسهما ، وشبأ وعرفا مايأتيان ، فهاهما هذان فضمهما إليك وكن لهما كحجية بن المضرب .....

ثم قصت قصة حجية هذا فقالت :

كان لحجيةٌ أخ يقال له معدان ـ فمات ، وترك صبية صغارا فى حجر أخيه ، فكان أبر الناس بهم وأعطفهم عليهم ، وكان يؤثرهم على صبيانه ..... فمكث بذلك ماشاء الله .

ثم إنه عرض له سفر لم يجد بدا من الخروج فيه فخرج ـ وأوصى بهم امرأته ، وكانت إحدى بنات عمه ، وكان يقال لها زينب . فقال لها : اصنعى ببنى أخى ماكنت أصنع بهم .

ثم مضى لوجهه ، فغاب شهرا ، ثم رجع وقد ساءت حال الصبيان وتغيرت .

فقال : ويلك ، مالى أرى بنى معدان مهازيل ، وأرى بنىّ سمانا ؟

قالت : كنت أواسى بينهم ، ولكنهم كانوا يعبثون ويلعبون .

فخلا بالصبيان ، فقال لهم : كيف كانت زينب تصنع بكم .

قالوا : سيئة ، ماكانت تعطينا من القوت إلا ملء هذا القدح من لبن ، وأروه قدحا صغيرا .

فغضب حجية على امرأته غضبا شديدا ، وتركها وخرج . . فأعطى إبله لبنى معدان . فغضبت من ذلك زينب وهجرته ، وضربت بينها وبينه حجابا ـ فقال : والله لاتذوقين منها صبوحا ولاغبوقا أبدا ، وقال فى ذلك أبياتا منها :

لججنا ولجت هذه فى التغضب ولطَّ الحجاب بيننا والتجنب
رحمت بنى معدان إذ قل مالهم وحق لهم منى ورب المحصب
وكان اليتامى لايسد اختلالهم هدايا لهم فى كل قعب مشعب
فقلت لعبدينا أريحا عليهم سأجعل بيتى بيت آخر مغرب
وقلت : خذوها واعلموا أن عمكم هو اليوم أولى منكم بالتكسب
عيالى أحق أن ينالوا خصاصة وأن يشربوا رنقا الى حين مكسب
أحابى بها من لو قصدت لماله حريبا لآسانى على كل موكب
أخى والذى إن أدعه لعظمته يجبنى ، وإن أغضب الى السيف يغضب

قالت عائشة : فلما بلغ زينب هذا الشعر خرجت حتى أتت المدينة ، فأسلمت وذلك فى ولاية عمر بن الخطاب .

فقدم حجية المدينة فطلب زينب أن ترد عليه ـ وكان نصرانيا ـ فنزل بالزبير بن العوام فأخبره بقصته .

فقال له الزبير : إن امرأتك قد أسلمت ، ولم تعد تحل لك . وإياك أن يبلغ هذا عنك عمر فتلقى منه أذى .

وانتشر خبر حجيَّة فى المدينة وعلم فيم كان مقدمه ، فبلغ ذلك عمر ، فقال للزبير :

قد بلغنى قصة ضيفك ، ولقد هممت به لولا تحرمه بالنزول عليك .

فرجع الزبير إلى حجية فأعلمه قول عمر . فمدحه بقصيدة ثم انصرف من عنده متوجها إلى بلده تاركا زينب ، وقال فى ذلك قصيدة .

ثم قالت عائشة : وأنا والله ياأخى خشيت عليك من مثل ذلك لئلا يصيبك مع نسائك ما أصاب حجية وزينب . وأما الآن فقد كبرا وصارا يمكنهما أن يدفعا عن أنفسهما تعديات غيرهما .

فأخذهما عبدالرحمن إليه وهو يثنى على عائشة[١٢٥]

فهذا الخبر يشير إلى معرفتها بالأخبار واستقصائها لها ، وحفظها للشعر وروايتها له .

حدث عروة عن أبيه قال : ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتا والمائة بيت[١٢٦]

ولقد رويت لها خطب كانت فى منتهى البلاغة والفصاحة ، وقد اعتنى الرواة بجمعها وروايتها .

وكانت لها كلمات تذهب مذهب الحكم والأمثال . .

رؤيت وهى تخيط منقبة فقيل لها : يا أم المؤمنين : أليس الله قد أكثر الخير؟ فقالت : لا جديد لمن لا خَلَق له .

وسئلت عن الحناء فقالت : شجرة طيبة وماء طهور . . . .

---

(١٢٥) الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب بنت على صـ ٢٨١

(١٢٦) الطبقات ٨ / ٥٠

وكانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ كثيرة العبادة ، فقد كانت تصوم أكثر الدهر . .

كما كانت كريمة زاهدة . . . . أخبر أبو معاوية الضرير عن الأعمش فى خبر يرويه عروة بن الزبير قال : رأيت عائشة تتصدق بسبعين ألفا . .

وقالت أم ذرة : بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال فى غرارتين ـ قد يكون مائة ألف ، فدعت بطبق ـ وهى يومئذ صائمة ـ فجعلت تقسم فى الناس ، فلما أمست قالت : يا جارية ، هاتى فطرى ، فقالت أم ذرة : يا أم المؤمنين ، أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه ؟

فقالت : لا تعنفينى ، لو كنت أذكرتنى لفعلت .(١٢٧)

وهذا الزهد هو الزهد الجميل ، زهد الواجد لا زهد الفاقد . على أن ذلك لم يمنعها من التمتع بطيبات الحياة أحيانا ـ امتثالا لقوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾(١٢٨)

فقد روى عنها أنها كان لها كساء من خز تلبسه فأعطته عبدالله بن الزبير .

---

(١٢٧) الطبقات ٨ /٤٦

(١٢٨) الأعـراف ٣٢

وروت شميسة أنها دخلت على عائشة وعليها ثياب من السير[129] الصفاق ودرع وخمار ونقبة قد لونت بشيء من عصفر[130]

لقد كانت ـ رضى الله عنها ـ ذات أفق واسع ونظرة بعيدة . . . . سأل بعضهم القاسم بن محمد : إن ناسا يزعمون أن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن الأحمرين ـ العصفر والذهب ـ فقال : كذبوا ، والله لقد رأيت عائشة تلبس المعصفرات وتلبس خواتم الذهب.[131]

وكانت ـ رضى الله عنها ـ تنصح النساء أن يتجملن فى نظر أزواجهن . فقد حدثت بكرة بنت عقبة أنها دخلت على عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهى جالسة فى معصفرة فسألتها عن التزين ـ فقالت لها : إن كان لك زوج واستطعت أن تجعل مقلتيك أحسن مما هى فيه فافعلى[132]

لقد فهمت الدين فهما صحيحا ، وأنه أباح الزينة والتمتع بالطيبات التى أحلها الله ـ بل لقد لبست ـ رضى الله عنها ـ الغراء ـ

قال لها محمد بن الأشعث : ألا نجعل لك فروا نهديه إليك فإنه أدفأ تلبسينه ؟

فقالت : إنى لأكره جلود الميتة .

---

(١٢٩) السير : نوع من الثياب ، والسيراء ضرب من البرود وقيل يخالطها حرير (اللسان)

(١٣٠) الطبقات حـ ٨ ص ٤٨

(١٣١) الطبقات حـ ٨ صـ ٤٨

(١٣٢) الطبقات حـ ٨ صـ ٤٨

فقال : إنى سأقوم عليه ولا أجعله إلا ذكيا ، فجعله فأرسل به إليها فكانت تلبسه .[133]

على أن ذلك كله لم يكن بقصد التزين أو التفاخر ، ولكنه كان شيئاً كما اتفق ، يجىء أمراً طبيعيا ـ تقديرا لنعمة الله ، وتوضيحا على أن التزمت فى فهم الدين مرفوض ، وهى فى مقام القدوة ينظر إليها المسلمون رجالهم ونساؤهم نظرة اقتداء وتأسى .

ولذلك فهى تحذر من الخروج على حدود الحشمة . دخلت عليها حفصة بنت عبدالرحمن بن أبى بكر وعليها خمار رقيق يشف عن جيبها ، فشقته عائشة عليها وقالت : أما تعلمين ما أنزل الله فى سورة النور ؟ ثم دعت بخمار فكستها به .[134]

حادث الإفك

ولو لم يكن لعائشة من الفضل إلا أن أثبت الله براءتها مما حيك حولها من افتراء لكفى . . . . لقد نزلت آيات كثيرة من سورة النور من أجل حادث الإفك الذى نوجزه فيما يأتى من روايتها عنه : ـ

قالت : ـ كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله ـ ﷺ ـ وأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى ، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة ، فقمت حين أذنوا بالرحيل ، فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت بعض شأنى .

---

(١٣٣) الطبقات ٨ /٤٩

(١٣٤) الطبقات ٨ /٥٠

وأقبلت إلى الرحل فلمست صدرى ، فإذا عقدى قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسنى ابتغاؤه ، وارتحل القوم ولم أشعر وأرحلوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن[١٣٥] ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن القليل من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رفعوه ، إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن .

ووجدت عقدى فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب ، فيممت مكانى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلىَّ .

فبينا أنا جالسة فى مكانى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى قد تأخر من وراء الجيش فأدلج[١٣٦] ، فأصبح عند مكانى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفنى حين رآنى واسترجع .

فاستيقظت وخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما كلمنى ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته وركبتها ، وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا فى نحر الظهيرة .[١٣٧]

قالت : فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبدالله بن أبى بن سلول . واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا ، والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك .

قالت : ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله - ﷺ - اللطف

---

(١٣٥) لم يثقلهن اللحم والشحم

(١٣٦) سار آخر الليل

(١٣٧) شدة الحر

الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله ـ ﷺ ـ فيسلم ، ثم يقول : كيف حالكم ؟ .. ويسكت

فذاك يريبنى ، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت ، وخرجت معى أم مسطح نحو المناصع .(١٣٨)

ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح .
قلت : بئسما قلت ، أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟
قالت : أو لم تسمعى ما قال ؟
قلت : وماذا قال ؟
فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا على مرضى .
فلما رجعت إلى بيتى ، دخل عِلَّ رسول الله ـ ﷺ ـ فسلم ـ فاستأذنت أن آتى أبوىّ ، أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ـ فأذن لى .

قالت أمى : يابنية هونى عليك ..
قلت : سبحان الله ، وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ... ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتمل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى .

فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ـ ﷺ ـ فسلم ثم جلس وتشهد .... ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنى قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى

---

(١٣٨) أماكن فى خلاء المدينة

إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله .
فقال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله .
فقلت لأمى : أجيبى عنى .
فقالت كذلك : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .

قلت ـ وأنا جارية حديثة السن ـ إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا الذى استقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فإن قلت لكم إنى بريئة ـ والله يعلم أنى بريئة ـ لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أنى بريئة ـ لتصدقوننى .

وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبويوسف : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »
ثم تحولت فاضطجعت على فراشى

.. فوالله ما رام رسول الله مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله ـ عز وجل ـ على نبيه الوحى ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان(١٣٩) فى اليوم الشاتى .

فلما سرى عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يضحك ـ كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ، أما الله فقد برأك الله .

---

(١٣٩) أى يتحدر العرق منه مثل الدر

قالت لى أمى : قومى إليه .

قلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله هو الذى أنزل براءتى .

قالت : .... وكان أبوبكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره ، فأقسم لا ينفق عليه شيئاً أبدا ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾(١٤٠)

فقال أبوبكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، ورجع إلى مسطح بالنفقة التى كان ينفقها عليه .. »

هذه هى قصة الإفك برواية السيدة عائشة نفسها ـ رضى الله عنها ـ على اختصار غير كثير فيها .

وهى تشهد بمدى ما عانته السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ـ من ذلك الأمر ـ وهى الفتاة الصغيرة الرقيقة الطيبة القلب التى لا تعرف اللف والدوران اللذين تلجأ إليهما النساء عادة ، ولا تجيد المكر والكيد الذى ورد فيه قوله تعالى

« إن كيدهن عظيم »

---

(١٤٠) سورة النور ٢٢

وقد وصف القرآن هذه البراءة فقال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾[141]

ولقد تصرفت عائشة حين سمعت بهذا الحديث لأول مرة من أم مسطح بعد نقائها من مرض ألم بها ـ تصرف الفتاة البريئة التى لا تعرف اصطناع المكر أو الدهاء ، فاستأذنت لتذهب إلى بيت أهلها وغضب البرىء المشكوك فيه ، وإنها لبريئة فى نظر كل منصف .

ولقد كان النبى ـ ﷺ ـ يعلم براءتها ، ويثق أن عائشة لا يمكن أن يحدث منها مالاكته الألسن الوضيعة بشأنها ـ وقد صعد المنبر يوما وقال :

« يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً[142] والمسلمون الصادقون واثقون من براءتها ، ولكن المنافقين هم الذين روجوا هذه الشائعة ، وجعلوا يذيعونها لتكون امتحانا يمتحن الله به إيمان الناس ، ولذلك نجح من نجح وهلك من هلك .

---

(١٤١) النور ٢٣

(١٤٢) تفسير ابن كثير حـ ٥ صـ ٢٠

ولذلك قال الله - تعالى -

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (١٤٣)

وقد أنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات .

كان النبي - ﷺ - بإمكانه أن يفض السمع عن تلك القالة اكتفاء بما يعلمه من طهارة أهله ، وطهارة صفوان ، والرسول هو ولى المؤمنين . . . ولكنه أراد أن تظهر براءة زوجته أمام الخلق جميعا وعلى مدى الأيام والدهور - قرآنا يتلى فى كل وقت وآوان . .

لقد مكثت هذه القصة شهرا دون أن ينزل فيها قرآن ، وكان كل يوم يمر يضاعف من ألم المبتلين بها وهم أصحابها وأقرب المقربين إليها : عائشة وأبوها وأمها وكل من يلوذ بها من المحبين الصادقين لها . .

فلما نزل القرآن الكريم يبرىء ساحتها أقبل أبوها إليها وعيناه تدمعان بدموع الفرح وأخذ يقبل رأسها ، وكذلك فعلت أمها . .

وقالت لأبيها : يا أبتاه هلا كنت عذرتنى ؟

---

(١٤٣) النور ١١

فأجاب الصديق : أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت بمالا أعلم .

وخرج النبى - ﷺ - إلى المسجد وتلا على الناس ما نزل من قرآن وأقام الحد على الذين خاضوا فى الإفك .

وكان منهم حسان بن ثابت ، ولكنه أنكر أن يكون قد قال شيئاً من ذلك



وأنشأ قصيدة يصف فيها أم المؤمنين عائشة بقوله :

حصان رزان ماتزان بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصباً ... نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤى بن غالب ... كرام المساعى مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل شَيْن وباطل
فإن كان مابُلِّغتِ أنى قلته ... فلا رفعت سوطى إلىَّ أناملى
فكيف وودى ماحييت ونصرتى ... لآل رسول الله زين المحافل ؟
له رُتَبٌ عالٍ على الناس فضلها ... تقاصر عنها سورة المتطاول .

وعَفَتْ عائشة عن حسان ، وقبلت معذرته ، فكان إذا ذكر عندها تقول : إنه كان يذب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بشعره ، وكانت تستشهد بما قاله في ذلك .

قيل لها : يأم المؤمنين ، أليس هذا لغوا ؟ - يعنون إنشاد الشعر - فقالت : لا ، إنما اللغو ماقيل عن النساء .

قيل لها : أليس الله يقول « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » ؟
قالت : أليس قد أصابه عذاب عظيم ؟ أليس قد ذهب بصره وكُنِّع[١٤٥] بالسيف - تعنى بذلك ضربة صفوان له بالسيف حين بلغه أنه يتكلم في ذلك فعلاه بالسيف - وكاد أن يقتله[١٤٦]

---

(١٤٥) تفسير القرطبي جـ١٢ صـ٢٠٠
(١٤٦) تفسير ابن كثير جـ٦ صـ٢٦

المصيبة العظمى

وتضاعف سرور عائشة بعد أن طهرها الله من خوض الخائضين بالإفك ، وتضاعف حب النبى - صلى الله عليه وسلم - لها حتى قال لها فيما يرويه الرواة : « حبك ياعائشة فى قلبى كالعروة الوثقى » .

ولقد عرفت زوجاته الأخريات حب النبى - صلى الله عليه وسلم - لها فكن يغرن بسبب ذلك . .

والغيرة وليدة الحب ومن علاماته ، وكانت عائشة تغار من ثناء الرسول على السيدة خديجة وقد واراها التراب قبل أن تصبح زوجة للرسول بثلاث سنوات وقبل أن يدخل بها بست سنوات . ووصفتها بأنها عجوز ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - على الرغم من حبه لعائشة لم يسمح لها أن تقدح فى خديجة بسبب غيرتها منها - بل ألزمها الحد الذى يجب أن تقف عنده ، وقال لها : والله ماأبدلنى الله خيراً منها ، لقد صدقتنى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس .

وقد أشاد النبى - صلى الله عليه وسلم - بفضل عائشة فى أحاديث مختلفة ، وكان يقول لها فى مداعبة طريفة : إنى أعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت علىَّ غضبى .

قالت : فقلت : ومن أين تعرف ذلك ؟

قال : أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين ؛ لاورب محمد ، وإذا كنت غضبى قلت : لاورب إبراهيم .

قالت : قلت : أجل والله يارسول الله . .

وظلت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سعيدة بهذه النعمة التى أنعم الله بها عليها ، وهى تزوجها من سيد الخلق ـ ﷺ ـ وحبها العظيم له ، وحبه لها . . حتى لقد كان يبلغها سلام ربه وسلام جبريل عليها . .

وحتى إنه ليحدثها بأنه كان لها كأبى زرع لأم زرع .

وحديث أم زرع مشهور لدى الرواة خلاصته أن إحدى عشرة امرأة اجتمعن وتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً .

وأخذت كل واحدة تقص ماتعلمه حتى قالت أم زرع : زوجى أبو زرع . . فما أبوزرع ؟ أناسَ من حُلِيٍّ أذنى(١٤٧) ، وملأ من شحم عضدى ، وفرحنى حتى عظمت إلىَّ نفسى ، وجدنى فى أهل غنيمة بشق(١٤٨) ، فجعلنى فى أهل صهيل وأطيط(١٤٩) ودائس(١٥٠)ومُنَقٍّ(١٥١) ، فعنده أقول فلا أقبح . . . . وظلت أم زرع تحكى من فضائل زوجها أبى زرع . .

قالت عائشة وهى تروى هذا الحديث : قال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كنت لك كأبى زرع لأم زرع(١٥٢)

وظلت عائشة فى هذه النعمة حتى جاءت أيام كانت شديدة البأس عليها

---

(١٤٧) أناس : تقصد ملأ من الحلى أذنى فأخذت تتحرك لكثرتها
(١٤٨) بشق : أى بشق جبل ـ وفى ذلك كناية عن قلة الغنيات وضيق المكان
(١٤٩) الأطيط : صوت الإبل ، والصهيل : صوت الخيل
(١٥٠) الدائس : الذى يدوس الزرع فى البيدر ـ هو آلة الدَّواس ـ
(١٥١) المنق : من النقيق وهو صوت المواشى
(١٥٢) صحيح مسلم جـ ٥ صـ ٣٠٣ حديث رقم ٩٤

وعلى غيرها من زوجات الرسول ، وعلى المسلمين جميعاً وذلك حين مرض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرض الموت ، وكان ذلك بعد عودته من حجة الوداع فى نهاية العام العاشر من الهجرة .

ففى شهر صفر من العام الحادى عشر ، شعر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتعب ذات ليلة . .

كان قد ذهب إلى البقيع ليستغفر لأهله وعاد .
ووجد عائشة تشكو صداعاً وتقول : واراساه .
فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل أنا والله ياعائشة واراساه .

وبدأ الوجع يتزايد عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو لاينسى عدله بين زوجاته ، يعطيهن نصيبهن من مقامه فى بيوتهن . ولم يشأ أن يصارحهن برغبته فى أن يبقى فى مكان واحد بسبب هذه الظروف الصحية الطارئة . .

فتلطف فى سؤالهن : أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟
يرجو أن يجبنه قائلات : عند عائشة ، ويأْذَنَّ له أن يقيم فى بيتها تمرضه ، ولو أقام حيث أراد لما كان فى ذلك من حرج عليه .

ولكنه هو صاحب الخلق القويم الذى يشرح للناس مايجب أن يكونوا عليه من عدل وحسن معاملة .

ولم يقم ببيت عائشة إلا بعد أن أَذِنَّ له بذلك .
وتحملت هى العبء الأكبر فى تمريضه ـ صلى الله عليه وسلم ـ
وحين اشتد به المرض أمر أبابكر أن يصلى بالناس وهو فى بيتها ، وقد

أرادت مراجعته فى ذلك خوفاً من أن يتشاءم الناس من أبيها الذى خلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مرض موته . .

وجاءت اللحظة الحاسمة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيت عائشة . . إذا بملك الموت يأتى . ويراه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعرف أنه يخيره بين البقاء أو اللحاق بالرفيق الأعلى . .

فيهتف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً : بل الرفيق الأعلى ويُقْبض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى بيت عائشة .

كانت سنها حين توفى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثمانى عشرة سنة ، لقد تأيمت صغيرة ، ولكنها كانت قد تعلمت فى حياتها الكثير . .

لقد تركت صحبة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حياتها بركة كبيرة ، حتى كانت مرجعاً للناس فى مهامهم وأمور دينهم ودنياهم .

بعد الرسول

عاشت السيدة عائشة فى بيتها بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا البيت الذى شهدت فيه أجمل أيام حياتها معه ، وكانت ملء سمع المسلمين وأبصارهم ، يرجعون إليها فيما يشكل عليهم من أمور ، فقد كانت المرجع الأول فى الحديث والسنة والفقه .

ولقد مرت بنا كلمة مسروق بن الأجدع عنها : لقد رأيت أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأكابر يسألونها فى الفرائض .

وكان مسروق إذا حدث عنها يقول : حدثتنى الصديقة بنت الصديق . . . زوجة رسول الله ـ ﷺ ـ

أما عروة فيقول عنها : مارأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بسنة من عائشة .

ويقول أبو موسى الأشعرى : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما . .

وكان لها دور فى وقعة الجمل المشهورة لغط حوله كثير من الرواة ، ولكنا نقول فى ذلك ماقاله القرطبى فى تفسيره نقلاً عن ابن العربى الذى حكى قول كثير من العلماء : إن عائشة ـ رضى الله عنها ـ نذرت الحج قبل الفتنة ، فلم تر التخلف عن نذرها ، ولو خرجت فى تلك الثائرة لكان ذلك صواباً لها ـ وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب ، ولكن تعلق الناس بها ، وشكوا إليها ماصاروا إليه من عظيم الفتنة . . . وتهارج الناس ، ورجَوْا بركتها ، وطمعوا فى الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق ، وظنت هى ذلك ، فخرجت مقتدية بالله فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (١٥٣)

وقوله :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا

---

(١٥٣) النساء ١١٤

عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ (١٥٤)

والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى ، فلم يرد الله ـ تعالى ـ بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح ، ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان ، فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه ، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة ـ رضى الله عنها ـ فاحتملها إلى البصرة ، وخرجت فى ثلاثين امرأة أرسلهن على بن أبى طالب معها حتى أوصلوها إلى المدينة برَّةٌ تقية مجتهدة ، مُثابة فيما تأولت ، مأجورة فيما فعلت ، إذ كل مجتهد فى الأحكام مأجور(١٥٥)

وذكر الثعلبى وغيره أن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت كلما قرأت قوله ـ تعالى ـ

« وقَرْنَ فى بيوتكن . . . »

تبكى حتى تبل خمارها لأنها شعرت أن القرار فى البيت كان أولى بها من الخروج يوم الجمل . .

وهذه يقظة منها وشعور قوى بالتبعة وعظم المسئولية التى توجه إليها الآية الكريمة . .

ومن أولى بأمهات المؤمنين فى التنبه لذلك ؟

---

(١٥٤) الحجرات ٩

(١٥٥) تفسير القرطبى جـ١٤ صـ١٨١ سورة الأحزاب

ذكر الرواة أن أم المؤمنين سودة قيل لها : لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك ؟

فقالت : قد حججت واعتمرت . وأمرنى الله أن أقر فى بيتى . قال الراوى : فو الله ما خرجت حتى أخرجت جنازتها ـ رضوان الله عليها ـ

كانت وقعة الجمل سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وبعدها بحوالى اثنتين وعشرين عاما ـ وقعت فى خلالها أحداث وأحداث لم تشارك فيها السيدة عائشة ـ كانت وفاتها ـ رضى الله عنها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . .

لقد شهد جميع المسلمين بفضلها حتى الذين كانوا فى الصف الذى يقابلها يوم الجمل .

لقد سمع عمار بن ياسر ـ وكان فى الصف الذى يقابلها ـ رجلا ينال من عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقال له : اسكت مقبوحا منبوذا ـ والله إنها لزوجة رسول الله ـ ﷺ ـ فى الدنيا وفى الآخرة .

وحين حانت وفاتها جاء ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ يستأذن لعيادتها وتوديعها ، فدخل عليها فقال لها : أبشرى .

فقالت : بماذا ؟

فقال : مابينك وبين أن تلقى محمدا والأحبة إلى أن تخرج الروح من الجسد ، وكُنْتِ أحب نساء رسول الله ـ ﷺ ـ إليه ، ولم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ إلا طيبا ، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ وأصبح الناس وليس معهم ماء ، فأنزل الله آية التيمم ، وأنزل الله براءتك

من فوق سبع سموات ، جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار . .

فقالت ـ رضى الله عنها ـ دعنى منك يا ابن عباس ، والذى نفسى بيده لوددت أنى كنت نسيا منسيا . .(١٥٦)

لقد عزفت عن تلك الشهرة التى يجرى وراءها كافة البشر ويدفعون ثمنا لذيوعها الكثير والكثير .

وأحست عائشة بدنو ساعة لقائها بربها فأملت وصيتها الشفوية قائلة : لا تتبعوا سريرى بنار ، ولا تجعلوا تحتى قطيفة حمراء ، وادفنونى مع أزواج النبى ـ ﷺ ـ وادفنونى من ليلتى . .

وفى ليلة السابع عشر من رمضان سنة ثمان وخمسين فاضت روحها الطاهرة بعد صلاة العشاء .

فاجتمع الناس من كل صوب ، وبعد صلاة الوتر حملت جنازتها إلى البقيع ، وصلى عليها أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ وكان أمير المدينة بالنيابة عن مروان الذى كان فى عمرة . .

ونزل فى قبرها أولاد أختها وأولاد أخيها .

لقد أشعل الناس السعف للإضاءة وهم يلتمسون الطريق إلى البقيع خلف جنازتها حتى قال ابن أبى عتيق عن أبيه : رأيت ليلة ماتت عائشة

---

(١٥٦) البداية والنهاية لابن كثير جـ٨ صـ٦٤

النساء بالبقيع كأنه عيد . . ويعني ذلك أنه لم يتخلف أحد من الرجال أو النساء عن تشييع جنازتها حتى لقد نزل الناس من العوالى . .[١٥٧]

فقول ابن أبى عتيق « كأنه عيد » يشير إلى ازدحام البقيع بالنساء . . . . فمن العادة أن القبور تشهد فى الأعياد ازدحاما شديدا وبخاصة النساء . .

وكان عمرها حين توفيت سبعا وستين سنة ،[١٥٨] فقد كان عمرها عند الهجرة تسع سنين وفى هذه السنة زفت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وتوفيت عام ثمانية وخمسين ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ .



(١٥٧) طبقات ابن سعد جـ٨ صـ٥٣

(١٥٨) البداية والنهاية جـ٨ صـ٨٤

حفصة بنت عمر

ـ رضى الله عنها ـ

نسبها :

هى حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ينتهى نسبها إلى عدى بن كعب بن لؤى . .

يلتقى نسبها مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى كعب بن لؤى .

وأبوها هو الفاروق الذى أعز الله الإسلام به ، ولقب بالفاروق لذلك .

وأمها هى زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جُمَح ـ أخت عثمان بن مظعون ؟ وعثمان بن مظعون أحد السابقين إلى الإسلام ، الذين أوذوا فيه وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وكان من أشد الناس اجتهادا فى العبادة ، يصوم النهار ويقوم الله ويجتنب الشهوات ، وكان ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وقال : لا أشرب شرابا يذهب عقلى ويُضحك منى من هو أدنى منى ، وهو أول رجل مات بالمدينة من المهاجرين ، وأول من دفن فى البقيع ، وحين توفى إبراهيم بن رسول الله ـ ﷺ ـ ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « الحق بالسلف الصالح ـ عثمان بن مظعون »

ويروى أنه قال ذلك أيضا يوم ماتت ابنته زينب ـ رضى الله عنها ـ وكانت زينب بنت مظعون زوج عمر ممن أسلمن بمكة ، وفى هجرتها اختلاف ـ فقال بعضهم إنها هاجرت إلى المدينة ، وقال بعضهم : إنها ماتت مسلمة بمكة قبل الهجرة[١٥٩]

---

(١٥٩) الاستيعاب ٤ /١٨٥٧ ـ أسد الغابة ٧ /١٣٤

ولدت حفصة قبل البعثة بخمس سنين ، كانت قريش حين ولادتها تبنى البيت . .

وحين أدركت تزوجها خنيس بن حذافة بن قيس السهمى ، وكان من السابقين إلى الإسلام فقد هاجر إلى الحبشة . . . وعاد إلى المدينة فشهد بدرا وأحدا ، وأصيب فى أحد بجراحة مات منها(١٦٠)

وقال ابن سعد : مات بعد مقدم النبى - ﷺ - من بدر(١٦١)

ولم يذكر الرواة متى تزوج خنيس من حفصة ، وربما كان ذلك بعد عودته من الحبشة .

فقد كان سنها عند الهجرة إلى الحبشة فى حدود الثامنة تقريبا ، ولم يكن عمر قد أسلم بعد ، وكان من شدته أن منع الإسلام عن أهله ، وقد كاد يبطش بأخته فاطمة حين علم أنها أسلمت هى وزوجها سعيد بن زيد . . فمن غير المعقول أن يزوج ابنته الصغيرة من مسلم ويتركه يهاجر بها .

أما بعد العودة من الحبشة فقد كان عمر قد أسلم وحسن إسلامه ، وأصبح من أشد المسلمين على قريش ، فهم يهابونه ويعملون حسابه فالراجح أن خنيسا قد تزوج حفصة بعد عودته من الحبشة وقضى معها فى مكة المدة التى كانت بين العودة من الحبشة والهجرة إلى المدينة ، ثم هاجرا معا إلى المدينة . .

---

(١٦٠) أسد الغابة ٢ /١٤٧

(١٦١) الطبقات ٨ /٥٦

عمر يعرض على صاحبيه الزواج من ابنته

ولما مات خنيس اهتم عمر لتأيم ابنته حفصه بعد وفاة زوجها وهى فى مقتبل العمر ، فهى الآن بعد فقد زوجها فى حدود العشرين أو دونها أو فوقها بقليل . .

وبعد أن انقضت عدتها انطلق إلى أبى بكر - رضى الله عنه - فعرض عليه أن يتزوج من ابنته . ولكن أبا بكر يسكت ولا يجيب .

وانطلق إلى عثمان - وكانت زوجته رقية بنت رسول الله - ﷺ - قد ماتت حديثا من إثر حمى أصابتها ، فهو فى حاجة إلى زوجة - فعرض عليه ما عرضه على أبى بكر .

ولكن عثمان - رضى الله عنه - يقول له : قد بدا لى ألا أتزوج الآن فذهب إلى رسول الله - ﷺ - يبثه همه ويشكو إليه صديقيه . . ويقول : يا رسول الله ، أترى إلى أبى بكر وعثمان أعرض عليهما ابنتى فيعرضان عنى ؟

وينظر إليه النبى - ﷺ - فى ابتسام يبدد ضيقه وهمه :

يا عمر يتزوج حفصة من هو خير لها من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير له من حفصة . .

وهكذا تزوج النبى - ﷺ - حفصة ، وزوج ابنته أم كلثوم من عثمان بن عفان ، وبذلك لُقِّب بذى النورين ، لأنه تزوج من ابنتين لرسول الله - ﷺ - رقية ، ثم أم كلثوم . .

ويعود عمر سعيداً بهذه المصاهرة المباركة . . ويلقاه أبو بكر فى الطريق فيقول له :

ياعمر لعلك وجدت عليّ فى نفسك لأنى لم أجبك إلى ما طلبت . ولكنى كنت سمعت النبى - ﷺ - يذكرها ، فلم أشأ أن أفشى سرَّ رسول الله - ﷺ - ولو تركها لتزوجتها .

حفصة فى بيت الرسول :

وزفت حفصة إلى النبى - ﷺ - وانضمت إلى سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر . . وكان ذلك فى شعبان من السنة الثالثة للهجرة .

كانت حفصة قارئة متعلمة . تلقت تعليمها على يد الشفاء بنت عبد الله ، وهى أول معلمة فى الإسلام .

قال الرواة عن الشفاء : إنها كانت من عقلاء النساء وفضلائهن وكانت علما من أعلام الإسلام وتربة خصبة للعلم والإيمان .

وكانت زوجة لأبى حَثْمَةَ بن حذيفة بن عدى . . ورزقها الله منه بولدها سليمان بن أبى حَثْمة .

تعلمت الشفاء القراءة والكتابة فى مكة قبل الإسلام ، ولما أسلمت قامت بتعليم نساء المسلمين مبتغية بذلك الأجر والثواب ، فكانت بذلك أول معلمة فى الإسلام . .

وقد شجع النبى - ﷺ - الشفاء على تعليم حفصة كما شجع حفصة على التعلم ، وكانت هذه ميزة لحفصة .

ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله - ﷺ - طلب من الشفاء أن تعلم حفصة - رضى الله عنها - الكتابة وبعض الرقى ، تقول الشفاء - رضى الله

عنها ـ دخل عليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا عند حفصة فقال لى : « ألا تعلِّمين هذه الرقية كما علّمتها الكتابة » ؟[١٦٢]

وكانت الشفاء ترقى فى الجاهلية ، فلما أسلمت وهاجرت قالت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كنت أرقى فى الجاهلية وقد أردت أن أعرض عليك رقيتى .

فقال صلى الله عليه وسلم ـ : اعرضيها .

قالت : فعرضتها عليه . . .

فقال صلى الله عليه وسلم ـ : ارقى بها وعلميها حفصة . .[١٦٣]

ووردت هذه الرقية بروايات مختلفة منها « اللهم رب الناس ، مذهب الباس ، اشف أنت الشافى ، لا شافى إلا أنت شفاء لا يغادر الباس ، أشف أنت الشافى ، لا شافى الا أنت شفاء لا يغادر سقما »[١٦٤]

ومنها ما جاء فى أسد الغابة « باسم الله اللهم اكشف الباس رب الناس »[١٦٥]

ورواها الدميرى « فى حياة الحيوان » هكذا : « العروس تحتفل وتختضب

---

(١٦٢) أخرجه أبوداود فى الطب ، باب ماجاء فى الرقى ، والنملة عبارة عن قروح تخرج فى الجبين ، وسميت بذلك لأن المصاب بها يشعر كأن نملا يسير فى جسده ، ويقال أيضاً إنها تخرج فى الجنب ، فترقى فتبدأ باذن الله .

(١٦٣) الاصابة ٨ / ١٢١ ـ أسد الغابة ٧ / ١٦٣

(١٦٤) أخرجه البخارى فى الطب باب رقية النبى

(١٦٥) ابن الأثير فى أسد الغابة ٧ / ١٦٣ ، والاستيعاب ٤ / ١٨٦٩ والعبارات التى فيها لايدرى مامعناها

ونكتحل ولا يجب أبدا أن تعصى زوجها أو تخالف أمره »

ثم قال : إن هذا الكلام يعلم كل من سمعه أنه لا يضر ولا ينفع .

.. وربما أراد النبى - ﷺ - به تنبيه حفصة ، لأنه ألقى إليها سرا فأفشته فكان هذا من مزاح الكلام كقوله - ﷺ - للعجوز « لا تدخل الجنة عجوز »(١٦٦)

ولكن الشفاء على أى حال كانت تقوم على تعليم حفصة ، كما كان النبى - ﷺ - يكرم الشفاء لإخلاصها ورغبتها فى نفع المسلمين وحبها للمؤمنين والمؤمنات ، ودعوتها إلى الإسلام وإقبالها على حديث رسول الله تحفظه وتذيعه .

وقد خصص النبى - ﷺ - لها دارا بالمدينة فنزلت فيها مع ابنها سليمان ، وكان النبى - ﷺ - يزورها ويكرمها ..

وكان عمر بن الخطاب يقدمها فى الرأى ويرعاها ويفضلها وربما ولاها شيئا من أمر السوق ..

ومما يروى فى نصحها للمسلمين أنها رأت فتيانا يقصدون فى المشى ويتكلمون رويدا فقالت : ما هؤلاء ؟

فقالوا لها : نسّاك .

فقالت : كان والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع(١٦٧)

---

(١٦٦) حياة الحيوان جـ٢ صـ٦٤٥

(١٦٧) الطبقات ٨ /٢٠٨

وتوفيت الشفاء سنة عشرين من الهجرة[168]

قصة المظاهرة :

تفعل الغيرة فعلها فى النفس ولم تنج منها امرأة حتى ولو كانت زوجة نبى ، والغيرة علامة صحة لا تضير صاحبتها مادامت بدافع الحب لزوجها ، بشرط ألا تخرج الغيرة على حد الاعتدال أو تجمح إلى الشطط وتحول الحياة إلى جحيم .

وقد رأينا فى حديثنا عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ كيف كانت تغار على النبى ـ ﷺ ـ

وربما اشتطت الغيرة أحيانا إلى حد غير مرغوب فيه كما نرى ذلك فى قصة التظاهر التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ

---

(١٦٨) نساء حول الرسول صـ٢٢٧

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ (١٦٩)

وفى هذه القصة وردت روايات نذكر منها هذه الرواية . .

فقد روى أن النبى ـ ﷺ ـ شرب عند زينب بنت جحش عسلا . فتواطأت عائشة وحفصة ـ بفعل الغيرة ـ على أن تقول كل منهما له : ما رائحة المغافير هذه ؟

فدخل على حفصة فقالت له :

هل أكلت مغافير(١٧٠) ؟ إنى أجد ريح مغافير .

وكان النبى ـ ﷺ ـ يكره الرائحة غير الطيبة لأنه يناجى الملك .

فأنكر ذلك ، وقال : لا ، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب . فلن أعود له . وقد حلفت فلا تخبرى بذلك أحدا .

ولكن حفصة لم تصبر على الكتمان ، فقد أخبرت عائشة بما حدث ، فنزلت هذه الآية . فكفر النبى عن يمينه ، وشرب العسل عند زينب مرة أخرى .

فالتظاهر على النبى ـ ﷺ ـ قد حدث من عائشة وحفصة ، لما كان بينهما من الصداقة .

---

(١٦٩) التحريم ١ : ٥

(١٧٠) المغافير بقلة متغيرة الرائحة فيها حلاوة واحدها مغفور

والذى يدل على أن اللتين تظاهرتا عليه هما عائشة وحفصة .. ما رواه الإمام أحمد فى مسنده - قال :

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى - ﷺ - اللتين قال الله تعالى فيهما « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما .. » .

حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه .. ثم أتانى ، فسكبت على يديه فتوضأ .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى - ﷺ - اللتان قال الله تعالى فى شأنهما « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما »

فقال عمر : واعجبا لك يا ابن عباس . - قال الزهرى : كره والله ما سأله ولم يكتمه - قال : هى حفصة وعائشة . ثم أخذ يسوق الحديث .

قال : كنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم .

قال : وكان منزلى فى دار بنى أمية بن زيد - بالعوالى - فغضبت يوما على امرأتى فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى .

فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى - ﷺ - ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل .

قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله - ﷺ - ؟

قالت : نعم .

قلت : وتهجره إحداكن إلى الليل ؟

قالت : نعم .

قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت ؟ لا تراجعى رسول الله - ﷺ - ولا تسأليه شيئا ، وسلينى من مالى ما بدالك .

قال : وكان لى جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله - ﷺ - ينزل يوما وأنزل يوما فيأتينى بخبر الوحى وغيره ، وآتيه بمثل ذلك .

قال : وكنا نتحدث أن غسان تُنعل الخيل لتغزونا .

فنزل صاحبى يوما ، ثم أتى عشاء ، فضرب بابى ، ثم نادانى .

فخرجت إليه ، فقال : حدث أمر عظيم .

فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟

قال : بل أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله - ﷺ - نساءه .

فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن هذا كائنا .

حتى إذا صليت الصبح شددت علىَّ ثيابى ، ثم نزلت ، فدخلت على حفصة وهى تبكى .

فقلت : أطلَّقكُن رسول الله - ﷺ - ؟

قالت : لا أدرى ، هو هذا معتزل فى هذه المشربة - الغرفة - فأتيت خادمه ، فقلت له : استأذن لعمر .

فدخل الغلام ثم خرج إلىَّ ، فقال : ذكرتك له فصمت - أى سكت -

فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم ، فجلست قليلا ، ثم غلبنى ما أجد . فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج ، فقال : قد ذكرتك له فصمت .

فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبنى ما أجد ، فأتيت الغلام ، فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلىَّ ، فقال : قد ذكرتك له فصمت ، قال عمر : فوليت مدبرا ، فإذا الغلام يدعونى ، فقال : ادخل قد أذن لك .

فَدَخَلْتُ ، فسلمت على رسول الله - ﷺ - فإذا هو متكىء على حصير ، قد أثَّر فى جنبه .

فقلت : أطَلَّقتَ يا رسول الله نساءك ؟

فرفع رأسه وقال : لا

فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله .... وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبتُ على امرأتى فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى . فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فو الله إن أزواج النبى - ﷺ - ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل .

فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت .

فتبسم رسول الله - ﷺ -

فقلت : يا رسول الله - قد دخلت علىَّ حفصة فقلت لها : لا يَغرنك أن كانت جارتك هى أوسم أو أحب إلى رسول الله - ﷺ - منك .

فتبسم رسول الله مرة أخرى .

فقلت : أستأنس يا رسول الله .

قال : نعم .

فجلست ، فرفعت رأسى فى البيت ، فوالله ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا أَهِبَّةً ثلاثا[١٧٢] . .

فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله .

فاستوى جالساً وقال : « أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » .

فقلت : استغفر لى يا رسول الله .

وكان أقسم أن لا يدخل على زوجاته شهراً من شدة موجدته عليهن ـ حتى عاتبه الله ـ عز وجل[١٧٣] ـ

وفى الآيات تحذير للمرأة من إفشاء سر زوجها ، ودعوة لها أن تكون طوع أمر زوجها معينة له على الحياة .

ويرى بعض الرواة أن هذا التظاهر كان بسبب التحكم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النفقة وطلب المزيد من متع الدنيا وزينتها . ولذلك اعتزلهن شهراً . جاء فى صحيح مسلم : عن جابر بن عبد الله قال : دخل

---

(١٧٢) أهبة : جمع إهاب وهو جلد الحيوان مالم يدبغ

(١٧٣) تفسير ابن كثير جـ٨ صـ١٩٠ نقلاً عن مسند الامام أحمد جـ١ صـ٣٣ ، ٣٤

أبو بكر يستأذن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم . قال : فأذن لأبى بكر فدخل .

ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكناً .

قال ـ عمر ـ : لأقولن شيئاً أُضحِك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة ـ سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : « هن حولى كما ترى يسألننى النفقة » .

فقام أبو بكر إلى عائشة يريد أن يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يريد أن يجأ عنقها ـ كلاهما يقول : تسألن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما ليس عنده ؟

فقلن : والله لا نسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً أبداً ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين ، ثم نزلت عليه الآية :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (١٧٤)

---

(١٧٤) الأحزاب ٢٨ ، ٢٩

وقيل إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد طلق حفصة عقب هذا التظاهر تطليقة ، فأمره الله - سبحانه وتعالى - عن طريق جبريل أن يراجعها .

روى موسى بن على بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال : طلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حفصة تطليقة ، فبلغ ذلك عمر فحزن حزناً شديداً - وقال : ما يعبأ الله بعمر وابنته بعد ذلك ، فنزل جبريل - عليه السلام - وقال : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة بنت عمر - رحمة بعمر .

وروى الأعمش عن أبي صالح عن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهي تبكي ، فقال لها : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد طلقك ؟ إن كان طلقك لا أكلمك أبداً[١١٧٥] .

وربما كانت التطليقة بسبب إفشاء سر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال لها في الأخبار التي أوردناها آنفاً : لا تقولي لأحد شيئاً . .

وهو السر الذي أمرها بالاحتفاظ به . . . . . وبعض الرواة يذكرون أن هذا السر هو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أسر لحفصة أن أباها سيخلف أبا بكر ، وأن أبا بكر سيخلف النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد وفاته[١١٧٦] .

وإرجاع حفصة إلى عصمة النبي - صلى الله عليه وسلم - يشير إلى

« ١١٧٥ » السند الثقلية جـ٧ صـ٢٦٦

« ١١٧٦ » ذكره القرطبي في تفسيره ، وضعفه ابن كثير .

منزلتها . فقد روى قتادة قال : طلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حفصة فجاء جبريل فقال : يا محمد - إما أنه قال راجع حفصة ، وإما أنه قال : لا تطلق حفصة ، فإنها صوم قوم وإنها من نسائك في الجنة[177] .

وهذا ما يجعلنا نرجح أن رسول الله لم يطلق حفصة ، وربما يكون قد هم بذلك فقط . .

حافظة المصحف

كانت حفصة لإجادتها الكتابة تحفظ عندها رقاع المصحف مكتوباً فيها القرآن ، ولهذا لما بدا لأبي بكر أن يجمع المصحف بعد تردد طويل ، وبعد أن استشهد كثير من حفظته في حروب الردة وبخاصة في معركة اليمامة ، وبعد أن جُمع . حفظت هذه الرقاع التي دُوّن فيها لدى حفصة ، ويُعَدُّ جمعَ أبي بكر للقرآن الجمعَ الثاني بعد جمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأول له الذي عارضه به جبريل - عليه السلام - مرتين . -

وبعد أن جُمع في عهد أبي بكر ، ظهرت قراءات مختلفة باختلاف الأحرف السبعة التي ورد بها الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » . . . . وأراد عثمان بن عفان أن يجمع الناس على قراءة واحدة هي لهجة قريش . فأرسل إلى حفصة أن تبعث إليه بالمصحف الموجود في عهدتها ، فأرسلت إليه ، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام أن ينسخوا منه نسخاً ، ففعلوا وأرسل إلى كل مصر نسخة ليجتمع الناس عليها . .

---

(١٧٧) طبقات ابن سعد ٨ /٥٨ .

وبقي المصحف الذي لديها من حفصة إليها..
وظل عندها محفوظاً حتى توفيت..
وكان في ذلك دلالة على أنها كانت تشارك في حفظ القرآن الكريم..

حفصة بعد النبي

ظلت حفصة في بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - عشرة يرضاها مع زوجاته، حتى توفي - صلى الله عليه وسلم -.

وكان المسلمون يعرفون لها فضلها ومنزلتها، وقد تحققت من علو ما اكتسبته من هذا الفضل، وأنها من أمهات المؤمنين اللاتي جعلهن الله في مقام الأسوة والقدوة.

وفي يوم الجمل كانت مع عائشة في مكة، وأرادت عائشة أن تخرجها معها إلى البصرة لإخماد الفتنة التي نشبت بها....... وهمت حفصة أن تذهب معها، لولا أن أخاها عبد الله بن عمر منعها من ذلك وطلب إليها أن تعود إلى المدينة وتقر في بيتها كما أمرها الله - تعالى - فأطاعته ورجعت.

ولزمت بيتها حتى حانت وفاتها في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية وهي يومئذ ابنة ستين سنة[*].

وربما كانت فوق ذلك بثلاث سنين، فقد علمنا أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنوات، فإذا أضفنا إليها ثلاث عشرة سنة قضاها النبي في مكة بعد بعثته - إلى خمس وأربعين سنة كان مجموع ذلك ثلاثاً وستين سنة.

---

[*] الطبقات ٨ / ٦٠

إلا إذا كانت قد توفيت قبل ذلك بثلاث سنين أو أربع ، فقد ورد قول فى أسد الغابة أنها توفيت حين بايع الحسن بن على - رضى الله عنهما - معاوية ابن أبى سفيان وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين[١٧٩] .

وصلى عليها أمير المدينة يومئذ وهو مروان بن الحكم ، وتبعها إلى البقيع وجلس حتى فرغ من دفنها ، ورووا أنه حمل عمودى سريرها من عند دار بنى مخزوم إلى دار المغيرة بن شعبة ، وحمله أبو هريرة بعده إلى قبرها .. رضى الله عنها وأرضاها .

زينب بنت خُزَيْمة - رضى الله عنها -

تزوج النبى - صلى الله عليه وسلم - من زينب بنت خزيمة بعد زواجه من حفصة بوقت قصير ..

وكان زواجه منها لهدف إنسانى نبيل ، راعى فيه مشاعر هذه المرأة المسكينة التى أصبحت لا عائل لها بعد فقدها زوجها عبد الله بن جحش شهيداً فى غزوة أحد ..

على أن هناك اختلافاً حول زوجها وحول مدة حياتها فى بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - وإن لم يكن هناك خلاف حول وفاتها فى حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم -

أما نسبها - فهى - زينب بنت خُزَيْمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالى .

---

(١٧٩) أسد الغابة ٧ /٦٧

وكانت زينب بنت خزيمة تلقب بأم المساكين . لكثرة برها بهم وعطفها على الفقراء وكرمها .

زوجها السابق

وقد ذكر معظم الرواة أن زوجها السابق هو عبد الله بن جحش ، وهو الذي يقال له « المُجدَّع » ذلك أنه التقى هو وسعد بن أبي وقاص عشية أُحُد . فقال عبد الله لسعد : ألا تأتي ندعو الله ؟

فَخلَيَا في ناحية ، فدعا سعد فقال : اللهم إذا لقيت العدو غداً ، فَلقِّني رجلاً شديداً بأسه ، شديدا غضبه ـ فأقتله فيك وآخذ سلبه . فأمَّنَ عبد الله ابن جحش .

ثم قال عبد الله بن جحش : اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه ، شديداً غضبه ، أقاتله فيك ويقاتلني فإذا قتلني يأخذني فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتك قلت : يا عبد الله ، فيم جُدِع أنفك وأذناك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك فيقول : صدقت .

قال سعد : كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي ، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنيه معلقان في خيط .

وكان عبد الله بن جحش من السابقين إلى الإسلام ، أسلم قبل دخول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دار الأرقم ، وهاجر الهجرتين إلى أرض الحبشة ثم عاد وهاجر إلى المدينة ، وأمَّره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سرية وهو أول أمير أمِّره ، وقد غنم أول غنيمة غنمها المسلمون . وخمس النبي الغنيمة وقسم الباقي ، فكان أول خمس في الإسلام .

ثم شهد بدراً وقتل يوم أحد ..

وفى معركة أحد قبل أن يقتل انكسر سيفه فأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرجون نخلة فانقلب فى يده سيفاً ، فكان يسمى العرجون ، ولم يزل يتناول من رجل إلى رجل حتى بيع من بغا التركى بمائتى دينار .

وكان الذى قتله يوم أحد أبو الحكم بن الأخنس بن شريق ، وكان عمره حين قتل نيفا وأربعين سنة ، ودفن هو وخاله حمزة فى قبر واحد ، وصلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهما[١٨٠]

وقد شعر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحاجة هذه المرأة إلى الرعاية بعد فقد زوجها ـ فتزوجها ـ صلى الله عليه وسلم ـ رعاية لها ، وحدباً عليها وإشفاقاً على أبنائها وتعويضاً عن فقد زوجها فى ميدان الجهاد ، وكان زواجه بها فى سنة ثلاث من الهجرة[١٨١]

وذكر الدكتور ـ أحمد الحوفى ـ أنها كانت زوجة للطفيل بن الحارث الذى استشهد يوم بدر أو زوجة لعبدالله بن جحش الذى استشهد يوم أحد . .

وقوله أنها كانت زوجة للطفيل الذى استشهد يوم بدر فيه شك كبير ، لأن الطفيل لم يستشهد يوم بدر ، ولكن الذى استشهد يوم بدر هو أخوه عبيدة بن الحارث ، أما الطفيل فقد عاش إلى سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين كما يذكر ابن الأثير فى ترجمته له[١٨٢] ..

---

(١٨٠) أسد الغابة جـ٣ صـ١٩٤

(١٨١) لماذا عدد النبى زوجاته د/أحمد الحوفى صـ٣٤

(١٨٢) أسد الغابة جـ٣ صـ٧٦

من الذى زوَّجها ؟

قال ابن سعد : خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين ، فجعلت أمرها إليه ، فتزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشهد ، وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشاً . .

وقد بنى لها حجرة إلى جانب الحجرات الثلاث : حجرة عائشة وحجرة سودة وحجرة حفصة .

وأصبحت زينب رابعة زوجات الرسول وأمهات المؤمنين

وقيل : إن الذى زوجها من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمها قبيصة ابن عمرو الهلالى ، وأصدقها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربعمائة درهم .

واختلف فى المدة التى بقيتها زينب فى بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن قائل إنها ثمانية أشهر . تزوجت فى رمضان وتوفيت فى ربيع الآخر على رأس تسعة وثلاثين شهراً من الهجرة[١٨٣]

ومن قائل : لم تلبث عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا يسيراً ـ شهرين أو ثلاثة[١٨٤]

ومن قائل : إنها لبثت سنة أو سنتين[١٨٥]

على أى حال فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ضمها إلى نسائه

---

(١٨٣) الطبقات ٨ /٨٢

(١٨٤) أسد الغابة ٧ /١٢٩

(١٨٥) حياة محمد د هيكل صـ٢٨٨

رعاية لها وشفقة عليها ، ولم تقض فى بيت الرسول إلا فترة قصيرة لحقت بعدها بربها .

وشيعها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى البقيع ، وصلى عليها ودفنها . وكان لها إخوة ثلاثة نزلوا فى حفرتها .

وقد خلط بعض الرواة بين زينب بنت خزيمة وزينب بنت جحش ، فذكروا فى ترجمة زينب بنت خزيمة قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أسرعكن لحوقاً بى أطولكن يداً »

فكانت نساء النبى يَتَذَارَعْن أيتهن أطول يداً . فلما توفيت زينب علمن أنها كانت أطولهن يداً فى الخير . .

ومعروف أن هذا مجانب للصواب ، لأن زينب بنت خزيمة ماتت فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى حديثه : أسرعكن لحوقاً بى . . » يعنى أن التى تسرع باللحاق به بعد موته هى أطولهن يداً . .

فالمقصود إذن بالحديث غيرها .

وكانت أول نسائه لحوقا به هى زينب بنت جحش وكانت كثيرة الصدقة من عمل يدها . .

كانت سن زينب بنت خزيمة عند وفاتها ثلاثين سنة أو نحوها ـ ذكر ذلك ابن سعد فى طبقاته . . فلم تكن عجوزاً فاتها سن الصبا كما ذكر بعضهم .

ولكنها كانت سعيدة قريرة العين بزواجها من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واعتبرت أن ذلك شرف لا يعدله شرف آخر ، وهذا حسبها رضى الله عنها وأرضاها .

أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ

كانت من السابقات إلى الإسلام هى وزوجها أبو سلمة ، وتأيمت منه بعد هجرتها معه إلى المدينة ، وأصبحت فى حاجة إلى الرعاية والعناية وهى ذات أولاد .

فضمها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أهله رحمة بها وإشفاقاً على أولادها .

نسبها :

هى هند ـ وكنيتها أم سلمة ـ بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم .

كان أبوها يلقب بزاد الراكب ، لأنه كان يكفى رفقته فى السفر طعامهم وشرابهم مهما كثروا ، وقد بلغت شهرته فى الجود الآفاق .

وأمها هى عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن خزيمة بن علقمة الكنانية من بنى فراس الأمجاد .

فهى عريقة النسب أبا وأما . .

أما زوجها ـ قبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو أبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم . . وهو ابن عمها .

وكان أبوسلمة من السابقين إلى الإسلام أسلم بعد عشرة أنفس فترتيبه بين السابقين إلى الإسلام الحادى عشر ، قال ابن إسحاق : انطلق أبو عبيدة بن الحارث ، وأبوسلمة بن عبدالأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وعثمان بن مظعون حتى أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرض

عليهم الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، فأسلموا وشهدوا أنه على هدى ونور ، ثم أسلم ناس من العرب بعد ذلك .(١٨٦)

وأسلمت زوجته أم سلمة معه ، وهاجرا معا إلى الحبشة فى الهجرة الأولى .

وعادا معا إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة .

وكان أبوسلمة أحد المعذبين فى الإسلام . وقد استنقذه أبوطالب من براثن المشركين .

فقد روى الرواة أن قريشاً عَدَتْ على من أسلم منها ، فأخذوهم وأوثقوهم واشتد البلاء على المسلمين ، وعظمت الفتنة فيهم وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وفر أبوسلمة إلى أبى طالب ليحميه ـ وكان خاله ـ فحماه . . . فجاءت بنو مخزوم ليأخذوه ، فمنعه فقالوا : ياأبا طالب ، منعت منا ابن أخيك ، أتمنع منا ابن أخينا ؟

فقال أبوطالب : نعم أمنع ابن أختى مما أمنع منه ابن أخى .

فقال أبو لهب ـ ولم يسمع منه كلام خير قط إلا يومئذ ـ : صدق أبوطالب لايسلمه إليكم . وفى رواية قال : يامعشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ـ يقصد أباطالب ـ ماتزالون تَعْدُون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهُنَّ عنه أو لنقومن معه فى كل ماقام فيه ، حتى يبلغ ماأراد .

فقالوا : بل ننصرف عما تكره ياأبا عتبة .(١٨٧)

---

(١٨٦) سيرة ابن هشام ١ /٢٥٣

(١٨٧) ابن هشام ١ /٣٧١ ـ أسد الغابة جـ٣صـ٢٩٥

ثم هاجر إلى المدينة ، وشهد مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدراً وأُحُداً ، وأصيب فى أحدٍ بجرح ثم اندمل .

وأمَّره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سريَّة إلى « قطن » وهو جبل بجوار ـ ماء لبنى أسد ـ وكان معه مائة وخمسون رجلاً فيهم أبوعبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص .

وكان الهدف من هذه السرية الرد على أراجيف قريش بأن المسلمين لن تقوم لهم قائمة بعد أحد .

فنجح أبوسلمة فى تحقيق هدفه ، وأخذ العدو على غرة فى عماية الصبح ، وأحاط به وغنم منهم ، وعاد سالماً غانماً وقد أعاد الهيبة إلى المسلمين .

ولم يلبث بعد عودته أن انتقض عليه جرحه القديم فى أحد ، فكان سبب استشهاده .

شهده الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يجود بنفسه ، فلما شخص أغمض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عينيه ، وصلى عليه ، وكبر عليه تسعاً .

فقيل له : يارسول الله ، أسهوت أم نسيت ؟ يقصدون بذلك أنه تجاوز التكبيرات الأربع التى تُكبَّر على الميت .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لم أسْهُ ، ولم أنسَ ، ولو كبرت عليه ألفاً كان أهلاً لذلك »[١٨٨]

---

(١٨٨) تاريخ الطبرى ٢ /١٧٧

وقال الرواة : إن أباسلمة هو الذى نزل فيه قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ ﴾ (١٨٩)

ودفنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعا له قائلاً : « اللهم اغفر لأبى سلمة ، وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى عقبه فى الغابرين ، واغفر لنا وله يارب العالمين »(١٩٠)

وعزّى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهله . . . . قالت أم سلمة : لما مات أبو سلمة أتيت النبى ـ ﷺ ـ فقلت : يارسول الله ، إن أباسلمة قد مات . فماذا أقول ؟

قال : « قولى اللهم اغفر لى وله وأعقبنى منه عقبى حسنة ـ أو عقبى صالحة » . . . لقد عملت أم سلمة بنصيحة رسول الله ـ ﷺ ـ وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيرا منها .

فعوضها الله خيرا من أبى سلمة ، وهو رسول الله ـ ﷺ ـ . .

زواجها من النبى

جاء فى الطبقات أن النبى ـ ﷺ ـ دخل على أم سلمة يعزيها .

فقال : اللهم عزّ حزنها واجبر مصيبتها وأبدلها خيرا منه .

فكانت أم سلمة تقول : ومن خير من أبى سلمة ؟

---

(١٨٩) الحاقة ١٩ ، ٢٠

(١٩٠) أسد الغابة جـ٣ صـ٢٩٥

إنه ابن عمها وأحب الناس إليها ، وكان يحنو عليها ويحبها حبا شديدا . . . .

لقد ذاقت معه حلو الحياة ومرها ، وتبعته على دينه الذى اختاره فسعدا معا فى ظل الإسلام ، وهاجرت معه إلى الحبشة مغتربة عن أهلها ولقيت بعد هجرته إلى المدينة من أهلها فى سبيل اللحاق به أذى شديدا .. فكيف نتصور أن يكون هناك من هو أفضل منه ؟

ولقد حدث حوار بين أم سلمة وزوجها وهو فى الأيام الأخيرة من حياته ، وكأنها قد أرادت أن تعاهده على أن تظل وفية لذكراه ولا تتزوج بعده .

فقالت له : بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة ، وهى من أهل الجنة ثم لم تتزوج بعده إلا جمع الله بينهما فى الجنة ، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقى الرجل بعدها . فتعال أعاهدك ألا تتزوج بعدى ، ولا أتزوج بعدك .

قال لها أبو سلمة : اتطيعينى ؟

قالت : ما استأمرتك إلا وأنا أريد أن أطيعك .

قال : فإذا مت فتزوجى . ثم قال : اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلا خيرا منى لا يحزنها ولا يؤذيها .

قالت : فلما مات أبو سلمة قلت : من هذا الرجل الذى هو خير من أبى سلمة ؟

---

(١٩١) الطبقات ٨ / ٦٢

فلبثت ما لبثت ثم جاء رسول الله - ﷺ - فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها أو إلى وليها[١٩٢] .

وقد أدركت أم سلمة أن هذا شرف تتمنى أى امرأة أن تناله . . . . وأى شرف أعظم من أن تكون المرأة حليلة الرجل الذى يأتيه الوحى من السماء ، وعليه ينزل جبريل صباح مساء ؟ وبزواجه تضمن السعادة فى الدنيا والآخرة ؟

ولكنها نظرت إلى نفسها فتوجست خيفة من أنها قد لا تستطيع أن توفى هذا الزوج العظيم حقه المفروض ، فهى ذات عيال مازالت أخراهم طفلة ، وهى ذات غيرة لأنها لم تجرب الضرائر قبل ، فكيف تنجح مع ذلك فى زواجها من النبى - ﷺ - ؟ وكيف تضمن ألا تغضبه ؟

ولم تجد أم سلمة بدا من أن تصارح النبى - ﷺ - بما فى نفسها . .
قالت : يارسول الله ، فىَّ خصال ثلاث ، أما أنا فكبيرة ، وأنا مُطْفِل ، وأنا غيور .

فقال النبى - ﷺ - : « أما ما ذكرت من الغيرة فندعوا الله حتى يذهبه عنك .

وأما ما ذكرت من الكبر فأنا أكبر منك .

والطفل إلى الله ورسوله . . »[١٩٣]

لله أنت يا أم سلمة ، وهل تزوجك الرسول - ﷺ - إلا من أجل رعاية

---

(١٩٢) الطبقات ٨ / ٦١

(١٩٣) الطبقات ٨ / ٦٣

هؤلاء الأطفال الذين تحملين همهم ؟ ؟

لقد عز على النبى - ﷺ - وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم أن يختار الله إلى جواره أبا سلمة وهو المؤمن المجاهد الذى آثر الله على ماعداه - ثم لا يكون محمد أبا لأولاده ، ينقذهم من العالة ويرعاهم من اليتم ويمسح على نواصيهم ببره ورحمته وحنانه . .

وانتقلت أم سلمة وأطفالها إلى بيت رسول الله - ﷺ - وعاشت أم سلمة فى بيت الزوجية راضية قريرة العين . ووجدت فى جوار أمهات المؤمنين خير جوار ، وما كان يحدث بين الضرائر من غيرة كان يتبدد فورا ، ولا يبقى أثره إلا بمقدار ما يبقى البخار على صفحة المرآة . .

قبس من حياة أم سلمة

ولقد قامت أم سلمة بدورها الكامل فى بيت الرسول - ﷺ - وفى المجتمع الإسلامى ، وكانت قدوة طيبة للنساء المسلمات ، يرون فيها صورة مشرقة لجهاد المرأة ، وعقلها الذكى المستنير ، وحرصها على الفوز بنعيم الآخرة . .

وإن أجمل ما يقدم لنساء عصرنا سيرة هذه المرأة المجاهدة الصابرة ، التى لقيت فى سبيل إسلامها أشد الأذى ، ولكنها لم تتحول عن عقيدتها التى رأت فيها نوراً وأملا وسعادة . .

ولنقرأ قصتها فى هجرتها إلى المدينة لنرى فيها الصدق وعمق الإخلاص وقوة اليقين .

قالت أم سلمة : -

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل بعيراً له وحملنى ، وحمل معى

أبو سلمة . ثم خرج يقود بعيره ، فرآه رجال من بني المغيرة بن عبد الله بن مخزوم فقاموا إليه . فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟

فنزعوا خطام البعير من يده . وأخذوني .

وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد . أهل أبي سلمة فصعدوا إلى سلمة فقالوا : والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى انسحب ينخلع في يده .

وانطلق به بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة ، ففرقوا بيني وبين زوجي وبين ابني .

قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ـ سنة أو قريبا منها ـ حتى مر بي رجل من بني عمي ، من بني المغيرة فرأى ما بي ، فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون من هذه المسكينة ؟(١٩٤)

لقد فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها .

فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت .

ورد علي بنو عبد الأسد عند ذلك ابني .

فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله .

فقلت : أستعين بمن لقيت حتى أقدم على زوجي . حتى إذا كنت

---

(١٩٤) أي تخرجون من تحمل وزرها ومسئوليتها

بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ـ أخا بني عبد الدار ـ فقال : أين يابنت أبي أمية ؟

قلت : أريد زوجي بالمدينة .

فقال . هل معك أحد ؟

فقلت : لا والله ، إلا الله وابني هذا .

فقال : والله مالك من مترك .

فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يقودني ، فو الله ما رأيت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ، ثم استأخر عني وقال : اركبي . فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده . .

فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة نازلا بها ، فادخليها على بركة الله تعالى ـ ثم انصرف راجعا إلى مكة .

وكانت تقول : ما أعلم أهل بيت أصابهم في الإسلام ما أصاب آل أبي سلمة . وما رأيت صاحبا كان أكرم من عثمان بن طلحة[195] .

---

(١٩٥) سيرة بن هشام ١ /٤٦٩ ـ أسد الغابة ٧ /٣٤١

وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عثمان من بني عبدالدار ، قتل أبوه كافراً يوم أحد ، وأسلم عثمان وهاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم في هدنة الحديبية مع خالد بن الوليد ، ولقيهما في الطريق عمرو بن العاص قادماً من الحبشة في طريقه إلى المدينة مسلماً ، وحين رآهم النبي بالمدينة قال : وألقت إليكم مكة بأفلاذ كبدها . وأقام عثمان مع النبي بالمدينة . وشهد معه فتح مكة . ودفع إليه مفتاح الكعبة وإلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وقال لهما : خذوها خالدة تالدة ولاينزعها منكم إلا ظالم .

توفي بمكة ، وقيل : استشهد بأجنادين . أسد الغابة ٣ /٥٧٨ .

هذا مثل من سيرتها يشير إلى أسبقيتها فى الإسلام وحرصها عليه ، وعدم تزحزحها عنه ، وخوضها المخاطر فى سبيله .

يوم الحديبية

أما مايذكره أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأم سلمة من الفضل فهو مافعلته يوم الحديبية ، حين أوشك المسلمون أن يخالفوا أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ففى العام السادس للهجرة كانت أم سلمة فى صحبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين عزم على أداء العمرة ، وخرج معه من المسلمين عدد غفير . .

ولم يكن مع المسلمين سوى الهدى وسيوفهم فى قُرُبها ، لأنهم لم يكونوا عازمين على قتال ، وقد وعدهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدخول مكة معتمرين ، بعد أن رأى فى منامه رؤيا تفيد دخول مكة ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٩٦)

---

(١٩٦) الفتح ٢٧

ووقف المشركون فى طريق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصدونه عن البيت ويحولون بينه وبين دخول مكة . . وأوشكت الحرب أن تنشب بين المسلمين والمشركين ـ وبخاصة بعد أن أشيع أن قريشاً قتلت عثمان بن عفان ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أرسله للتفاوض معهم . . وتمت مبايعة المسلمين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الموت ، تلك البيعة التى نزل فى شأنها .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (١٩٧)

وسميت هذه البيعة بيعة الرضوان .

ولكن جرت السفارة بين الفريقين ، حتى أسفرت عن صلح الحديبية المشهور ، ولكن هذا الصلح حال بين دخول المسلمين هذا العام مكة ، ولم تتحقق آمالهم التى راودتهم بالطواف حول البيت الحرام ، والإلمام بالأهل والأحباب ، ومشاهدة وطنهم الذى خرجوا منه منذ زمن بعيد وقد اشتاقت نفوسهم لرؤيته . .

وعز على المسلمين أن يكون بين شروط هذا الصلح ماراوه مجافياً لعزتهم ، ومنتقصاً من قدرهم وكرامتهم . حتى قال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بلى .

---

(١٩٧) الفتح ١٨

قال عمر : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟
قال النبى - صلى الله عليه وسلم - بلى :
فقال عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟
فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : ياابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبداً »

فقد شعر المسلمون إذن بأن بعض بنود هذا الصلح لاتتفق مع شعورهم بالعزة والكرامة . . ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - صاحب نظرة بعيدة وحكمة نافذة ، وقد علم أن هذا الصلح هو الطريق إلى الفتح الأعظم الذى سوف يتم قريباً إن شاء الله - تعالى -

وطلب النبى - صلى الله عليه وسلم - من أصحابه أن يقوموا فينحروا هديهم ويحلقوا شعرهم ، فلم يقم رجل واحد منهم .
طلب منهم ذلك ثلاث مرات فلم يجبه أحد . .
فقام النبى - صلى الله عليه وسلم - ودخل خيمته ، ورأته أم سلمة - رضى الله عنها - حزيناً . . فقال لها : لقد هلك المسلمون ياأم سلمة . . وشكا إليها ماحدث منهم من عدم إجابتهم له على ما طلبه منهم .
فقالت أم سلمة وقد استنار فى عقلها الذكى رأى :-يانبى الله أتحب أن أشير بشىء ؟
قال : نعم .
قالت : اخرج عليهم ، ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة ، حتى تنحر بدنتك ، وتدعو حالقك فيحلقك .

فقام النبى - صلى الله عليه وسلم - فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك كله الذى أشارت به أم سلمة .

فلما رأى المسلمون مافعل النبى - صلى الله عليه وسلم - قاموا جميعاً إلى هديهم فنحروها ، ثم جعلوا يحلقون رؤوسهم . . .

وأقبلوا يعتذرون إلى النبى - صلى الله عليه وسلم -

لقد كانت إشارة أم سلمة هذه خيراً وبركة على المسلمين حتى قال ابن حجر : كانت أم سلمة موصوفة بالعقل البالغ ، والرأى الصائب ، وإشارتها على النبى - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية تدل على وفور عقلها وصواب رأيها .(١٩٨)

الوحى فى بيتها

وكان الوحى أحياناً ينزل فى بيت أم سلمة - رضى الله عنها - ومن الوحى الذى نزل فى بيتها قوله - تعالى -

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾(١٩٩)

فعن عطاء بن أبى رباح قال : حدثنى من سمع أم سلمة تذكر أن النبى

---

(١٩٨) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر جـ٨ صـ٢٢٤ تحقيق البخارى

(١٩٩) الأحزاب ٣٣

ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى بيتها ، فأتته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ببرمة فيها خزيرة[٢٠٠] ، فدخلت بها عليه ، فقال لها : ادعى زوجك وابنيك ، قالت : فجاء على وحسن وحسين فدخلوا عليه ، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة ، وهو على دكة مبنية تحتها ، كساء خيبرى . وأنا فى الحجرة أصلى ، فأنزل الله ـ عزوجل ـ هذه الآية « **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** »

قالت : فأخذ جزءاً من الكساء فغطاهم به ، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ، ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً »

قالت : فأدخلت رأسى ، فقلت : وأنا معكم يارسول الله ؟ فقال : إنك إلى خير ، إنك إلى خير[٢٠١]

وفى رواية : فقلت وأنا يارسول الله ـ صلى الله عليك ، قال : وأنت[٢٠٢]

ومن الآيات التى نزلت فى بيتها أيضاً قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[٢٠٣]

---

(٢٠٠) الخزير لحم يقطع قطعاً صغيرة ويصب عليها ماء كثير فاذا نضج ذد عليه الدقيق

(٢٠١) مسند الامام أحمد ٦ /٢٩٢

(٢٠٢) مسند الامام أحمد ٦ /٢٩٦ والحديثان ذكرهما ابن كثير فى تفسيره جـ٦ صـ٤٠٨ تفسير الأحزاب

(٢٠٣) التوبة ١٠٢

ويقول الرواة : إن هذه الآية نزلت فى شأن أبى لبابة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ

وكان أبو لبابة قد استشاره بنو قريظة فى أمر نزولهم على حكم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأشار إلى حلقه .

وكان مفهوم هذه الإشارة أن حكم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى القتل لهم .

واعتبر أبولبابة أنه بذلك أفشى سر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخان الله ورسوله ، فذهب من فوره إلى المسجد وربط نفسه إلى سارية من سواريه ، وأقسم ألا يحله إلا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده .

وسأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أبى لبابة فأخبر بما فعل . . .

فقال : إنه لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما إذ فعل مافعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه »

وظل أبو لبابة مربوطاً فى مكانه ، ولايجرؤ أحد أن يحل وثاقه .

حتى كانت ليلة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيت أم سلمة ، فسمعته فى السحر يضحك .

فقالت : مم تضحك يارسول الله . . . ؟

قال : تاب الله على أبى لبابة »

قالت : قلت : أفلا أبشره يارسول الله ؟

قال : « بلى إن شئت »

فقامت أم سلمة على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب الحجاب على زوجات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : ياأبا لبابة ، أبشر فقد

تاب الله عليك .

فثار الناس إلى أبي لبابة ليطلقوه ، فأبى وقال : لا والله حتى يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى يطلقنى بيده .

فلما مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

هذا ـ وكانت أم سلمة من بين من رأى جبريل عليه السلام .

أخرج مسلم فى صحيحه حديث معتمر بن سليمان قال : سمعت أبى يقول : حدثنا أبو عثمان عن سلمان ـ قال : لاتكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها ، فإنها معركة الشيطان ، وبها ينصب رايته .

قال : وأنبئت أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده أم سلمة ـ قال : فجعل يتحدث ، ثم قام ، فقال نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأم سلمة : من هذا ؟ ـ أو كما قال ـ

قالت : هذا دحية الكلبى .

قال : فقالت أم سلمة : أيم الله ماحسبته إلا إياه ـ حتى سمعت نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبر بخبرنا ـ أو كما قال

قال فقلت لأبى عثمان ممن سمعت هذا ؟ قال من أسامة بن زيد(٢٠٤)

لقد كانت تعتقد أن من رأته هو دحية نفسه ، حتى وقف النبى ـ صلى

---

(٢٠٤) صحيح مسلم جـ٥ صـ٣١٧ حديث رقم ١٠٢

الله عليه وسلم ـ يتلو ماأبلغه جبريل من آيات تتعلق بنساء النبى .

فرؤية أم سلمة لجبريل فضيلة تضاف إلى نضائلها ـ رضى الله عنها ـ . . .

أم سلمة بعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وبقيت أم سلمة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيتها . . . . وحين حدثت الاضطرابات بعد مقتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ طلبت منها السيدة عائشة أن تخرج معها .

ولكنها قالت لها : أى خروج هذا الذى تخرجين ؟ الله من وراء هذه الأمة . . لقد مكثت فى بيتها تؤدى فرضها ، وتكثر من العبادة . . ورأت فى ذلك استجابة لأمر الله ـ تعالى ـ لأمهات المؤمنين « وقرن فى بيوتكن » وقوله « واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة »

وعاشت أم سلمة إلى سنة تسع وخمسين فيما يرويه بعضهم . وقيل : بل توفيت سنة إحدى وستين بعد أن نُعى الحسين ـ رضى الله عنه ـ إلى المسلمين ـ وكان استشهاد الحسين بكربلاء يوم عاشوراء سنة إحدى وستين ـ وقد بلغت من العمر أربعاً وثمانين سنة .

والذى يؤيد أن وفاتها كانت فى سنة إحدى وستين ما ثبت فى صحيح مسلم أن الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة ، وعبدالله بن صفوان دخلا على أم سلمة فى ولاية يزيد بن معاوية ، فسألاها عن بعض الأمور .

والذى يقول إنها ماتت سنة تسع وخمسين يقول : إن الذى صلى عليها هو

أبو هريرة . والذى يقول إنها ماتت سنة إحدى وستين يقول : إن الذى صلى عليها الوليد بن عتبة بن أبى سفيان . وكانت قد مرضت قبل مرضتها الأخيرة فأوصت أن يصلى عليها سعيد بن زيد ، وكان أمير المدينة يومئذ مروان بن الحكم ، ولكنها عوفيت من هذه المرضة ، ومات سعيد قبلها .

فلما توفيت بعد ذلك صلى عليها الوليد بن عتبة(٢٠٥)

كانت أم سلمة تحفظ كثيرا من أحاديث النبى - ﷺ - وقد رُوِى عنها ثلثمائة وثمانية وعشرون حديثا .

ورَوَى عنها أولادها عمر وزينب وأخوها عامر بن أبى أمية ، وعبدالله بن رافع ، ونافع ، وسفينة ، وأبو كثير ، وسليمان بن يسار .

كما رَوَى عنها أيضا ابن عباس وعائشة وأبو سعيد الخدرى ، وقبيصة بن ذؤيب ، ونافع مولى ابن عمر ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، وآخرون .

وتعد ابنتها زينب من الصحابيات ، وهى ربيبة رسول الله - ﷺ - وكان اسمها بَرَّة فسماها النبى - زينب .

ورباها النبى - ﷺ - فى حجره ، وكانت تدخل عليه فينضح وجهها بالماء ، وحصلت لها بركة ذلك ، فقد أخبر عطاف بن خالد المخزومى عن أمه قال : قالت أمى : رأيت زينب وهى عجوز كبيرٌ مّا نقص من وجهها شىء . - تقصد ما تجعد وجهها ولا أصابه ما يصيب العجائز من تجاعيد .

---

(٢٠٥) الاصابة جـ ٨ صـ ١٥٢

وتزوجت زينب من عبدالله بن زمعة بن الأسود الأسدى ، فولدت له ، وكانت من أفقه نساء زمانها .

وكان لها ولدان قتلا معا يوم الحرة ، وحُمِلا فوُضِعا بين يديها مقتولين فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله إن المصيبة فيهما علىّ لكبيرة . . (٢٠٦)

أما دُرَّة ابنة أم سلمة ـ فقد كانت مدركة حين تزوجت أمها من رسول الله ـ ﷺ ـ وقد ولدت فى الحبشة . . . .

وأما ابنها سلمة ـ وهو الذى نزع منها فى أثناء هجرتها حين تنازع فى شأنها أهلها وأهل زوجها ـ فيطلق عليه ربيب النبى أيضا .

وقد زوجه النبى ـ ﷺ ـ من أمامة بنت حمزة بن عبدالمطلب . . وقال حين زوجه : « هل تَرَوْنى كافأته » ؟

وكان أَسَنُّ من أخيه عمر بن أبى سلمة . . . . وعاش سلمة إلى أيام عبدالملك بن مروان . .

وعمر ولد فى السنة الثانية من الهجرة ، وقيل إنه كان له يوم قبض النبى ـ ﷺ ـ تسع سنين ، وكان يوم الخندق هو وابن الزبير فى أُطُم حسان بن ثابت .

وهو الذى قدمته أمه لعلىّ بن أبى طالب يقاتل معه ، وشهد معه الجمل ، واستعمله علىٌّ على البحرين وعلى فارس ، وتوفى بالمدينة أيام عبدالملك بن مروان سنة ثلاث وثمانين(٢٠٧)

---

(٢٠٦) أسد الغابة ٧ / ١٣٢

(٢٠٧) اسد الغابة جـ٤ صـ١٨٣

وله أحاديث رواها عن النبى - ﷺ -

لقد أعقبت السيدة أم سلمة طيِّباً ، وتركت ذكرى خالدة تنير الطريق أمام المسلمين والمسلمات .

ويقال : إنها آخر من مات من أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

زينب بنت جحش - رضى الله عنها

وزوَّج الله - تعالى - نبيه - - ﷺ - زينب بنت جحش ، لينسخ بزواجها تشريعا كان سائدا فى الجاهلية ، ويضع به تشريعا جديدا إنسانيا إسلاميا . .

فقد كان العرب لا يتزوجون زوجات أولاهم بالتبنى ، لأن المتبنًى فى منزلة الابن الحقيقى تحرم زوجته على أبيه ، فجاء الإسلام وأعلمهم أن هذه البُنوَّة المدعاة إسمية لا حقيقية ، لا يترتب عليها حقوق شرعية كالميراث أو الزواج .

نسب زينب

تمت زينب بنت جحش إلى النبى - ﷺ - بصلة قرابة وشيجة فهى ابنة عمته أميمة بنت عبدالمطلب . .

أما أبوها فهو جحش بن رئاب بن يَعْمُر بن صبرة بْنَ مُرَّة بن كبير بن غنم بن أسد بن خُزَيْمَةَ ، فهى أسدية من بنى خزيمة وهى أخت عبدالله بن جحش الذى سبق الحديث عنه .

وكانت زينب من المهاجرات السابقات إلى المدينة . .

تزويجها من زيد :

كان زيد بن حارثة من أحب الناس إلى رسول الله - ﷺ - وكان يطلق عليه : زيد بن محمد . ولهذه التسمية قصة جديرة بالذكر . .

كان زيد بن حارثة بن شراحيل التغلبي القضاعي - فى حجر أمه صغيرا حين خرجت به تزور قومها من بنى معن ، فأغارت عليهم خيل بنى القين بن جسْر ، فاختطفوا زيدا ، وقدموا به سوق عكاظ فباعوه .

فاشتراه حكيم بن حزام ، ووهبه لعمته خديجة بنت خويلد زوج النبى - ﷺ - ووهبته خديجة لزوجها محمد - ﷺ - وذلك قبل النبوة .

وكان زيد فى ذلك الوقت ابن ثمانى سنين . .

ونشأ زيد فى بيت النبوة ، وكان النبى - ﷺ - يحبه لذكائه وإخلاصه .

وحزن أبو زيد على ابنه حزنا شديدا حتى كان ينشد فى حزنه عليه الأشعار ، وكان مما قال فيه :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعلْ ... أحـى يُرجَّى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدرى وإن كنت سائلا ... أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل

فياليت شعرى هل لك الدهر رجعة ... فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل

تذكرته والشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل[209]

وإن هبت الأرواح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزن عليه ويا وجل[210]

---

(٢٠٨) بجل : حسب

(٢٠٩) طفلت الشمس إذا قاربت الغروب

(٢١٠) الأرواح : الرياح ، والوجل : الخوف

ساعمل نصّ العيس فى الأرض جاهدا ولا أسأم التطواف أوتسأم الابل[٢١١]

حياتى أوتأتى علىَّ منيتى وكل امرىء فان وإن غرّه الأمل

سأوصى قيسا وعمرا كليهما وأوصى يزيدا ثم من بعده جبل

يعنى بذلك إخوته : قيسا وعمرا وكذلك يزيد وهو أخوه لأمه .

وحج ناسٌ من قومه فرأوا زيدا فعرفوه وعرفهم ، فقال لهم : أبلغوا عنى أهلَ هذه الأبيات ، فانى أعلم أنهم جزعوا علىَّ فقال :

أحن إلى قومى وإن كنت نائيا فإنى قعيد البيت عند المشاعر

فكفوا من الوجد الذى قد شجاكم ولا تعملوا فى الأرض نصَّ الأباعر

فأبلغوا أباه الأبيات وأخبروه خبره ، فجاء حارثة ومعه أخوه كعب لفداء زيد ـ ولقيا النبى ـ ﷺ ـ فقالا : يابن عبدالمطلب ، يابن هاشم ، يابن سيد قومه ، جئناك فى ابننا عندك . فامنن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه .

فقال : من هو؟

قالوا : زيد بن حارثة .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ فهلا غير ذلك ؟

قالوا : ما هو؟

قال : ادعوه وخيِّروه ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا .

قالا : قد زدتنا على النِّصف وأحسنت .

فدعاه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : هل تعرف هؤلاء ؟

---

(٢١١) نص العيس : النص : شدة السير ، والعيس : الابل ، وأعملها : أسوقها

قال : نعم - هذا أبي ، وهذا عمي .

قال النبي - ﷺ - : فأنا من قد عرفت ورأيت صحبتي لك . فاخترني أو اخترهما .

فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحدا . أنت مني مكان الأب والعم .

فقال أبوه وعمه : ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحرية ؟ وعلى أبيك وأهل بيتك ؟

قال زيد : نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، ما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبدا .

فلما رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك خرج الى الحِجرْ فقال : يامن حضر اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه .

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما وانصرفا .

وظل الناس يعرفون بعد ذلك زيداً بأنه زيد بن محمد - وكان أحد الأربعة الذي أسلموا بادىء ذي بدء : خديجة وأبوبكر وعليٌ وزيد . .

وظل زيد يُدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله - تعالى -

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ (٢١٢)

---

(٢١٢) الأحزاب ٥

وزوّجه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مولاته أم أيمن التى كان يقول فى حقها : « من سره أن ينظر إلى امرأة من أهل الجنة فلينظر إلى أم أيمن » وأنجبت منه أسامة بن زيد الذى كان يطلق عليه حِبُّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

وآخى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينه وبين حمزة بن عبدالمطلب حين آخى بين المهاجرين .

وكانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ تقول : مابعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيد بن حارثة فى سرية إلا أمَّره عليهم ولو بقى لاستخلفه بعده(٢١٣)

تزويج زيد من زينب بنت جحش

هذا الذى بلغ من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه المنزلة هو الذى اختاره الرسول ليكون زوجاً لابنة عمته زينب بنت جحش بعد هجرتها إلى المدينة . .

وكأن زينب قد كرهت هذا الزواج ، فما زال زيد فى نظرها عبْداً مملوكاً ، وإن كان الإسلام قد محا الفوارق بين الناس ، ولم يصبح فى عرفه سيد ومسود ، بل الكل سواسية كأسنان المشط ، وأكرم الناس عند الله أتقاهم .

هذا قانون سماوى ربما وجدت بعض النفوس غضاضة فى تطبيقه . وقد شعرت زينب بهذه الغضاضة ، كما شعر بها أخوها عبدالله بن جحش أيضاً . .

---

(٢١٣) أسد الغابة ٢ /٢٨٣

إذ كيف تتزوج الشريفة القرشية من كان عبداً مملوكاً حتى ولو أُعتق ؟ لقد قالت زينب للنبي : يارسول الله لاأرضاه لنفسي . . . فقال النبي : ولكني أرضاه لك[٢١٤]

إن الإسلام يريد ألا تكون تعاليمه السماوية محل مناقشة أو موضع جدل أو تردد أو خيار في التطبيق .

ومن أولى بتطبيق ذلك من النبي وأهله وأقربائه ؟

فأمر بتزويج زينب وهي ابنة عمته من زيد ؟ فلما كرهت وأبت وامتنعت نزل القرآن الكريم زاجراً وموجهاً . . قال تعالى : ـ

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[٢١٥]

وحين نزلت هذه الآية أسرع أخوها عبدالله بن جحش للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : يارسول الله ، مرني بما شئت . كما رضخت زينب لذلك .

وتزوج زيد من زينب . .

إن الكفاءة المشروطة في الإسلام ليست بالأحساب والأنساب والأموال وإنما الكفاءة بالأديان والأخلاق .

لقد تزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير .

---

(٢١٤) طبقات ابن سعد جـ٨ صـ٧١

(٢١٥) الأحزاب ٣٦

وتزوج سالم مولى أبى حذيفة فاطمة بنت الوليد بن عتبة .

وتزوج بلال أخت عبدالرحمن بن عوف . .

والنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : **تنكح المرأة لأربع : لمالها وجمالها وحسبها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك .**

وقد نكح أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - بعض الإماء بعد عتقهن لما رأوه من دينهن وإيمانهن . فحذيفة بن اليمان كانت له أمة سوداء اسمها خنساء فقال لها : ياخنساء قد ذكرت فى الملأ الأعلى ذلك أن الله يقول :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ (٢١٦)

وكان لعبدالله بن رواحة أمة سوداء فلطمها فى غضب ، ثم ندم فأتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأخبره بذلك - فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : **« ماهى ياعبد الله » ؟ يعنى أخبرنى عن دينها وأخلاقها .**

قال : تصوم وتصلى وتحسن الوضوء وتشهد الشهادتين . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **« هذه مؤمنة »**

---

(٢١٦) البقرة ٢٢١

فأعتقها عبدالله وتزوجها . . وفى ذلك نزل قوله - تعالى -

« ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله »[٢١٧]

وقد رضخت زينب ، ورضخ أخوها لأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - واستجابة لتعاليم الإسلام .

ولكن زيداً كان يشعر بأن زينب متعالية عليه ، كأنَّ فى نفسها من هذا الزواج شيئاً ، حتى شكا زيد إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - قائلاً : يارسول الله ، إن زينب تؤذينى بلسانها وتفعل وتفعل ، وإنى أريد أن أطلقها . ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - يأمره أن يمسك عليه زوجه ويتقى الله .

وحاول زيد استجابةً للنبى - صلى الله عليه وسلم - أن يبقى على زوجته ، ولكن التشريع الإسلامى الذى يريد أن يفرضه الله لابد أن يتم ، وأن يكون تطبيقه بيد النبى - صلى الله عليه وسلم - على نفسه .

« ولم يكن أحد غير النبى - صلى الله عليه وسلم - يصلح لأن يبطل بعمله نظاماً شائعاً أخذوا أنفسهم به ، إذ اعتقدوا أزماناً وأجيالاً متعاقبة أن زوجة الابن المتبنى تحرم على متبنيه كما تحرم زوجة الابن الحقيقى .

وجروا على هذه العقيدة ونفذوها أجيالاً طويلة .

فاقتضى إبطالها عملاً إيجابيا يبلغ من القوة والشهرة إلى المكانة التى تكفل القضاء على عقيدة راسخة ، وتفتح عيون الناس وقلوبهم إلى هذا التشريع الجديد .

---

(٢١٧) القرطبى ٣ / ٧٠

فلم يكن بد من أن ينزل القرآن الكريم بإبطال عقيدة العرب ، وبمطالبة النبى أن يتولى بنفسه وبعمله تحقيق إبطالها .

وقد يقال لماذا لم ينزل القرآن الكريم بإبطال عقيدتهم بغير أن يكلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الإبطال بنفسه ؟

والجواب على هذا أن هذه العقيدة لخطورتها وشيوعها واستقرارها ماكان يقدر على إبطالها إلا تشريع عملى يُكلَّف بتنفيذه المبلغ للشريعة والمطبق لها ، والحارس عليها والقدوة المثلى ، وهو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد تكلم كثير من الرواة حول هذه القصة . . . وهى قصة عادية يمكن حدوثها فى أى مكان . . وكل مافيها من غرابة أنها أبطلت عادة التبنى ، وأباحت التزوج من زوجات الأبناء بالتبنى .

لقد أراد الله ـ سبحانه ـ أن يجعل الكفاءة بين الناس أساسها الدين والتقوى ، وأن يكف الناس عن المباهاة بالأنساب والتفاخر بالأحساب ، وأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينفذ هذه التعاليم عملياً ، فزوج ابنة عمته من مولاه زيد بن حارثة . .

وليس شيئاً عجيباً أن تنظر زينب إلى زوجها نظرة فيها شىء من الاستخفاف بحقوقه ، وأن تتذكر أنه كان مولى فى بيت أهلها . . .

ولايمكن أن تستقر حياة زوجية فى ظل هذا الشعور الذى لايملكه صاحبه أحياناً ، والذى يتضاعف مع مرور الأيام فيؤدى الى النتيجة المتوقعة وهى الطلاق الذى يترتب عليه إلغاء تشريع وإقرار تشريع . .

فالله ـ سبحانه ـ هو الذى وضع النفور فى قلب زينب من زوجها ، حتى

عرض زيد على النبى - صلى الله عليه وسلم - أمر طلاقها مرات . ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى أطلعه الله على ماسوف يكون ينصحه بالتروى ويدعوه إلى الأناة ويقول له : أمسك عليك زوجك واتق الله . .

أخرج البخارى فى كتاب التوحيد عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول له : « اتق الله فأمسك عليك زوجك » قال أنس : لو كان النبى - صلى الله عليه وسلم - كاتما شيئاً لكتم هذا الحديث .

لقد أطلع الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - على أن زيداً سيطلق زينب ، وأنه سوف يتزوجها من بعده ليبطل بذلك عادة تحريم زوجة المتبنىٰ على من تبناه . .

وأخفى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى نفسه هذا الأمر الذى سوف يظهره الله - لأنه كان مشفقاً مما سيحدث من أقاويل الناس وافتراءاتهم - وخصوصاً ضعاف الإيمان والمنافقين منهم .

وهذا ماأشار إليه الإمام على زين العابدين فى حديث يرويه القاضي عياض :

قال الإمام زين العابدين : إن الله - تعالى - كان قد أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه ، فلما شكاها إليه زيد قال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى فى نفسه ماأعلمه الله به من أنه سيتزوجها ، وأن زيداً سيطلقها . .

أما قوله - تعالى - لنبيه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فليس معنى

الخشية الخوف ، وإنما معناها الاستحياء ـ فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستحى منهم أن يقولوا تزوج محمد زوجة ابنه ، وأن خشيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود . وقولهم : تزوج محمد زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء . . . وقد عاتبه الله على هذا ، وأمره بعدم الالتفات إليهم فيما أحلّه الله وشرعه .

وذلك بقوله تعالى :

« وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »

تلك هى الحقيقة فى تلك القصة التى حاول البعض أن يزيد فى شأنها ويضيف إليها ما لا أصل له فى الحقيقة .

وفى هذه القصة قال الله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢١٨)

زواج زينب من رسول الله :

وأذن النبى ـ ﷺ ـ لزيد بن حارثة ـ بعد أن كثرت شكواه وعلم النبى منه أنه لا يمكنه الصبر على هذه الحال ـ أذن له فى أن يطلق زوجته . .

فطلقها زيد بن حارثة . .

---

(٢١٨) الأحزاب ٣٧

وبعد أن أتمت عدتها أمر النبى - ﷺ - زيدا نفسه أن ينطلق إلى زينب ليخطبها عليه .

جاء فى صحيح مسلم : عن أنس - رضى الله عنه - : لما انقضت عدة زينب ، قال رسول الله - ﷺ - لزيد : « اذكرها عَلَىَّ » قال : فانطلق زيد حتى أتاها ، وهى تُخَمِّر عجينها . قال - زيد - : فوليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى ، وقلت : يا زينب ، أرسل رسول الله - ﷺ - يذكرك . .

ثم تزوجت رسول الله - ﷺ - وأطعم الناس الخبز واللحم حين امتد النهار . .[٢١٩]

ولقد اختار النبى - ﷺ - زيدا بالذات امتحانا له ، واختبارا لإيمانه ، حتى يظهر صبره وانقياده وطواعيته لله ورسوله . .

ولقد نجح زيد فى الامتحان أيما نجاح - فتلك المرأة التى كانت زوجة له منذ قريب ، يكون هو رسولاً لخطبتها على النبى - ﷺ - ولو كانت نفس زيد مريضة لوجد - أى غضب - من هذا الأمر ، وحقد على زينب أن زهدت فيه وأقبلت على غيره . . ولكن زيدا كان كامل الإيمان . . . . فقد تلقى هذا الأمر من الرسول بمنتهى الرضا والغبطة ، وأداه كما ينبغى أن يؤدى بمنتهى الصدق والإخلاص . . . بل خلت نفسه من كل عوامل الموجدة والحقد على زينب ، وحل فى نفسه كل أمارات التعظيم لها ، بعد أن علم أنها توشك أن تكون أماً له لأنه من المؤمنين - وهى ستكون أم المؤمنين .

ولقد كرمه الله لذلك تكريما ما بعده تكريم ، ذكر اسمه فى القرآن

---

(٢١٩) تفسير القرطبى جـ١٤ صـ١٩٢

الكريم . يتلوه الناس أطراف الليل وآناء النهار ويثابون على تلاوته ، وكان اسمه هو الاسم الوحيد - بين الصحابة الأجلاء على كثرتهم وتفانيهم فى حب النبى - ﷺ - وخدمة الإسلام - الذى ذكر فى القرآن الكريم « **فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها** » .

فأى تكريم أسمى من ذلك ؟ وأى فضل أعظم من ذلك ؟

فلو أن زيداً ظل زوجا لزينب إلى آخر حياته أو حياتها ، يسعد بجوارها فى ظل سعادة زوجية كاملة ، فهل كان ذلك يوازى هذه السعادة التى أكرمه الله بها بذكر اسمه فى القرآن الكريم ؟

لقد كان ذكره هذا تعويضا له عما لحقه من ألم أصابه فى أثناء عشرتها له وهى تتعالى عليه أو تَمُنّ عليه بأنها قبلت الزواج منه لأن الرسول - ﷺ - أراد ذلك فقط .

لقد كان ذلك يجرح نفسه الأبية العظيمة التى ظهرت فى إيثاره صحبة النبى - ﷺ - وهو عبد ، على رجوعه مع أبيه وعمه إلى ديار قومه ليعيش بينهم حراً .

ولقد كرمه النبى - ﷺ - فتبناه ، ولكن زينب لم تعترف بذلك ولم تنظر إليه إلا على أنه عبد اشتراه حكيم بن حزام ذات يوم ، فوهبه إلى عمته التى أهدته إلى النبى - ﷺ - . .

ولكن زيداً كان عند الله عظيما .. إن قيمة الإنسان عند الله ليست بحسبه ونسبه ، أو ماله وقوته ، ولكن قيمته فى إيمانه ويقينه وتفانيه فى تطبيق منهج الله وعبادته إياه . . وفى ذلك يقول النبى - ﷺ - وسلم : « رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبَرّه »

ولقد كان زيد ذا قيمة عظيمة عند الله ..

وكان ذكر اسمه فى القرآن تكريما له وتتويجا لعمله وإخلاصه وطاعته لله ورسوله ..

وتم زواج النبى - ﷺ - من زينب لحكمة التشريع .

وظهر ما كان يخشاه النبى - ﷺ - من لغط ولغو ، فقد أكثر المنافقون وغيرهم من قولهم : تزوج محمد حليلة ابنه ..

فنزل القرآن الكريم يصحح لهم مفاهيمهم ، ويوضح لهم ما غمض عليهم ، ويقول لهم :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢٢٠)

إن زيداً ليس ابنا لمحمد حتى تحرم عليه زوجته ، والمحرم هو حلائل الأبناء الحقيقيين بنص قوله تعالى :

« وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » .

أما الأبناء بالتبنى فليسوا أبناء على الحقيقة .

---

(٢٢٠) الأحزاب ٤٠

وقد أبطل الله أيضا هذه العادة ـ عادة التبنى ـ حين قال

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ (٢٢١)

وشاءت الأقدار أيضا ألا يبقى للنبى ـ ﷺ ـ عقب من أولاده الذكور ، فقد مات القاسم وعبدالله ، ولم يكن إبراهيم قد ولد بعد حين نزلت هذه الآية وقد مات أيضا بعد ولادته بشهور .

لقد شاء الله أن يكون بقاء ذكر نبيه فى نبوته وفى إحياء سنته ، وفى نسله الشريف من ابنته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كما كان بقاء ذكره فى اقتران اسمه الكريم باسم الله العظيم ، فلا تذكر شهادة ألا إله إلا الله إلا ذكر نبيه معه ، وكفى بذلك شرفا وفضلا .

وزفت زينب إلى النبى ـ ﷺ ـ وأضيفت إلى النبى حجرة خامسة ، كانت هى حجرة زينب بنت جحش .

لقد استقبلت زينب هذا الزواج بسعادة غامرة ، فقد سجدت لله شكرا

---

(٢٢١) الأحزاب ٥

حين بلغها هذا الخبر ، ونذرت أن تصوم لله شهرين .

وأولم النبى - ﷺ - فى زواجه بها . ذبح شاة . ودعا إليها أصحابه فطعموا منها جميعهم . .

وربما كان هناك طعام آخر غير الشاة ، أو فى غير هذا اليوم . فقد ذكر ثابت البنانى قال : قلت لأنس بن مالك : كم خدمت النبى - ﷺ - ؟ قال : عشر سنين - فلم يُغَيِّر علىَّ فى شىء أسأت ولا أحسنت .

قلت : فأخبرنى بأعجب شىء رأيت منه فى هذه العشر سنين ما هو ؟

قال : لما تزوج رسول الله - ﷺ - زينب بنت جحش ، وكانت قبل ذلك زوجة مولاه زيد بن حارثة - قالت أم سليم - وهى أم أنس - : يا أنس . إن رسول الله - ﷺ - قد أصبح ، وما أرى عنده من غداء ، فهلم تلك العكَّة(٢٢٢) ، فناولتها ، فعملت له حَيْساً(٢٢٣) من عجوة فى إناء من فخار قدر ما يكفيه ومن يكون معه من أهل بيته ، وقالت : اذهب به إليه .

فدخلت عليه بالطعام .

فقال : ضعه ، فوضعته بينه وبين الجدار .

فقال لى : ادع أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ، وذكر ناسا من أصحابه ، سماهم فجعلت أعجب من كثرة من أمرنى أن أدعوهم وقلة الطعام ، إنما هو طعام يسير ، وكرهت أن أعصيه ، فدعوتهم .

فقال : انظر من كان فى المسجد فادعه .

---

(٢٢٢) إناء يوضع فيه السمن - وهى بضم العين وتشديد الكاف وتجمع على عُكاك وعُكَك
(٢٢٣) الحيس طعام من تمر مخلوط بسمن وأقط

فجعلت آتى الرجل وهو يصلى أو وهو جالس فأقول : أجب دعوة رسول الله - ﷺ -

فقال لى : هل بقى فى المسجد من أحد ؟

قلت : لا .

قال : هَلُم الطعام . فوضعته بين يديه . فوضع أصابعه الثلاثة فيه ، وغمزه ، وقال للناس : كلوا باسم الله .

قال أنس : فجعلت أنظر إلى التمر يربو(٢٢٤) ، وإلى السمن كأنه عيون تنبع ، حتى أكل كل من فى البيت ومن فى الحجرة ، وبقى فى الإناء جزء جئت به ، فوضعته عند زوجته ، ثم خرجت إلى أمى ، فأُعَجِّبُها مما رأيت .

فقالت : لا تعجب ، لو شاء الله أن يأكل منه أهل المدينة كلهم لأكلوا(٢٢٥)

آية الحجاب . .

وكانت هذه الوليمة التى أولم فيها النبى - ﷺ - بهذه المناسبة سببا لنزول آية الحجاب الذى ضربه الله على أمهات المؤمنين . وهى قوله تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ

---

(٢٢٤) يرتفع ويزيد

(٢٢٥) الطبقات جـ٨ صـ٧٣

مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ [٢٢٦]

ولقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين أحدهما عام والآخر خاص .

أما العام فهو يتناول مايجب على المؤمنين أن يفعلوه فى الدعوات العامة التى يدعون إليها ، وفى زياراتهم لأصدقائهم وأحبابهم وغيرهم من الناس .

أما الخاص ، فهو مايجب أن يفعله المدعوون فى بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أشار المفسرون إلى قصة حدثت استوجبت نزول هذه الآية .

قالوا : لما تزوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فثقلوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال أنس : فما أدرى أأنا أخبرت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن القوم قد خرجوا ، أو أخبرنى .

قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فألقى الستر ونزل الحجاب .

قال : ووعظ القوم بما وعظوا به .[٢٢٧]

---

(٢٢٦) الأحزاب ٥٣

(٢٢٧) القرطبى جـ١٤ صـ٢٢٤ ـ الطبقات ٨ / ٧٤

فكان زواج زينب خيرا وبركة على المسلمين . أنزل الله بسببه قرآنا يتلى ونورا يبقى وأدبا يرقى به أصحابه إلى الدرجات العلا .

وظلت زينب فى بيت الزوجية تشارك النبى - صلى الله عليه وسلم - وزوجاته سراء الحياة وضراءها .

وقد وهب الله زينب يدا صناعاً ، كما أنزل الله زواجها من فوق سبع سماوات ، فكانت بذلك تباهى أخواتها ، فتقول : زوجكن آباؤكن وأولياؤكن وزوجنى الله من فوق سبع سماوات .

وربما غارت بعض ضرائرها منها - كما حدث حين شرب النبى - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم عندها عسلا . فتظاهرت بسبب ذلك عائشة وحفصة على النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد سبق أن تحدثنا عن هذه القصة .

ولكن هذه الغيرة لم تتجاوز حدودها ، كما أنها لم تفسد الحياة الزوجية لأن رب البيت أحكم الحكماء ، وربما احتدت المنافسة بين عائشة وزينب فى حضرته - صلى الله عليه وسلم - فيتركهما تنفسّان عن مشاعرهما .

من فضائل زينب :

لقد وهب الله زينب سماحة خلق وإقبالا على العبادة ، كما وهبها كرما فياضا ، جعل النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : « أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا »

فكانت زوجات النبى - صلى الله عليه وسلم - يتذارعن بعده أيتهن أطول ذراعا .. ولم يفهمن أن المقصود بطول الذراع هو طول اليد بالصدقة .

وكانت أول من لحق بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهن هى زينب بنت جحش ، وكانت صناع اليد ، تدبغ ، وتخرز وتتصدق فى سبيل الله .

وقد شهدت عائشة ـ رضى الله عنها ـ لزينب ، وقالت فى حقها : « لم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب ، وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة منها .

وقصرت زينب نفسها على عبادة الله ، وعلى العمل اليدوى الذى كانت تقوم به لتنفق من نتاجه على الفقراء والمساكين وصلة الرحم ، وفى ذلك دعوة للمرأة أن يكون عملها فى داخل منزلها ، توسعة على أسرتها ، وتقديما للخير والمعروف للناس ابتغاء وجه الله .

لقد كانت مثلا أعلى فى الزهد الجميل ـ والزهد الجميل هوالذى يكون عن قدرة لا عن عجز . فقد أرسل إليها عمر ـ رضى الله عنه ـ بعطائها وكان كثيرا ، فقالت : غفر الله لعمر ، غيرى من أخواتى كان أقوى على قسمة هذا منى .

فقيل لها : هذا كله لك :

فقالت : سبحان الله . واستترت منه بثوب ، وقالت : صبوه ، واطرحوا عليه ثوبا .

ثم قالت لبرزة بنت رافع : أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبى بها إلى بنى فلان وبنى فلان ـ من أهل رحمها وأيتامها ، ومازالت تفعل ذلك حتى بقيت بقية تحت الثوب .

فقالت لها برزه بنت رافع : غفر الله لك ياأم المؤمنين ، والله لقد كان لنا فى هذا حق .

فقالت : فلكم ماتحت الثوب .

قالت : فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهما ، من اثنى عشر ألف درهم - ثم رفعت زينب يدها إلى السماء فقالت : اللهم لايدركنى عطاء لعمر بعد عامى هذا ، فماتت بعد ذلك بقليل[٢٢٨]

لقد نظرت إلى المال على أنه فتنة ، احتجبت منه ، وتصدقت به ، ودعت أن يحول الله بينها وبينه فاستجاب الله دعاءها .

وحين بلغ عمر مافعلته قال : هذه امرأة يراد بها خير .

وفاتها

ومرضت زينب ، وحانت وفاتها ، فأرسل لها عمر بن الخطاب بخمسة أثواب تخيرها ثوبا ثوبا ، فكفنت فيها وتصدقت عنها أختها حمنة بكفنها الذى كانت قد أعدته لتكفن فيه .

ورثتها عائشة - رضى الله عنها - بقولها : ذهبت من كانت ترعى اليتامى والأرامل .

وصلى عليها عمر بن الخطاب ، وسار يتقدم مشيعيها إلى البقيع ، وأمر مناديا ينادى أن اخرجوا على أمكم ، ووقف على القبر فى اليوم الحار حتى حفر ودفنت وكان قد صُنع لها نعش غشى بثوب أعجب به عمر ، وحملت على السرير الذى حمل عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان اليوم حارا فأمر عمر بضرب فسطاط فوق القبر ، فكان أول فسطاط ضرب على قبر .

حدث ثعلبة بن أبى مالك قال : رأيت يوم مات الحكم بن أبى العاص -

---

(٢٢٨) الطبقات ٨ /٧٧

فى خلافة عثمان . ضرب على قبره فسطاط فى يوم صائف ، فتكلم الناس وأكثروا .

فقال عثمان : ماأسرع الناس إلى الشر وأشبه بعضهم ببعض . أنشد الله من حضر نُشْدق هل علمتم عمر بن الخطاب ضرب على قبر زينب بنت جحش فسطاطا ؟ قالوا : نعم . قال : فهل سمعتم عائبا ؟ قالوا : لا .

وكانت وفاتها ـ رضى الله عنها . سنة عشرين .

ونزل فى حفرتها أولاد أختها وأولاد أخيها ..

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تزوجها سنة خمس من الهجرة لهلال ذى القعدة وكانت بنت خمس وثلاثين سنة .

رضى الله عنها وأرضاها .

جويرية بنت الحارث

رضى الله عنها

هى التى قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ماأعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها .[229]

فقد أعتقتهم من الأسر ، وحررتهم من الذل ، وجعلتهم أنصاراً وأحباباً بعد أن كانوا خصوماً وأعداءً . . . وكان ذلك بعض أهداف زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها .

نسبها وقومها

هى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة بن المصطلق من خزاعة .

---

(٢٢٩) سيرة ابن هشام ٢ /٢٩٤

كانت زوجة لمسافع بن صفوان ـ الملقب بذى الشُّفر ـ بن سَرْح بن مالك ابن جذيمة فقتل عنها يوم المريسيع .

أما يوم المريسيع فهو يوم غزوة بنى المصطلق وقصته كما يقول برهان الدين الحلبى فى السيرة الحلبية كما يلى :

هذه الغزوة هى غزوة بنى المصطلق ، ويقال لها : غزوة محارب ، ويقال لها : غزوة الأعاجيب لما وقع فيها من الأمور العجيبة ، كما قيل ذلك أيضاً فى غزوة الرقاع .

وبنو المصطلق بطن من خزاعة ، وهم بنو جذيمة ، وجذيمة هو المصطلق[٢٣٠]

أما المريسيع[٢٣١] فهو اسم ماء من مياههم .

وسبب هذه الغزوة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلغه أن الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق جمع لحرب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قدر عليه من قومه ومن العرب .

فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحد أصحابه ـ وهو بريدة بن الخصيب ـ ليعلم له خبر ذلك .

واستأذن بريدة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول مايتخلص به من شرهم ، وإن كان خلاف الواقع . . . فأذن له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(٢٣٠) المصطلق مأخوذ من الصلق وهو رفع الصوت

(٢٣١) المريسيع : مأخوذ من قولهم رسعت عين الرجل إذا دمعت من فساد ، وذلك الماء فى ناحية قديد .

فخرج « بريدة حتى ورد عليهم ، ورأى جمعهم ، فقالوا له : من الرجل ؟

قال : رجل منكم قدمت لما بلغنى من جمعكم لهذا الرجل ، فأسير فى قومى ومن أطاعنى ، فنكون يداً واحدة حتى نستأصلهم .

فقال له الحارث : فنحن على ذلك . فعَجِّل علينا .

قال بُرَيْدة : أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومى .

فسُرُّوا بذلك منه ، ورجع بُرَيْدة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره خبر القوم ، فندب الناس إليهم ، فأسرعوا بالخروج ، وكان ذلك فى شعبان لليلتين خلتا منه سنة خمس من الهجرة . وجاء فى البخارى سنة أربع .

وقادوا الخيل وهى ثلاثون فرساً ، منها عشرة للمهاجرين وعشرون للأنصار .

واصطحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نسائه عائشة ، وأم سلمة ـ رضى الله عنهما ـ وكان فى جيش المسلمين جماعة كثيرة من المنافقين الذين يظهرون خلاف مايبطنون ، فيهم عبدالله بن أبى بن سلول ، وزيد بن الصلت وغيرهما من الذين لايرغبون فى الجهاد ، ولكن يرغبون فى الاصابة من عرض الدنيا ، هذا مع قرب المسافة .

وسار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بلغ موضعاً نزل به ، وأصاب عينا للمشركين ـ أى جاسوساً ـ كان الحارث سيد بنى المصطلق قد وجهه ليأتيه بخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قومه ، فلم يذكر من أمرهم شيئاً ، فعرض عليه الإسلام فأبى ،

وطعن فى الإسلام ورسول الإسلام .

فقام عمر بن الخطاب فضرب عنقه بأمر من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وبلغ الحارث مسير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتل عينه ، فاستاء لذلك وخاف هو ومن معه خوفاً شديداً ، وتفرق عنه جمع كثير ممن كان معه .

ثم انتهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المريسيع فضربت له قبة هناك .

وتهيأ المسلمون للقتال ، وكانت راية المهاجرين مع أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وراية الأنصار مع سعد بن عبادة ـ رضى الله عنه ـ

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر أن ينادى فى الأعداء قائلاً : قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم . ففعل عمر ذلك ، فأبوا .

فتراموا بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه فحملوا حملة رجل واحد ، فما أفلت منهم واحد من الأعداء . . . . . قتل منهم عشرة وأسر سائرهم واستاق المسلمون إبلهم وشياههم ، وكانت بَرَّة بنت الحارث سيد بنى المصطلق فى السبى . .

زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من برة

وقعت بَرَّة بنت الحارث فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له .

فجعل ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة فى حصته ، وكاتبها على تسع أواق من ذهب .

فدخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يارسول الله إنى امرأة مسلمة ـ أسلمت ، وأشهد ألا إله الا الله ، وأنك رسول الله . وأنا برة بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابنا من الأمر ماعلمت ، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، وخلصنى ثابت من ابن عمه بنخلات فى المدينة ، وكاتبنى على مالا طاقة لى به . وإنى رجوتك فأعنى فى مكاتبتى .

فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ثابت بن قيس أن يعتقها لأنها مسلمة . . . فأعتقها ثابت بن قيس .

وبعد ذلك طلبها ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوافقت ، وتزوجها النبى وكانت ابنة عشرين سنة .

وغيَّر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اسمها إلى جويرية . .

بركة هذا الزواج

وخرج خبر هذا الزواج إلى الناس ، وكانوا قد اقتسموا السبى وملكوه ، فقالوا أصهار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأطلقوا سراح جميع الأسرى

وعن جويرية ـ رضى الله عنها ـ قالت : لما أعتقنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتزوجنى ، والله ماكلمته فى قومى حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم ، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمى تخبرنى الخبر ، فحمدت الله ـ سبحانه وتعالى ـ

فقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : لاأعلم امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية ، أعتقت بزواجها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل مائة بيت .

رؤيا جويرية

وذكرت جويرية ـ رضى الله عنها ـ قالت : قبل قدوم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بثلاثة أيام رأيت كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى .

قالت : فكرهت أن أخبر بها أحداً من الناس ، فلما أُسرنا رجوت الرؤيا . .

ولقد تحققت رؤياها فعلا ، وفازت بالتزوج من النبى الذى وصفه الله بأنه سراج منير ـ قال تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢٣٢)

ومما تحدثت به جويريه فى ذلك قولها : لما أتانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ونحن على المريسيع سمعت أبى يقول : أتانا مالاقبل لنا به . فلبثت أرى من الناس والخيل والسلاح شيئاً كثيراً ، فلما أسلمت وتزوجنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجعنا ـ جعلت أنظر إلى المسلمين ، فليسوا كما كنت أرى ، فعلمت أنه رعب من الله ـ تعالى ـ ألقاه فى قلوب المشركين . .

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يقول : نصرت بالرعب . .

جويرية فى بيت الزوجية

وأصبحت جويرية فى بيت الزوجية ، وبنيت لها حجرة بجوار

---

(٢٣٢) الأحزاب ٤٥

الحجرات ، وسارت الحياة بها مع أخواتها أمهات المؤمنين . .

وكانت جويرية بنت الحارث تجتهد كثيراً فى العبادة ، ولعلها كانت تريد بذلك أن تعوض مافات من عمرها وهى على غير دين الله .

قبل أن تلحقها بركة الإسلام والتزوج برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولعلها كانت تريد بذلك أن ترضي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باجتهادها فى العبادة . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى منها ذلك فيعجبه ، ولكنه كان يوجهها إلى أفضل ماتكون عليه إصابة فى ذلك .

روى عبدالله بن عمرو قال : دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جويريه بنت الحارث يوم جمعة وهى صائمة . فقال لها :

أصمت أمس ؟

قالت : لا

قال : أفتريدين الصوم غداً ؟

قالت : لا

قال : فأفطرى إذاً[٢٣٣]

لقد وجهها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أن إفراد يوم الجمعة بالصيام لايجوز ، لأنه يوم عيد للمسلمين ، فمن أراد أن يصوم فيه فعليه أن يصوم معه يوماً قبله أو بعد .

---

(٢٣٣) الطبقات الكبرى جـ٨ صـ٨٥

وحدث ابن عباس - رضى الله عنهما - عن جويرية بنت الحارث أن النبى - صلى الله عليه وسلم - مرَّ عليها وهى فى مسجدها ، ثم مر عليها قريباً من نصف النهار ، فقال لها : مازلت على حالك ؟

قالت : نعم

قال : « ألا أعلمك كلمات تقولينها ؟ : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحانه الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله زنة عرشة ، سبحان الله مداد كلماته سبحان الله مداد كلماته ، سبحان الله مداد كلماته »[٢٣٤]

وكانت جويرية تستجيب لما يأمرها به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وفاتها

عاشت جويرية - رضى الله عنها - إلى أيام معاوية ، ولم يعرف عنها أنها شاركت فى الأحداث التى ظهرت أيام عثمان - رضى الله عنه - أو بعده . لقد التزمت بمضمون الآية الكريمة « وقرن فى بيوتكن »

وتوفيت - كما يقول ابن سعد - عام ستة وخمسين من الهجرة فى شهر ربيع الأول .

وصلى عليها مروان بن الحكم وهو يومئذ والى المدينة من قبل معاوية وكانت سنها حين توفيت خمساً وستين سنة - رضى الله عنها -

وقد شاركت جويرية فى رواية ماسمعت من النبى - صلى الله عليه وسلم - فانتفع به المسلمون ، وكان ممن روى عنها من كبار الصحابة ابن عباس وجابر وابن عمر وعُبيد بن السباق وغيرهم - رضى الله عنهم -[٢٣٥]

---

(٢٣٤) أسد الغابة جـ٧ صـ٥٨ ، تحفة الأحوذى أبواب الدعوات

(٢٣٥) أسد الغابة ٧ /٥٧

أم حبيبة بنت أبي سفيان
رضى الله عنها

كانت فى الحبشة مهاجرة حين أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - فى خطبتها لأنها مرت بظروف قاسية كانت فى أشد الحاجة إلى من يأخذ بيدها فيها ، فامتدت إليها اليد الحانية الرحيمة ، يد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسله الله رحمة للعالمين .

أما قصة ذلك فنفصلها فيما يأتى :

كانت رملة بنت أبى سفيان[٢٣٦] - زعيم قريش - من السابقات إلى الاسلام ، أسلمت هى وزوجها عُبَيْد الله بن جحش ، وهاجرا معاً إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ، ومعهما ابنتهما حبيبة التى كنيت أمها بها - وقيل : بل كانت حاملاً بها وولدتها بالحبشة .

وكانت أمها ابنة عمة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - لأن أمها هى صفية بنت أبى العاص ، شقيقة عفان بن أبى العاص . والد عثمان .

ومكثت رملة فى الحبشة مع المسلمين الذى وجدوا فى جوار النجاشى خير جوار ، حيث أمنوا على أنفسهم ودينهم ، وأقبلوا على عبادة ربهم فى حرية وأمان لايخشون بأس المعارضين والمعاندين .

وفى ليلة استيقظت رملة من نومها منزعجة ، لقد رأت رؤيا أفزعتها ،

---

(٢٣٦) قال بعض الرواة : كان اسمها هند

رأت زوجها عبيدالله بن جحش فى صورة قبيحة أنكرتها . . واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ، وأخذت تتساءل فى نفسها عن تأويل هذه الرؤيا ، ثم سكتت فى انتظار مايأتى به القدر ، وإن كانت قد أيقنت بأن زوجها لابد وأن تكون قد تغيرت حاله . .

ولم يلبث أن جاء إليها زوجها يقول لها : ياأم حبيبة ، وإنى كنت قد دِنْتُ بالنصرانية ، ثم دخلت فى دين محمد ، والآن قد رجعت إليها .

فبادرته أم حبيبة قائلة : والله ماهو خير لك . ثم أخبرته بالرؤيا التى رأت ، ولكنه لم يعبأ بما قالت .

كان الشيطان قد ركب رأسه وأضله عن سواء السبيل ، وانساق فى الغواية ، وأكب على شرب الخمر حتى أوردته موارد التهلكة ـ ومات عُبيد الله بن جحش بالحبشة ، ودفن هناك .

وأصبحت بنت زعيم قريش غريبة ، وإن كانت فى أُنس ٍ من دينها وربها وإخوتها المسلمين . .

وشعر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحاجة هذه المرأة إلى الرعاية ، فقد هاجرت مختارة إلى الحبشة ، مؤثرة دين الله على ماعداه ، رافضة ماكان عليه أبوها وقومه من عبادة الأوثان ، وكانت تجد فى صحبة زوجها المسلم أنساً واطمئناناً وسعادة . والآن قد مات زوجها نصرانياً غريباً ، وقد أبت إباءً شديداً أن تتابعه على دينه الذى أراد حملها عليه .

فهل تُترك هذه المرأة المؤمنة الصابرة المجاهدة المهاجرة هكذا دون عائل ؟

وما الذى يحول الآن بين أبيها أبى سفيان وبين إرجاعها من الحبشة لتعود إلى كنفه راغمة ؟ ولئن أبت مفارقة الإسلام فليس هناك من يقف دون تعذيبها وإذاقتها أشد الهوان . .

وغير ذلك فقد انتابت أم حبيبة محنة قاسية لأنها كانت تشعر بمرارة لايستطيع غيرها أن يصبر عليها .. لقد جاءت مع زوجها مسلمين مؤمنين ، فإذا بهذا الزوج يرتد عن دينه ويترك الملة الحنيفية الصافية التى جاءت لتنقذ الناس من الظلمات إلى النور .. ولم يكتف هذا الزوج بالارتداد ، بل لج فى العناد إلى درجة أنه كان يُعيِّر المسلمين بأنه على الحق وهم على الباطل(٢٣٧)

لقد أصبحت منطوية على نفسها ، متوارية عن إخوانها وأخواتها ، المسلمين تشعر بالخزى لفعلة زوجها الشنعاء .. ولا أنيس لها سوى دموعها التى تنساب على وجْنتها فى حزن غامر وألم دفين .

ولا ملجأ لها إلا ابنتها الصغيرة ..... فترثى لحالها أن أصيبت فى والدها مرتين ، مرة بارتداده ومرة بوفاته ، فكأنه مات موتتين ..

« ماذنب هذه الابنة الحبيبة لكى تولد لمثل هذا الأب الصابىء المرتد ؟ ماجريرتها لتخرج إلى الحياة فى أرض غريبة ، وقد انبتّ مابين أبويها وتمزق شمل ذويها ، وتوزعت أهلها مللا شتى ، فأبوها نصرانى وأمها مسلمة وجدها مشرك عدو للإسلام ؟ »(٢٣٨)

وامتدت إليها اليد الحانية لتنتزعها من ذلك كله . وترد إلى روحها الأمن والسلام ، وإلى قلبها الأمن والسعادة ..

قالت أم حبيبة : ماأشعر إلا ـ وأنا فى المنام بعد أن مات زوجى ـ بمن يقول لى : ياأم المؤمنين .

---

(٢٣٧) البداية والنهاية جـ٤ صـ١٤٣

(٢٣٨) نساء النبى د. بنت الشاطىء صـ٢٢٧

وانتبهتْ ـ رضى الله عنها ـ مبهورة .. لقد ألقى الله فى روعها أنها ستصبح زوجاً للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أعظمها من سعادة ..

وسرعان ماتحقق ذلك ..

تقول : فما هو إلا أن انقضت عدتى ، فما شعرت إلا برسول النجاشى على بابى يستأذن ...

وأذنت له . فإذا بجارية النجاشى تقول لها : إن الملك يقول لك إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب إليه أن يزوجك إياه ..

ولم تستطع أم حبيبة أن تكتم فرحتها ، فقالت للجارية بشرك الله بالخير ...

ثم قالت الجارية : إن الملك يقول لك وكِّلى عنك من يزوجك ...

فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص ـ وهو ابن عمها ـ فوكلته .

وخلعت على الجارية كل ماعليها من حلىّ ـ أعطتها سوارين من فضة وبعض الخواتم سروراً بما بشرتها به ...

زواج النبى بها

حين بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بالمدينة ـ عقب خيبر ـ ماأصاب أم حبيبة ـ أرسل عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى يخطب أم حبيبة ، فأسرع النجاشى فى تنفيذ ماأمر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرسل جاريته لتخبر أم حبيبة بذلك ـ كما رأينا ـ

وربما وافق ذلك مجىء عمرو بن العاص إلى بلاط النجاشى ، فى سفارة عن قريش يطلب فيها إعادة من عنده من المسلمين إلى مكة . كما أخبر بذلك ابن كثير فى البداية والنهاية فى بعض الروايات .

وفى العشى ، أرسل النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين فحضروا . .

وخطب النجاشي قائلا : الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار . . أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أما بعد فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب إلىَّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فأجبت إلى مادعا إليه رسول الله ، وقد أصدقتها أربع مائة دينار ، ثم سكب الدنانير بين يدى القوم .

فتكلم خالد بن سعيد فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأستنصره وأشهد أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أما بعد ـ فقد أجبت إلى مادعا إليه رسول الله . وزوَّجته أم حبيبة بنت أبي سفيان فبارك الله لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها . .

ثم أرادوا أن يقوموا فقال : اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج .

ودعا الملك بالطعام ، فأكلوا ثم تفرقوا . .

وقيل : إن الذى زوجها عثمان بن عفان وأولم عليها لحماً . ولكن المشهور أن خالد بن سعيد هو الذى زوجها(٢٣٩) وأعطى خالد بن سعيد الدنانير لأم حبيبة .

---

(٢٣٩) الذى يؤكد أن عثمان لم يشهد العقد أنه كان قد عاد من الحبشة ، وأم حبيبة هاجرت هى وزوجها فى الهجرة الثانية للحبشة بعد عودة عثمان .

وأرسلت أم حبيبة لجارية النجاشي . فجاءت فقالت لها : إنى كنت قد أعطيتك ماأعطيتك يومئذ ولا مال بيدى ، فهذه خمسون ديناراً فخذيها فاستعينى بها .

فأبت الجارية أن تأخذ شيئاً ، بل أخرجت حُقًّا فيه ماأعطتها إياه أم حبيبة قبل ذلك . وقالت لها : لقد عزم علىَّ الملك أن لاآخذ شيئاً وقد اتبعت دين محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسلمت لله ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ماعندهن من العطر .

قالت أم حبيبة فلما جاء الغد جاءتنى بعود وثياب وعنبر كثير ، فقدمت بذلك كله على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان يراه علىَّ وعندى فلاينكره . . .

وقالت الجارية : فحاجتى إليك أن تقرئى رسول الله منى السلام ، وتعْلِميه أنى قد اتبعت دينه . .

ووثَّقت الجارية الصلة بأم حبيبة ، فكانت تلطف بها ، وهى التى جهزتها فى سفرها ، وكانت كلما دخلت عليها تقول لها : لاتنسى حاجتى إليك ـ تعنى تبليغ سلامها لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قالت أم حبيبة : فلما قدمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرته بكل ماحدث ، وبما كان من الجارية ـ وأبلغته سلامها إليه . فقال : وعليها السلام ورحمة الله وبركاته .

وحين بلغ أباسفيان زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ابنته قال : هذا الفحل لايُقْدَع أنفه[٢٤٠]

---

(٢٤٠) يقصد أنه كفء كريم لايرد ـ وروى : لايقرع ـ بالراء ، وهو بنفس المعنى ، وجاء هذا الخبر فى الطبقات جـ٨ صـ٧٠ ، وأسد الغابة جـ٧ صـ١١٦

وهذا هو الصحيح فى خبر زواج أم حبيبة من النبى - صلى الله عليه وسلم -

موقف مشهود لأم حبيبة :

ولأم حبيبة موقف مشهود يدل على قوة إيمانها وعمق دينها وشدة تمسكها بدينها ، حتى لقد علمت أن الولاء لله ورسوله مقدم على الولاء للأب والعشيرة .

فقد حدث أن نقضت قريش عهدها الذى أبرمته مع النبى - ﷺ - فى الحديبية .

وذلك حين ظاهرت قبيلة بكر وساندتها فى عدوانها على قبيلة خزاعة سنة ثمان من الهجرة . وكانت خزاعة فى حلف رسول الله - ﷺ - وأقبل وفد من خزاعة على النبى - ﷺ - يستنصره ، كان هذا الوفد يمثله عمرو بن سالم الخزاعى الذى أخذ يهتف قائلا فى أثناء دخوله المسجد على رسول الله - ﷺ - :

يــارب إنى ناشـــدٌ محمــدا حلــف أبينــا وأبيــه الأ تلــدا
إن قريشــا أخلفــوك الموعــدا ونقضــوا ميثاقــك المؤكــدا
هــم بيتــونا بالوتيــر هجــدا وقتلــونا ركعــاً وســجدا

فقال النبى - ﷺ - : نصرت ياعمرو بن سالم .

وندمت قريش على نقضهم العهد ، فأرسلوا أبا سفيان ليُجدد العقد ويؤكده ويزيد فى مدته .

وجاء أبو سفيان الى المدينة ، ودخل على ابنته أم حبيبه زوج النبى - ﷺ - فلما هم أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه .

فقال لها : يابُنَيَّة ، ماأدرى ، أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟

قالت : بل هو فراش النبى - ﷺ - وأنت مشرك .

قال أبو سفيان لقد أصابك بعدى شر ياابنتى .

فقالت : بل هدانى الله تعالى إلى الإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر . . . واعجبا منك يا أبت وأنت سيد قريش وكبيرها .

فقال : أنا أترك ما كان يعبد آبائى واتبع دين محمد ؟

ثم خرج حتى أتى النبى - ﷺ - وقال له : إنى كنت غائبا فى صلح الحديبية ، فامدد العهد وزدنا فى المدة .

فقال رسول الله - ﷺ - : لذلك جئت يا أبا سفيان ؟

قال : نعم .

فقال له : هل كان فيكم من حدث ؟

قال : معاذ الله ، نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبدل .

فسكت رسول الله - ﷺ - .

فأعاد أبو سفيان القول فلم يرد عليه شيئا .(٢٤١)

فانظر كيف لم تلتفت أم حبيبة إلى أبيها حين جاء إليها على بعد زمن ومشقة طريق ، ولم يكن فى ذهنها حين جاء إلا المحافظة على فراش رسول - ﷺ - وتوجيه النصح لأبيها أن ينطق كلمة الحق ويجهر بشهادة الإسلام . . ولو أنه قد فعل ذلك لتبدل اللقاء ورحبت به أيما ترحيب . .

---

(٢٤١) السيرة الحلبية جـ٣ صـ٦

وقد ذكر ابن سعد أن قوله - تعالى -

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢٤٢)

نزل في تزوج النبي أم حبيبة .

قال القرطبي : المودة تزويج النبي - ﷺ - أم حبيبة بنت أبي سفيان فلانت بذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة .

وكان ذلك من أهداف هذا الزواج إلى جانب ماأشرنا إليه من أهداف أخرى .

في صحبة الرسول - ﷺ -

عاشت أم حبيبة في صحبة الرسول - ﷺ - زهاء أربع سنوات ، وشهدت معه فتح مكة وإسلام أبيها الذي أراد النبي - ﷺ - أن يخصه بشيء من الفخر ، فقال : « من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » . .

وروت عن النبي - ﷺ - أحاديث ، منها ماروته في فضل أخيها معاوية .

روى هشام بن عروة عن عائشة قالت : لما كان يوم أم حبيبة من النبي - ﷺ - دق الباب داقٌ . فقال النبي - ﷺ - : « انظروا من هذا ؟ »

قالوا : معاوية .

قال : « ائذنوا له » .

فدخل وعلى أُذُنه قلم يخط به .

[٢٤٢) الممتحنة ٧

فقال : « ماهذا القلم يا معاوية » ؟

قال : قلم أعددته لله ولرسوله .

قال : « جزاك الله عن نبيك خيرا » .

والله ما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحى من الله كيف بك لو قمصك الله قميصا ؟ .. يعنى الخلافة .

فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه ، وقالت : يارسول الله ، وإن الله مقمصه قميصا ؟

قال : « نعم » ، ولكن فيه هنات وهنات » .

فقالت : يارسول الله فادع الله له .

فقال : « اللهم أهده بالهدى وجنبه الردى ، واغفر له فى الآخرة والأولى »(٢٤٣)

وَرُوِى عنها حديث مشهور يعد من الأحاديث التى تخبر عن علامات الساعة .

فقد روت حبيبة عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش أن النبى ـ ﷺ ـ استيقظ من نومه وهو مُحْمَرٌ الوجه ، وهو يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وحلق بإصبعيه الإبهام والتى تليها ـ

قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟

قال : نعم ، إذا كثر الخبيث(٢٤٤)

---

(٢٤٣) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٢٠ قال الطبرانى تفرد به السرى عن عاصم ... قال ابن كثير : وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة ..

(٢٤٤) البداية والنهاية جـ٦ صـ٢٠٨ ورواه الإمام أحمد عن سفيان .

وروت غير ذلك من أحاديث رواها عنها عدد كثير من الصحابة والتابعين .

وعاشت أم حبيبة مع أخواتها زوجات النبى - ﷺ - فى ود وطاعة لله ورسوله . .

عن عوف بن الحارث قال : سمعت عائشة تقول : دعتنى أم حبيبة زوج النبى - ﷺ - عند موتها فقالت : قد كان يكون بيننا مما قد يحدث أحيانا بين الضرائر ، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك . فقلت : غفر الله لك ذلك كله .

فقالت : سررتنى سرَّك الله . وأرسلت إلى أم سلمة ، فقالت لها مثل ذلك(٢٤٥) .

وربما شاركت أم حبيبة بعد وفاة الرسول - ﷺ - فى بعض الأحداث . فقد ذكر الرواة أنه فى حصار أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - جاءت أم حبيبة راكبة بغلة ، وحولها خدمها .

فقالوا : ما جاء بك ؟

فقالت : إن عنده وصايا لأيتام وأرامل من المسلمين ، فأحببت أن أُذكِّره بها ، فكذبوها فى ذلك ، ونالها منهم شدة عظيمة ، وقطعوا حزام البغلة ، وندَّت بها ،وكادت أن تسقط عنها ، وكادت تقتل لولا أن تلاحق بها الناس فأمسكوا بدابتها ، ووقع أمر كبير جدا . . . وأصبح هذا الأمر مثلا حتى قالت عائشة - رضى الله عنها - حين طلبوا منها البقاء لتصلح بين الناس يوم

---

(٢٤٥) الطبقات ٨ /٧١

الجمل - : إنى أخشى أن أشير عليهم برأى فينالنى من الأذية ما نال أم حبيبة . .(٢٤٦)

ولم يعرف عن أم حبيبة - رضى الله عنها - أنها شاركت فى شىء غير ما أشرنا إليه . بل عكفت بعد ذلك فى بيتها عابدة ذاكرة حتى لقيت ربها راضية مرضية سنة أربع وأربعين من الهجرة فى خلافة أخيها معاوية . .

ابنتها حبيبة :

وتعد ابنتها حبيبة بنت عُبَيْد الله بن جحش ربيبة رسول الله - ﷺ - من الصحابيات الراويات . .

فقد روت عن أمها أم حبيبة الحديث المشهور بأن فى سنده أربع صحابيات - وقد سبق أن ذكرناه - وهو حديث « ويل للعرب من شر قد اقترب » .

فقد ذكروا أن راوياته هن زينب بنت أم سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة عن أم حبيبة عن زينب بنت جحش .

وقد تربَّت حبيبة فى حجر النبى - ﷺ - فهى ربيبته .

وقد اختلف فى شأن ولادتها ، فبعضهم قال إنها ولدت قبل الهجرة إلى الحبشة واصطحبتها معها أمها ، وبعضهم قال : بل ولدت فى الحبشة . .

وربما خلط بعضهم بينها وبين حبيبة بنت أبى سفيان فى رواية الحديث الآتى « ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد إلا جىء بهم يوم القيامة فيقال لهم : ادخلوا الجنة فيقولون : حتى يدخلها آباؤنا فيقال لهم فى الثالثة أو الرابعة : ادخلوا أنتم وآباؤكم »(٢٤٧)

(٢٤٦) البداية والنهاية جـ٧ صـ١٨٦

(٢٤٧) أسد الغابة ٧ / ٦٠

والواقع - كما يقول ابن الأثير - أن أبا سفيان ليست له ابنة اسمها حبيبة ، بل هى أم حبيبة .

وإن كان أبو نعيم وابن منده أسند الحديث السابق إلى حبيبة خادمة عائشة - رضى الله عنها - .

صفية بنت حُيىّ
رضى الله عنها

أما صفية فهى بنت حُيَىٌ بن أخطب بن سَعْيَة اليهودى(٢٤٨) - زعيم بنى النضير . كان من كبار المناوئين للدعوة الاسلامية ، المحرضين عليها . . . أجلاه النبى - ﷺ - عن المدينة فيمن أجلاهم من بنى النضير حين نقضوا عهدهم معه . .

فارتحل إلى خيبر وأقام بها ، ولكنه لم يكف عن التآمر ، فحرض قريشاً والأحزاب ، ودفعهم إلى المدينة حتى أحاطوا بها يوم الأحزاب ، ثم أقبل على بنى قريظة - وكانوا فى معاهدة عدم اعتداء مع النبى - ﷺ - فأخذ حُيىّ ينفث فيهم من سمومه حتى حملهم على نقض العهد ، ليكونوا من خلف النبى - ﷺ - والأحزاب من أمامه فيطوقونه هو ومن معه ويقضون عليهم - هكذا سَوّل له شيطانه ، ولكن الله خذله وخذلهم ، فأرسل ريحا وجنوداً لم يروها ، وارتد الأحزاب خاسئين مذعورين مبددين ، وانصرف النبى - ﷺ - إلى بنى قريظة الذين نقضوا العهد فاستأصل شأفتهم ، واستأصل معهم رأس الحية حُيَىٌ بن أخطب - والد صفية بنت حيى - زوج - ﷺ -

---

(٢٤٨) ورد فيه سعْية - بالياء - وورد أيضاً : سَعْنَة بالنون

ولكن صفية ـ رضى الله عنها ـ لم ترث منه ذلك الحقد الأسود الدفين ، لأن الله أراد أن يجعلها من أمهات المؤمنين ، فهيأ نفسها للإيمان ، وعقلها للتفهم ، وقلبها للسكينة والأمن والاطمئنان . . حتى إنها رأت رؤيا وهى فى خيبر ـ كأن القمر أقبل من يثرب فوقع فى حجرها ـ فذكرت ذلك لزوجها كنانة ، فلطمها لطمة دامية أثرت فى وجهها وتركت فيه خضرة قريبا من عينها ، وقال لها : تحبين أن تكونى تحت هذا الملك الذى يأتى من المدينة ؟ يعنى النبى ـ ﷺ ـ .

حياتها قبل الإسلام :

عرفنا أن أباها ـ هو حُيَىّ بن أخطب ـ أما أمها فهى بَرَّة بنت سموأل ، وهى من بنى إسرائيل من سبط لاوى بن يعقوب .

وقد تزوجت كنانة بن أبى الحقيق . . وقتل كنانة فى خيبر ، وكان سبب قتله أنه بعد أن فتحت حصون خيبر ، أُتى النبى ـ ﷺ ـ بكنانة وأخيه الربيع فقال لهما : أين كنوزكما ؟ فأنكرا معرفتهما بمكانها . وقالا : أذهبتها النفقات والحروب .

فقال ـ ﷺ ـ : العهد قريب والمال أكثر من ذلك . .

ذلك أن حُيَىّ بن أخطب حين أُجْلِىَ مع بنى النضير من المدينة ، حمل معه الذهب والحلى وجعله فى مِسْك ـ أى جلد ـ وقال : هذا ما أعددته لرفع الأرض وخفضها .

فقال النبى ـ ﷺ ـ لهما : إنكما إن أنكرتما شيئا فاطلعت عليه حكمتم على أنفسكم بالقتل .

فقالا : نعم . .

فأخبره الله ـ تعالى ـ بموضع ذلك المال . فقال لرجل من الأنصار : اذهب إلى مكان كذا وكذا ، ثم ائت النخل ، فانظر نخلة عن يمينك ، أو قال عن يسارك مرفوعة فائتنى بما هو مخبأ فيها .

فانطلق الأنصارى فوجد الأمر كما أخبره النبى ـ ﷺ ـ فجاء به . فأمر النبى ـ ﷺ ـ بضرب عنقيهما . . وقيل : قتل كنانة قصاصا بسبب قتله محمود بن مسلمة الذى قتله قبل ذلك . . ولقد كانت صفية تفكر فى أمر هذا الدين الجديد الذى وقف منه أبوها موقف المعارض . . . وإنها لتقص علينا أن هناك حواراً دار بين أبيها وعمها ياسر ، وكانا قد عادا من محاورة النبى ـ ﷺ ـ بعد هجرته . . . حيث أرادا أن يسألاه فيما جاء به من الدين . . . . ولنقرأ القصة كما أوردها ابن هشام فى سيرته .

قال : قال ابن إسحاق : حدث عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمر ابن حزم قال ـ روى عن صفية بنت حيى بن أخطب أنها قالت : كنت أحَبُّ ولد أبى إليه ، وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه .

قالت : فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة ، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف ـ غدا عليه أبى حيى بن أخطب ، وعمى أبو ياسر بن أخطب فى الصباح الباكر . .

قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، فأتيا متعبين ساقطين يمشيان الهوينى . فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فو الله ما التفت إلىَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم .

قالت : وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى : أهو هو؟

قال : نعم والله .

قال : أمتأكد أنت من ذلك ؟

قال : نعم .

قال : فما فى نفسك منه ؟

قال حُيَىٌّ : عداوته والله ماحييت ..[249]

ولاشك أن هذا الحوار قد علق فى ذهن صفية ، وأدركت منه صدق الدعوة التى بشرت بها التوراة ، وترك فى نفسها أثرا أمال قلبها إلى الإسلام ..

وظاهَرَ ذلك ما كانت تراه فى منامها من رؤى تشير إلى أنها سوف تنضم إلى قافلة النور فى يوم ما ..

وقد سبق أن أشرنا إلى أنها رأت رؤيا قَصَّتها على زوجها فلطمها .

وبعض الرواة يذكرون أن هذه الرؤيا التى رأتها قصَّتها على أبيها فلطمها وقال لها : إنك لتمدين عنقك إلى أن تكونى عند ملك العرب[250]

ولا مانع أن تكون قد رأت هذه الرؤيا مرتين ، مرة قبل زواجها ، ومرة بعد زواجها ..

إسلامها

أسلمت صفية يوم خيبر ... وذلك أنه بعد أن فُتحت خيبر ، وقُسِّم الفىء بين المسلمين ، وكانت صفية ضمن الأسرى ـ وكانت عند أم سليم ـ

---

(٢٤٩) سيرة ابن هشام جـ٢ صـ٢٥٧

(٢٥٠) أسد الغابة ٧ / ١٧٠ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ٣٣٦

وهى أم انس ـ رضى الله عنه ـ حتى اهتدت وأسلمت . . . . . فلما أسلمت جاءت بها أم سليم إلى النبى ـ ﷺ ـ وقد أراد النبى ـ ﷺ ـ أن يستل سخيمتها وسخيمة قومها بتزوجه منها .

قالت صفية : انتهيت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وما من الناس أحد أكره إلىّ منه ، قَتَل أبى وزوجى وقومى ، فقال ـ ﷺ ـ ياصفية : إن ما حدث لقومك هو الجزاء العادل لما فعلوه وما قالوه . إنهم قالوا لى كذا وكذا وفعلوا كذا وكذا ، وصنعوا كذا وكذا . .

قالت صفية : ومازال ـ ﷺ ـ يتحدث حتى أذهب ذلك ما كان فى نفسى ، فما قمت من مقعدى إلا وهو أحب الناس إلىّ (٢٥١)

وجاء فى الطبقات الكبرى ، لما دخلت صفية على النبى ـ ﷺ ـ قال لها : لم يزل أبوك من أشد يهود لى عداوة حتى قتله الله . فقالت : يارسول الله ، إن الله يقول فى كتابه

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ : اختارى ، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى ، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك .

فقالت : يا رسول الله . لقد أحببت الإسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعونى ، ومالى فى اليهودية أرب ، ومالى فيها والد ولا أخ ، وخيرتنى بين الكفر والإسلام ، فالله ورسوله أحب إلىّ من أن أرجع إلى قومى . فأمسكها رسول الله ـ ﷺ ـ(٢٥٢)

---

(٢٥١) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٧٤٩
(٢٥٢) الطبقات ٨ /٨٨

زواجها :

كان مهر صفية عتقها . أخبر وكيع بن الجراح عن مهدى بن ميمون عن أنس بن مالك قال : أعتق رسول الله ـ ﷺ ـ صفية وجعل عتقها صداقها .

وفى ليلة زواجه بها بات أبو أيوب الأنصارى متقلدا سيفه قرب خيمة النبى ـ ﷺ ـ يحرسه ، فلما أصبح رآه النبى ـ ﷺ ـ فقال له : مالك يا أبا أيوب ؟

قال : يارسول الله خفت عليك من هذه المرأة ، قتلت أباها وقومها ، وهى حديثة عهد بكفر ، فبت أحفظك . فقال النبى ـ ﷺ ـ : اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى .

قال السهيلى : فحرس الله أبا أيوب بهذه الدعوة ، حتى إن الروم لتحرس قبره ويستشفون به فيصحُّون ، ويستسقون به فيسقون[٢٥٣]

وأولم النبى ـ ﷺ ـ وليمة العرس . .

وذلك أنه حين أصبح قال : من كان عنده فضل زاد فليأتنا به ، فجعل الرجل منا يأتى بفضل السويق والتمر والسمن ، حتى جمعوا من ذلك ما جعلوه حَيْساً ، فجعلوا يأكلون منه ، ويشربون من سماء[٢٥٤] إلى جنبهم ، فكانت تلك وليمة رسول الله ـ ﷺ ـ

وذكر سهل بن سعد قال : أولم النبى ـ ﷺ ـ حين تزوج صفية بنت حيى ابن أخطب . . . . . قالوا : فماذا كان فى وليمته ؟

قال : التمر والسويق .

---

(٢٥٣) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٧٤٩

(٢٥٤) سماء : ماء مطر متجمع فى مكان

لقد كانت الولائم بدائية آنذاك . ليس فيها التكلف الذى جد فيها بعد . وليس فيها التأنق الذى نراه فى أنواع الطعام والشراب والآنية واختيار المكان .

ماكانت الوليمة إلا الحيْس .. قال أبو الوليد فى حديثه : « كانت وليمة رسول الله - ﷺ - - على صفية - السمن والأقط والتمر ، قال : جيء بالقصاع ، ثم جعل فيها السمن والأقط والتمر[٢٥٥] .

ولقد كان ذلك فضل أزواد القوم ، ولكن الله بارك فيه حتى طعم منه الجم الغفير .

فى الطريق إلى المدينة :

وانطلق النبى - ﷺ - فى طريقه إلى المدينة من خيبر ظافراً ، وقد استراحت نفوس المسلمين من هم يهود خيبر ومكائدهم . وفى الركب بنت سيدهم التى أصبحت زوجة للنبى - ﷺ - .

وحدث أنس قال : كنا إذا رأينا جُدُر المدينة وغير ذلك مما نَهَشُّ إليه نرفع مطايانا ، فرأينا جُدُرَها فرفعنا مطايانا[٢٥٦] ورفع رسول الله - ﷺ - مطيته ..

قال أنس حتى إذا كنا بظهر المدينة ، أو أشرفنا على المدينة قال : آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون .

فلم نزل نقولها حتى قدمنا المدينة .

---

(٢٥٥) الطبقات الكبرى جـ٨ صـ٨٧ والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط والاقط طعام يتخذ من اللبن المخوض

(٢٥٦) رفعنا مطايانا : حملناها على الإسراع فى السير .

وهو دعاء الشكر والحمد لله على نعمة السلامة من السفر ، والعودة المظفرة إلى الديار .

صفية فى المدينة :

وأنزل النبى - ﷺ - صفية فى بيت من بيوت حارثة بن النعمان ، وتسامعت نساء الأنصار بها فأقبلن إليها مرحبات بها ، وناظرات إليها ، وزائرات لها . .

وجاءت عائشة - أم المؤمنين - منتقبة حتى دخلت عليها فعرفها النبى - ﷺ - ، فلما خرجت خرج النبى على أثرها ، فقال لها : كيف رأيتها ياعائشة ؟

قالت : رأيت يهودية .

قال : لا تقولى هذا ياعائشة ، فإنها أسلمت فحسن إسلامها . . ولم تكن عائشة وحدها هى التى ذهبت مستطلعة أمر هذه الوافدة الجديدة التى جاءت تأخذ مكانا بين زوجات النبى - ﷺ - .

فقد جاءت زوجات النبى الأخريات مستطلعات كذلك . .

فقد حدثت أم سنان الأسلمية تقول : لما نزلنا المدينة لم ندخل منازلنا حتى دخلنا مع صفية منزلها ، وسمع بها نساء المهاجرين والأنصار ، فدخلن عليها متنكرات ، فرأيت أربعاً من أزواج النبى - ﷺ - متنقبات : زينب بنت جحش ، وحفصة . وعائشة ، وجويرية .

فأسمع زينب تقول لجويرية : يابنت الحارث ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا على عهد رسول الله - ﷺ -

فقالت جويرية : كلا . . إنه رسول الله . . ولا شك أن زينب تعرف ذلك . ولكنها الغيرة التى لا تكاد تسلم منها امرأة . .

لقد كان النبى - ﷺ - يحب ألا تأخذ الغيرة طريقها بعنف إلى قلوب زوجاته . وكان - ﷺ - يكف زوجاته عن مجاوزة الحد فى الغيرة ، ويمنع أن تكون الغيْرة سببا فى اللمز والغمز أو الغيبة » .

وقد كانت صفية حريصة على مكانها من رسول الله - ﷺ - وعلى تعاليم الإسلام ، وكانت تتفقد الرسول فى أثناء اعتكافه فى مسجده بعيدا عن نسائه ، فتذهب إليه بحاجته وتسأله فى أمور الدين لتتفقه فيه .

بعد الرسول

لزمت صفية بيتها بعد النبى - ﷺ - قانعة بما يفيئه الله عليها من العطاء - تعبد الله وتذكره . ولكنها فى أيام حصار عثمان لم يرضها أن يحيط الثائرون ببيته يمنعون عنه الطعام والشراب ، فخرجت فى محاولة جريئة للدفع عنه .

حدث كنانة قائلا : خرجت صفية لترد عن عثمان ، فلقيها الأشتر ، فضرب وجه بغلتها حتى مالت ، فقالت : ردونى .

قال الحسن : ثم وضعت خشبا من منزلها إلى منزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام له . .

إن فعلها هذا يشير إلى صدق إسلامها ، ورغبتها فى رأب الصدع الذى حدث فى وحدة المسلمين ، ودفاعها عن الإمام الذى اختاره الناس أميرا للمؤمنين ، وكراهتها لشق عصا الطاعة عليه . . لقد كانت مسلمة صادقة الإسلام ومؤمنة مخلصة الإيمان . .

وكانت لها دار تصدقت بها فى حياتها .[٢٥٧]

---

(٢٥٧) الطبقات ٨ /٩٢

وفاتها

توفيت صفية سنة اثنتين وخمسين ، فى خلافة معاوية ، ودفنت بالبقيع . وكانت سنها عند وفاتها تسعا وستين سنة .. - رضى الله عنها -

ميمونة بنت الحارث

رضى الله عنها

تعد ميمونة بنت الحارث آخر زوجة تزوجها النبى - ﷺ - فقد تزوجها فى عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة ..

أما عمرة القضاء فلها قصة تستوجب التسجيل والذكر ..

فى السنة السادسة للهجرة أراد النبى - ﷺ - أن يعتمر ، وصحبه فى هذه الرحلة عدد كثير من المسلمين ، وفى الحديبية وقف المشركون فى طريقهم يصدونهم عن البيت الحرام .

وتحفز المسلمون للقتال - على الرغم من أن رحلتهم لم تكن إلا بهدف العمرة فقط - وبايعوا النبى - ﷺ - بيعة الرضوان ، التى قال القرآن فى شأنها :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾[٢٥٨]

وأحس المشركون بخطورة الموقف فسعى رجالهم لعقد الصلح المشهور

---

(٢٥٨) الفتح ١٨

بصلح الحديبية ، وكان أهم بنوده أن يعود المسلمون عامهم هذا إلى المدينة على أن تخلى لهم قريش مكة فى العام القادم ثلاثة أيام ليؤدى المسلمون عمرتهم فيها .. وقد تحدثنا عن بعض ذلك فيما سبق ..

وعاد المسلمون إلى المدينة فعلا ، وهم يكتمون ثورة عاتية فى نفوسهم .....

وفى العام التالى تجهز المسلمون لأداء العمرة التى تسمى عمرة القضاء ، أو عمرة الصلح ، أو عمرة القضية .

وكانت عمرة القضاء فى السنة السابعة فى شهر ذى القعدة .

وكان عدد الذين خرج فيها من المسلمين ألفين . وقد أمر النبى - ﷺ - ألا يتخلف عنه أحد ممن خرج معه فى الحديبية فى العام الماضى ، فلم يتخلف أحد إلا من استشهد فى خيبر ومن مات ، وخرج معه قوم آخرون لم يكونوا قد خرجوا فى الحديبية .

واستخلف النبى - ﷺ - على المدينة أبا ذر الغفارى ، وساق ستين بدنة وقلدها ليعلم الناس أنها هدى فلا يقربها أحد . وحمل معه - ﷺ - سلاحا ودروعا ورماحا ، وقاد معه مائة فرس جعل عليها محمد بن مسلمة ، أما السلاح فجعل عليه بشير بن سعد .

ولم يكن الهدف من حمل السلاح القتال ، ولكنه كان للاحتياط . فقد سئل النبى - ﷺ - فى ذلك ، وقالوا له : لم تحمل السلاح معك وقد اشترطوا عليك أن لا تدخل عليهم بسلاح ؟ . فقال - ﷺ - : إنا لا ندخل عليهم الحرم بسلاح ، ولكن يكون قريبا منا ، فان هاجنا هيج كان السلاح قريبا منا .

وأحرم النبى - ﷺ - من باب المسجد النبوى ، فلما كان بذى الحليفة قدَّم الخيل أمامه .

فلما كان بمر الظهران رأى محمد بن مسلمة - وكان على الخيل - قوماً من قريش فسألوه .

فقال : هذا رسول الله - ﷺ - يصبح فى هذا المنزل غداً إن شاء الله .

وأسرع هؤلاء القوم يخبرون قريشا بأن المسلمين قدموا بالخيل والسلاح . ففزعت قريش وقالوا : ماأحدثنا حدثا ، وإنا على كتابنا ومدتنا . ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟

وبعثت قريش مكرز بن حفص فى جماعة من قريش إلى النبى - ﷺ - فقالوا له : والله يا محمد ماعُرِفتَ صغيرا ولاكبيرا بالغدر ، فلماذا تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب ؟

فقال - ﷺ - : إنى لا أدخل عليهم بسلاح .

فقال له مكرز : هذا هو الذى تعرف به - البر والوفاء . .

وخرج القرشيون من مكة وأخلوها للنبى - ﷺ - وصحبه ، حتى لا يروهم يطوفون بالبيت - عداوة وبغضا وحسدا للنبى - ﷺ - .

ودخل النبى - ﷺ - مكة راكبا ناقته القصواء ، وكان أصحابه يحدقون به ويلبون .

وكان عبدالله بن رواحة الأنصارى آخذا بزمام ناقة النبى - ﷺ - وهو يحدو قائلا :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله أعرف حق الله فى قبوله . .

وصعد المشركون جبل قينقاع وجعلوا ينظرون إلى المسلمين من بعيد ، وهم يدخلون البيت الحرام . وكانوا يقولون فيما بينهم : إن المسلمين قد وهنتهم حُمّى يثرب .

فأطلع الله نبيه على ما يقولون ، فقال : رحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة ، وأمر أصحابه أن يرملوا[٢٥٩] الأشواط الثلاثة الأول ، حتى يرى المشركون أنه لا وهن ولا ضعف عند المسلمين .

وأقام المسلمون بعد أداء العمرة ثلاثة أيام فى مكة .

قصة زواج النبى - ﷺ - من ميمونة بنت الحارث .

هى ميمونة بنت الحارث بن حَزْن بن بُجَيْر بن الهزْم بن عبدالله بن هلال من بنى عامر بن صعصعة .

وهى أخت لبابة زوجة العباس بن عبدالمطلب .

وأمها هند بنت عوف الكنانية .. وهى أكرم الناس أصهارا - لأن رسول الله - ﷺ - تزوج بنتها ميمونة ، والعباس بن عبدالمطلب تزوج بنتها لبابة الكبرى ، والوليد بن المغيرة تزوج بنتها - لبابة الصغرى وهى أم خالد بن الوليد . ، وأبو بكر تزوج بنتها - أسماء بنت عُميس فأولاد العباس ومحمد بن أبى بكر وخالد ابن الوليد أولاد خاله .

وكانت ميمونة قد تزوجت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفى ثم فارقها . .

وقال بعض الرواة : بل كانت زوجة لسَخْبَرَة بن أبى رُهْم ، وقال

---

(٢٥٩) الإرمال - الإسراع

بعضهم : بل كانت زوجة لحويطب بن عبدالعزى .

وقال بعضهم : بل كانت زوجة لفروة بن عبدالعُزَّى .

وعلى أيٍّ فقد كان يلي أمرها في ذلك الوقت ـ بعد وفاة زوجها ـ العباس بن عبدالمطلب ـ زوج أختها .

ويقال : إن العباس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ هو الذى عرضها على النبى ـ ﷺ ـ قال له : يا رسول الله ، إن ميمونة تأيَّمت من ابن أبي رهم فهل لك أن تتزوجها .

قال العلامة محمد رشيد رضا : لا أشك فى أن العباس رغب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الزواج من ميمونة ، ولولا أنه رأى فى ذلك مصلحة عظيمة لما عُنى به كل هذه العناية .

وفعلا كانت المصلحة فى هذا الزواج المبارك فقد تقرب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الهلاليين قومها ، فأكبروا فى الرسول هذه المروءة والحمية والنجدة . ثم أقبلوا يدخلون فى دين الله أفواجا ، وآزروا الرسول ونصروه ، وساروا معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث سار[٢٦٠] .

ويقال : إن النبى ـ ﷺ ـ كان قد رغب فى هذا الزواج من قبل . . . فقد روى على بن عبدالله بن عباس قال : لما أراد رسول الله ـ ﷺ ـ الخروج إلى مكة عام عمرة القضاء بعث أوس بن خولى وأبارافع إلى العباس ليزوجه ميمونة ، فأضلا بعيريهما فى الطريق ، فأقاما أياما ببطن رابغ ، حتى أدركهما رسول الله ـ ﷺ ـ بقديد ، وقد عثرا على بعيريهما ، فسارا معه حتى

---

(٢٦٠) زوجات النبى الطاهرات وحكمة تعددهن . محمد محمود الصواف صـ٧٣ دار الاعتصام

قدما مكة ، فأرسل إلى العباس فذكر ذلك له . . . . وجعلت ميمونة أمرها إلى رسول الله - ﷺ - فجاء النبى - ﷺ - إلى منزل العباس فخطبها إلى العباس فزوجها إياه[٢٦١]

ويقال : إن أبارافع ومن معه وصلا إلى مكة وزوّجا النبى - ﷺ - من ميمونة قبل خروجه من المدينة[٢٦٢]

ويؤيد هذا القول ما يروى من أن النبى - ﷺ - تزوج من ميمونة فى شوال ، وذلك قبل أن يحرم بالعمرة ، ولكن البناء بها كان بعد العمرة .

ويقال : إن النبى - ﷺ - أرسل جعفر بن أبى طالب - إليها فخطبها ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبدالمطلب ، فزوجها العباس من رسول الله - ﷺ -[٢٦٣]

متى تزوجها النبى ؟

تكلم كثير من الرواة حول موعد هذا الزواج ، أكان فى أثناء حله أم فى أثناء إحرامه ؟

ويترتب على ذلك حكم شرعى حول جواز النكاح فى أثناء الإحرام .

والمعروف عند كثير من الفقهاء أن نكاح المحرم لا يجوز ، قال الإمام الشافعى : أخبرنا مالك عن نافع عن نبيه بن وهب أخى بنى عبدالدار أن عمر بن عبدالله أراد أن يزوج طلحة بن عمر بنت شيبة بن جبير ، فأرسل إلى أبان بن عثمان ليحضر ذلك ، وهما محرمان ، فأنكر ذلك عليه أبان ،

---

(٢٦١) الطبقات ٨ / ٩٥

(٢٦٢) الطبقات ٨ / ٩٥

(٢٦٣) أسد الغابة ٧ / ٢٧٣

وقال : سمعت عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لا ينكح المحرم ولا يخطب »[٢٦٤]

وأكد الشافعى أن زواج النبى ـ ﷺ ـ من ميمونة كان فى الحل ، كان وهو بالمدينة قبل أن يخرج منها بعث مولاه أبارافع ورجلا من الأنصار فزوجاه . .

وقد تواترت أخبار فى ذلك منها :

عن ميمون بن مهران قال : دخلت على صفية بنت شيبة وهى عجوز كبيرة فسألتها : أتزوج رسول الله ميمونة وهو محرم ؟

فقالت : لا والله لقد تزوجها وهو فى الحل[٢٦٥]

وروى عمرو بن ميمون بن مهران قال : كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أبى أن سل يزيد بن الأصم : هل كان رسول الله ـ ﷺ ـ محرما حين تزوج ميمونة ؟

فدعاه أبى فأقراه الكتاب ، فقال : خطبها وهو حلال ، وبنى بها وهو حلال . . قال : وأنا أسمع يزيد يقول ذلك .

وكانت ميمونة خالة يزيد بن الأصم .

وحدث عطاء الخراسانى قال : قلت لابن المسيب إن عكرمة يزعم أن رسول الله ـ ﷺ ـ تزوج ميمونة وهو محرم . فقال : كذب ـ لأن الحقيقة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قدم وهو محرم فلما حل تزوجها .

وإلى هذه الروايات استند من منع زواج المحرم .

---

(٢٦٤) الأم جـ٤ صـ٦٩

(٢٦٥) الطبقات ٨ / ٩٥

ولكن هناك روايات أخرى تشير إلى أن هذا الزواج كان والنبى - ﷺ - محرم .

فقد روى مالك فى الموطأ : عن عبدالله بن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - تزوج ميمونة بنت الحارث وهو محرم - قال مالك : فلا نعلم أحدا ينبغى أن يكون أعلم بتزوج رسول الله - ﷺ - ميمونة من ابن عباس وهو ابن أختها .

ثم قال : فلا نرى بتزوج المحرم بأسا - وهو قول أبى حنيفة والعامة من فقهائنا(٢٦٦)

على أنه من المؤكد أن النبى - ﷺ - لم يبْن بميمونة إلا بعد حله من إحرامه ، وبعد انتهاء الأيام الثلاثة التى قضاها المسلمون فى مكة - بل وبعد خروجه منها ، وفى مكان اسمه « سَرِف » بطريق مكة .

فإنه بعد أن فرغ رسول الله - ﷺ - من عمرته أقام بمكة ثلاثا ، فأتاه سهيل بن عمرو فى نفر من أهل مكة ، فقالوا : يا محمد ، اخرج عنا ، فاليوم آخر شرطك ، وكان شرطه فى الحديبية أن يعتمر من قابل ويقيم بمكة ثلاثا .

فقال : « دعونى أبتنى بزوجى وأصنع لكم طعاما » .

فقالوا : لا حاجة لنا بطعامك ، فخرج فبنى بها بسرف قريب مكة(٢٦٧)

وقال ابن حجر فى الإصابة : قد انتشر الاختلاف فى هذا الحكم بين

---

(٢٦٦) الموطأ صـ١٤١ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

(٢٦٧) أسد الغابة جـ٧ صـ٢٧٣

الفقهاء ، ومنهم من قال : إنه عقد عليها وهو محرم ، وبنى بها بعد أن أحل من عمرته بالتنعيم .

وذلك بَيِّنٌ من سياق القصة عند ابن إسحاق ، وقيل : عقد له عليها قبل أن يحرم وانتشر أمر تزويجها بعد أن أحرم فاشتبه الأمر على البعض[٢٦٨]

والمشهور أن النبى - ﷺ - بنى بها بسرف فى قبة لها هناك ، وأن هذا المكان بعينه هو الذى ماتت فيه ودفنت فى موضع هذه القبة ....

هل ميمونة رض التى وهبت نفسها ؟

ويذكر بعض الرواة أن ميمونة بنت الحارث هى التى وهبت نفسها للنبى . ونزل فيها قوله تعالى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠ ﴾[٢٦٩]

---

(٢٦٨) الاصابة لابن حجر جـ ٨ صـ ١٢٦ تحقيق على البجاوى - مطبعة نهضة مصر

(٢٦٩) الأحزاب ٥٠

ذكر ذلك الزهرى وقتادة .

جاء فى الدر المنثور : أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة - رضى الله عنه - فى قوله « خالصة لك من دون المؤمنين » يقول : ليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبى - ﷺ - كانت خاصة له - ﷺ - من دون الناس ، يزعمون أنها نزلت فى ميمونة بنت الحارث - وهى التى وهبت نفسها للنبى - ﷺ -[٢٧٠]

وذكر القرطبى فى أسماء الواهبات أنفسهن للنبى - ﷺ - اسم ميمونة بنت الحارث . وقال : هى ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبى - ﷺ - فجاءها الخاطب وهى على بعيرها ، فقالت : البعير وما عليه لرسول الله - ﷺ -[٢٧١]

وقال السهيلى : لما جاءها الخاطب بالبشرى وكانت على بعير - قالت : البعير وما عليه لرسول الله - ﷺ -[٢٧٢]

لقد كان هذا الأمر مبعث سرور وسعادة لها . فزواجها من رسول الله - ﷺ - هو طريق الفوز بنعيم الآخرة الذى كان حب الله ورسوله طريقا إليه . لقد كان مطمح أى امرأة أن تكون أما للمؤمنين ، وتلك غاية مثلى ترفع قدرها بين الناس فى الدنيا ، وتؤدى إلى سعادتها فى الأخرى . وهى تعلم أن هذا اللقب يكلفها من التبعات والمسئوليات ما يفوق الطاقة . . .

---

(٢٧٠) الدر المنثور للسيوطى جـ٥ صـ٢٢٧ ط الأنوار المحمدية
(٢٧١) القرطبى جـ١٤ صـ٢٠٩
(٢٧٢) نساء النبى د بنت الشاطىء صـ٢٤٨

على أن الروايات الغالبة أن ميمونة لم تكن هى الواهبة نفسها ، ولكنها خُطِبَت فأجابت ، ودُفع لها مهر قيمته خمسمائة درهم ، وولى زواجها العباس ـ رضى الله عنه .

وحين طلب سهيل بن عمر من النبى ـ ﷺ ـ مغادرة مكة بعد انتهاء المهلة غادرها ، وقد خلف مولاه أبارافع بها ليلحق به فى صحبة ميمونة .

وفى سَرِف قرب التنعيم ـ على بريد من مكة ـ جاءت ميمونة يصحبها أبورافع . . فبنى بها النبى ـ ﷺ ـ بعد أن غير اسمها من بَرَّة إلى ميمونة .

فى المدينة :

وفى المدينة انضمت ميمونة إلى أخواتها أمهات المؤمنين ، وكانت تشعر بالرضا والسعادة أن منَّ الله عليها بهذه النعمة الوفيرة فجعلها زوجة لخير مبعوث .

وكانت ميمونة صالحة تقية ورعة . .

إن إيمانها وصلاحها تحدثنا به الأخبار . وقد قال النبى ـ ﷺ ـ فى حقها وحق أختيها أم الفضل وأسماء بنت عميس :

« الأخوات مؤمنات ـ ميمونة وأم الفضل وأسماء »(٢٧٣)

أما ورعها وصلاحها فبشهادة عائشة لها . . . فقد حدث يزيد بن الأصم قال : تلقيت عائشة وهى مقبلة من مكة أنا وابن طلحة بن عبدالله ، وهو ابن أختها ، وقد كنا وقعنا فى حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه ، فبلغها ذلك ، فأقبلت على ابن أختها تلومه وتعذله ، ثم أقبلت علىَّ فوعظتنى

---

(٢٧٣) الطبقات ٨ /٩٨

موعظة بليغة ، ثم قالت : ذهبت والله ميمونة ـ أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم .(٢٧٤)

لقد بلغ من صلاحها وورعها أنها كانت حين تحج أو تعتمر لا تكف عن التلبية والذكر .

عن كريب مولى ابن عباس قال : بعثنى ابن عباس أقود بعير ميمونة ، فلم أزل أسمعها تهل حتى رمت جمرة العقبة .

ولقد كانت حريصة على النعمة وشكرها لا تستقل شيئا منها ولو صغرت . فقد روى موسى بن أبى عائشة عن رجل عن ميمونة أنها أبصرت حبّة رمان فى الأرض ، فأخذتها ، وقالت : إن الله لا يحب الفساد .

وهكذا ينبغى أن يكون حفظ النعمة ـ يعنى شكرها ـ ومن حَفَظَ النعمة فقد قيدها بعقالها ، ومن جحد النعمة فقد عرضها لزوالها .

وكانت رضى الله عنها . حريصة على تطبيق الحدود ولو على ذوى قرابتها حدث يزيد بن الأصم قال : إن ذا قرابة لميمونة دخل عليها فوجدت منه ريح شراب ، فقالت : لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك ـ أو قالت يطهروك ـ لا تدخل علىَّ بيتى أبدا . .

وهذا هو الورع الصادق الذى يزين صاحبه ويرفعه عند الله ، أماَّ أن يغض الإنسان طرفه عن ذوى قرابته حين يتجاوزون الحد ، فليس هذا من شيم الصادقين المؤمنين . ولقد عظمت سيرة عمر بن الخطاب أكثر وأكثر حين طبق الحد على ابنه وجلده بيده .

---

(٢٧٤) الطبقات ٨ /٩٩

إن تطبيق الحدود هو الذى يحرس الدولة ويعصمها من التهاوى والسقوط . ولقد غضب النبى - ﷺ - يوما على أسامة بن زيد . لأنه ذهب يشفع فى حد من حدود الله . فقال له : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . .

هذه كانت أخلاقها - رضى الله عنها .

دعاء النبى لابن أختها :

ولقد غضب النبى - ﷺ - منها يوما ، ولكنه سرعان ما صفح وزايله غضبه حين عرف الحقيقة . ذلك أن وفد هلال بن عامر جاء إلى المدينة .

وكان فى الوفد زياد بن عبدالله بن مالك - وهو ابن أخت ميمونة . فلما جاء يمم منزل خالته ميمونة بنت الحارث ، فدخل عليها . وجاء النبى - ﷺ - ودخل ، فلما رآه غضب . فقالت : يا رسول الله إنه ابن أختى .

فرحب به النبى - ﷺ - ثم خرج إلى المسجد وزياد معه ، فصلى الظهر ثم أدنى زيادا ، فدعا له ووضع يده على رأسه ، ثم حدرها على طرف أنفه ، فكان بنو هلال يقولون : مازلنا نتعرف البركة فى وجه زياد . . . وقال الشاعر لعلى بن زياد .

إن الذى مسح الرسول برأسه ودعـا له بالخير عند المسجد
أعنى زياداً لا أريد سواءه من عابر أو مُتهم أو مُنجد
مازال ذاك النور فى عرنينه حتى تبوأ بيته فى مُلْحَدِ(٢٧٥)

---

(٢٧٥) البداية والنهاية جـ٥ صـ٩٢

مرض النبي عندها :

ويذكر بعض الرواة أن المرض الذى توفى فيه النبى - ﷺ - اشتد عليه وهو فى بيت ميمونة . قال ابن كثير : ثم تمادى به وجعه واشتد به وهو فى بيت ميمونة ، فاجتمع إليه أهله . وهو فى بيتها . .

ثم استأذن النبى - ﷺ - نساءه أن يمرض فى بيت عائشة كما سبق أن أوضحنا .

وفاتها :

لم يؤثر أن ميمونة شاركت فى الأحداث التى جدت فى المجتمع الإسلامى ، ولكنها لزمت بيتها ، لا تخرج منه إلا لعمرة أو حج .

وظلت بقية حياتها عابدة متنسكة حتى وافتها منيتها فى سنة إحدى وستين فى خلافة يزيد بن معاوية ، وهى آخر من مات من أمهات المؤمنين - رضى الله عنهن - وكان لها عند موتها إحدى وثمانون سنة . - وهذا قول ابن سعد وهو أحد الآراء فى تاريخ وفاتها -

وقد توفيت فى المكان الذى زفت فيه - فى سرف - فى أثناء عودتها من الحج .

عن يزيد بن الأصم قال : دفنا ميمونة بسرف فى الظلة التى بنى بها رسول الله - ﷺ - فيها . . . . وقد نزلت فى قبرها أنا وابن عباس - وكلاهما ابن أختها - فلما وضعناها مال رأسها ، فأخذت ردائى فوضعته تحت رأسها . فانتزعه ابن عباس ، فألقاه ثم وضع تحت رأسها حجرا[٢٧٦]

---

(٢٧٦) الطبقات ٨ / ١٠٠

وكان ابن عباس يقول لحامليها فى طريقها إلى قبرها : ارفقوا بها فإنها أمكم ـ رضى الله عنها .

وذكر بعضهم أنها توفيت سنة إحدى وخمسين . والدليل على ذلك أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ رثتها بكلمة بليغة فى الخبر الذى سبق أن ذكرناه . . . وذلك فى وعظها ليزيد بن الأصم العامرى وابن طلحة ، وفيه تقول ـ رضى الله عنها ـ : « ذهبت والله ميمونة ـ أما إنها كانت والله من أتقانا لله وأوصلنا للرحم » .

والمعروف أن عائشة توفيت سنة سبع وخمسين وقد رجح ابن كثير وفاتها فى سنة إحدى وخمسين .[٢٧٧]

وقال ابن كثير : قال البخارى فى التاريخ : أخبرنا موسى بن إسماعيل ، ثنا عبدالواحد بن زياد ، ثنا عبدالله بن عبدالله بن الأصم ، ثنا يزيد بن الأصم ، قال : ثقلت ميمونة بمكة ، وليس عندها من بنى أختها أحد ، فقالت : أخرجونى من مكة ، فإنى لا أموت بها ، إن رسول الله ـ ﷺ ـ أخبرنى أنى لا أموت بمكة . فحملوها حتى أتوا بها إلى سرف ، الشجرة التى بنى بها رسول الله ـ ﷺ ـ تحتها ـ فى موضع القبة ـ فماتت رضى الله عنها سنة إحدى وخمسين على الصحيح .[٢٧٨]

وقد ذكر ذلك ابن كثير فى حديثه عن معجزات النبى ـ ﷺ ـ وإخباره عن الحوادث المستقبلة .

---

(٢٧٧) البداية والنهاية ٨ /٥٨

(٢٧٨) البداية والنهاية جـ٦ صـ٢٢٥

من فضائل ميمونة :

إلى جانب ما ذكرناه من تقوى ميمونة وزهدها يذكر لها جهادها العظيم فى سبيل الإسلام ، وقد اصطحبها النبى - ﷺ - معه فى تبوك ، فكانت تواسى المرضى وتجاهد فى سبيل الله .

وذكر أنها أول امرأة جمعت فرقة نسائية لإسعاف الجرحى والقيام بواجبات المجاهدين ، وقد أصابها فى جهادها سهم من سهام الأعداء وهى تحمل الماء فكاد يقتلها لولا عناية الله ولطفه .(٢٧٩)

أحكام تتعلق بزوجات الرسول

هؤلاء نساؤه - صلى الله عليه وسلم - وهن أمهات المؤمنين اللاتى جعل الله لهن من الخصائص ما ليس لغيرهن من الزوجات العاديات .

وهؤلاء الزوجات حرام على الناس بعد موته - صلى الله عليه وسلم - بالإجماع المحقق المعلوم من الدين ضرورة . قال الله - تعالى -

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ

---

(٢٧٩) زوجات النبى الطاهرات . محمد محمود الصواف صـ٧٢

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ (٢٨٠)

وقد ذكر القرطبى أسباب نزول الآية التى تحرم التزوج بأمهات المؤمنين ـ فقال : روى معمر عن قتادة أن رجلاً قال فى نفسه : لو قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تزوجت عائشة . فأنزل الله ـ تعالى ـ الآية السابقة .

وقال القشيرى أبو نصر عبد الرحمن : قال ابن عباس : قال رجل من سادات قريش ـ فى نفسه . لو توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتزوجت عائشة ، وهى بنت عمى .

قال ابن عباس : ثم ندم هذا الرجل على ما حدَّث به نفسه ، فمشى إلى مكة على رجليه ، وحمل على عشرة أفراس فى سبيل الله ، وأعتق رقيقاً . . فكفر الله عنه .

قال ابن عطية : لله در ابن عباس ، فقد كنى عن الرجل ولم يصرح به ـ وهذا فى رأينا بعيد على أحد من المسلمين أن يقوله .

ومما قيل فى ذلك أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم سلمة بعد موت أبى سلمة . . والله لو قد مات لتزوجت إحدى نسائه . فنزلت الآية ، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لهن حكم الأمهات ، وهذا يُعَدُّ من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيهاً على مرتبته ـ صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ وأزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللاتى مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ، ومن استحل ذلك كان كافراً .

---

(٢٨٠) الأحزاب ٥٣

وهناك علة أخرى لهذا التحريم - هى أن هؤلاء الزوجات زوجاته فى الجنة ، لأن المرأة فى الجنة لآخر أزواجها . قال حذيفة لامرأته : إن سرك أن تكونى زوجتى فى الجنة - إن جمعنا الله فيها - فلا تتزوجي من بعدى ، فإن المرأة لآخر أزواجها .

وقد مرَّ قول ابن كثير أن زوجاته - صلى الله عليه وسلم - لا عدة عليهن لكونهن نساءه ، حرمن على غيره ، وهذا هو معنى بقاء النكاح . لكونهن أزواجاً له فى الآخرة قطعاً ، بخلاف سائر الناس ، لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله فى دار واحدة ، فربما كان أحدهما فى الجنة والآخر فى النار ، وبهذا انقطع السبب فى حق الخلق ، وبقى فى حق النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد قال : « زوجاتى فى الدنيا هن زوجاتى فى الآخرة »

وقال - عليه السلام - « كل سبب ونسب ينقطع إلا سببى ونسبى فإنه باق إلى يوم القيامة[٢٨١] » . وقد راعى الخلفاء الراشدون بعد وفاة النبى - صلى الله عليه وسلم - هذه الخصيصة لأمهات المؤمنين ، فحرصوا على أن تكون لهن منزلتهن التى شرفهن الله بها ، وميزوهن فى العطاء على غيرهن . . . .

وكان عمر يقسم فى خلافته لكل امرأة من أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - اثنى عشر ألفا[٢٨٢] . .

هذه الميزة التى كفلها الله لأمهات المؤمنين اللاتى حظين بهذا الشرف

---

(٢٨١) القرطبى جـ١٤ صـ٢٢٨ - تفسير سورة الأحزاب

(٢٨٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٥ صـ٢٩٦

العظيم ـ شرف التزوج من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى ينزل عليه الوحى من السماء ، وشرف أمومة المؤمنين ، وشرف الفوز بنعيم الآخرة الذى لا يزول .

ريحانة
رضى الله عنها

ومن الضرورى الحديث عن مولاتين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هما ريحانة ومارية .

وإن كان بعض الرواة قال : إنه كانت له ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربع لا اثنتان(٢٨٣) . .

ولكن المشهور المتداول لدى الرواة أن جاريتيه اللتين مكثتا عنده ، وطالت أيامهما معه هما ريحانة ومارية . .

وبحكم مخالطتهما للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصبحت لهما منزلة عظمى فى نفوس المسلمين ، يضاف إلى ذلك ما بلغته مارية بالذات من أنها ولدت للمصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولده إبراهيم ـ عليه السلام ـ فازدادت بذلك رفعة وقدراً . .

أما ريحانة فهى بنت زيد بن عمرو بن سمعون بن زيد ـ من بنى النضير(٢٨٤) . .

---

(٢٨٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ٥ صـ٣٠٣

(٢٨٤) طبقات ابن سعد جـ٨ صـ٩٢

وذكر ابن الأثير أنها من بنى قريظة . . قال : وقيل هى من بنى النضير ـ والأول أكثر[285] .

وقول ابن سعد : إنها من بنى النضير ـ لأن هذا نسبها فعلاً ـ أما كونها ذكرت فى بنى قريظة فلأنها كانت متزوجة فيهم . فنسبت إليهم لذلك .

وزوجها فى بنى قريظة ـ كان اسمه الحكم ـ قال ثعلبة بن أبى مالك : كانت ريحانة بنت زيد من بنى النضير متزوجة رجلاً من بَنى قريظة يقال له الحكم ، وقد وقعت فى السبى فأعتقها رسول الله ، وتزوجها وماتت عنده[286] .

وقد وردت روايات متعددة عن زواجها وملكيتها . . فمن هذه الروايات ما يشير إلى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعتقها وتزوجها وأصدقها .

وتقول ريحانة لما وقعت فى السبى اخترت الله ورسوله وأسلمت . . فلما أسلمت أعتقنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتزوجنى وأصدقنى اثنتى عشرة أوقية ونَشًا ، كما كان يصدق نساءه ، وكان يقسم لى كما كان يقسم لنسائه ، وضرب علىَّ الحجاب .

ولم تزل عنده حتى ماتت مرجعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حجة الوداع فدفنها بالبقيع .

وكان قد تزوجها فى المحرم سنة ست من الهجرة . .

---

(٢٨٥) أسد الغابة ٧ / ١٢٠

(٢٨٦) الطبقات ٨ /٩٢

مارية القبطية

رضى الله عنها

كانت مارية جارية مصرية أهداها المقوقس حاكم مصر إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة سبع . .

ولنذكر قصة هذه الهدية وسببها .

قال ابن عبد الحكم : حدثنا هشام بن إسحاق وغيره قال :

لما كانت سنة ست من الهجرة ، ورجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحديبية بعث حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى المقوقس صاحب الاسكندرية .

فمضى حاطب بكتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى انتهى إلى الاسكندرية ، فوجد المقوقس فى مجلس يشرف على البحر . . فركب حاطب البحر حتى حاذى مجلس المقوقس ، فأشار إليه بالكتاب .

فأمر المقوقس بقبض الكتاب وإيصال حامله إليه .

ولما مثل حاطب بين يدى المقوقس ، قال لحاطب : ما يمنع محمداً إن كان نبياً أن يدعو علىّ فيهلكنى ؟

فقال حاطب : ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يُفعل به كذا وكذا ؟

فوجم المقوقس ساعة ، ثم استعادها فأعادها حاطب عليه ، فسكت .

فقال له حاطب : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك . وإن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافى به الله فَقْد ما سواه ، وما بشارة موسى

بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، ولسنا ننهاك عن الإيمان بالمسيح ولكنا نأمرك به . .

وتدبر المقوقس جيداً ما سمع ، ثم تدبر الكتاب الذى أرسله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرة أخرى . . وكان نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس ، عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين .

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاُ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . . . »

ولعل المقوقس تأثر بهذا الكتاب ، كما تأثر بمنطق حاطب بن أبى بلتعة الحكيم . فوضع هذا الكتاب فى حُقٍّ من عاج وختم عليه .

واستدعى كاتباً يكتب العربية فأملى عليه ما يأتى :

« لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط .

سلام عليك . أما بعد . فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام . وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجارتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام[٢٨٧] »

ويقول العلماء إن الهدية لم تقتصر على ذلك ، بل كانت أكثر من

---

(٢٨٧) حسن المحاضرة للسيوطى جـ١ صـ٤٢

ذلك . . . . فقد أرسل مع ما ذكر عَسَلاً من عسل بنها ، وحماراً أشهب ومالاً للصدقة ، وكانت الكسوة ثياباً من قباطى مصر ، وأرسل مع الجاريتين عبداً اسمه مابور . . وأرسل مع حاطب رسولاً عاقلاً أوصاه المقوقس أن ينظر مَنْ جلساء النبى - صلى الله عليه وسلم - ويتفرس فى ظهره ليرى خاتم النبوة إن كان موجوداً ، وماذا يصنع فى المال المرسل إليه ؟

وقدم الرسول مع حاطب بما معه . وقدم إلى النبى الأختين مارية وسيرين والدابتين والعسل والثياب ، وأعلمه أن ذلك هدية ، فقبلها النبى - صلى الله عليه وسلم - وأخذ مارية ، ووهب الثانية واسمها سيرين لحسان ابن ثابت وقيل لغيره وأعجبه عسل بنها ودعا له بالبركة .

وقدَّم رسول المقوقس المال للنبى - صلى الله عليه وسلم - وأعلمه أنه صدقة ، فلم يأخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - منه شيئاً . ووزعه على مستحقيه . وتفرس الرجل فى ظهر النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى رأى خاتم النبوة ، عبارة عن شامة كبيرة ذات شعرات ، ورأى أن جلساء النبى - صلى الله عليه وسلم - أغلبهم من الفقراء والمساكين وأهل الورع والتقوى .

وعاد الرجل إلى المقوقس ، فأخبره بما رأى ، فثبت لديه بأنه نبى . وأنه هو الذى بشر به عيسى - عليه السلام - ولكن الله لم يرد له الهداية والسعادة . فظل على دينه على المشهور . .

هذه هى الهدية وقصتها وسببها . . . .

ولنعد إلى حديثنا عن مارية التى أهديت للرسول - صلى الله عليه وسلم -

لنعرف أنها من أسرة عريقة بمصر وقد ورد أنها من أهل حَفْن من كورة أنصنا[288] .

وكان لهذه الكورة مركز مرموق ومكانة عظيمة بين أقاليم مصر الجنوبية .

يقول المقريزى عنها : فيها عدة عجائب منها الملعب ـ ويقال إنه كان مقياس النيل ، وإنه من بناء أحد ملوك مصر ، وكان كالطيلسان وبه عُمُد على عدة أيام السنة الشمسية كلها من الصوان الأحمر ، وكان ماء النيل يدخل إلى هذا الملعب من فوهة عند زيادة الماء ، فإذا بلغ الماء الحد الذى كان إذ ذاك يحصل منه رى الأرض وكفايتها جلس الملك عند ذلك فى مشرف له ، وصعد القوم من خواصه إلى رءوس الأعمدة المذكورة فيتعادون عليها . ويتساقطون منها إلى الماء فى احتفال جميل . . . .

فهذه المدينة إذن كانت مقصد الملك ومتنزهه ، فلابد أن يكون أهلها من خاصته والمقربين إليه .

وهى واقعة شرقى النيل ، وكانت حسنة البساتين والمتنزهات كثيرة الفواكه . .

ومارية بنت شمعون ـ أبوها قبطى وأمها مسيحية رومية . . وقد عاشت بقريتها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل فى مطلع شبابها الباكر مع أختها سيرين إلى قصر المقوقس عظيم القبط ملك الاسكندرية ، وقد سمعت هنالك

---

(٢٨٨) قال أبوعبيد البكرى : أنصنا ـ بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده صاد مهملة مكسورة ونون وألف ـ كورة من كور مصر معروفة ، منها جارية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم ابنه إبراهيم ، من قرية يقال لها حفن من قرى هذه الكورة ، ويقال إن سحرة فرعون كانوا منها ـ الخطط المقريزى جـ١ صـ٣٧٢

بظهور نبى فى جزيرة العرب يدعو إلى دين سماوى جديد . وكانت فى القصْر حين وفد حاطب بن أبى بلتعة على المقوقس يحمل رسالة هذا النبى[٢٨٩] »

ويقول ابن سعد : إن حاطب بن أبى بلتعة عرض على مارية وأختها الإسلام ، وذلك فى أثناء الرجوع إلى المدينة ، فاستجابت الأختان لهذا الدين وأسلمتا ، ولكن العبد مأبور الذى كان يصحبهما لم يسلم إلا بعد أن وصل إلى المدينة . .

وكان إرسال الأختين معاً للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اختباراً من قبل المقوقس ، لأنه كان من علامة نبوته فى كتبهم أنه لا يجمع بين الأختين فى ملك يمين أو نكاح .

فلما وصلتا ورآهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجدهما تتشابهان وسأل عنهما فعرف أنهما أختان . .

فقال : اللهم اختر لنبيك .

فاختار الله له مارية ـ ثم أعطى الرسول الأخرى إلى أحد أصحابه . .

قال بعض الرواة : أعطاها لحسان بن ثابت فهى أم ابنه عبد الرحمن .

وقال بعضهم : بل أعطاها لمحمد بن مسلمة .

فكان هذا دليلاً عاد به رسول المقوقس إليه ، بأنه نبى مرسل لم يجمع بين الأختين فى ملك يمينه .

وقال بعض الرواة : لقد أهدى المقوقس إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر من جاريتين . . قيل : ثلاث ، وقيل أربع . . ويقال إن

---

(٢٨٩) نساء النبى صـ٢٥٥

النبى - صلى الله عليه وسلم - أعطى أبا جهم بن حذيفة العبدرى واحدة منهن ، كما أعطى حسان ومحمد بن مسلمة . . وفى هذا جمع بين الروايات المختلفة .

وأنزل النبى - صلى الله عليه وسلم - مارية بالعالية فى المكان الذى يقال له اليوم - على عهد ابن سعد - مشربة أم إبراهيم . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يختلف إليها هناك ، وضرب عليها الحجاب .

ومنَّ الله على نبيه منها بولد أسماه إبراهيم - كان جبريل هو الذى سماه له - ولما جاءها المخاض ووضعت قَبَّلتها سلمى مولاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زوجة مولاه أبى رافع .

وأسرع أبو رافع إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يبشره بولده ، فأعطاه النبى - صلى الله عليه وسلم - ودعا له . وفرح النبى - صلى الله عليه وسلم - بولده فرحاً شديداً ، ولكن الله شاء أن يختاره لجواره صغيراً . .

وروى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : إن جبريل أتانى فأخبرنى أن فى بطن مارية غلاما وأنه أشبه الخلق بى ، وأمرنى أن أسميه إبراهيم . وكنانى بأبى إبراهيم . .

وَلَدت مارية إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة . وسر النبى - صلى الله عليه وسلم - بولادته كثيرا ، وفى يوم سابعه حَلَق النبى - صلى الله عليه وسلم - له شعره . وتصدق بزنته وَرِقاً ، وأخذوا شعره ودفنوه ، وسماه إبراهيم .

ثم دفعه النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى امرأة اسمها أم سيف ، كان

زوجها حدادا ، لترضعه .

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ولد لى الليلة ولد فسميته باسم أبى إبراهيم . . . . . . ثم دفعه إلى أم سيف ـ امرأة قين بالمدينة »

وقال الزبير : إن الأنصار تنافسوا فيمن يرضعه . وأحبوا أن يأخذوه ليرضعوه . . فجاءت أم بردة واسمها خولة بنت المنذر ـ وهى زوجة البراء بن أوس من بنى النجار ـ فكلمت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أن ترضعه ـ فكانت ترضعه بلبن ابنها . . وذلك فى بنى مازن بن النجار ـ وترجع به إلى أمه . وأعطى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم بردة قطعة من نخل . ولم يدم رضاع أم بردة له ، فكانت ترضعه بعد ذلك أم سيف .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ـ يختلف إلى منزل أبى سيف ليرى ابنه .

قال شيبان : « انطلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاتبعته فانتهى إلى أبى سيف ـ وهو ينفخ فى كيره ، وقد امتلأ البيت دخانا ، فأسرعت المشى بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى انتهيت إلى أبى سيف ، فقلت : ياأبا سيف ، أمسك ، جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمسك ، فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصّبى فضمه إليه ، وقال : ماشاء الله أن يقول .

ولم تطل الحياة بإبراهيم فقد توفى وهو ابن ثمان عشرة شهراً . روى جابر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ بيد عبد الرحمن بن

عوف فأتى به النخل ، فإذا ابنه إبراهيم فى حجر أمه يجود بنفسه ، فأخذه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوضعه فى حجره ، ثم قال : « ياإبراهيم إنا لانغنى عنك من الله شيئا »

ثم ذرفت عيناه ، ثم قال : « ياإبراهيم لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزنا أشد من هذا ، وإنا لفراقك ياإبراهيم لمحزونون ، تبكى العين . ويحزن القلب ولانقول مايسخط الرب »

ولما مات قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن له مرضعا فى الجنة »
وتصادف أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم ، فقال قوم : إن الشمس كسفت لموته ، فخطبهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لايخسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة ، وصلى عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكَبَّر أربعا .

ونزل فى قبره الفضل بن عباس ، وأسامة بن زيد ، وجلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم على شفير القبر .

ودفن بالبقيع وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ندفنه عند فرطنا عثمان مظنون »

ورش النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قبره ماء ، وعلم قبره بعلامة وكان قبره أول قبر رش عليه ماء .

روى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لوعاش إبراهيم لأعتقت أخواله ، ولوضعت الجزية عن كل قبطى »[290]

وقد وضع معاوية عن أهل بلدة مارية الخراج فى أيام إمارته إكراما لها[291] .

استوصوا بالقبط خيرا :

وكانت مارية رحمة بأهل مصر حيث كانت سببا فى قول النبى - صلى الله عليه وسلم - : « استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما » وهذا الرحم يتمثل فى أن أم إسماعيل - عليه السلام - وهو أبو العرب الأعلى - مصرية . وهى هاجر ، ويتمثل أيضا فى أن أم إبراهيم بن النبى - صلى الله عليه وسلم - مصرية وهى مارية . .

وفى رواية لهذا الحديث : « استوصوا بأهل مصر خيرا فإن لهم نسبا وصهرا » والنسب من جهة هاجر ، والصهر من جهة مارية .

وفاة مارية :

وتوفيت مارية - رضى الله عنها - فى خلافة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سنة ست عشرة من الهجرة ، وقد روى أن عمر كان يحشر الناس لشهود جنازتها ، وصلى عليها ودفنها بالبقيع .

وقد جعل أبو بكر لها عطاء فى أيام خلافته وكذلك عمر من بعده حتى توفيت .

---

(٢٩٠) أسد الغابة ١ / ٤٠
(٢٩١) البداية والنهاية جـ٥ صـ٣٠٣

واستوصى المسلمون حين فتحوا مصر بأهل مصر خيرا ، تنفيذا لوصية النبي - صلى الله عليه وسلم -

وروى أن عبادة بن الصامت - وكان أحد الذين شهدوا فتح مصر - بحث عن قرية مارية حتى عرفها ، وبنى فى موضع بيت مارية مسجدا . .

كما علمنا أن معاوية حين تولى الخلافة وضع الخراج عن أهلها . . وفاء وتكريما لها ، وحفظا لوصاة النبي - صلى الله عليه وسلم - فى أهل مصر .



بسم الله الرحمن الرحيم

الأعمام والعمات

أعقب عبدالمطلب بن هاشم جد النبي - صلى الله عليه وسلم - ثمانية عشر ولدا بين ذكر وأنثى هم : الحارث ، وهو أكبر ولده وبه كان يكنى ، ومات في حياة أبيه ، وعبدالله أبا النبي - صلى الله عليه وسلم - والزبير وكان شاعراً شريفاً ، وإليه أوصى عبدالمطلب ، وأبوطالب - واسمه عبدمناف - وعبدالكعبة - وحمزة وهو أسد الله وأسد رسوله ، والمقوم ، والمغيرة ، والعباس ، وضرار - وكان من أحسن فتيان قريش جمالاً وشمما ، ومات أيام أوحى الله إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ولاعقب له ، وقُثَم ولا عقب له ، وأبالهب - واسمه عبدالعزى - وأم حكيم - وهي البيضاء - وعاتكة ، وبرة ، واميمة ، وأروى ، وصفية .

وقد أسلم من الذكور الاثنى عشر : حمزة والعباس .

وأسلمت من الإناث الست عاتكة - في رأى بعضهم - وصفية وأروى - في رأى بعضهم . أما صفية فلم يشك أحد من الرواة في إسلامها .

وأسلم حمزة قبل العباس - رضي الله عنهما - وستتحدث أولاً عن سيد الشهداء حمزة - بتوفيق الله - تعالى -



حمزة بن عبد المطلب

- متى أسلم ؟
- هجرته إلى المدينة .
- بلاؤه فى بدر وأحد .
- استشهاده .
- حزن الرسول والمسلمين عليه .
- الشهداء أحياء .
- فضل حمزة .
- العباس بن عبد المطلب .
- موقفه يوم العقبة .
- متى أسلم العباس ؟
- لماذا خرج مع المشركين يوم بدر ؟
- هل أسلم العباس قبل الفتح ؟
- موقفه يوم فتح مكة .
- العباس فى غزوة حنين .
- العباس فى المدينة .
- اشتراكه فى غزوة تبوك .
- الاستسقاء بالعباس .
- فضل العباس .

أسد الله وأسد رسوله

حمزة بن عبدالمطلب

هو حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي - عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وأمه هالة بنت وُهَيب بن عبدمناف بن زهرة ، وهى ابنة عم آمنة بنت وهب أم النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فكأنه - هو والنبى صلى الله عليه وسلم - ابنا خالة .

وهو شقيق صفية بنت عبدالمطلب أم الزبير بن العوام

وهو أخو النبى - صلى الله عليه وسلم - من الرضاعة أرضعتهما ثوبية مولاة أبي لهب . . . .

وقد وُلد حمزة - رضى الله عنه - قبل النبى - صلى الله عليه وسلم - بسنتين ، وقيل بأربع سنين ، والأول أصح .

ويكنى بأبى يَعْلى ، وبأبى عمارة ، وهما ولداه ، ويلقب بسيد الشهداء كما يلقب بأسد الله وأسد رسوله .

وحين هاجر آخى النبى - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين زيد بن حارثة .

متى أسلم الحمزة ؟

أسلم حمزة مبكراً ، فى السنة الثانية من البعثة[٢٩٢]

---

(٢٩٢) هذا ماذكره ابن الأثير فى أسد الغابة ، ولكن ابن سعد ذكر أن إسلامه كان فى السنة السادسة ، ولعل هذا هو الصحيح .

ويحدثنا ابن هشام عن ذلك فيقول :

مر أبوجهل برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الصفا فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض مايكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكانت مولاة لعبدالله بن جدعان فى مسكن قريب فسمعت ذلك ورأته . ثم انصرف أبوجهل عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم .

ولم يلبث حمزة بن عبدالمطلب ـ رضى الله عنه ـ أن عاد من قَنص له ـ أى من صيد ـ وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا عاد من قنصه لايعود إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لايمر على ناد من نوادى قريش إلا وقف وسلم عليهم وتحدث معهم . وكان أعز فتى فى قريش ، وأشد شكيمة فيهم .

وعاد فى هذا اليوم كعادته ، وأقبل على الكعبة متوشحاً قوسه ، يطوف بها ، فلقيته مولاة ابن جدعان التى شهدت شتم أبى جهل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت له : ياأبا عمارة ، لو رأيت مالقى ابن أخيك محمد آنفاً من أبى الحكم بن هشام ؟

فقال لها : ماذا حدث ؟

فقالت : وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه مايكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فغضب حمزة ـ لما أراد الله به من كرامته ـ فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد كما كان يفعل ، وقد استعد لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به .

فلما دخل المسجد نظر حمزة إلى أبي جهل جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتم محمداً وأنا على دينه أقول مايقول ؟ ..... فرُد علىّ ذلك إن استطعت .

فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل .

ولكن أبا جهل بادر فقال : دعوا أبا عمارة . فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وصمم حمزة ـ رضى الله عنه ـ على إسلامه وعلى ماتابع عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ..

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عز وامتنع ، فكفوا عن بعض ماكانوا ينالون منه .[٢٩٣]

حمزة يراود نفسه

ولعل حمزة قد أدرك أنه كان متسرعاً فى إعلان إسلامه ، وأن نصره ابن أخيه وادعاءه أنه على دينه كان بفعل العصبية ، وليس عن اقتناع ... فإنه حين رجع إلى بيته ، أخذ يحاور نفسه قائلاً : أنت سيد فى قريش ، اتبعت هذا الدين الجديد وتركت دين آبائك ؟ الموت خير لك مما صنعت .

ثم نظر إلى السماء ، وهتف قائلاً : اللهم إن كان رشداً فاجعل تصديقه فى قلبى ، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجاً .

وبات ليلة يعلم الله بها ـ وذلك من وسوسة الشيطان فى نفسه وتزيينه له العودة إلى ماكان عليه قبل أن يتبع محمداً .

---

(٢٩٣) سيرة ابن هشام جـ١ صـ٣٤

وما ان أصبح الصباح حتى أسرع بالغدو إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : ياابن أخى ، إنى قد وقعت فى أمر لاأعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على مالا أدرى أرشد هو أم غى أمر لايليق بى .

فأقبل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكره ويعظه ، ويخوفه ويبشره حتى ألقى الله فى قلبه الإيمان مما قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أشهد إنك لصادق ـ فأظهر ياابن أخى دينك ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إن هذه الواقعة كانت سبباً لنزول قوله ـ تعالى ـ

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢٢ ﴾ (٢٩٤)

فالذى جعل الله له نوراً هو حمزة ، والذى يتخبط فى الظلمات هو أبوجهل . (٢٩٥)

وبإسلام حمزة انفتح الطريق أمام الضعفاء الذين كانوا يخشون بأس قريش ـ إلى الإسلام ، كما شجع بعض المترددين على أن يقبلوا فى حزم على كلمة الحق ، وازدادت كلمة الإسلام ارتفاعاً بعد ذلك بقليل بإسلام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .

---

(٢٩٤) الأنعام ١٢٢

(٢٩٥) السيرة الحلبية جـ١ صـ٤٧٨

هجرة حمزة إلى المدينة

هاجر حمزة إلى المدينة ونزل على كلثوم بن الهِدْم ، وقيل : نزل على سعد ابن خيثمة ، وقد عرفنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - آخى بينه وبين زيد بن حارثة الذى كان يطلق عليه زيد بن محمد .

واشترك حمزة فى غزوة بدر الكبرى ، وأبلى فيها بلاء حسناً ، فقد قتل شيبة بن ربيعة بن عبدشمس مبارزةً ، وشارك فى قتل عتبة بن ربيعة مع على ابن أبى طالب ، وقتل طعيمة بن عدى - أخا المطعم بن عدى ، وكان هؤلاء القتلى من صناديد الكفر والشقاق .

وكان حمزة يُعْلِمُ عن نفسه فى ميدان الحرب ، كان يضع ريشة نعامة فوق رأسه ليراها الأعداء ، ولا يُعْلِم عن نفسه فى ميدان الحرب إلا الشجعان . .

كان أسارى بدر يتساءلون قائلين : من الرجل المعلم بريشة ؟

فيقولون لهم : إنه حمزة بن عبدالمطلب . فيقولون : لقد فعل بنا الأفاعيل .

وكان أول لواء عقده النبى - صلى الله عليه وسلم - لحمزة بن عبدالمطلب - حين بعثه فى سرية إلى سيف البحر - أى ساحله - وقيل : بل أول لواء كان لعبيدة بن الحارث بن المطلب .

كان الهدف من هذه السرية التى أمَّر النبى - صلى الله عليه وسلم - حمزة عليها هو الترصد لعير قريش وهى منحدرة إلى مكة وكانت قادمة من الشام ، وفيها أبوجهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب ، وكان حمزة فى ثلاثين راكباً ، ولم يحدث قتال فى هذه السرية(٢٩٦)

---

(٢٩٦) الطبقات الكبرى جـ٣ صـ٤

بلاؤه فى أحد

واستشهد ـ رضى الله عنه ـ فى أحد . حرضت عليه هند بنت عتبة ، لأنه قتل أخاها وشارك فى قتل أبيها ، كما حرض عليه جبير بن المطعم بن عدى لأنه قتل عمه .

لقد أغرى كلاهما وحشياً ـ وكان عبداً حبشياً يجيد القذف بحربة له ـ أغرياه بالمال والعتق . إن هو قتل الحمزة .

قالت هند له : ياوحشى إن قتلت حمزة فكل ماعلىّ من حلى فهو لك . ونظر إلى الذهب يلمع فى معصميها وأذنيها وعنقها فبرقت عيناه وسال لعابه ، وتفكر فى كلام جبير له وإغرائه بالحرية ، فاشتد طمعه فى أن يظفر بالمال والحرية معا .

فلم يكن له شاغل يوم أحد إلا الظفر بحمزة ـ رضى الله عنه ـ قال وحشى يقص ـ بعد أن أسلم ـ قصة قتله حمزة : إنى لأنظر إلى حمزة يضرب الناس بسيفه ، وقد عثر فانكشف الدرع عن بطنه ، فهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فأصابته ، فأقبل نحوى ، فَغُلب فوقع ، فأمهلته حتى إذا مات جئته فأخذت حربتى ثم تنحيت إلى العسكر ، ولم يكن لى حاجة غيره .

وأسلم وحشى بعد ذلك وحسن إسلامه ، فعفا عنه النبى ـ ﷺ ـ بعد أن كان قد أهدر دمه ، وجاهد فى سبيل الله ، وكان له الفضل فى قتل مسيلمة الكذاب . وكان وحشى يحدث قائلا : قتلت بحربتى هذه خير الناس وشر الناس . يقصد بخير الناس حمزة ، وبشر الناس مسيلمة الكذاب .

ولم يكتف المشركون بقتل حمزة ، ولكنهم أقبلوا عليه يمثلون بجثته ،

وجاءت هند بنت عتبة إليه ، فشقت بطنه وأخرجت كبده ولاكتها فوجدتها مرة فلفظتها ، وقطعت أنفه وأذنيه ونظمتها فى خيط وجعلتها مكان قلائدها التى وهبتها لوحشى .

ورأى النبى - ﷺ - ما فعله هؤلاء الآثمون بجثة عمه فغضب غضبا شديداً وأقسم لئن أظفره الله بهم ليمثلن بسبعين منهم .

ولكن الله أنزل قوله - تعالى -

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٢٩٧)

روى أبو هريرة - رضى الله عنه - قال : وقف رسول الله - ﷺ - على حمزة ، وقد مثل به ، فلم ير منظرا كان أوجع لقلبه منه ، فقال : « رحمك الله - أى عم - فلقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات » .

وروى جابر قال : لما رأى رسول الله - ﷺ - حمزة قتيلا بكى ، فلما رأى ما مثل به غضب غضبا شديدا . .

وروى محمد بن عقيل عن جابر قال : لما سمع النبى - ﷺ - ما فعل الكفار بحمزة صعق وحزن حزنا شديدا(٢٩٨)

---

(٢٩٧) النحل ١٢٦ : ١٢٨

(٢٩٨) أسد الغابة جـ٢ صـ٢ د

لقد كان حمزة ـ رضى الله عنه ـ فارسا مغوارا ، ولم يقتل إلا غدرا ، وقد أبلى يوم أحد بلاء حسنا ، ومن المعروف أن غزوة أحد كانت فى أولها للمسلمين ، وقد أدبر المشركون أمامهم ، وتبعهم المسلمون فى أدبارهم ، وأخذوا يجمعون غنائمهم ، حتى رآهم الرماة من فوق الجبل ، وكان النبى ـ ﷺ ـ قد أوصى الرماة ألا يبرحوا مكانهم أبدا غالبين كانوا أو مغلوبين .

فترك الرماة مواقعهم ، ولم يلتزموا بوصية النبى ـ ﷺ ـ التى أوصاهم بها ، فتركوا أماكنهم وأقبلوا مع بقية الجيش يلتقطون الغنائم ، ولاحت هذه الفرصة لخالد بن الوليد وكان على خيل المشركين ، فالتف من خلفهم ورفع لواء الكفار وكان قد سقط ـ ثم تبدل وجه المعركة .

وأمر النبى ـ ﷺ ـ بإحصاء القتلى ودفنهم ..

وأتو بحمزة ـ رضى الله عنه ـ فكفنوه ببردة إذا خمروا بها رأسه بدت قدماه ، وإذا خمروا بها رجليه انكشف وجهه .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : غطوا وجهه ، وجعل على رجليه الحرمل أو الإذخر وهو نوع من النبات الطيب .

وقيل : اقبلت صفية بثوبين تريد أن تكفن أخاها حمزة فيهما ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ للزبير : عليك أمك ، فاستقبلها الزبير ليردها ، فقالت : هكذا ـ لا أرض لك ولا أم لك .

ثم انتهت إلى حيث أخيها . فإذا إلى جنبه رجل صريع من الأنصار فكفن حمزة فى أوسع الثوبين ، وكفن الأنصارى فى الآخر .(٢٩٩)

---

(٢٩٩) الطبقات ٣ /٨

وقيل أيضا : إنه كفن ببردته ووضع على رجليه من الشجر ، فبكى أصحاب النبى - ﷺ - فقال : « مايبكيكم » ؟

قالوا : يارسول الله ، إنا لا نجد لعمك اليوم ثوبا واحدا يسعه .

فقال : « إنه يأتى على الناس زمان يخرجون إلى الأرياف ، فيصيبون فيها مطعما وملبسا ومركبا ، فيكتبون إلى أهلهم : هلم إلينا ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا أو شاهدايوم القيامة »[٣٠٠] .

إنه الإخبار بالغيب عن الله بما يكون فى المستقبل . وقد حدث ، وأقبلت ، الدنيا على الناس بمفاتيحها حتى أصابوا من نعيمها ما أصابوا .

ودفن حمزة هو وعبد الله بن جحش فى قبر واحد ، وحمزة هو خال عبد الله ، ونزل فى القبر أبو بكر وعمر وعلى والزبير ، ورسول الله - ﷺ - جالس على حفرته .

وقال النبى - ﷺ - : « رأيت الملائكة تغسل حمزة » .

وكان أول شهيد صلى عليه النبى - ﷺ - فى هذا اليوم وآخر شهيد ، ذلك أنه لم يرفع من مكانه بعد صلاة النبى - ﷺ - بل ظل موضوعا ويؤتى بالشهداء غيره فيصلى عليهم النبى - ﷺ - وَيُرْفَعون وحمزة باق فى موضعه حتى صلى عليه سبعين مرة بعدد الشهداء .

مقالة النبى - ﷺ - فى الشهداء :

روى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله - ﷺ -

---

(٣٠٠) المرجع السابق

قال يوم أحد : من رأى مقتل حمزة ؟

فقال رجل : أعزك الله - أنا رأيت مقتله .

قال : فانطلق فأرناه .

فخرج حتى وقف على حمزة ، فرآه قد شق بطنه وقد مثل به .

فقال : يارسول الله ، مثل به والله .

فكره رسول الله - ﷺ - أن ينظر إليه ، ووقف بين ظهرانى القتلى ، فقال : « أنا شهيد على هؤلاء ، لفوهم فى دمائهم ، فإنه ليس من جريح يجرح فى الله إلا جاء جرحه يوم القيامة يدمى ، لونه لون الدم وريحه ريح المسك » . .

وجاءت أخته صفية تسأل عنه ، ولا تدرى ما صُنِعَ به ، فلقيت عليا بن أخيها ، والزبير ابنها . فقال على للزبير : اذكر لأمك ، فقال الزبير : لا ، بل اذكر أنت لعمتك . .

كان كلاهما مشفقا من إخبارها بما حدث لأخيها . . لم يكونا مشفقين من إخبارها باستشهاده ، بل كانا مشفقين من إخبارها بما حدث له من تمثيل وتشويه لجثته .

وأخيرا قالت صفية : ما فعل حمزة ؟

فأرياها أنهما لا يدريان .

فجاء النبى - ﷺ - فقال : « إنى أخاف على عقلها » ثم وضع يده على صدرها ودعا لها فاسترجعت وبكت ، ثم جاء فقام عليه وقد مثل به . .

بكاء الناس على حمزة :

لما رجع النبى - ﷺ - من أحد سمع نساء بنى عبد الأشهل يبكين على

القتل منهم . فقال : « لكن حمزة لا بواكي له » .

فبلغ ذلك سعد بن معاذ ، فساق نساءه حتى جاء بهن إلى باب المسجد يبكين على حمزة .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فخرجنا إليهن نبكى معهن ، فنام رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن نبكى ، ثم استيقظ فصلى صلاة العشاء الآخرة ، ثم نام ونحن نبكى ، ثم استيقظ فسمع الصوت ، فقال : ياويحهن إنهن ها هنا حتى الآن ؟ مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم . ودعا النبى ـ ﷺ ـ لهؤلاء النساء قائلا : « بارك الله عليكن وعلى أولادكن وعلى أولاد أولادكن »[٣٠١]

وقام النبى ـ ﷺ ـ على المنبر فحرم النياحة كأشد ما نهى عن شيء . والنياحة منهى عنها ، أما البكاء فهو مظهر رحمة ، وقد مر بنا أن النبى ـ ﷺ ـ بكى على حمزة ـ رضى الله عنه ـ وقد بكى على ابنه إبراهيم ، وقال فى ذلك : إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول ما يسخط الرب .

وقد نهى النبى عن النياحة عندما رأى امرأة جاءت وقد وضعت يدها على رأسها وهى ترن ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « فعلت فعل الشيطان حين أهبط إلى الأرض ، وضع يده على رأسه يرن ، وإنه ليس منا من حلق ولا من خرق ولا من سلق . .

وقال أيضا : « ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية » .

---

(٣٠١) الطبقات ٣ / ١٠

وهكذا لم يخل استشهاد حمزة ـ رضي الله عنه ـ من موعظة وجهها النبي ـ ﷺ ـ للأمة يهديها إلى سواء السبيل .

وأقبل شعراء المسلمين يرثون حمزة سيد الشهداء ، فقال كعب بن مالك أو عبد الله بن رواحة :ـ

بكت عيني وحق لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويل

على أسد الإله غداة قالوا ... لحمزة : ذاكم الرجل القتيل

أصيب المسلمون به جميعا ... هناك وقد أصيب به الرسول

أبا يعلى ، لك الأركان هدت ... وأنت الماجد البر الوصول

عليك سلام ربك في جنان ... يخالطها نعيم لا يزول

ألا ياهاشم الأخيار صبرا ... فكل فعالكم حسن جميل[302]

شماتة هند

ثم إن هند بنت عتبة اشتد فرحها بمقتل حمزة ، حتى نظمت في تصوير فرحها شعرا قالت فيه :

شفيت من حمزة نفسي بأحد ... حتى بقرت بطنه عن الكبد

أذهب عني ذاك ما كنت أجد ... من لذعة الحزن الشديد المعتمد

والحرب تعلوكم بشؤبوب برد ... نقدم إقداما عليكم كالأسد

وتوجهت إلى وحشي تشكره أجزل الشكر على ما قدم لها من صنيع :

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر ... ولا أخي وعمه وبكري

شفيت نفسي وقضيت نذري ... شفيت وحشي غليل صدري

فشكر وحشي علي عمري ... حتى ترم أعظمي في قبري

(302) أسد الغابة 2 /52

ولكنها وجدت من يرد عليها ، فقالت لها هند بنت أثاثه بن عباد بن المطلب :

خزيت فى بـدر وبعـد بـدر يابنت وقـاع عظيـم الكفـر
صبحـك الله غـداة الفجـر ملهاشـميين الطـوال الزهـر
بكل قطـاع حسـام يفـرى حـمزة ليثى وعلىٌّ صقـرى
إذ رام شـيب وأبـوك غـدرى فخضبـا منـه ضواحـى النحـر
ونـذرك السـوء فشـر نـذر

وقال حسان بن ثابت يرثى حمزة :

أبيض فى الـذروة من هاشـم لم يمـر دون الحـق بالباطـل
مـات شـهيدا بين أسـيافكم شـلت يـدا وحشـى من قاتـل
أظلمـت الأرض لفقـدانه واسـود نـور القمـر الناصـل
صـل عليـه اللـه فى جنـة عاليـة مكـرمة الداخـل[٣٠٣]

الشهداء أحياء

لقد قال الله فى حق الشهداء

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾[٣٠٤]

---

(٣٠٣) من سيرة ابن هشام جـ٣ص١٦٩ وما بعدها
(٣٠٤) آل عمران ١٦٩ ، ١٧١

قال العلماء : لقد نزلت هذه الآيات فى شهداء أحد ، ونزل فيهم أيضاً :

قوله تعالى :

« ويتخذ منكم شهداء »

ومن هؤلاء حمزة - رضى الله عنه -

أسرة حمزة

كان حمزة قد تزوج فى مكة سلمى بنت عميس أخت أسماء بنت عميس وأعقب حمزة من سلمى ابنة اسمها أمامة .

وبقيت أمامة فى مكة حتى كانت عمرة القضاء فحملها النبى - صلى الله عليه وسلم - معه ، فاختصم فى شأنها على وجعفر وزيد بن حارثة ، وأراد كل منهم أن تكون عنده فى رعايته .

فقضى بها النبى - صلى الله عليه وسلم - لجعفر - وكان زوج خالتها وقال - صلى الله عليه وسلم - خالتها عنده والخالة أم .

ثم زوجها النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما بعد من سلمة بن أبى سلمة ابن عبدالأسد . . . وقال له : هل جُزيت سلمة ؟ ولم ينجب سلمة منها . . .

وتزوج حمزة امرأة من الأنصار من بنى مالك بن عوف ، وأعقب منها يَعْلى ، وكان يكنى به ، وأعقب منها أيضاً ولداً آخر اسمه عامر ، مات

ويروى أنه تزوج امرأة أخرى من الأنصار اسمها خولة بنت قيس بن فهد الأنصارية من بنى ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار .

وأعقب منها ولدا اسمه عمارة ، وبه كان يكنى أيضاً

وتزوج يعلى بن حمزة وأعقب أولاداً هم عمارة والفضل والزبير وعقيل

ومحمد أولاد يعلى بن حمزة بن عبدالمطلب ، وقد هلك هؤلاء جميعاً دون عقب . وبذلك لم يبق لحمزة عقب . .

قال الزبير : لم يعقب أحد من بنى حمزة بن عبدالمطلب إلا يعلى وحده ، فإنه ولد له خمسة رجال لصلبه ، وماتوا ولم يعقبوا ، فلم يبق لحمزة عقب(٣٠٥)

فضل حمزة

روى ابن سعد فى طبقاته عن قيس بن عباد قال : سمعت أبا ذر يقول : أنزلت هذه الآيات :

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾(٣٠٦)

. . . . فى هؤلاء الرهط الستة يوم بدر : حمزة بن عبدالمطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث ـ وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد ابن عتبة .

الثلاثة الأول مؤمنون ، والثلاثة الآخرون كافرون

قال القرطبى : وبهذا الحديث ختم مسلم ـ رحمه الله ـ كتابه .

وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : نزلت هذه الآيات الثلاث على

---

(٣٠٥) أسد الغابة جـ٥ صـ٥٢٤

(٣٠٦) الحج ١٩ : ٢١

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة فى ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة نفر من الكافرين وسماهم كما ذكر أبو ذر .

وقال على بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ إنى لأول من يجثو للخصومة بين يدى الله يوم القيامة ـ يريد قصته فى مبارزته هو وخصمه[٣٠٧]

وقصة هذه المبارزة كما يرويها ابن هشام هى :

بنى المسلمون حوضاً وملئوه بالماءِ ، وغوّروا ماوراءه من القلب ، فأصبح للمسلمين ماء ، والمشركون المغيرون ليس لهم ماء .

وعطش المشركون فأرادوا أن يشربوا من الحوض ، وجاء الأسود بن عبدالأسد المخزومى ، وكان رجلاً شرساً سيىء الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه .

فخرج إليه حمزة ، فلما التقيا ضربه حمزة فقطع قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض . فوقع على ظهر تشخب رجله دما نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبر يمينه ، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله .

فخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة

وهم : عوف بن الحارث وأخوه معوذ بن الحارث ، وعبدالله بن رواحة . . . فقالوا : من أنتم ؟

قالوا : نحن رهط من الأنصار .

---

(٣٠٧) تفسير القرطبى جـ١٢ صـ٢٥ ـ سورة الحج ـ

قالوا : مالنا بكم حاجة ، ثم نادوا : يامحمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قم ياعبيدة بن الحارث ، وقم ياحمزة ، وقم ياعلى .

فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : من أنتم ؟

فسموا لهم ، فقالوا : نعم أكفاء كرام .

فبارز عبيدة ـ وكان أسن القوم ـ عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علىٌّ الوليد بن عتبة .

فأما حمزة فلم يمهل شيبة ـ قتله بسرعة ، وأما على فلم يمهل الوليد أيضاً ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه ، فكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه . واحتملا صاحبهما وعادا به إلى أصحابه .

هذه هى المبارزة التى سجلها القرآن الكريم فى الآيات التى ذكرناها ، والتى تشير إلى الخصمين : فريق أهل الجنة وفريق أهل النار .

لقد أشاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعمه ، ووصفه بما هو جدير به فأطلق عليه أسد الله وأسد رسوله ، ووصفه بأنه سيد الشهداء .

وغضب لمقتله غضباً شديداً حتى أقسم ليمثلن بسبعين من الكفار ، لولا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عزاه عن ذلك بالقرآن الكريم الذى نزل عليه يرده إلى الحلم والصفح ، ويأمره بالصبر والاحتساب .

ولو لم يكن لحمزة فضل إلا أنه انتصر لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبي جهل ـ لكفى . . . وكان ذلك طريقاً إلى أن أنار الله بصيرته وكشف الظلمات عن قلبه فأبصر ، فكان أسداً هصوراً يحمى حمى الإسلام فى مكة ، ويجاهد فى سبيله فى المدينة . .

إنه من الفئة الطاهرة التى أكرمها الله ـ سبحانه وتعالى ـ رضى الله عنه وأرضاه .



ساقى الحرمين

العباس بن عبدالمطلب - رضى الله عنه -

هو عباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصى ، وأمه نُتَيْلة بنت جَناب بن كليب بن مالك بن عمرو بن عامر بن زيد مناة بن عامر بن سعد بن الخزرج .

وهى أول عربية كست البيت الحرير والديباج وأصناف الكسوة ، وسبب ذلك أن العباس ضاع وهو صغير . فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو البيت ، فوجدته ففعلت .

وقد ولد العباس قبل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بستتين أو ثلاث . روى عن عبدالله بن عباس قال : ولد أبى قبل قدوم أصحاب الفيل بثلاث سنين .

ويقول ابن الأثير : كان العباس فى الجاهلية رئيساً فى قريش ، وإليه كانت عمارة المسجد الحرام ، والسقاية فى الجاهلية ، أما السقاية فمعروفة وأما عمارة المسجد الحرام ، فإنه كان لايدع أحداً يَسُبُّ فى المسجد الحرام ولايقول فيه هجراً ، لأن ملأ قريش كانوا قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك ، فكانوا له أعواناً [٣٠٨]

ونشأ مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى بيت عبدالمطلب . وأنس إليه وكان يرى من علامات النبوة فى النبى ما جعله يحبه ، حباً شديداً وان كان لم يعلن إسلامه إلا متأخراً .

---

(٣٠٨) أسد الغابة جـ٣ صـ١٦٤

فقد روى ابن كثير أن العباس بن عبدالمطلب قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يارسول الله دعانى للدخول فى دينك أمارة لنبوتك ، رأيتك فى المهد تناغى القمر وتشير إليه بإصبعك ، فحيث أشرت إليه مال .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنى كنت أحدثه وكان يلهينى عن البكاء ، وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش »[٣٠٩]

وكان أبوطالب بعد وفاة أبيه هو الذى يقوم بشأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعهد من أبيه . وكان العباس حين مات أبوه فوق العاشرة بقليل ، وقد كفى أبو طالب إخوته هم الدفاع عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قام يدعو إلى ربه ، باستثناء حمزة الذى بطش بأبى جهل حين سمع أنه آذى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلسانه . وكان ذلك سبباً فى إسلام حمزة ـ كما سبق أن أشرنا

أما العباس فقد ظل فى موقف المتربص ، لم يعلن إسلاما ولم يبد عداوة ، على عكس أبى لهب الذى جهر بعداوته للإسلام . بل وأمعن فى إيذائه حتى نزل فى شأنه قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب » .

موقف العباس فى بيعة العقبة :

وعلى الرغم من عدم إسلام العباس ، إلا أنه لم يترك ابن أخيه يشهد بيعة العقبة وحده . بل خرج معه يلقى الأنصار ويشدد له العقد ويأخذ له العهد . .

وكان النبى ـ ﷺ ـ يأنس إلى عمه العباس ، ويلجأ إليه بين الحين

---

(٣٠٩) البداية والنهاية جـ٢ صـ٢٦٦

والحين ، وقد أعطاه الله من نور النبوة ما جعله يعرف أن عمه سيكون حصنا للإسلام ، وقد أصبح العباس بعد وفاة أبي طالب سيد بنى هاشم لا ينازع فى ذلك .

حدث عبدالرحمن بن عويم بن ساعدة عن أبيه قال :

لما قدمنامكة قال لى سعد بن خيثمة ومعن بن عدى وعبدالله بن جبير : يا : عويم ، انطلق بنا حتى نأتى رسول الله - ﷺ - فنسلم عليه ، فإنا لم نره قط وقد آمنا به .

فخرجت معهم ، فقيل لنا : هو فى منزل العباس بن عبدالمطلب فرحلنا إليه فسلمنا ، وقلنا له : متى نلتقى ؟

فقال العباس : إن معكم من قومكم من هو مخالف لكم فاخفوا أمركم حتى ينصدع هذا الحاج ، ونلتقى نحن وأنتم فنوضح لكم الأمر فتدخلون على أمر بيِّن .

فوعدهم رسول الله - ﷺ - الليلة التى فى صبحها النَّفْر الأخر - أن يوافيهم أسفل العقبة حيث المسجد اليوم ، وأمرهم أن لا ينبهوا نائما ولا ينتظروا غائبا .

فخرج القوم تلك الليلة يتسللون وقد سبقهم رسول الله - ﷺ - إلى ذلك الموضع ، ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب ، ليس معه أحد من الناس غيره ، وكان يثق به فى أمره كله .

فلما اجتمعوا كان أول من تكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج - وكانت الأوس والخزرج تدعى الخزرج - إنكم قد دعوتم محمداً إلى

ما دعوتموه إليه ، ومحمد أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله ، منعة للحسب والشرف ، وقد أبى محمداً الناسُ كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجَلَد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ـ فإنها سترميكم عن قوس واحدة ـ فارتووا رأيكم ، وائتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا على ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

قال ـ أى راوى هذا الخبر وهو معاذ بن رفاعة بن رافع ـ : فأسكت القوم ، وتكلم عبدالله بن عمرو بن حرام ، فقال : نحن والله أهل الحرب غُذينا بها ومُرِّنا عليها ، وورثناها عن آبائنا كابرا فكابرا ، نرمى بالنبل حتى تفنى ، ثم نُطاعن بالرماح حتى تكسر الرماح ، ثم نمشى بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا ، فقال العباس بن عبدالمطلب : أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع ؟ قالوا : نعم ، شاملة .

وقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، إنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ـ ﷺ ـ

قال : وتلا رسول الله ـ ﷺ ـ القرآن ، ثم دعاهم إلى الله ورغبهم فى الإسلام ، وذكَّر الذين اجتمعوا له .

فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق .

فبايعهم رسول الله ـ ﷺ ـ على ذلك ، والعباس بن عبدالمطلب آخذ بيد رسول الله ـ ﷺ ـ يؤكد له البيعة تلك الليلة على الأنصار ، ويقول : يا معشر الأنصار أخفوا جرسكم ـ صوتكم ـ فإن عليكم عيونا ، وقدموا

ذوى أسنانكم ، فيكونون الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم واكتموا أمركم ، فإن طويتم هذا الأمر حتى ينصدع هذا الموسم فأنتم الرجال ـ فأنتم لما بعد اليوم .

فقال البراء بن معرور : يا أبا الفضل ، اسمع منا .

فسكت العباس . فقال البراء : لك والله عندنا كتمان ما تحب أن تكتم وإظهار ما تحب أن تظهر ، وبذل مهج أنفسنا ورضا ربنا عنا ، إنا أهل حلقة وافرة وأهل منعة وعز . . وقد كنا على ما كنا عليه من عبادة حجر ونحن كذا ، فكيف بنا اليوم حين بَصَّرنا الله ما أعمى على غيرنا ، وأيدنا بمحمد ـ ﷺ ـ ؟ ابسط يديك . فكان أول من ضرب على يد رسول الله ـ ﷺ ـ البراء بن معرور ، ويقال : أبو الهيثم بن النبهان ، ويقال : أسعد ابن زرارة .(٣١٠)

وكان أسعد بن زرارة قد قال للنبى ـ ﷺ ـ : يا محمد سل لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ؟

فقال : أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأسألكم لى ولأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون أنفسكم .

قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال ـ ﷺ ـ الجنة ـ

قال : فلك ذلك .

---

(٣١٠) الطبقات الكبرى ـ ٤ /٣

فكان الشعبى إذا حدث هذا الحديث يقول : ما سمع الشيب والشبان بخطبة أقصر ولا أبلغ منها .

متى أسلم العباس ؟

يقول الرواة : إن العباس أسلم قبل الفتح - فتح مكة - وقد لقى النبى - ﷺ - فى طريقه مهاجرا والنبى - ﷺ - متوجه إلى مكة .

ولكن كثيرا من الرواة يقولون : إن إسلامه كان سابقا على ذلك بكثير . كان مسلما ولكنه أخفى إسلامه ، وظل على إسلامه مقيما بمكة ، يكتب إلى النبى - ﷺ - بأخبار المشركين ، وكان من بمكة من المسلمين يتقوون به ، وكان لهم عونا على إسلامهم ، وقد أراد الهجرة إلى رسول الله - ﷺ - فقال له : مقامك بمكة خير ، فلذلك قال النبى - ﷺ - يوم بدر : من لقى العباس فلا يقتله ، فإنه أخرج مع قريش كرها .(٣١١)

لماذا خرج العباس مع المشركين فى بدر ؟

لما خرج المشركون إلى بدر ، وساروا متوجهين إلى المدينة ، ووصلوا إلى مر الظهران ، وزعيمهم أبو جهل بن هشام . هب أبو جهل من نومه فصاح بمن معه : يا معشر قريش ، الا تباً لرأيكم ، ماذا صنعتم ؟ خلفتم بنى هاشم وراءكم ، فإن ظفر بكم محمد كانوا من ذلك بنجوة ، وإن ظفرتم بمحمد أخذوا آثاركم منكم من قريب من أولادكم وأهليكم ، فلا تذروهم فى بيضتكم وفنائكم ولكن أخرجوهم معكم وان لم يكن عندهم غَنَاء .

---

(٣١١) أسد الغابة ٣ /١٦٤

فرجع القرشيون إلى بنى هاشم ، فأخرجوا العباس بن عبدالمطلب ، ونوفلاً وطالباً وعقيلاً - كرها .

أخبر أبو صالح عن ابن عباس - فيما يرويه ابن سعد - قال : قد كان منا بمكة من بنى هاشم من قد أسلموا ، فكانوا يكتمون إسلامهم ويخافون أن يظهروا ذلك فَرَقاً من أن يثب عليهم أبو لهب وقريش فيوثقوا كما أوثقت بنو مخزوم سلمة بن هشام وعباس بن أبي ربيعة وغيرهما . فلذلك قال النبي - ﷺ - لأصحابه يوم بدر : من لقى العباس وطالباً وعقيلاً ونوفلاً وأبا سفيان - يقصد أبا سفيان بن الحارث - فلا تقتلوهم فإنهم أخرجوا مكرهين .(٣١٢)

وحدث أبو رافع مولى العباس قال : كنت غلاما للعباس بن عبدالمطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل وأسلمتُ ، فكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم ، فكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال متفرق فى قومه ، فخرج معهم إلى بدر وهو على ذلك .(٣١٣)

وحدث ابن إسحاق قال : حدثنى العباس بن عبدالله بن محمد عن بعض أهله عن ابن عباس رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - قال لأصحابه يوم بدر : إنى عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدا من هؤلاء فلا يقتله . . من لقى

---

(٣١٢) الطبقات ٤ /٥

(٣١٣) المرجع السابق

العباس بن عبدالمطلب عم النبى - ﷺ - فلا يقتله ، فإنما أخرج مستكرها .

قال : فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة : نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألجمنه السيف .

قال : فبلغت مقالته رسول الله - ﷺ - فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص - قال عمر : والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله - ﷺ - بأبى حفص - أيضرب وجه عم رسول الله - ﷺ - بالسيف ؟

فقال عمر : دعنى أضرب عنق أبى حذيفة بالسيف ، فوالله لقد نافق .

قال : وندم أبو حذيفة على مقالته ، فكان يقول : والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا إلا أن يكفرها الله - عز وجل - عنى بالشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا .

وفى رواية أخرى لهذا الخبر : قال أبو حذيفة : لا ألقى رجلاً منهم - يعنى الذين ساهم النبى - ﷺ - من بنى هاشم - إلا قتلته .

فقال النبى - ﷺ - أنت القائل كذا وكذا يا أبا حذيفة ؟

قال : نعم ، يا رسول الله : شق علىَّ إذ رأيت أبى وعمى وأخى مُقتَّلين فقلت الذى قلت . - وكان عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ، والوليد بن عتبة أخو أبى حذيفة - قد قتلوا فى المعركة -

فقال له رسول الله - ﷺ - : إن أباك وعمك وأخاك خرجوا جادين فى قتالنا ، طائعين غير مكرهين ، وإن هؤلاء أخرجوا مكرهين غير طائعين لقتالنا .

وعلى أىٍّ فقد خرج العباس مع المشركين فى بدر ، وأسر فيمن أسر ، وشُدَّ وثاقه فيمن شد .

وكان الذى أسره أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بنى سلمة ، وكان أبو اليسر رجلا مجموعا ـ يعنى صغير الجسم ـ وكان العباس رجلا جسيما ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأبى اليسر : كيف أسرت العباس يا أبا اليسر ؟ تعجبا من تمكنه من أسره مع صغره وقلة جسمه ، وقوة العباس وجسامته ـ

فقال أبو اليسر : لقد أعاننى عليه ـ يا رسول الله ـ رجل ما رأيته قبل ولا بعد ، هيئته كذا وكذا . .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : لقد أعانك عليه ملك كريم .[٣١٤]

ولقد خرج العباس مع المشركين وهو لا يود نصرهم على المسلمين ، بل كان ـ فيما بينه وبين نفسه ـ يتمنى أن ينصر الله ابن أخيه عليهم .

قال أبو اليسر الذى أسر العباس : انتهيت إلى العباس يوم بدر وهو قائم ـ لا يتحرك . فقلت له : جزتك الجوازى ، أتقتل ابن أخيك ؟

فقال العباس : ما فعل محمد ؟ أما به القتل ؟ يتساءل العباس جزعاً أن يكون قد أصاب ابن أخيه قتل .

فقال له أبو اليسر : الله أعز وأنصر .

فقال العباس : كل شىء ما خلا محمداً جلل ،[٣١٥] فما تريد ؟

قال أبو اليسر : إن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن قتلك .

فقال العباس : ليس هذا بأول صلته وبره .

وشُدّ وثاق العباس فى عبسه الذى أسر فيه ، فسهر النبى ـ صلى الله عليه

---

(٣١٤) الطبقات ٤ / ٦

(٣١٥) كلمة جلل من الكلمات المتضادة تأتى بمعنى عظيم وحقير ، وهى هنا بمعنى هين ويسير وحقير .

وسلم ـ تلك الليلة التى أسر فيها العباس ولم ينم ، فقال له بعض أصحابه : مايسهرك يا نبى الله ؟

قال : أسهر لأنين العباس .

فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالى لاأسمع أنين العباس ؟

فقال الرجل : أنا أرخيت من وثاقه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فافعل ذلك بالأسرى كلهم(٣١٦) وبحثوا للعباس عن قميص يلبسه ، فلم يجدوا له قميصاً يسع جسمه ، الا قميص عبدالله بن أبى ـ فألبسوه إياه ، ومن أجل ذلك حين مات عبدالله بن أبى كفنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قميصه(٣١٧) ـ على الرغم من نفاقه ـ وذلك استجابة لطلب ابنه الذى كان مسلماً صادقاً . .

وجاء دور الفداء ـ فقد اتفق الرأى على أن يقبل المسلمون الفداء من أسرى المشركين فى بدر ويطلقوا سراحهم . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمه العباس ـ افد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو فإنك ذو مال .

فقال العباس : يارسول الله ، إنى كنت مسلماً ، ولكن القوم استكرهونى .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : الله أعلم بإسلامك ، إن كان

---

(٣١٦) أسد الغابة ٣ /١٦٤

(٣١٧) المرجع السابق

ماتذكر حقاً فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك .

وكان العباس قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب ، وجدت معه .

فقال العباس : يارسول الله ، احسبها لى من الفداء .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا ، ذاك شيء أعطاناه الله منك .

قال العباس : فإنه ليس لى مال .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فأين المال الذى وضعت بمكة حين خرجت ـ عند أم الفضل بنت الحارث ، ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فللفضل كذا وكذا ولعبدالله كذا وكذا ؟

قال العباس : والذى بعثك بالحق ماعلم بهذا أحد غيرى وغيرها ، وإنى لأعلم أنك رسول الله .

ففدى العباس نفسه وابن أخيه وحليفه .

وأراد بعض الأنصار أخوال العباس أن يتركوا للعباس شيئاً من الفداء ، فأبى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقد روى أنس بن مالك قال : قال رجل من الأنصار لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس بن عبدالمطلب فداه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا ـ عليه ماعلى غيره . .

هذه هى عدالة الإسلام التى طبقها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يتوان فيها ، وقد رأينا مثلاً آخر منها حين أمر بتخفيف وثاق الأسرى كلهم

أسوة بتخفيف وثاق عمه حين خففه أحدهم .

هذا هو العدل فى الغنم وفى الغرم . ولايطبق ذلك إلا النبى - صلى الله عليه وسلم -

وكانت جملة الفداء الذى فدى به العباس نفسه وابن أخيه ثمانين أوقية من الذهب ، وقيل : ألف دينار .

ويقال : إنه حين عاد إلى مكة بعث بفدائه وفداء ابن أخيه فقط ، ولم يبعث بفداء حليفه ، فدعا النبى - صلى الله عليه وسلم - حسان بن ثابت فأخبره . . لقد كان ذلك تهديداً خفياً للعباس - فإخبار حسان يعنى أنه يمكن أن يهجو العباس لأنه لم يوف حق حليفه . .

وكان الذى حمل المال إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أبو رافع مولى العباس - فلما عاد قال له العباس : ماذا قال لك ؟

فقص عليه الأمر - فقال العباس : وأى قول أشد من هذا ؟

احمل الباقى قبل أن تحط رحلك . فحمله . .

لقد خشى العباس من لسان الشعر ، لسان حسان بن ثابت . .

وقد ذكر العلماء أن قوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠ ﴾ (٣١٨)

نزلت فى الأسرى يوم بدر - منهم العباس بن عبدالمطلب ونوفل بن

---

(٣١٨) الأنفال ٧٠

الحارث وعقيل بن أبي طالب .

فقد كان الذى أعطى هؤلاء من الإيمان أفضل بكثير مما بذلوا من مال فى الفداء ، وكان الذى قدمه العباس من مال فى الفداء مضاعفاً عما أدى غيره ، فقد كلفّه النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يفدى ابنى أخويه عقيل ونوفل(٣١٩) وحليفه

وقال العلماء : وبعد أن هاجر العباس إلى المدينة واستقر بها . جاء مال كثير من البحرين إلى رسول الله - فقال له العباس : إنى فاديت نفسي وفاديت عقيلاً ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : خذ ، فبسط ثوبه ، وأخذ مااستطاع أن يحمله - فقال العباس : هذا خير مما أخذ منى ، وأنا بعد أرجو أن يغفر الله لى .

قال العباس : وأعطانى زمزم ، وما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة(٣٢٠)

دليل آخر على إسلام العباس قبل الفتح

فى غزوة خيبر كان العباس - رضى الله عنه - مازال فى مكة . . . . . ويقص علينا ابن كثير قصة تفيد أن العباس - رضى الله عنه - كان مسلماً على الرغم من عدم هجرته - يقول فيها :

قال ابن إسحاق : لما فتحت خيبر كلم الحجاج بن علاط السُّلَمىُّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله ، إن لى بمكة مالاً عند صاحبتى أم شيبة بنت طلحة ، ومالاً متفرقاً فى تجار أهل مكة ، فائذن لى

---

(٣١٩) تفسير القرطبى جـ٨ صـ٥٢ - الأنفال -

(٣٢٠) المرجع السابق

يارسول الله فى الذهاب إلى مكة لأخذ مالى ، وكان الحجاج قد أسلم حديثاً ولايعلم أحد من أهل مكة بإسلامه . فأذن له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال الحجاج : يارسول الله ، إنه لابد لى من أن أقول ـ أى أقول لهم ماليس صحيحاً حتى أتمكن من أخذ مالى

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم : قل

قال الحجاج : فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثَنِيَّة البيضاء رجالا من قريش يستمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر ، وقد عرفوا أنها أشد قرية بالحجاز منعة ورجالاً ، وهم يتحسسون الأخبار من الركبان .

فلما رأونى قالوا : هذا الحجاج بن علاط ـ ولم يكونوا علموا بإسلامى ـ وعنده والله الخبر . . . أخبرنا ياأبا محمد فإنه قد بلغنا أن محمداً قد سار إلى خيبر ، وهى بلد يهود وريف الحجاز ؟

قال ـ قلت : قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر مايسركم .

قال : فالتبطوا[٣٢١] بجنبى ناقتى يقولون : إيه ياحجاج ؟

قال : قلت : هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقد قُتِل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط ، وأُسر محمد أسراً ، وقالوا : لانقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم .

قال : فقاموا وصاحوا بمكة ، وقالوا : قد جاءكم الخبر ، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقْدَم به عليكم فيقتل بين أظهركم .

---

(٣٢١) التبطوا : التصقوا وأحاطوا

قال ـ قلت : أعينونى على جمع مالى بمكة وعلى غرمائى ، فإنى أريد أن أذهب إلى خيبر فأصيب مما أخذ من محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ماهنالك .

قال : فقاموا فجمعوا لى ماكان لى كأحث ـ كأسرع ـ جمع سمعت به ، وجئت صاحبتى ـ زوجتى ـ فقلت : مالى ـ وكان عندها مالى موضوع ـ فلعلى ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى التجار .

قال : فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وما جاءه عنى أقبل حتى وقف إلى جانبى وأنا فى خيمة من خيم التجار ـ فقال : ياحجاج ما هذا الذى جئت به ؟

قال ـ قلت وهل تكتم عنى إن قلت لك ؟

قال : نعم . .

قال : قلت استأخر عنى حتى ألقاك على خلاء ، فإنى فى جمع مالى كما ترى ، فانصرف حتى أفرغ .

قال : حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لى بمكة وأجمعت الخروج لقيت العباس ، فقلت : احفظ علىّ حديثى ياأبا الفضل ـ فإنى أخشى الطُلَب ـ ثلاثاً ـ ـ أى ثلاث ليال ـ ثم قل ماشئت بعد ذلك .

قال : أفعل .

قال : قلت : فإنى والله تركت ابن أخيك عروساً على ابنة ملكهم .

ـ يعنى صفية بنت حيى ـ وقد افتتح خيبر ، وغنم مافيها ، وصارت له ولأصحابه .

قال : ماتقول ياحجاج ؟

قال : قلت : إى والله ، فاكتم عنى . . . ولقد أسلمت ، وماجئت إلا لآخذ مالى فرقاً عليه من أن أغلب عليه ، فإذا مضت ثلاث فاظهر أمرك فهو والله على ماتحب .

قال : حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له ، وتَخَلَّق ـ تطيَّب ـ وأخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها ، فلما رأوه قالوا : ياأبا الفضل ، هذا والله التجلد لحر المصيبة .

قال : كلا والله الذى حلفتم به ، لقد افتتح محمد خيبر ونزل عروساً على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم ومافيها ، وأصبحت له ولأصحابه .

قالوا : من جاءك بهذا الخبر؟

قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلماً ، وأخذ أمواله وانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه .

قالوا : يالعباد الله انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن

قال : ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك(٣٢٢)

لقد استشف العلماء من هذه القصة أن العباس كان مسلماً ، ولكنه مقيم فى مكة لحكمة عالية . ولقد أراد الهجرة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(٣٢٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ صـ٢١٥

فقال له : مقامك بمكة خير ـ وقال له : أنت آخر المهاجرين كما أنى آخر الأنبياء(٣٢٣)

ومما يدل على أنه كان مسلماً أيضاً ، انه كان يكتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأخبار قريش ، وقد كتب له بعزم قريش على غزوه فى أحد . . . .

جاء فى السيرة الحلبية : وبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك ـ أى تجهزهم لحربه ـ أرسل بذلك إليه عمه العباس ، بعد أن راودوه على الخروج معهم ، فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر ، ولم يساعدهم بشىء ، وذلك فى كتاب جاء إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بقباء أرسله إليه عمه العباس مع رجل استأجره من بنى غفار ، وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليها .

ففعل ذلك . فلما جاءه الكتاب فك ختمه ودفعه لأبى فقـــراه أُبىٌ بن كعب ، واستكتم أُبياً ، ونزل ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس واستكتمه إياه . فلما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عنده قالت له امرأته ماقال لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

فقال لها : لاأم لك ، ماأنت وذاك ؟

فقالت : قد سمعت ماقال ، وأخبرته بما قاله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاسترجع سعد ، وأخذ بيدها ولحق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره خبرها ، وقال : يارسول الله ، إنى خفت أن يفشوا الخبر فترى أنى أنا

---

(٣٢٣) أسد الغابة جـ٣ صـ١٦٥

المفشى له وقد استكتمنى إياه . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : خلِّ عنها[٣٢٤]

وجاء فى بعض الأخبار أن الهاشميين الذين اشتركوا فى بدر مع المشركين ، عادوا إلى مكة بعد فكاك أسرهم ، ثم انطلقوا مهاجرين مسلمين إلى المدينة ، فأمرهم النبى - صلى الله عليه وسلم - بالعودة إلى مكة ليباشروا فيها مهام السقاية والرفادة والرئاسة ..[٣٢٥]

فى الفتح

انطلق العباس بن عبدالمطلب إلى المدينة مهاجراً بعياله فلقى النبى - صلى الله عليه وسلم - عند الجحفة فى طريقه إلى مكة فاتحاً ، فأعاده النبى - صلى الله عليه وسلم - معه ، وسمح لعياله بالتوجه إلى المدينة ...

ولقى النبى - صلى الله عليه وسلم - أيضاً أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، وعبدالله بن أبى أمية فأعرض عنهما النبى - صلى الله عليه وسلم - لتأخرهما عن الإسلام وللشعر الذى قاله أبو سفيان ، وقد سمعت لهما أم سلمة :

لقد قالت له : يارسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك ..

فقال لها : « لاحاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهجانى - يعنى بشعره - وأما ابن عمتى فهو الذى قال بمكة ماقال - يعنى ماقاله من أننى لا أومن بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتى بصك وأربعة من

---

(٣٢٤) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٤٨٩

(٣٢٥) الطبقات ٤ / ١٠

الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك .

ولما خرج إليهما الخبر بذلك . قال أبوسفيان : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيد ابنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . .

فلما سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك عفا عنهما ، وأذن لهما ، فدخلا عليه فأسلما . . وأخذ أبوسفيان يعتذر للنبى - صلى الله عليه وسلم - عما قال فيه - وذلك بقصيدة يعلن فيه توبته ويغسل به ماسبق أن قاله فى أيام جهله وضلاله .

وعاد العباس مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ونزل الجيش بمر الظهران .

قال العباس - حين نزل النبى - صلى الله عليه وسلم - بمر الظهران - قلت : واصباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة عنوة قبل أن يأتوه ويستأمنوه أنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر .

قال : فجلست على بغلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - البيضاء ، فخرجت عليها حتى جئت لأراك ، فقلت : لعلِّى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليخرجوا إليه فيستأمنون قبل أن يدخل عليهم عنوة .

قال : فوالله إنى لأسير عليها إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبوسفيان يقول : مارأيت كالليلة نيراناً قط ولاعسكراً .

قال بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

فقال أبوسفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وسمع العباس تحاورهما وعرف صوتيهما ، فنادى أباسفيان قائلاً : ياأبا حنظلة .

وعرف أبوسفيان صوت العباس ، فأقبل عليه قائلاً : أبوالفضل ؟

قال العباس : نعم . . .

ثم قال له : ويحك ياأباسفيان . . . هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الناس . . . .

فقال أبوسفيان : واصباح قريش والله ، فما الحيلة ـ فداك أبى وأمى ؟

قال العباس : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى استأمن لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فركب أبوسفيان وراء العباس ، ورجع من كان معه . . ومضى به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال العباس : فكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله على بغلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟

وقام إلىَّ .

فلما رأى أباسفيان على عجز الدابة قال : أبوسفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولاعهد . وأراد قتله ، فمنعه منه العباس . .

ثم خرج عمر يشتد نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطىء ، قال العباس : فنزلت

عن البغلة فدخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخل عليه عمر ، فقال : يارسول الله ، هذا أبوسفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولاعهد ، فدعني أضرب عنقه . قال العباس : قلت يارسول الله إني قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذت برأسه فقلت : والله لايناجيه الليلة دون رجل .

فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلاً ياعمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ماقلت هذا . ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف .

فقال : مهلاً ياعباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم . ومابي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : اذهب به ياعباس إلى رحلك فإذا أصبحت فاتني به . .

وأسلم أبوسفيان في الصباح وشهد شهادة الحق ، وجعل له النبي - صلى الله عليه وسلم - شيئاً من الفخر ، فقال له : ناد في الناس من دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . . (٣٢٦)

لقد كان للعباس بن عبدالمطلب فضل كبير في إنقاذ أبي سفيان من القتل أولاً ، وفي هدايته إلى الإسلام ثانيا . . وفي حقن دماء القرشيين ثالثاً . . .

---

(٣٢٦) البداية والنهاية جـ٤ صـ٢٩٠ - سيرة ابن هشام ج٤ صـ٨٩

فمن كان يدرى لولم يسلم أبوسفيان ويذهب فينادى فى الناس بما ناداهم به ماذا كان يحدث ؟

العباس فى غزوة حنين

وتفتح مكة ، ويدخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكعبة ، بعد أن طلب مفتاحها من عثمان بن طلحة ، فأعطاه له . وبعد أن طهر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكعبة مما بها من الأصنام والأزلام والصور ، وصلى فيها ركعتين ـ تطلع العباس بن عبدالمطلب إلى المفتاح قائلاً : اجمع لنا الحجابة مع السقاية والرفادة يارسول الله ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أين عثمان بن طلحة ؟ فجاء عثمان فأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المفتاح وهو يتلو قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٣٢٧)

وقال له : خذها خالدة تالدة لاينزعها منكم إلا ظالم .

وقال بعضهم : إن الذى تطلع إلى ذلك على بن أبى طالب . . . ولكن الذى كانت بيده السقاية إذ ذاك هو العباس ، فهو بهذا القول أشبه ـ وقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ ذاك : إنما أعطيكم مايحملكم المغارم والنفقات لا ماتحصلون منه على المغانم والنفقات .

ثم توجه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حنين للقاء هوازن .

---

(٣٢٧) النساء ٥٨

وانكشف المسلمون فى الجولة الأولى وولوا الأدبار ، ولم يثبت مع النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى وقف ينادى : هلموا إلىَّ أيها الناس ، أنا محمد بن عبدالله .

أنا النبى لاكذب   أنا ابن عبدالمطلب

لم يثبت مع النبى - صلى الله عليه وسلم - إلا نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

فممن ثبت معه من المهاجرين أبوبكر وعمر ، ومن أهل بيته على بن أبى طالب والعباس بن عبدالمطلب وأبوسفيان بن الحارث وابنه جعفر ، والفضل ابن العباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن عبيد - ابن أم أيمن - وقد قتل يومئذ . .

ولقد أخذ العباس بحنكة بغلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد شجَرها بها ، وكان امرءاً جسيماً شديد الصوت ، وقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - ياعباس ، اصرخ : يامعشر الأنصار ، يامعشر أصحاب السمرة . . فلما سمعوا صوته أقبلوا يقولون : لبيك لبيك

وكان لصوت العباس الجهورى الفضل فى انعطاف الناس ورجوعهم بعد تلك الجفلة التى أصابتهم على غير وعى منهم وانتظار لها . .

لقد تعودوا النصر فى المعارك السابقة ، حتى أسكرهم النصر ، فلم يعودوا يتوقعون الهزيمة ، وهان أمامهم كل عدو بعد أن فتحوا مكة واستسلمت قريش لهم ، وهى التى كانت تجمع لهم الجموع ، فلم يتوقعوا أن تكون هناك فئة أقوى من قريش التى أعلنت إسلامها ودخلت فى دين

الله . . وانضم رجالها إلى صفوف المسلمين حتى أصبحوا عدداً وفيراً وقوة عظيمة ، وحتى قال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة . . .

ولقد أراد الله أن يعلمهم درساً يذكرونه إلى الأبد ، وهو أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ـ لاهو بكثرة العدد ولا بقوة العدة ، وأن العاقل لابد أن يقدر عدوه حق قدره ولايستهين به مهما كان صغيراً فى عدده وعدته ، وقد سجل القرآن الكريم لهم هذا الدرس ليعوه ولا ينسوه ، فقال لهم . .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣٢٨)

وتحولت المعركة بعد ذلك إلى نصر حاسم للمسلمين ، ولم يغنم المسلمون فى كل معاركهم السابقة الكثيرة غنائم مثلها غنموا فى معركة هوازن ، وبانتهائها أصبحت الجزيرة العربية كلها لايذكر فيها إلا اسم الله وحده لاشريك له ، وانطوت صفحة الشرك فيها إلى الأبد .

---

(٣٢٨) آية ٢٥ ، ٢٦ ـ التوبة

ولنستمع إلى العباس ـ رضي الله عنه ـ يقص علينا قصة ثبات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

قال : شهدت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين ، فلزمته أنا وأبوسفيان بن الحارث فلم نفارقه ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على بغلة له بيضاء . . . . فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين في البداية . . وطفق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يركض بغلته نحو الكفار ـ قال عباس ـ : وأنا آخذ بلجام البغلة أكفها ـ إرادة ألا تسرع ـ وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : يا عباس ناد يا أصحاب السمرة .(٣٢٩)
قال عباس : وكنت رجلا جهير الصوت ـ فقلت بأعلى صوتي : أين أصحاب السمرة ؟ .

قال : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يا لبيك ، يا لبيك ، فاقتتلوا هم والكفار . .
فنظر رسول الله ـ ﷺ ـ وهو على بغلته إلى قتالهم .

فقال ـ ﷺ ـ : هذا حين حمي الوطيس ، ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، ثم قال : انهزموا ورب محمد . .
فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فإذا حدُّهُمْ كَليل وأمرهم مدبر حتى هزمهم الله .(٣٣٠)

---

(٣٢٩) السمرة ـ هي شجرة بيعة الرضوان
(٣٣٠) الطبقات ٤ /١١

العباس فى المدينة :

وهاجر العباس - رضى الله عنه - إلى المدينة ، وقد كان فى طريقه إليها قبل الفتح - كما علمنا - ولكن النبى - ﷺ - أعاده معه وترك ثقله وأهله يمضيان إلى المدينة .

وآخى النبى - ﷺ - بين العباس بن عبدالمطلب ونوفل بن الحارث ، وأقطعهما بالمدينة فى موضع واحد ، وفرع بينهما بحائط ، فكانا متجاورين ، وقد كانا شريكين فى الجاهلية متفاوضين فى المال متحابين متصافيين .

وكانت دار نوفل التى أقطعها إياه النبى - ﷺ - فى موضع رحبة القضاء وما يليها إلى المسجد ، وهى تقابل دار الإمارة التى يقال لها اليوم - فى زمن ابن سعد - دار مروان .

وكانت دار العباس حدها فى دار مروان إلى المسجد ، وهى دار الإمارة ، وأقطعه النبى - ﷺ - دارا أخرى وهى التى بالسوق فى الموضع الذى يسمى محرزة ابن عباس .

أخذ دار العباس وضمها للمسجد :

وهناك قصة تشير إلى أدب المسلمين فى تقاضيهم ، وأدبهم فى خصوماتهم واختلافهم .

ذلك أنه لما كثر المسلمون فى عهد عمر ، وضاق بهم مسجد رسول الله - ﷺ - أراد عمر أن يوسع المسجد ، فاشترى ما حول المسجد من الدور إلا دار العباس ، وحجر أمهات المؤمنين .

فقال عمر للعباس : يا أبا الفضل ، إن مسجد المسلمين قد ضاق بهم

وقد اشتريت ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين فى مسجدهم إلا دارك وحُجَر أمهات المؤمنين ، فأما حجر أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين أوسع بها فى مسجدهم .

فقال العباس : ما كنت لأفعل - حرصا من العباس على الاحتفاظ بما أعطاه له الرسول - ﷺ - تفاؤلا به وتبركا . .

فقال له عمر : اختر منى إحدى ثلاث ، إما أن تبيعنيها ، وإما أن أخططك - أى أبنى لك داراً - حيث شئت من المدينة من بيت مال المسلمين ، وإما أن تتصدق بها على المسلمين فنوسع بها فى مسجدهم .

فقال العباس : لا - ولا واحدة منها .

فقال عمر : اجعل بينى وبينك من شئت .

فقال العباس : أبىّ بن كعب .

فانطلقا إلى أُبىّ فقصا عليه القصة . فقال أُبىّ : إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من النبى - ﷺ - .

فقالا : حدثنا .

فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله أوحى إلى داود - عليه السلام - أن ابن لى بيتا أذكر فيه ، فخط له هذه الخطة - خطة بيت المقدس - فإذا تربيعها بيت رجل من بنى إسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه إياه فأبى ، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله إليه : يا داود أمرتك أن تبنى لى بيتا أُذكر فيه فأردت أن تُدْخِلَ فى بيتى الغَصْب ، وليس من شأنى الغصب ، وإن عقوبتك أن لا تبنيه .

قال : يارب فمن ولدى ؟ - أى الذى سيبنيه من ولدى -

قال : من ولدك . .

فأخذ عمر بمجامع ثياب أبى بن كعب ، وقال : جئتك بشىء فجئتَ بما هو أشد منه . . ثم أخذ بيده يقوده حتى أدخله المسجد فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله - ﷺ - فيهم أبو ذر ، فقال : إنى نشدت الله رجلا سمع من رسول الله - ﷺ - ذكر حديث بيت المقدس ، حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره . فقال أبو ذر أنا سمعته من رسول الله - ﷺ - وقال آخر : أنا سمعته ، وقال آخر أنا سمعته فترك عمر أبياً .

وأقبل أُبَىٌّ على عمر فقال : يا عمر ، أتتهمنى على حديث رسول الله - ﷺ - ؟

فقال عمر : لا والله ما اتهمتك عليه يا أبا المنذر ، ولكنى كرهت أن يكون الحديث عن رسول الله - ﷺ - بدون تحقق .

وقال عمر للعباس : اذهب فلا أعرض لك فى دارك .

فقال العباس : أما إذ فعلت هذا فإنى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم فى مسجدهم ، فأما وأنت تخاصمنى فلا - فخط عمر للعباس دارا هى التى لهم اليوم - فى عهد ابن سعد - وبناها من بيت مال المسلمين .

يوم تبوك :

وقد اشترك العباس فى غزوة تبوك ، وهى التى تسمى غزوة العسرة ،

وحين عاد النبي - ﷺ - أقبل عليه العباس يقول له : يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك . فقال له النبي - ﷺ - قل لا يفضض الله فاك . فانشأ يقول :

من قبلها طبت في الظلال وفي	مستودع يُخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بَشَرٌ	أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد	ألجم نَسْراً وأهله الغرق
تنقل من صُلْب طاهر إلى رحمٍ	إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من	خندف علياء تحتها النطق

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق(٣٣١)

إن هذه الأبيات ترجمة صحيحة لما ورد في الحديث الشريف « لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسية إلى الأرحام الطاهرة ، صفق مهديٌّ لا ينشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما ، وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقي ، وبالإسلام مهدي ، ونشر في التوراة والإنجيل ذكري ، وبيَّن كل نبي صفتي ، تشرق الأرض بنوري ، والغمام بوجهي ، وعلمني كتابه ، وزادني شرفا في سمائه ، وشق لي اسما من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد وأحمد .(٣٣٢)

العباس بعد الرسول :

لم يزل المسلمون يعرفون فضل العباس - رضي الله عنه - يتبوأ بينهم

---

(٣٣١) البداية والنهاية جـ٢ صـ٢٥٨

(٣٣٢) المرجع السابق

أسمى منزلة وصل إليها إنسان ... وزاده رفعة فى نظرهم أنه نأى بنفسه عن الزج فى خلافات نشبت بشأن الخلافة .... وما حكاه بعض الرواة من أن الهاشميين بزعامة العباس وعلى بن أبى طالب غضبوا لأن المسلمين تخطوهم فى الخلافة وآثروا بها أبا بكر وعمر ـ إنما هو من خيال الرواة .. إذ لا يمكن لأحد من هؤلاء القمم الذين شرفهم الله وطهرهم من الرجس تطهيرا ، أن يتهافتوا على شيء من تلك الأمور .

وقد رُوِى أن العباس رضى الله عنه عرض على النبى أن يعهد إليه بإمارة ـ قال له : يا رسول الله استعملنى ، فقال له الرسول : يا عباس يا عم النبى ، نفْس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها ..

وسأله مرة أن يستعمله على الصدقة فقال له : ما كنت لأستعملك على غسالة ذنوب الناس .(٣٣٣)

هذه التعليمات التى أصدرها النبى ـ ﷺ ـ لبنى هاشم جعلتهم ينأون بأنفسهم عن المزاحمة فى الخلافة والمناصب ، إلا إذا جاءت هذه من تلقاء نفسها دون مزاحمة .. فقد وردت رواية أخرى فى هذا المعنى : « لا تسأل الإمارة فإنها إن جاءتك أُعنت عليها وإن سألتها لم تُعَنْ عليها »

وقد رأينا كيف كان عمر يعامل العباس وكيف كان يعرف له قدره ومكانته .

وما كان عمر ليفعل ذلك لولا أنه عرف مكان العباس من رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(٣٣٣) الطبقات جـ٤ صـ١٨

قال ابن سعد فى طبقاته : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنا عبدالله بن جعفر الزهرى عن عثمان بن محمد الأخنسى وإسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص قالا : ما أدركنا أحدا من الناس إلا وهو يقدم العباس بن عبدالمطلب فى العقل فى الجاهلية والإسلام .

الاستسقاء بالعباس :

وقد قحط الناس فى عهد عمر - أجدبت الأرض وبخلت السماء بالماء ، وضج الناس بالشكوى وكادوا يهلكون ، فخرج عمر بالناس لصلاة الاستسقاء ، وأخذ بيد العباس رضى الله عنه - فاستقبل به القبلة فقال : يارب هذا عم نبيك - عليه السلام - جئنا به إليك فاسقنا .

وفى رواية أخرجها الزبير بن بكار فى الأنساب أن عمر خطب الناس فقال : يأيها الناس إن رسول الله - ﷺ - كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد ، فاقتدوا أيها الناس برسول الله - ﷺ - فى عمه العباس ، واتخذوه وسيلة إلى الله - ادع يا عباس ، فكان من دعائه - رضى الله عنه - : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك - ﷺ - وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث ، واحفظ اللهم نبيك فى عمه .

قال : فأمطرت السماء كثيرا حتى أخصبت الأرض وعاش الناس . . . . . . وأقبل الناس على العباس يتقربون ويقولون له : هنيئا لك يا ساقى الحرمين .

وقال عمر - رضى الله عنه - : ذلك والله هو القرب إلى الله والمكان منه .

وفى ذلك أنشد العباس بن عتبة أبياتا منها :

بعمى سقى الله الحجاز وأهله عشية يستسقى بشيبته عمر .[٣٣٤]

ومن هنا لقب العباس - رضى الله عنه - بساقى الحرمين .

كان عمر - رضى الله عنه - يقرب العباس ويقدمه - كما ذكرنا - وقد فرض له فى الديوان سبعة آلاف ، وقيل خمسة آلاف كفرائض أهل بدر - وذلك لقرابته من رسول الله - ﷺ - ولم يفضل أحدا على أهل بدر إلا أزواج النبى - ﷺ -

ولقد قال عمر - رضى الله عنه - يوما للعباس - وكان العباس قد قال له : يا أمير المؤمنين ، أرأيت لو جاءك عم موسى مسلما ما كنت صانعا به ؟
قال : كنت والله صانعا به كل خير .

قال : فأنا عم محمد - ﷺ -

قال عمر : وما رأيك يا أبا الفضل ؟ فوالله لأبوك أحب إلىّ من أبى ، لأنى كنت أعلم أنه أحب إلى رسول الله - ﷺ - من أبى ، فأنا أوثر حب رسول الله - ﷺ - على حبى[٣٣٥]

---

(٣٣٤) مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوى المالكى المكى الحسنى صـ٧٠
(٣٣٥) أسد الغابة جـ٣ صـ١٦٧

فضل العباس :

لا يخفى فضل العباس على أحد ولقد كان النبى - ﷺ - يكرمه ويقدمه . . . وكان يعظمه بعد إسلامه ، وكان العباس وصولا لأرحام قريش ، محسنا إليهم ، ذا رأى سديد وعقل غزير ، وقد قال النبى - ﷺ - فيه : هذا العباس بن عبدالمطلب أجود قريش كفا وأوصلها ، وقال : هذا بقية آبائى .

وروى أن العباس دخل يوما على النبى - ﷺ - وهو مغضب ، فقال له النبى - ﷺ - : ما أغضبك ؟

فقال : يا رسول الله ما لنا ولقريش ؟ إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مُبْشَرة - يعلوها البشر - وإذا لقونا لقونا بغير ذلك .

فغضب رسول الله - ﷺ - حتى احمر وجهه - ثم قال : « والذى نفسى بيده لا يدخل الإيمان قلب رجل حتى يحبكم لله ولرسوله ، ثم قال : « أيها الناس ، من آذى عمى فقد آذانى ، فإنما عم الرجل صنو أبيه »(٣٣٧)

وروى عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ومنزلى ومنزل إبراهيم تجاهين فى الجنة ، ومنزل العباس بن عبدالمطلب بيننا - مؤمن بين خليلين »(٣٣٨)

---

(٣٣٦) الطبقات ٤ / ١٩

(٣٣٧) تحفة الأحوذى - كتاب المناقب ١٠ / ٢٦٣ ، ومسند أحمد ٤ / ١٦٤

(٣٣٨) رواه ابن ماجه فى سننه ، وفى أسد الغابة ٣ / ١٦٦

وروى سعيد بن المسيب عن سعد قال : كنا مع النبى - ﷺ - ببقيع الخيل ، فأقبل العباس .... فقال رسول الله - ﷺ - : « هذا العباس عم نبيكم ، أجود قريش كفاً وأوصلها »[339]

خبر العباسيين :

ويعد العباس - رضى الله عنه - الجد الأعلى للعباسيين ، وقد بشر النبى - ﷺ - العباس بخلافة أحفاده . فعن أبى ميسرة مولى العباس قال :

سمعت العباس يقول : كنت عند رسول الله - ﷺ - ذات ليلة فقال : انظر هل ترى فى السماء من شىء ؟ قلت : نعم .

قال : ما ترى ؟

قلت : الثريا .

قال : « أما إنه سيملك هذه الأمة عددها من صلبك » .

ومؤسس الدولة العباسية هو عبدالله بن محمد بن الإمام على بن عبدالله بن عباس[340] بن عبدالمطلب - فهو الحفيد الرابع للعباس - رضى الله عنه -

أولاد العباس :

كان للعباس - رضى الله عنه - من الأولاد : الفضل - وهو أكبر ولده - وبه كان يُكنَى ، وكان فتى جميلا ، وأردفه النبى - ﷺ - خلفه فى حجَّة الوداع ، ومات بالشام فى طاعون عمواس سنة ١٨ هـ ، وقيل : بل استشهد يوم اليرموك ......

---

(٣٣٩) رواه أحمد فى المسند من طريق محمد بن طلحة ١ /١٨٥

(٣٤٠) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ صـ١٩٩

وعبدالله هو الملقب بحبر الأمة ، وستحدث عنه تفصيلا إن شاء الله تعالى .

وعُبَيْد الله ـ بالتصغير ـ وكان جوادا سخيا ذا مال ، ومات بالمدينة وله عقب .

وعبدالرحمن .مات بالشام وليس له عقب .

وقثم . وكان يشبه النبى ـ ﷺ ـ خرج مجاهدا إلى خراسان فمات بسمرقند ، وليس له عقب .

ومَعْبد قتل بأفريقية شهيداً وله عقب .

وأم حبيبة .... وأمهم جميعا أم الفضل ـ وهى لبابة الكبرى بنت الحارث وأخت ميمونة بنت الحارث التى تزوجها النبى ـ ﷺ ـ فى عمرة القضاء ـ وفى أولاد العباس الستة الذكور يقول الشاعر عبدالله بن يزيد الهلالى .

ما ولدت نجيبة من فحل بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل[٣٤١]

وللعباس أولاد آخرون من غير لبابة منهم :

كثير بن العباس ، وكان فقيها مُحدثاً وليس له عقب ....

وتمام ، وكان من أشد أهل زمانه وليس له عقب ....

وصفية ، وأميمة ... وأم هؤلاء ـ أم ولد

---

(٣٤١) الطبقات ٤ /٢

وله أيضا : الحارث ، وأمه حُجَيْلة بنت جنوب بن الربيع ، وله عقب .

وفاة العباس :

توفى العباس ـ رضى الله عنه ـ بالمدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب ، وقيل : بل من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ، قبل مقتل عثمان بسنتين ، وصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة ، وكان طويلا جميلا أبيض .

ولقد شهد الناس جميعا من المدينة وضواحيها جنازته حتى ضاق بهم المكان ، وحتى تدخلت الشرطة لفض الناس عن بنى هاشم الذين أراد الناس أن يغلبوهم عليه ـ رضى الله عنه .[٣٤٢]



(٣٤٢) الطبقات ٤ /٢٢ ـ أسد الغابة ٣ /١٦٦

عمات الرسول صلى الله عليه وسلم

- صفية بنت عبد المطلب .
- موقفها في غزوة الخندق .
- إنشادها الشعر .
- أولادها .
- أروى بنت عبد المطلب .
- إسلامها .
- محاورة بينها وبين أبي لهب .
- وفاتها .
- عاتكة بنت عبد المطلب .
- رؤيا عاتكة .
- أولادها .
- عمات للرسول لم يدركن الإسلام .
- أم حكيم بنت عبد المطلب .
- برة بنت عبد المطلب .
- أميمة بنت عبد المطلب .
- أخوال الرسول وخالاته .
- سعد بن أبي وقاص .
- عبد الرحمن بن عوف .
- هالة بنت وهيب .
- أولاد عمومة الرسول - صلى الله عليه وسلم -
- علي بن أبي طالب .

صفية بنت عبد المطلب
رضى الله عنها

هى صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف عمة رسول الله ـ ﷺ ـ

وأمها هى هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ابنة عم آمنة بنت وهب أم رسول الله ـ ﷺ ـ

فكأن صفية عمة الرسول ـ ﷺ ـ وخالته . .

ولزواج عبد المطلب بأم صفية قصة ذكرها ابن كثير نقلا عن كتاب دلائل النبوة لأبى نعيم الأصفهانى . وهذه القصة هى :

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قدم عبد المطلب اليمن فى رحلة الشتاء ، فنزل على حبر من اليهود .

قال عبد المطلب : فقال لى رجل من أهل الدبور ـ يعنى أهل الكتاب : أتاذن لى أن أنظر إلى بعضك ؟

قال : نعم ، إذا لم يكن عورة .

قال : ففتح إحدى يدىَّ فنظر فيها ، ثم نظر فى الأخرى ، فقال : أشهد أن فى إحدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة ، وإنا نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك ؟

قلت : لا أدرى .

قال : هل لك من شاغة منهم ؟

قلت : وما الشَّاغة ؟

قال : زوجة .

قلت : أما اليوم فلا .

قال : فإذا رجعت فتزوج فيهم .

فرجع عبد المطلب ، فتزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية . . . . ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله ﷺ .

فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة : فلج - أى فاز - وغلب عبد الله على أبيه عبد المطلب .

ونشأت صفية فى كنف أبيها عبد المطلب سيد بنى هاشم .

وتزوجت من الحارث بن حرب بن أمية أخى أبى سفيان بن حرب فمات عنها ، وولدت منه رجلا .

ثم خلف عليها العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، فولت له الزبير والسائب وعبد الكعبة .

وأسلمت صفية حين أبلغها النبى - ﷺ - الدعوة ، وكان ربه قد أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ، وكانت صفية فيمن وجه النبى - ﷺ - إليهم حديثه .

فقد روى أحمد فى مسنده قال : حدثنا وكيع بن هشام عن أبيه أن عائشة - رضى الله عنها قالت : لما نزل قول الله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين» قام رسول الله - ﷺ - فقال : يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب ، يابنى عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئا ، سلونى من مالى ماشئتم[٣٤٣] .

فتخصيصها - رضى الله عنها - بالذكر بين من ذكر يشير إلى

(٣٤٣) البداية والنهاية ٣ /٣٨

اهتمامه - ﷺ - بها ، وحرصه على أن تلبى دعوته سريعا . .

وهاجرت صفية إلى المدينة فيمن هاجر . وكان ابنها الزبير أحد السابقين إلى الإسلام ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ويلقب بحوارى رسول الله - ﷺ -

ويقال : إن الزبير أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة . . . وقال بعضهم : بل كان أصغر من ذلك ، حتى قالوا : أسلم وهوابن ثمان سنوات .

أسلم بعد أبى بكر بيسير ، كان رابعا أو خامسا فى الإسلام .

ولايُسلم صبى فى هذه السن إلا إذا كانت راضية عن إسلامه . ورضاها يشير إلى دخول الإسلام فى قلبها .

وليست هناك إشارة إلى إسلام زوجها العوام ، وإن كان هناك إشارة إلى إسلام ابنها السائب بن العوام أيضا . .

ولكن إسلام السائب كان متأخرا عن إسلام الزبير . . . ذكر الرواة أنه شهد مع النبى - ﷺ - أحداً والخندق والمشاهد كلها ، وقتل يوم اليمامة شهيدا . .

وكان الزبير باراً بأمه أكثر من السائب ، ويبدو أن ذلك كان قبل إسلامه . وكانت أمه تشير إلى أن السائب يؤذيها . فعلى أى شىء يؤذيها إلا لإسلامها وتأخره عن الإسلام ؟ !

وقد قالت صفية فى شأن إيذاء السائب لها :

يسبق السائب خلف أَجْدَرْ لكن أبو الطاهر عمَّار أَبِرْ

مبذر لماله برٌ غفرٍ(٣٤٤)

---

(٣٤٤) أسد الغابة جـ٢ صـ٣١٨ وأبوالطاهر كنية الزبير ، وأبر : موافق غير عاص

موقفها من استشهاد حمزة

حين استشهد حمزة ـ رضي الله عنه ـ في معركة أحد . أقبلت صفية تسأل عنه ، وقد أخبرت بقتله .

فقال رسول ـ ﷺ ـ لابنها الزبير : القها فأرجعها حتى لاترى بأخيها ، وكان الكفار قد مثلوا بجثته أشنع تمثيل .

لقد أشفق عليها النبي ـ ﷺ ـ أن تراه في هذه الحالة فيشتد جزعها .

وكان علي والزبير قد رأياها قادمة فأشفقا أيضا أن يخبراها ، وحين سألتهما لم يقدرا أن يصارحاها بالحقيقة .

وأخيرا قال لها الزبير : يا أماه إن رسول الله ـ يأمرك أن ترجعي .
قالت : ولم ؟ فقد بلغني أنه مثل بأخي ، وذاك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، ولأصبرن ولأحتسبن إن شاء الله

فعاد الزبير إلى النبي ـ ﷺ ـ يخبره بما قالت ، فقال : خل سبيلها .
فأتته فنظرت إليه واسترجعت واستغفرت له . . .
إن هذا الموقف يدل على إيمانها العميق ويقينها الصادق وصبرها الشديد .

موقفها في غزوة الخندق

ولئن كان صبرها على أخيها حمزة صبرا جميلا ، فإن شجاعتها تعد مضرب الأمثال .

ولها قصة في ذلك تشير الى أن الجهاد وقتل الأعداء ليس وقفاً على الرجال دون النساء . .

ولنسمع إليها تقص علينا قصة وجودها فى حصن فارع ـ وهو حصن حسان بن ثابت ـ

قالت : كان حسان بن ثابت معنا فى الحصن ، وذلك فى غزوة الأحزاب فمر بنا رجل يهودى يطوف بالحصن ، وقد حاربت قريظة وقطعت مابينها وبين رسول الله ـ ﷺ ـ وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ـ ﷺ ـ ومن معه فى نحور عدوهم ، ولايستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إن أتانا آت .

قالت : فقلت : ياحسان ، إن هذا اليهودى يطوف بالحصن كما ترى ولاآمنه أن يدل على مكاننا من وراءه من يهود ، فانزل إليه فاقتله .

فقال حسان : يغفر الله لك ياابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا .

قالت صفية : فلما قال ذلك ـ ولم أر عنده شيئا ـ احتجزت[٣٤٥] ، وأخذت عموداً ونزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، ثم رجعت إلى الحصن ، فقلت : ياحسان ، انزل فاسلبه فإنه لايمنعنى من سلبه إلا أنه رجل ، فقال : مالى بسلبه حاجة ياابنة عبد المطلب[٣٤٦]

لقد كانت صفية أول امرأة مسلمة تقتل رجلا من المشركين . .

ويروى ابن سعد أن هذه القصة لم تكن فى غزوة الأحزاب ، بل كانت فى غزوة أحد . قال : كان النبى ـ ﷺ ـ إذا خرج لقتال عدوه من المدينة رفع

---

(٣٤٥) احتجزت : شددت وسطى

(٣٤٦) أسد الغابة ٧ / ١٧٣

أزواجه ونساءه فى أطم ـ حصن ـ حسان بن ثابت لأنه من أحصن آطام المدينة ـ وتخلف حسان يوم أحد ، فجاء يهودى فلصق بالأطُم يستمع ويستخبر فقالت صفية لحسان : انزل إلى هذا اليهودى فاقتله .. إلى آخر القصة .

ولكن القصة فى سياقها الأول أشبه بما حدث .

لقد كانت صفية شجاعة لاتهاب شيئا ، ولقد رئيت يوم أحد ، وقد انهزم الناس وبيدها رمح تضرب فى وجوه الناس ، وتقول : انهزمتم عن رسول الله ـ ﷺ ـ ؟

شعرها

وكانت صفية شاعرة بليغة ، ولها شعر يزوى ، ومن ذلك ماقالته فى رثاء أبيها عبد المطلب .. وكان عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته فقال لهن : ابكين علىَّ حتى أسمع ماتقلن قبل أن أموت ، فقالت صفية :

أرقت لصوت نائحة بليل	على رجل بقارعة الصعيد
ففاضت عند ذلكم دموعى	على خدى كمنحدر الفريد[347]
على رجل كريم غير وَغْل	له الفضل المبين على العبيد[348]
على الفياض شيبة ذى المعالى	أبيك الخير وارث كل جود[349]

---

(٣٤٧) أى كالدر الفريد المنحدر

(٣٤٨) غير وغل : الوغل من الرجال الذليل والضعيف والنذل ، والدعى فى نسبه

(٣٤٩) شيبة هو اسم عبدالمطلب

صدوق فى المواطن غير نِكْسٍ ولاشخت المقام ولاسنيد[٣٥٠]

طــويل البـاع أروع شـيظَمِىٌّ مطاع فى عشيرته حميد[٣٥١]

رفيع البيت أبلج ذى فضول وغيث الناس فى الزمن الحرود[٣٥٢]

كريم الجـد ليس بذى وُصُوم يـروق على المُسَوَّد والمسـود

عظيـم الحلم من نفـر كرام خضـارمة ملاوثـه أســود[٣٥٣]

فلو خلد امـرؤ لقديم مجد ولكــن لاسـبيل إلـى الخـلـود

لكان مخـلدا أخـرى الليالى لفضل المجد والحسب التليد[٣٥٤]

ورضى عبد المطلب عن هذا الرثاء ، وكانت أخواتها قد قلن أيضا شعرا فى رثائه . لقد أراد أن يستمع إلى ذلك قبل أن يموت . ثم قال لهن بعد أن سمع ما أرضاه من رثاء فيه : هكذا فابكيننى[٣٥٥] .

ولئن كانت صفية قالت فى جاهليتها ترثى أباها ، فلقد كان لها فى الإسلام شعر جيد ... ومنه فى الحماسة .

ألا مـن مبـلـغ عنـى قـريشـا ففيـم الأمـر فينـا والاتـار

لنا السلف المقدم قد علمتم ولم توقد لنا بالغدر نار

---

(٣٥٠) النكس : المقصر ، والشَّخْت عكس الضخم ، والسنيد : الضعيف الذى لايستقل بنفسه

(٣٥١) شيظمى : طويل جسيم

(٣٥٢) الحرود : الشاق الشديد

(٣٥٣) خضارمة : جمع خضرم وهو السيد الحمول الجواد ـ والملاوثة : جمع ملوات من اللوث وهى القوة

(٣٥٤) سيرة ابن هشام جـ١ صـ١٩٥

(٣٥٥) المرجع السابق

وكل مناقب الأخيار فينا ... وبعض الأمر منقصة وعار

تعني : أن لها ولقومها كل المآثر العظيمة ، وليس بعضها ، لأن أخذ البعض وترك البعض نقص وعار .

ولم يكن لشاعرة عظيمة مثل هذه أن تسكت عن رثاء ابن أخيها العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين لحق بالرفيق الأعلى ، ولكن عاطفتها القوية التي غذاها الإيمان وقواها اليقين فاضت بشعر حزين تذكر فيه مناقب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَعِظَم الخطب الذي أصاب الإسلام والمسلمين بوفاته ، فقالت :

ألا يارسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا برًّا ولم تك جافياً

وكنت رحيماً هادياً ومعلماً ... ليبك عليك اليوم من كان باكياً

فلو أن رب الناس أبقى نبينا ... سعدنا ولكن أمره كان ماضياً

عليك من الله السلام تحية ... وأدخلت جنات من العدن راضياً[356]

وعما قالته أيضاً :

لهف نفسي وبت كالمسلوب ... آرق الليل فعلة المحروب

من هموم وحسرة ردفتني ... ليت أني سقيتها بشعوب[357]

حين قالوا : إن الرسول قد أمسى ... وافقته منية المكتوب

إذ رأينا أن النبي صريع ... فأشاب القذال[358] أي مشيب

---

(356) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور صـ262

(357) شعوب : الموت

(358) القذال : جماع مؤخر الرأس

إذ رأينا بيوته موحشات ليس بعد عيش حبيبى
أورث القلب ذاك حزناً طويلاً خالط القلب فهو كالمرهوب

إنه شعر تبدو فيه ملامح المرأة واضحة ، بما جبلت عليه من عاطفة مشبوبة يثيرها الحزن ويلهبها الأسى وتغذيها الفواجع فإذا بها تتكشف عن معانٍ حزينة وألفاظ تعبر عن لوعة الألم وجلال المصاب . . . .

استمع إليها تقول فى هذه الأبيات : ـ

أفاطم بكِّى ولا تسأمى بصبحك ، ماطلع الكوكب
هو المرء يُبكى ، وحق البكاء هو الماجد السيد الطيب
فأوحشت الأرض من فقده وأى البرية لاينكب ؟
فمالى بعدك حتى الممات إلا الجوى الداخل المنصب
فبكى الرسول وحُقَّت له شهود المدينة والغُيَّب
لتبكيك شمطاء مضرورة إذا حجب الناس لاتحجب
ليبكيك شيخ أبو ولدة يطوف بحقوته أشهب
ويبكيك ركب إذا أرملوا فلم يُلْف ماطلبَ الطُّلُب
وتبكى الأباطح من فقده وتبكيه مكة والأخشب

وظلت صفية تبكى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تصف لها الحياة بعده ، فلقد شعرت بحقه عليها حين انتزعها من براثن الكفر إلى نور الإيمان ، وحين كان لها ولقومها وللمسلمين جميعاً وللكون كله نوراً هادياً وسراجاً منيراً ورحمة شاملة ونعمة سابغة يسع فضله الأقربين وغيرهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما لها لاتبكى ـ كما تقول ـ :

على صفوة الله رب العباد ورب السماء وبارى النسم
على المرتضى للهدى والتقى وللرشد والنور بعد الظلم
على الطاهر المرسل المجتبى رسول تخيّره ذو الكرم؟[359]

وتوفيت صفية بنت عبدالمطلب فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ودفنت بالبقيع[360] ـ رضى الله عنها ـ

أولادها

وقد أشرنا إلى أنها ولدت للعوام ثلاثة أبناء : الزبير والسائب وعبدالكعبة .

وقد عرفنا أن الزبير كان من السابقين إلى الإسلام ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو إلى جانب كونه ابن عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو ابن أخى خديجة بنت خويلد زوجة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لكل نبى حوارى وحواريى الزبير بن العوام .

وشهد الزبير بدراً وهو معتم بعمامة صفراء ، فيقال : إن الملائكة نزلت يومئذ على تلك الصفة ، ولم يفته مشهد مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . وكان للزبير الكثير من الدخول والموارد المالية فما يُدخل إلى بيته

---

(٣٥٩) راجع طبقات ابن سعد والمراثى التى رثت بها صفية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جـ٢ صـ٩٤ ومابعدها

(٣٦٠) الطبقات جـ٨ صـ٢٨

منها درهماً واحداً ، كان يتصدق بذلك كله وقد امتدحه حسان بن ثابت فقال فيه :

أقام على عهد النبى وهديه ... حواريُه والقول بالفعل يُعدل

أقام على منهاجه وطريقه ... يوالى ولى الحق والحق أعدل

هو الفارس المشهور والبطل الذى ... يصول إذا ماكان يوم مُحجَّل

وإن امرأ كانت صفية أمه ... ومن أسدٍ فى بيته لَمُرَفَّل[٣٦١]

له من رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل

وقتل الزبير يوم الجمل سنة ست وثلاثين ، قتله رجل يقال له ابن جرموز غَدْراً ، بعد أن انصرف الزبير عن المعركة ، وعزم على الانسحاب منها ، بعد أن ذكره على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ له : « لتقاتلنه وأنت له ظالم » فتذكر الزبير ذلك وانصرف فنزل بوادى السباع وقام يصلى فقتله ابن جرموز وجاء بسيفه إلى علىّ . فقال له على : إن سيف الزبير طالما فرج الكرب عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : بشر قاتل ابن صفية بالنار[٣٦٢]

وتزوج الزبير من أسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ وهى التى كانت تسمى ذات النطاقين ، وأعقب منها عبدالله وعروة والمنذر وعاصماً والمهاجر وخديجة وأم الحسن وعائشة .

---

(٣٦١) مرفل : معظم ، ويقصد بأسد ـ حمزة

(٣٦٢) أسد الغابة جـ٢ صـ٢٥١

وكان عبدالله بن الزبير صواماً قواماً طويل الصلاة عظيم الشجاعة ، أتى به أبوه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ليبايعه وعمره سبع سنوات أو ثمان ، فلما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - مقبلاً تبسم ، ثم بايعه .

وبويع لعبدالله بن الزبير بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية ، وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ، حتى قتله الحجاج بن يوسف الثقفى الذى سيّره عبدالملك بن مروان أميراً على الحجاز .. وكان الحجاج قد حاصره فى الكعبة ورماها بالمنجنيق بعد أن كان عبدالله بن الزبير قد جددها ورد فيها الحِجْر على النحو الذى أشار به النبى - صلى الله عليه وسلم -[٣٦٣]

ومن أولاد صفية أيضاً السائب بن العوام ، وقد ذكرنا أنه شهد مع النبى - صلى الله عليه وسلم - أُحُداً والمشاهد بعدها .

أما عبد الكعبة فلا ذكر له عند أصحاب الطبقات ..

---

(٣٦٣) أسد الغابة جـ٣ صـ٢٤٤

أروى بنت عبد المطلب

هي أروى بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، عمة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وأمها فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.

تزوجها في الجاهلية عمير بن وهب بن عبد مناف بن قصي وهو من أبناء عمومتها، فولدت له ولداً اسمه طُليب بن عمير.

ثم خلف عليها أرطاة بن شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ابن قصي، فولدت له فاطمة.

إسلامها

اختلف الرواة في إسلامها، فقال بعضهم: إنها لم تسلم.

ولكن الدليل الأرجح يرى من يقولون إنها أسلمت ودليل من يقول بذلك أن ولدها طليب بن عمير أسلم مبكراً ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وبعد أن أسلم ذهب إلى أمه يقول لها: يا أماه لقد أسلمت واتبعت محمداً.

فردت عليه قائلة: إن أحق من وازرت ابن خالك، والله لو نقدر على ما يقدر عليه الرجال لفعلناه.

فقال لها طُليب: فما يمنعك يا أمي أن تسلمي وتتبعيه فقد أسلم أخوك حمزة؟

فقالت: إني أنظر ما يصنع أخواتي ثم أكون إحداهن.

فقال لها طلب : إنّ أسألك بالله أن تذهبى إليه ، وتُسلمى ، وتصدقى به وتشهدى أن لاإله إلا الله .

فقالت : إن أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ثم كانت بعد ذلك تعضد النبى - صلى الله عليه وسلم - وتعينه بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره . . (٣٦٤)

وهذا هو المنطق المعقول الذى تصدقه الأحداث ، فلم يكن حمزة ليعلن إسلامه وتنقبض عنه أخواته ، وهن أرق عاطفة ، وأكثر ميلا وعطفاً على ابن أخيهن الذى لم يأنسوا منه إلا كل صدق وبر ورحمة ، وكُنَّ جميعاً يحطنه برعايتهن وبرِّهن ، ويسبغن عليه من وافر عطفهن مايعوضه عن فقد أبويه صغيراً .

ومما يدل على حَدَب عماته عليه وحرصهن على أن يَسْلَمَ من كل أذى ماتشير إليه الأخبار من أنهن كن يطلبن منه بإلحاح أن يذهب معهن إلى الاحتفالات التى كان العرب يقيمونها للأوثان ، وكان هو يأبى ذلك .

فيخشين عليه - حسب عقيدتهن - السوء الذى تصيب الآلهة به من يكفر بها .

حدثت أم أيمن قالت : كانت بوانة صنماً تحضره قريش - تعظمه وتَنْسك له النسائك ، ويحلقون رءوسهم عنده ، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل فى السنة ، وكان أبوطالب يحضره مع قومه - وكان يكلم رسول الله - صلى الله

---

(٣٦٤) أسد الغابة ٧ /٨ - طبقات ابن سعد ٨ /٢٨

عليه وسلم ـ أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فيأبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك .

قالت أم أيمن : حتى رأيت أباطالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه أشد الغضب ، وجعلن يقلن : إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، وجعلن يقلن له : ماتريد يامحمد أن تحضر لقومك عيداً ، ولا تكثر لهن جميعاً .

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنا ماشاء الله ، ثم رجع الينا مرعوباً فزعاً . فقالت له عماته : مادهاك ؟ قال : إنى أخشى أن يكون بى لمم .

فقلن : ماكان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مافيك ، فما الذى رأيت ؟

قال : إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يامحمد لاتمسه .

قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ . .[٣٦٥]

فهذا الخبر يشير إلى أن عماته كن يرعينه ويلمسن فيه جوانب الخير ، وكان لديهن إحساس بأن مايقوله ليس بالكذب ـ بدليل قولهن : ماكان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مافيك .

ولايمكن لهذه الصورة المشرقة له فى نفوسهن أن تتغير بعد أن أكرمه الله بالنبوة وازداد إشراقاً ونوراً .

---

(٣٦٥) الطبقات ١ /١٠٣

ولئن تجهم له كثير من الناس وفيهم من ذوى قرباه ـ إلا أن هؤلاء العمات ـ فيما نحسب ـ لم يتغيرن عليه ، ومانظن إلا أنهن كن من المصدقات به المؤمنات بدعوته .

ولذلك فنحن نؤيد تماماً قول من يقول ـ إن عمته أروى أسلمت وحسن إسلامها وهاجرت إلى المدينة .

ولئن كانت الأخبار قد سكتت عن الحديث عنها فى المدينة ولم تذكر لها شيئاً ، فإن الرواة لم يذكروا كل شىء ، وتسجيل الأحداث لم يكن أمراً مشهوداً ، وكانت الذاكرة وحدها هى التى تقص الأخبار . .

محاورة بين أروى وأبى لهب

وحسبنا من دليل على إسلام أروى مايقصه كعب بن مالك عن أم درة عن برة بنت أبى تجراة . قالت :

عرض أبوجهل وعدد من كفار قريش للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فآذوه ، فعمد طُلَيْب بن عمير ـ ابن أروى ـ إلى أبى جهل فضربه ضربة شجه ، فأخذوه وأوثقوه ، فقام دونه أبولهب ـ خاله ـ

فقيل لأروى : ألا ترين ابنك طليباً قد جعل نفسه غرضاً دون محمد ؟

فقالت : خير أيامه يوم يذب عن ابن خاله وقد جاء بالحق من عند الله .

فقالوا لها : وقد اتبعت محمداً ؟

قالت : نعم

فخرج بعضهم إلى أبى لهب فأخبره ، فأقبل حتى دخل عليها ، فقال : عجباً لك ولاتباعك محمداً وتركك دين عبدالمطلب :

فقالت : قد كان ذلك - فقم دون ابن أخيك واعضده وآزره . . . . فإن يظهر أمره فأنت بالخيار أن تدخل معه ، أو تكون على دينك ، وإن يُصبْ كنت قد أعذرت فى ابن أخيك .

فقال أبولهب : وهل لنا طاقة بالعرب قاطبة ؟ - جاء بدين مُحْدث - ثم انصرف أبولهب .

قال ابن سعد . . . وسمعت غير محمد بن عمر يذكر أن أروى قالت يومئذ : إن طُلَيْباً نصر ابن خاله وآزره[٣٦٦]

فليس بعد هذا دليل على صحة إسلامها .

شعرها

كانت أروى شاعرة بليغة ، وقد رثت أباها عبدالمطلب حين طلب من بناته أن يندبنه قبل أن يموت . وكان مما قالته فى ذلك : -

بكت عينى ، وحق لها البكاء	على سمح سجيته الحياء
على سهل الخليقة أبطحى	كريم الخيم ، نيته العلاء
على الفياض شيبة ذى المعالى	أبيك الخير ليس له كفاء
طويل الباع أملس شيظمى	أغر كأن غرته ضياء
وكان هو الفتى كرما وجوداً	وبأساً حين تنسكب الدماء[٣٦٧]

وإذا كان هذا رثاءها لأبيها ، فإن رثاءها للنبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(٣٦٦) انظر الطبقات ٨ / ٢٩

(٣٦٧) سيرة ابن هشام جـ١ صـ١٩٩

كان آية فى صدق العاطفة ، وعمق الحزن ، وشدة الوجد . قالت فى ذلك : ـ

ألا ياعين ويحك أسعدينى بدمعك مابقيت وطاوعينى
ألا ياعين ويحك واستهلى على نور البلاد وأسعدينى
فإن عذلتك عاذلة فقولى علام وفيم ويحك تعذلينى ؟
على نور البلاد معاً جميعاً رسول الله أحمد فاتركينى
فإلاَّ تقصرى بالعذل عنى فلومى مابدالك أو دعينى
لأمر هدَّنى وأذل ركنى وشيَّب بعد جدتها قرونى

ومما قالته أيضاً :

ألا يارسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا براً ولم تك جافياً
وكنت بنا رؤفاً رحيماً نبينا ليبك عليك اليوم من كان باكياً
لعمرك ماأبكى النبى لموته ولكن لهرج كان بعدك آتياً
كأن على قلبى لذكر محمد وما خفت من بعد النبى المكاويا
أفاطم صلى الله رب محمد على جدث أمسى بيثرب ثاويا
أبا حسن فارقته وتركته فَبْكِ بحزن آخر الدهر شاجياً
فدأ لرسول الله أمى وخالتى وعمى ونفسى نصرة ثُمَّ خالياً
صبرت وبلغت الرسالة صادقاً وأقمت صلب الدين أبلج صافياً
فلو أن رب الناس أبقاك بيننا سعدنا ولكن أمره كان ماضياً
عليك من الله السلام تحية وأدخلت جنات من العدن راضياً[368]

---

(٣٦٨) الطبقات جـ١ صـ١٣

إنه شعر ترى الإسلام واضحاً فيه ، ففيه المعاني الإسلامية والألفاظ السهلة ، ولكنه إلى جانب ذلك فيه حرارة العاطفة وصدق الأسى وجلال الإيمان بقضاء الله وقدره .

وفاتها

لم يذكر المؤرخون سنة لوفاة أروى . ولكن رثاءها للنبي - صلى الله عليه وسلم - يفيد أنها ماتت بعده .

وتذكر صاحبة كتاب الدر المنثور أنها ماتت في خلافة عمر - رضي الله عنه - ودفنت بالبقيع بما يليق بها من الإكرام(٣٦٩)



(٣٦٩) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور صـ٢٥

عاتكة بنت عبدالمطلب

هى عاتكة بنت عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصى . . وأمها هى فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

تزوجت عاتكة فى الجاهلية من أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، فولدت له ـ عبدالله بن أبى أمية ، وزُهيْراً ، وقريبة . .

وكان أبوأمية واسمه حُذيفة ـ يعرف بزاد الراكب ، لأنه كان يكفى من معه من المسافرين زادهم فى السفر . .

وقال الكلبى : إن أزواد الركب من قريش ثلاثة : زمعة بن الأسود بن المطلب بن عبدمناف . ومسافر بن أبى عمرو بن أمية ، وأبوأمية بن المغيرة ، وهو أشهرهم بذلك .

وقال بعضهم : لاتعرف قريش زاد الراكب إلا أبا أمية وحده .

وقد أسلم من أولاد عاتكة من أبى أمية ـ ولدها عبدالله بن أبى أمية ، وابنتها قريبة .

وسنتحدث عنهما فيما بعد .

قال ابن سعد : وقد أسلمت عاتكة بمكة وهاجرت إلى المدينة . وهذا هو الأولى بالصواب فى الأقوال التى وردت حول إسلامها .

رؤيا عاتكة المشهورة

ولعل مما يشير إلى إسلامها تلك الرؤيا التى رأتها عاتكة فى مكة قبل موقعة بدر بثلاثة أيام ، وكان لهذه الرؤيا وقع شديد فى نفوس القرشيين .

وقصة هذه الرؤيا : أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قد عزم على التعرض لعير قريش الراجعة من الشام ، وكان يقودها أبوسفيان .

واحس أبوسفيان بالخطر فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ليستصرخ قريشاً لينقذوا أموالهم . .

وقد رأت عاتكة فى نومها رؤيا أفزعتها وعظمت فى صدرها ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبدالمطلب فقالت له : ياأخى ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم عنى ماأحدثك به .

فقال لها : وما رأيت ؟

قالت : رأيت راكباً أقبل على بعير له ، حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا ياآل غدر لمصارعكم فى ثلاث . فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مُثُلَ به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا ياآل غُدر لمصارعكم فى ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفتتت فما بقى بيت من بيوت مكة ، ولا دار إلا دخلتها منها فلقة .

قال العباس ـ رضى الله عنه ـ : والله إن هذه لرؤيا فاكتميها ولاتذكريها لأحد .

ذيوع خبر الرؤيا

. ثم خرج العباس ، فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً ،

فذكرها له ، واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث بمكة ، حتى تحدثت به قريش فى أنديتها .

قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، وأبوجهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآنى أبوجهل قال : ياأبا الفضل ، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا .

فلما فرغتُ أقبلتُ حتى جلست معهم .

فقال لى أبوجهل : يابنى عبدالمطلب ، متى حدثت فيكم هذه النبية ؟

قال : قلت : وماذاك ؟

قال : تلك الرؤيا التى رأت عاتكة .

ثم قال : يابنى عبدالمطلب ، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ قد زعمت عاتكة فى رؤياها أن الصارخ قال : انفروا فى ثلاث ، فسنتربص هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ماتقول فسيكون وإن تمض الثلاث ولم يكن فى ذلك شىء نكتب عليكم كتاباً أنكم يابنى عبدالمطلب أكذب أهل بيت فى العرب .

قال العباس : فوالله ماكان منى إليه كبير إلا أنى جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً .

قال : ثم تفرقنا .

قال : فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى ، فقالت : أأقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع فلم يكن عندك غَيْرة ؟

---

(٣٧٠) البداية والنهاية جـ٣ صـ٣٢٩

فقلت : قد والله صدقتن ولأتعرضن له ، فإن عاد فسأرد عليه ردًا شديدا . فغدوت فى اليوم الثالث أتعرض له ليقول شيئا حتى أشاتمه ، فو الله إنى لمقبل نحوه إذ ولّى نحو باب المسجد يشتد .

فقلت فى نفسى : اللهم العنه ، أهذا كله خوفاً أن أُشاتمه ؟ . . ولكنه كان قد سمع ما لم أسمع . .

سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو واقف على بعيره بالأبطح ، حتى حول رحله ، وشق قميصه ، وجدع بعيره وأخذ يقول : يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ، أموالكم ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه ، الغوث ، الغوث .

فشغله ذلك عنى وشغلنى عنه ، فلم يكن إلا التجهز ، حتى خرجنا إلى بدر ، فأصاب قريشا ما أصابها ببدر ، وصدّق الله - سبحانه وتعالى - رؤيا عاتكة .

إن هذه الرؤيا التى رأتها عاتكة ، وصدقت وقائعها - وأصاب قريشا ماأصابها فى بدر ، حتى لم يخل بيت من بيوتها من قتل أو جرح أو أسر - كانت سببا فى إسلامها إن لم تكن قد أسلمت بالفعل قبل ذلك .

لقد كانت هذه الرؤيا برهانا صادقا على قوة الإسلام وقوة نبيه - ﷺ - ، وإنذاراً للكفر وأهله ، وتحذيراً لأولئك المعاندين أن يكفوا عن عنادهم .

ولقد سجلت عاتكة رؤياها هذه شعرا بما يشير إلى أنها كانت مسلمة صادقة الإسلام فقالت بعد موقعة بدر -

ألمـا تكــن رؤيــاى حقـا ويأتكــم   بتأويلهــا فـلٌ من القــوم هــارب ؟

رأى فأتاكم باليقين الذى رأى ... بعينيه ما تفرى السيوف القواضب

فقلت ولم أكذب عليكم ، وإنما ... يكذبنى بالصدق من هو كاذب

وما جاء إلا رهبة الموت هارباً ... حكيم ، وقد أعيت عليه المذاهب

أقامت سيوف الهند دون رءوسكم ... وخطية فيها الشبا والتغالب

كأن حريق النار لمع ظباتها ... اذا ماتعاطتها الليوث المشاغب

ألا بأبى يوم اللقاء محمداً ... إذا عض من عون الحروب الغوارب

مرى بالسيوف المرهفات نفوسكم ... كفاحا لما تمرى السحاب الجنائب

فكم بردت أسيافه من مليكة ... وزعزع ورد بعد ذلك صالب

فما بال قتلى فى القليب ومثلهم ... لدى ابن أخى أسرى له ما يضارب

وقالت أيضا :

هلا صبرتم للنبى محمد ... ببدر ومن يغشى الوغى حق صابر

ولم ترجعوا عن مرهفات كأنها ... حريق بأيدى المؤمنين بواتر

ولم تصبروا للبيض حين أخذتمو ... قليلا بأيدى المؤمنين المشاعر

ووليتموا نفراً وما البطل الذى ... يقاتل من وقع السلاح بنافر

أتاكم بما جاء النبيون قبله ... وما ابن أخى البر الصدوق بشاعر

سيكفى الذى ضيعتموا من نبيكم ... وينصره الحيان : عمرو وعامر[٣٧١]

إنه دفاع صادق عن النبى - ﷺ - ورد بهتان الكافرين الذين يقولون عنه : إنه شاعر أو كاهن . .

---

(٣٧١) المرجع السابق صـ٣٤٠

إنه جاء بما جاء به النبيون من قبله .

إن هذا الشعر يدل على أن عاتكة كانت مسلمة ، إلا أن المصادر لم تذكر لنا شيئا عما كان من شأنها في المدينة بعد هجرتها ـ سوى ما رواه ابن سعد في طبقاته عن رثائها للنبي ـ ﷺ ـ فقد قالت يوم وفاته :

يا عين فاستعبري بالدمع واحتفلي ... حتى الممات بسجل غير منزور[٣٧٢]
يا عين فانهملي بالدمع واجتهدي ... للمصطفى دون خلق الله بالنور
بمستهل من الشؤبوب ذي سبل ... فقد رزئت نبي العدل والخير[٣٧٣]
وكنت من حذر للموت مشفقة ... وللذي خط من تلك المقادير
من فقد أزهر ضافي الخلق ذي فخر ... صاف من العيب والعاهات والزور
فاذهب حميدا جزاك الله مغفرة ... يوم القيامة عند النفخ في الصور[٣٧٤]

وقالت أيضا : ـ

يا عين جودي مابقيت بعبرة ... سحا على خير البرية أحمد
يا عين فاحتفلي وسحي واسجمي ... وابكي على نور البلاد محمد
أنى لك الويلات مثل محمد ... في كل نائبة تنوب ومشهد ؟
فابكي المبارك والموفق ذا التقى ... حامي الحقيقة ذا الرشاد المرشد
من ذا يفك من المغلل غلَّهُ ... بعد المغيب والضريح الملحد ؟
أم من لكل مدفع ذي حاجة ... ومسلسل يشكو الحديد مقيد ؟

---

(٣٧٢) استعبري : جودي بالعبرة ، غير منزور : غير قليل
(٣٧٣) الشؤبوبة : الدفعة من المطر ـ ذي سبل : يسيل كثيراً
(٣٧٤) الطبقات جـ١ قسم٢ صـ٩٣

أم من لوحى الله يترك بيتنا | فى كل ممسى ليلة أو فى غد ؟
فعليك رحمة ربنا وسلامه | ياذا الفواضل والندى والسؤدد
هلاّ فداك الموت كلُّ مُلَعَّنٍ | شكس خلائقه لئيم المحتد ؟[375]

وقالت أيضا :

أعينى جودا بالدموع السواجم | على المصطفى بالنور آل هاشم
على المصطفى بالحق والنور والهدى | وبالرشد بعد المندبات العظائم
وسحّا عليه وابكيا وابكينها | على المرتضى للمحكمات العزائم
على المرتضى للبر والعدل والتقى | وللدين والإسلام بعد المظالم
على الطاهر الميمون ذى الحلم والندى | وذى الفضل والداعى لخير التراحم
أعينى ماذا بعدما قد فجعتما | به تبكيان الدهر من ولد آدم ؟
فجودا بسجل واندبا كل شارق | ربيع اليتامى فى السنين البوازم[376]

لقد اشتركت عاتكة مع أختيها صفية وأروى فى رثاء النبى - ﷺ - وهن له فى منزلة الأم التى فقدت ولدها . . . فهى تبكيه بحرقة ، وتندبه بألم وترثيه بحزن .

ونرى فى هذا الشعر لوعة الأسى ، وصدق العاطفة ، وقد سيطر عليه الجو الإسلامى الذى نقى الرثاء من دعوى الجاهلية وجزع الكفر . .

وشتان بين هذا الرثاء المؤمن وبين رثائها لأبيها عبد المطلب الذى مات قبل الإسلام . وهى تقول فيه :-

---

(٣٧٥) المرجع السابق ، والشكس : السيء

(٣٧٦) الطبقات ١ /٢ /٩٤ - البوازم من بزم الأمر إذا غلظ واشتد

أعينى جودا ولا تبخلا بدمعكما بعد نوم النيام
أعينى واستعبرا واسكبا وشوبا بكاءكما بالتدام[377]
أعينى واستخرطا واسجُما على رجل غير نِكْسٍ كَهام[378]
على الجحفل الغَمْر فى النائبات كريم المساعى وفىّ الذمام
على شيبة الحمد ، وارى الزناد وذى مصْدَقٍ بعدُ ثبت المقام
وسيف لدى الحرب صمصامة ومردى المخاصم عند الخصام[379]
وسهل الخليقة طلق اليدين وَفٍ ، عُدملىٍّ صميم لهام[380]
تبنّك فى باذخٍ بيته رفيع الذؤابة صعب المرام[381]

وأنت ترى فى هذا الرثاء ما تراه فى الشعر الجاهلى من ذكر للصفات والمآثر الجاهلية التى كانوا يفتخرون بها بعيداً عن المآثر الإسلامية التى اعتنى بها الإسلام ، وصبغ بها الحياة العربية فصحح مفاهيمها وعدّل سلوكها ، وقوّم أخلاقها . .

لقد كانت عاتكة شاعرة ، ولم يقتصر شعرها على الرثاء ، بل كان لها شعر فى الحماسة . .

وشعر الحماسة لا يقال إلا فى الحروب ، وتحميس المقاتلين ، ووصف

---

(٣٧٧) التدام من اللدم وهو لطم الوجه
(٣٧٨) الكهام : السحاب الذى لايمطر والسيف الذى لايقطع
(٣٧٩) الصمصامة من السيوف : القاطع
(٣٨٠) وف من وفى أى وفىّ ، والعدمل : الشديد ، واللهام من لهم الشيء إذا ابتلعه
(٣٨١) سيرة ابن هشام جـ١ صـ١٩٧ ، وتبنّك : تمكن ، وباذخ : مرتفع ، والذؤابة : القمة

ميادين الحروب والافتخار بالأبطال الذين أبلو بلاء حسنا فى الكر والإقدام . .

وقريش كانت لها حروب مع هوازن ، وكانت لها أيام فى حرب تسمى حرب الفجار دامت عدة سنين ، وقتل فيها من قتل . وكان آخرها حرب الفجار الآخر قبل مبعث النبى - ﷺ - بست وعشرين سنة ، وفيه يقول - ﷺ - : « كنت أنبل على أعمامى وأنا ابن أربع عشرة سنة » . يعنى أناولهم النبل .

وفى هذه الحرب التى شهدها أعمام النبى - ﷺ - قالت عاتكة بنت عبد المطلب :

سائل بنا فى قومنا وليكف من شر سماعه

قيساً وماجمعوا لنا فى مجمع باق شناعه

فيه السنّوَر والقنا والكبش ملتمع قناعه[382]

بعكاظ يُعْشى الناظرين إذا هم لمحوا شعاعُه[383] .

فيه قتلنا مالكا قسراً وأسلمه رعاعُه

ومُجَدَّلاً غادرنه بالقاع تنهشه ضِباعه[384]

ولم يذكر أحد من الرواة متى توفيت عاتكة - رضى الله عنها -

---

(٣٨٢) السّنور : الدروع ، والكبش قائد الكتيبة

(٣٨٣) يعشى : يعمى

(٣٨٤) ديوان الحماسة جـ٢ صـ٢٥٦

أولادها

سبق أن أشرنا إلى أن عاتكة أنجبت من زوجها أبي أمية أبناء ـ هم عبدالله بن أبي أمية ، وزهير بن أبي أمية ، وقريبة بنت أبي أمية ، أما عبدالله فقد كان فى أول أمره شديداً على الإسلام والمسلمين ، وكان شديد الخلاف لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مظاهرا لخاله أبي لهب على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكان أحد المشركين الذين يتحدون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطلب الآيات المحسوسة ، وهو القائل ـ كما ذكر لنا القرآن الكريم

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ ﴾ (٣٨٥)

ولم يزل شديد العداوة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى كان عام الفتح ، فهاجر إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو وأبوسفيان بن الحارث ابن عبدالمطلب ـ ابن عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ راغبين فى الإسلام . . . فلقيا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الطريق فى مكان اسمه « نيق العقاب » ـ موضع بين مكة والمدينة ـ قرب الجحفة .

والتمسا الدخول إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأبى النبى لقاءهما ورفض أن يدخلا إليه . . . وكلمت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شأنهما ـ قالت له : صهرك وابن عمك .

---

(٣٨٥) الإسراء ٩٠ ، ٩١

وتعنى بصهره عبدالله بن أبى أمية ، فهو أخوها لأبيها ، وتعنى بابن عمه أباسفيان بن الحارث .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : لاحاجة لى بهما ، أما ابن عمى فقد هجانى - وكان أبوسفيان يهجو النبى والمسلمين بشعره .

وأما صهرى فقد قال ماقال ، يعنى ماحكاه القرآن من قوله : « وقالوا لن نؤمن لك . . . . »

فقال أبوسفيان : لئن لم يأذن النبى لنا لآخذن بيد ابنى هذا - وكان معه ابنه - واضربن فى الأرض حتى نموت جوعاً وعطشاً .

فرق النبى - صلى الله عليه وسلم - وأذن لهما ، فأسلما . . . وحسن إسلامهما . .

وشهد عبدالله مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتح مكة ، وحنينا ، والطائف ، ومات شهيداً يوم الطائف ، حيث رُمِى بسهم فقتله . . وأما زهير بن أبى أمية ، فقد كان له دور مشهور فى تمزيق الصحيفة التى كتبت ظلماً وأودعت جوف الكعبة ، وكانت تتضمن حصار المسلمين مع بنى هاشم فى شِعب أبى طالب ، وكان زهير - على شركه - ولنستمع الى ابن كثير يحدثنا عن ذلك . . .

قال : ثم إنه قام فى نقض الصحيفة نفر من قريش ، ولم يبل فيها أحد بلاء أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن الحارث ، وكان هشام لبنى هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف فى قومه ، فكان - فيما بلغنى - يأتى بالبعير - بنى هاشم وبنى المطلب فى الشعب ليلاً - قد أوقره طعاماً ، حتى إذا بلغ به فم

الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبيه فدخل الشعب عليهم ، ثم يأتى به قد أوقره بُرًّا فيفعل به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبى أمية بن المغيرة - ابن عاتكة بنت عبدالمطلب - فقال : يازهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب ، وتنكح النساء وأخوالك حيث علمنا ، لايبيعون ولايبتاع منهم ؟ أما إنى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه منهم ماأجابك إليه أبدا .

قال زهير : ويحك ياهشام فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها .

قال هشام : قد وجدت رجلاً .

قال زهير : من هو؟

قال هشام : أنا

قال زهير : اطلب لنا ثالثاً .

فذهب هشام إلى المطعم بن عدى .. فوافق .. ثم انضم إليهم أبوالبخترى بن هشام وزمعة بن الأسود ...

وتعاقد الجميع على نقض الصحيفة . وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم ..

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبى أمية - عليه حلة - فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أقبل على الناس ، فقال : ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لايبتاعون ولايبتاع منهم ؟ والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبوجهل : والله لانشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، مارضينا كتابتها حين كتبت .

وقال أبوالبختري : صدق زمعة ، لانرضى ماكتب فيها . ولانقر به

وقال المطعم : صدقتما وكذب من قال غير ذلك .. نبرأ إلى الله منها .

وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك .

قال أبوجهل : هذا أمر قُضِي فيه بليل - أى تشوور فيه بغير هذا المكان .

وأخرجت الصحيفة الظالمة من المكان الذى أودعت فيه لتُشَق ، فوجدوا الأرضة قد أكلتها إلا كلمة . باسمك اللهم .

قيل : وكان الذى كتب هذه الصحيفة بيده هو منصور بن عكرمة فشُلت يده[٣٨٦]

هذا مافعله زهير بن أبى أمية ، وهو عمل يشير إلى شهامة ومروءة ورفض للظلم والقطيعة .

وتسكت الأخبار عن نبأ إسلامه إلا أن ابن الأثير يترجم لرجل اسمه زهير بن أبى أمية . ويقول عنه : مذكور فى المؤلفة قلوبهم ، وذكر خبرا يتعلق به قال : روى السائب قال : جاء بى عثمان وزهير بن أبى أمية فاستأذنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأذن لى ، فدخلت عليه ، فأثنيا علىَّ عنده ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - أنا أعلم به منكما ، ألم تكن شريكى فى الجاهلية ؟

---

(٣٨٦) البداية والنهاية جـ٣ صـ٩٦

قلت : بلى بأبى أنت وأمى ، فنعم الشريك كنت - لاتدارى ولا تمارى .

وعلق ابن الأثير قائلاً : هو زهير بن أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم - أخو أم سلمة وابن عم خالد بن الوليد - فإن كان هو فهو ابن عمة النبى - صلى الله عليه وسلم - أمه عاتكة بنت عبدالمطلب ، وله فى نقض الصحيفة أثر كبير[٣٨٧]

● وأما قريبة ابنة عاتكة ، فقد أسلمت وحسن إسلامها ، وبايعت النبى - صلى الله عليه وسلم - وتزوجها عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق ، فولدت له عبدالله وأم حكيم وحفصة .

وكانت فى أخلاق عبدالرحمن شدة - فقالت له يوماً : أما والله لقد حذرنى الناس منك ... قال لها : فأمرك بيدك .

فقالت : لاأختار على ابن الصديق شيئاً . فأقام عليها فلم يكن طلاقاً ....[٣٨٨]

هل للرسول عمات لم يدركن الاسلام ؟

قال ابن سعد : وكان من عمات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ممن لم يدركن الإسلام - أم حكيم ، وبرة ، وأميمة ..

ونحن نشير إليهن لأن لهن عقباً أدركوا الإسلام وكان لهم شأن يذكر .

---

(٣٨٧) أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ٢ صـ٢٦٠

(٣٨٨) الطبقات جـ٨ صـ١٩١

أم حكيم

أما أم حكيم فاسمها البيضاء بنت عبدالمطلب ، وأمها فاطمة بنت عمرو ابن عائذ . كان زوجها في الجاهلية كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبدشمس ابن عبدمناف بن قصى .

ولدت له عامر بن كُرَيْزٍ . أسلم يوم الفتح ، وبقى إلى خلافة عثمان ، وكان له ولد اسمه عبدالله بن عامر ـ كان من أكابر التابعين ومقدميهم ، ولاه عثمان البصرة ، كما ولاه خراسان . وقَدِم عليه أبوه فيها .(٣٨٩)

وولدت له طلحة ، ولم يرد خبر عن إسلامه ..

وولدت له أروى ـ وقد تزوجها عفان بن أبي العاص بن أمية ، فأعقبت له ذا النورين عثمان بن عفان أمير المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ ثم خلف عليها عقبة بن أبي معيط ، فولدت له الوليد بن عقبة وقد أسلم الوليد يوم الفتح ، ويكنى الوليد ـ أبا وهب ـ وكان صغيراً حين أسلم ...

عن عبدالله الهمذاني عن الوليد قال : لما افتتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ، جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيمسح على رؤوسهم ويدعو لهم بالبركة ، فأتي بي إليه وأنا مُخَلَّقٌ فلم يمسنى من أجل الخلوق .(٣٩٠)

ولكن أهل العلم يقولون : إن الوليد أسلم كبيراً لاصغيراً بدليل أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثه إلى بنى المصطلق ليأتى بصدقاتهم ـ وكان

---

(٣٨٩) أسد الغابة جـ٣ صـ١٣٨

(٣٩٠) أسد الغابة جـ٥ صـ٤٥١

حديث الإسلام - فعاد وأخبر بارتدادهم عن الإسلام ، وفيه نزل قوله - تعالى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾ (٣٩١)

وهذا يشير إلى أنه لم يكن صغيراً حين أسلم بل كان رجلاً كبيراً والوليد أخو عثمان لأمه وقد ولاه عثمان الكوفة .

كما ولدت أيضاً له خالد بن عقبة - أسلم ايضاً يوم الفتح

ونزل الرقة ، وهى مدينة مشهورة على الفرات ، وكان مع عثمان يوم الدار - أى يوم حصاره - ولكنه فرّ عنه ، وفى ذلك يقول عبدالرحمن بن أرطاة :

تلومونى ان كنت فى الدار حارساً *** وقد فر منها خالد وهو دارع

كما ولدت له ايضاً ام كلثوم بنت عقبة وقد سبقت اخويها إلى الإسلام . اسلمت قديماً بمكة ، وصلّت القبلتين ، وبايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهاجرت إلى المدينة ماشية على قدميها ، فسار اخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة ليرداها ، فمنّعها الله - تعالى - وانزل فيها قرانا يتلى ، فيقال إنه نزل فى شانها قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ

---

(٣٩١) الحجرات ٦

بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ (٣٩٢)

وتزوجها فى المدينة بعد هجرتها زيد بن حارثة ، وقتل عنها يوم مؤتة ، فتزوجها الزبير بن العوام ، فولدت له زينب ، ثم طلقها ـ . . فتزوجها عبدالرحمن بن عوف فولدت إبراهيم ، ومات عنها فتزوجها عمرو بن العاص ، فمكثت عنده شهراً ثم ماتت ـ رضى الله عنها ـ

بَرّة بنت عبدالمطلب

هى بَرّة بنت عبدالمطلب بن هاشم ـ وأمها فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

تزوجها فى الجاهلية عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم . ولدت له أبا سلمة بن عبدالأسد ـ أحد السابقين إلى الإسلام ـ وهو زوج أم سلمة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ قبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستشهد أبوسلمة فى أحد . . . .

---

(٣٩٢) الممتحنة ١٠

أميمة

وأميمة بنت عبدالمطلب أمها أيضاً فاطمة بنت عمرو بن عائذ ـ تزوجها فى الجاهلية جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة .

فولدت له عبدالله ، وعبيدالله ، وأباأحمد ، وزينب وحمنة ..

وقد هاجر عبدالله ، وعبيدالله ، وأبوأحمد إلى الحبشة .

وعاد عبدالله وأبوأحمد ، فهاجر إلى المدينة ..

أما عبد الله فاستشهد فى أحد ، وكان قد شهد بدراً .

وأما عبيدالله فقد ارتد كافراً فى الحبشة وتنصر ، وكان متزوجاً من أم حبيبة بنت أبى سفيان ـ التى تزوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. بعد ذلك ... وأما أبوأحمد فقد هاجر إلى المدينة وكان أول من قدمها بعد أبى سلمة بصحبة أخيه عبدالله .

وكان أبوأحمد ضرير البصر ...

أما زينب فهى التى تزوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (٣٩٣)

---

(٣٩٣) الأحزاب ٣٧

وحنة كانت زوجاً لمصعب بن عمير أول سفير فى الإسلام ، واستشهد يوم أحد . . . ثم تزوجها طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة . .

فانظر إلى ذلك العقب الطيب من هؤلاء العمات ، وإن كن لم يدركن الإسلام .

وقد ذكر ابن سعد فى طبقاته خبراً قال فيه : أعطى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أميمة بنت عبدالمطلب أربعين وسقاً من تمر خيبر(٣٩٤)

وهذا الخبر يشير إلى إسلامها . ولكن هذا الخبر لم يؤيده أحد من الرواة .



(٣٩٤) الطبقات ٨ /٣١

الأخوال والخالات

قال ابن قتيبة فى كتابه المعارف : أم النبى - صلى الله عليه وسلم - آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة . .

ولايعلم أنه كان لآمنة أخ فيكون خال النبى - صلى الله عليه وسلم - ولكن بنى زهرة جميعاً يفتخرون قائلين : نحن أخوال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأن آمنة كانت منهم .

وأشهر هؤلاء سعد بن أبى وقاص ، أحد العشرة المبشرين بالجنة . . واسمه : سعد بن مالك بن وهيب بن عبدمناف بن زهرة - أبوه ابن عم آمنة ، ووهيب هو الذى زوَّج آمنة من عبد الله - والد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد كان يتولى أمرها بعد وفاة أبيها .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يحبه ويقدمه ويهش لرؤيته ، عن جابر - رضى الله عنه - قال : أقبل سعد ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « هذا خالى . . .

وكان سعد أحد السابقين إلى الإسلام ، أسلم بعد ستَّة ، وقيل : بعد أربعة .

وكان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أرادوا الصلاة تفرقوا فى الشعاب حتى لايراهم أحد ، فبينما سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى شعب من شعاب مكة يصلون ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، فآذوهم ، وعابوا عليهم دينهم

حتى قاتلوهم ، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحى جمل فشجه فكان اول دم أريق فى الإسلام .

وكان سعد مستجاب الدعوة ، لايدعو إلا استجيب له ، وكان الناس يعلمون ذلك ويخافون دعاءه .

وجاهد سعد فى الله حق جهاده ، ولم تفته غزوة مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى غزوة أحد أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان من أعظم الرماة ، حتى دعا له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً له : « ارم فداك أبى وأمى » قال الزهرى : رمى سعد بن أبى وقاص يوم أحد بألف سهم . .

وكان سعد بن أبى وقاص قائد الجيوش الإسلامية فى فتح فارس .

وفى سعد بن أبى وقاص نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ (٣٩٥)

ويقص علينا سعد قصة نزول هذه الآية فيقول :

كنت رجلاً براً بأمى ، فلما أسلمت قالت : ياسعد ، ماهذا الدين الذى أحدثت ؟ لتدعن هذا الدين أو لاآكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى .

---

(٣٩٥) لقمان ١٥

فقال : لاتفعلى ياأمه ، فإنى لاأدع دينى .

قال : فمكثت يوماً وليلة لاتأكل ، واصبحت وقد جهدت .

فقلت لها : والله لو كانت لك ألف نفس ، فأخرجت نفساً نفساً ماتركت دينى هذا لشىء .

فلما رأت ذلك أكلت وشربت . فأنزل الله هذه الآية . .

وعاش سعد بن أبى وقاص إلى سنة خمس وخمسين ، وشهد الأحداث التى جرت بين على ومعاوية ، ولكنه لم يشترك فيها .

لقد اعتزل الفتنة التى نشبت بين المسلمين ، ولم ينضم إلى أىٌ من الفريقين . . .

وقد ذكر أنه سمع بعض الناس يتناول الإمام على بن أبى طالب فى كلامه ، فنهاه عن ذلك ، وقال له : والله لأن يكون فىَّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلىٍّ - أحب إلىَّ من أن يكون لى ماطلعت عليه الشمس .

والله لأن أكون صهراً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولى من الولد ما لعلى أحب إلىَّ من أن يكون لى ماطلعت عليه الشمس .

والله لأن يكون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لى يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، ليس بفرار ، يفتح الله على يديه » - أحب إلىَّ من أن يكون لى ماطلعت عليه الشمس .

والله لأن يكون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لى يوم تبوك :

« الا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى » أحب إلىَّ من أن يكون لى ماطلعت عليه الشمس .

واعقب سعد من الأولاد عامراً ، ومصعباً ، ومحمداً ، وإبراهيم ، وعائشة .

عبدالرحمن بن عوف

ومن بنى زهرة أيضاً عبدالرحمن بن عوف بن عبدعوف بن عبد بن الحارث ابن زهرة بن كلاب القرشى الزهرى .

كان أحد السابقين إلى الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وآخى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى .

روى عبدالرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « عشرة فى الجنة : أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وعلى فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف فى الجنة ، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة ، وسعيد بن زيد فى الجنة ، وأبوعبيدة ابن الجراح فى الجنة »[396]

وكان عبدالرحمن بن عوف من المجاهدين الصادقين بأموالهم وأنفسهم ، وقد تصدق على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ بشطر ماله ..... ثم تصدق بعد ذلك بأربعين ألفا ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار أخرى ، ثم حمل على

---

(٣٩٦) أخرجه الإمام أحمد والترمذى عن قتيبة بن سعيد بإسناده ـ المسند ١ /١٩٣ وتحفة الأحوذى ١٠ /٢٤٩

خمسمائة فرس فى سبيل الله ، ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله[397]

وهو الذى صلى خلفه رسول الله - ﷺ - فقد كان يصلى بالناس ، وجاء النبى - ﷺ - فأراد عبدالرحمن أن يتأخر فأوما له النبى - ﷺ - : أن مكانك - فصلى ، وصلى رسول الله - ﷺ - بصلاة عبدالرحمن[398] .

وتوفى سنة إحدى وثلاثين بالمدينة وهو ابن خمس وسبعين سنة وأوصى بخمسين ألف دينار فى سبيل الله .

خالات الرسول .

وكما أن آمنة بنت وهب لم يكن لها إخوة ذكور ، فكذلك لم يكن لها أخوات إناث .

وأقرب قريبة لها هى هالة بنت وهيب - بنت عمها ، وهى التى تزوجها عبدالمطلب جد النبى - ﷺ - فى الوقت الذى زوج فيه ابنه عبدالله آمنة بنت وهب .

فكانت آمنة وهالة فى بيت عبدالمطلب معا . .

آمنة زوجة لعبدالله ، وهالة زوجة لوالده عبدالمطلب . . وأنجبت آمنة خير البرية - ﷺ - وأنجبت هالة حمزة أسد الله وأسد رسوله ، فهو والنبى - ﷺ - ابنا خالة تقريبا .

كما أنجبت هالة أيضا لعبدالمطلب - المقوم وحجلا واسمه المغيرة ،

---

(٣٩٧) أسد الغابة جـ٣ صـ٤٨٢
(٣٩٨) أسد الغابة جـ٣ صـ٤٨٢

وصفية . والذى أسلم من أولاد هالة حمزة ـ وقد استشهد فى أحد كما سبق أن ذكرنا ، وصفية ـ رضى الله عنها ـ وقد سبق أن تحدثنا عنها

أولاد عمومة النبى (ﷺ)

تحدثنا عمن أسلم من أعمام النبى ـ ﷺ ـ وهما حمزة والعباس ـ رضى الله عنهما ـ . . أما أبناء عمومته فقد أسلم كثير منهم ـ وأول هؤلاء وأشهرهم : ـ



على بن أبى طالب - رضى الله عنه -

لم يسلم أبوطالب - عم النبى - ﷺ - ولكنه أنجب على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - باب مدينة العلم ، وزوج فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين - بنت خير خلق الله - ﷺ - وأنجب منها الحسنين ، وقد كرم الله وجهه - فلم يسجد لصنم قط ..

نسبه

هو على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم ابن عم رسول الله - ﷺ - وأمه هى فاطمة بنت أسد بن هاشم - وكنيته أبوالحسن . وكرمه النبى - ﷺ - فآخى بينه وبين نفسه - وزوجه ابنته فاطمة ..

وهو أول هاشمى ولد بين هاشميين ، وأول خليفة من بنى هاشم وكان علىٌ أصغر من إخوته - جعفر ، وعقيل ، وطالب

متى أسلم ؟

يقول بعض العلماء : إن عليا هو أول من أسلم . . . روى ابن عباس قال : أول من أسلم على . .

وقال بعضهم : أسلم بعد خديجة . روى ابن إسحاق قال : جاء على ابن أبى طالب فوجد النبى - ﷺ - وخديجة يصليان . فسألهما : ما هذا .

فقال النبى - ﷺ - : « دين الله الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وإلى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى »

فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم - فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب .

فكره رسول الله ـ ﷺ ـ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره .

فقال له : يا على ، « إن لم تسلم فاكتم »

فمكث علىٌّ ليلة . . . ثم إن الله أوقع فى قلبه الإسلام ، فأصبح غاديا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حتى جاءه . فقال : ماذا عرضت علىٌّ يا محمد ؟

فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد »

ففعل على وأسلم .

ومكث علىٌّ يأتيه سراً ـ خوفاً من أبى طالب ـ وكتم إسلامه ، وكان مما أنعم الله به على علىٌّ أنه ربى فى حجر رسول الله ـ ﷺ ـ قبل الإسلام .

كانت سن علىٌّ حين أسلم عشر سنين . وقيل : أقل من ذلك .

والعلماء يوفقون بين الآراء المختلفة حول أول من أسلم ، فيقولون : أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الرجال أبوبكر ، ومن الصبيان على ، ومن الموالى زيد بن حارثة . . .

وروى عن على أنه قال : لم أعلم أحداً من هذه الأمة عَبَدَ الله قبلى[٣٩٩] وقال : أنا أول من صلى على النبى ـ ﷺ ـ

لقد نشأ على ـ رضى الله عنه ـ فى كنف النبى ـ ﷺ ـ ذلك أن أبا طالب كان مثقلا بالعيال ، فتحمل عنه النبى ـ ﷺ ـ عليا ، كما تحمل العباس عنه عقيلا .

---

(٣٩٩) أخرجه الإمام أحمد عن أبى سعيد مولى بنى هاشم عن يحيى بن سلمة : المسند ١ /٩٩

فصار كأنه ابن للنبى - ﷺ - لما أراد الله به من الكرامة والفضل ، وكان يحب النبى - ﷺ - ويؤثره على نفسه ، ويسارع إلى تلبية أمره .

وحين أمر الله - تعالى - نبيه أن ينذر عشيرته الأقربين ، كان علىٌ أول المسارعين إلى تلبية أمره والاستجابة لنصرته .

حدث ابن كثير عن على بن أبى طالب قال : لما نزل قوله

« وأنذر عشيرتك الأقربين »

دعانى النبى - ﷺ - فقال : « يا على إن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، فاصنع لنا يا على شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا اللبن ، ثم اجمع لى بنى عبدالمطلب ، ففعلت . . . فاجتمعوا له يومئذ - قبل أربعون رجلا ، يزيدون رجلاً أو ينقصون .

فقدمت إليهم تلك الجفنة ، فأخذ رسول الله - ﷺ - منها حذية فقطعها ووضعها فى نواحيها وقال : « كلوا باسم الله » فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما ترى إلا آثار أصابعهم ، والله إن كان الرجل ليأكل مثلها .

ثم قال رسول الله - ﷺ - : « اسقهم يا على »

فجئت بقعب ، فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وأيم الله إن كان الرجل ليشرب مثله .

ثم قال رسول الله - ﷺ - : « يابنى عبدالمطلب ، إنى والله ما أعلم أحدا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة . . وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى »

قال على : فأحجم القوم عن ذلك جميعا . . فقلت : أنا يانبى الله ـ أكون وزيرك عليه ـ وكنت أحدثهم سنا ـ

فقال رسول الله : « إن هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له . . » قال ـ فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع(٤٠٠)

ولقد ضعّف الرواة هذا الحديث ، ولكن هناك خبرا آخر يعززه ويشير إلى معناه . .

فقد عرفنا أن عليا ـ رضى الله عنه ـ نام مكان النبى ـ ﷺ ـ فى فراشه ليلة هجرته ، وتسجى ببرده الأخضر ، وهو يعلم تماماً أنه مقتول لا محالة ، فكان بذلك أول فدائى فى الإسلام .

هجرته :

هاجر النبى ـ ﷺ ـ إلى المدينة وكان قد سبقه أصحابه إليها ، ولكنه أبقى عليا بمكة ليؤدى للناس أماناتهم التى أودعوها عند النبى ـ ﷺ ـ ثم يلحق به .

وكان آخر من قدم المدينة من الناس ، ولم يفتن فى دينه كما فتن بعض الذين تأخروا فى الهجرة .

وخرج على إلى المدينه بعد أن أدى الامانات كلها ، وأنفذ الوصايا التى أوصاه الرسول بها ، وأخرج أهل النبى ـ ﷺ ـ أمامه ، ثم خرج هو يمشى الليل ، ويكمن النهار حتى قدم المدينة على النبى ـ ﷺ ـ

---

(٤٠٠) البداية والنهاية جـ٣ صـ٤٠

فلما بلغ النبى قدومه قال : « ادعوا لى عليا » فقيل له : يارسول الله إنه لا يقدر أن يمشى .

فأتاه النبى - ﷺ - فلما راه احتضنه وبكى رحمة لما بقدميه من ورم ، وكانت قدماه تقطران دما . فوضع النبى - ﷺ - يديه ومسح بهما رجليه ، ودعا له بالعافية . فلم يشتك قط بعد ذلك .

مشاهده مع النبى

حضر على بن أبى طالب جميع المشاهد مع النبى - ﷺ -

وفى غزوة بدر بارز الوليد بن عتبة وقتله ، واشترك مع حمزة فى قتل عتبة ابن ربيعة .

لقد أبلى على فى بدر بلاء حسنا ، وكان يخطر بسيفه أمام المشركين وهو يرتجز . .

وفى أحد قاتل قتالا عنيفا ، وأصيب بست عشرة ضربة ، كل ضربة تلزمه الأرض ، وجبريل يرفعه(٤٠١)

وفى غزوة الأحزاب كان له القدح المعلى فى زلزلة كيان المشركين ، وقد قتل فارسهم عمروبن عبد ودّ

وفى خيبر ، فتح الله على يديه ، وقال النبى - ﷺ - : لأسلمن الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ، وسلمها لعلى ، ففتح الله على يديه خيبر وخذل اليهود وأذلهم .

وفى تبوك خلفه النبى - ﷺ - بالمدينة نائبا عنه ، فأرجف من أرجف -

---

(٤٠١) أسد الغابة ٤ /٩٧

فقال له النبي - ﷺ - : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى ؟

علم على

جاء في الأمثال : قضية ولا أبو حسن لها . .

وهذا المثل يعني قدرة على - رضى الله عنه - على حل كل المشكلات العلمية ، وكان أقضى الصحابة وأعرفهم بأمور الدين - وقد جاء له هذا العلم من النبي - ﷺ - الذي دعا له ؟ قال على : بعثني رسول الله - ﷺ - إلى اليمن ، فقلت : يا رسول الله ، تبعثني إلى اليمن ، ويسألوني عن القضاء ولا علم لى به ، فقال له الرسول : ادن منى ، فد نوت ، فضرب بيده على صدرى ، ثم قال : « اللهم ثبت لسانه واهد قلبه »

فلا والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت في قضاء بين اثنين بعد ذلك . . وكان أبوبكر يستشيره ، وكذلك عمر ، وكذلك عثمان - رضى الله عنهم -

وروى ابن عباس - رضى الله عنه - قال - قال رسول الله - ﷺ - « أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأت بابه[402]

وقال عبدالله بن مسعود : كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة على بن أبى طالب .

وعن عبدالملك بن أبى سليمان قال : قلت لعطاء : أكان في أصحاب محمد أعلم من على ؟ قال : لا والله لا أعلمه .

---

(402) الحديث في مجمع الزوائد ٩ / ١٤ - أسد الغابة ٤ / ١٠٠

قال ابن عباس : لقد أعطى على الفقه فى الدين والعلم بأموره ، والشواهد التى تشير إلى علمه كثيرة . .

قال الحصرى : سئل على رضى الله عنه عن مسألة فدخل مبادراً ، ثم خرج فى حذاء ورداه وهو يبتسم . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنك كنت إذا سئلت عن مسألة كنت فيها كالحديدة المحماة القاطعة ؟

فقال : إنى كنت حاقنا ، ولا رأى لحاقن[403] . ثم أنشأ يقول :

إذا المشكلات تصدين لى كشفت حقائقها بالنظر
وإن برقت فى مخيل الصواب عمياء لا يجتليها الذكر[404]
مقنعة بأمور الغيوب وضعت عليها صحيح الفكر
لسانا كشقشقة الأرحبى أو كالحسام اليمانى الذكر[405]
وقلبا إذا استنطقته العلوم أمر عليها بواهى الدرر
ولست بإمعة فى الرجال أسائل ذاك وذا ما الخبر
ولكننى ذرب الأصغرين أبين مع ما مضى ما غبر[407]

وصف ضرار الصدائى لعلى

قال معاوية لضرار : صف لى عليا .

فقال ضرار : أعفنى يا أمير المؤمنين

قال : لا أعفيك

(٤٠٣) الحاقن الذى يحتبس البول

(٤٠٤) المخيل : المظنون

(٤٠٥) الأرحبى : الجمل ـ وشقشقته هديره

(٤٠٦) الإمعة : الرجل الذى لاخطر له

(٤٠٧) ذرب الأصغرين : حاد اللسان والقلب ، وغبر : بقى وهو من الكلمات المتضادة

فقال : أما إذ أذنت ، فقد كان والله بعيد المرمى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا ، لا تكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع فيه القوى ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ـ وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ـ وقد مثل فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ـ اللديغ ـ ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يادنيا إليك عنى ، غرى غيرى ، إلىَّ تعرضت أم إلىَّ تشوقت ؟ هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة لى عليك ، فعمرك قصير ، وخطرك حقير ، وخطبك يسير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

فبكى معاوية حتى أخضلت دموعه لحيته . وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك . فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟

قال : حزن من ذُبح واحدها فى حجرها[٤٠٨]

من مواعظه

وله ـ رضى الله عنه ـ مواعظ رقيقة ، وحكم بليغة ، ووصايا حكيمة ، وأقوال مأثورة ، فمن ذلك قوله : لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ،

---

(٤٠٨) زهر الآداب للحصرى جـ١ صـ٧٦

ويؤخر التوبة لطول الأمل ، ويقول فى الدنيا بقول الزاهدين ، ويعمل فيها بعمل الراغبين ، إن أعطى منها لم يشبع ، وإن منع لم يقنع ، يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى . . .(409)

لما رجع ـ رضى الله عنه ـ من صفين دخل أوائل الكوفة فرأى قبرا . فقال : قبر من هذا ؟

فقيل : قبر خباب بن الأرت . فوقف عليه وقال : رحم الله خبابا ، أسلم راغبا ، وهاجر طائعا وعاش مجاهدا ، وابتلى فى جسمه أحوالا ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا .

ثم وقف على القبور فقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة ، أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم بعفوك . . . . طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عنه الله . . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى .(410)

وله شعر جيد ـ منه فى رثائه زوجته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ : ـ

أرى علل الدنيا علىَّ كثيرة   وصاحبها حتى الممات عليل
وإن افتقادى فاطما بعد أحمد   دليل على ألا يدوم خليل(411)

---

(409) المرجع السابق
(410) المرجع السابق
(411) المرجع السابق

شهادة النبي له :

قال عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ : سمعت النبى ـ ﷺ ـ يقول لعلى ابن أبي طالب : « يا على إن الله عز وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها : الزهد فى الدنيا . فجعلك لا تنال من الدنيا شيئا ولا تنال منك شيئا ، ووهب لك حب المساكين ، ورضوا بك ورضيت بهم ، فطوبى لمن أحبك وويل لمن أبغضك وكذب عليك .»[412]

وإذا كانت هذه شهادة النبى ـ ﷺ ـ فإن القرآن الكريم شهد له أيضا . لقد نزل فيه قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[413]

لقد نزلت فيه هذه الآية حين فدى النبى ـ ﷺ ـ بنفسه ونام فى مكانه ، وتغطى ببرده معرضا نفسه لقتل المشركين ، وهم يظنون أنه رسول الله ـ ﷺ ـ وذلك ليلة الهجرة .

ولقد شهدت له الملائكة ـ ذكر أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ـ المفسر ـ قال : رأيت فى بعض الكتب أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما أراد الهجرة خلف على بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه ورد الودائع التى كانت عنده ، وأمره ليلة خرج إلى الغار ـ وقد أحاط المشركون بالدار ـ أن ينام على

---

(٤١٢) أسد الغابة جـ٤ صـ١٠٢
(٤١٣) البقرة ٢٠٧

فراشه ، وقال له : اتشح ببردى الحضرمى الأخضر فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء الله تعالى ـ ففعل ذلك ـ

ونزل جبريل وميكائيل ليحفظاه من أذى الكفار ، فكان جبريل عند رأس على ، وميكائيل عند رجليه ، وجبريل ينادى : بخ بخ من مثلك يابن أبى طالب يباهى الله ـ عز وجل بك الملائكة ! ! ؟[414]

وليس قوله تعالى ـ « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد » هو القرآن الوحيد الذى نزل فى شأن على . فقد حدث الرواة أن قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾[415]

نزل أيضا فى شأن على ـ رضى الله عنه ـ كان معه أربعة دراهم ، فأنفق بالليل درهما . وفى السر درهما ، وفى العلانية درهما . كل ذلك ابتغاء وجه الله . .

وجاء فى تفسير القرطبى أن قوله تعالى:« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » نزل فى شأن على بن أبى طالب ـ فى بعض الأقوال ـ ولايخفى أن قوله تعالى:

---

(٤١٤) أسد الغابة جـ٤ صـ١٠٣

(٤١٥) البقرة ٢٧٤

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [٤١٦]

نزل فى أهل البيت وعلى ـ رضى الله عنه ـ من رءوس أهل البيت .

حدث شهر بن حوشب عن أم سلمة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جلل عليا وفاطمة والحسن والحسين كساء . ثم قال : اللهم هؤلاء ، أهل بيتى وخاصتى اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا »

قالت أم سلمة : قلت يارسول الله ، وأنا منهم ؟ . قال : « إنك إلى خير[٤١٧] »

وفى رواية ـ سبق أن ذكرناها ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال لها : نعم .

ولما نزلت آية المباهلة وهى قوله تعالى:

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [٤١٨]

---

(٤١٦) الأحزاب ٣٣

(٤١٧) أسد الغابة جـ٤ صـ١١٠

(٤١٨) آل عمران ٦١

استدعى النبي - ﷺ - على أثرها علياً وفاطمة وحسنا وحسيناً ، فقال : « اللهم هؤلاء أهلي » .(٤١٩)

حديث غدير خم :

ذكر الرواة أن النبي - ﷺ - بعد أن انتهى من حجة الوداع ، ووصل إلى محل بين مكة والمدينة يقال له : غدير خم - قرب رابغ - جمع الصحابة وخطبهم خطبة بين فيها فضل علي وبراءته مما تكلم فيه بعض من كان معه باليمن . فقال - ﷺ - : « أيها الناس ، إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وفي رواية : - إني لأظن أن يوشك أن أدعى فأجيب وإني مسئول ، وإنكم مسئولون فما أنتم قائلون » ؟

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وجهدت ونصحت فجزاك الله خيراً .

فقال - ﷺ - : « أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق بعد الموت ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور » ؟

قالوا : بلى ، نشهد بذلك .

قال : « اللهم اشهد »

ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته فقال : « إني تارك فيكم كتاب الله وسنتي ، وأوصيكم بأهل بيتي » .

---

(٤١٩) تحفة الأحوذي - أبواب المناقب ١٠ /٢٢٨

ثم قال فى حق على : « ألست أولى بكم من أنفسكم » ؟ - قالها ثلاثا - وهم يجيبونه بالتصديق والاعتراف ، ورفع - ﷺ - يد على - كرم الله وجهه - وقال : « من كنت مولاه فعلىٌ مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه وابغض من أبغضه ، وانصر من نصره ».[420]

وروى عبدالرحمن بن أبى ليلى قال : شهدت عليا فى الرحبة يناشد الناس : أنشد الله من سمع رسول الله - ﷺ - يقول يوم غدير خم : من كنت مولاه فعلى مولاه إلا قام . .

قال عبدالرحمن : فقام اثنا عشر بدريا كأنى أنظر إلى أحدهم عليه سراويل ، فقالوا : نشهد أنا سمعنا رسول الله - ﷺ - يقول يوم غدير خم : « ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجى أمهاتهم » ؟

قلنا : بلى يا رسول الله ، فقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم والى من والاه وعاد من عاداه ».[421]

وقد تمسك الشيعة بهذا الحديث وقالوا بإمامة على بن أبى طالب - بعد الرسول . . . . .

وذكر بعض الرواة أن رجلا اسمه الحارث الفهرى - لما شاع خبر هذا الحديث جاء إلى المدينة فأناخ راحلته عند باب المسجد ، فدخل والنبى - ﷺ - حوله أصحابه ، ثم قال : يا محمد ، إنك أمرتنا أن نشهد أن لا إله

---

(٤٢٠) السيرة الحلبية جـ٣ صـ٣٣٦

(٤٢١) أسد الغابة ٤ /١٠٨

إلا الله وأنك رسول الله فقبلنا ذلك منك ، وأمرتنا أن نصلى فى اليوم والليلة خمس صلوات ، ونصوم شهر رمضان ، ونزكى أموالنا ونحج البيت ، فقبلنا ذلك منك ، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت ابن عمك ففضلته ، وقلت : من كنت مولاه فعلى مولاه ، فهذا شىء من الله أو منك ؟

فأحمرت عينا رسول الله - ﷺ - وقال : « والله الذى لا إله إلا هو ، إنه من الله وليس منى » - قالها ثلاثا .

فقام الحارث وهو يقول : «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك - وفى رواية : اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فأرسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

قالوا : فوالله ما بلغ باب المسجد حتى رماه الله بحجر من السماء فوقع على رأسه فمات . وأنزل الله تعالى قوله :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ ﴾ (٤٢٢)

وكان ذلك فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة . (٤٢٣)

وقد اتخذ الروافض هذا اليوم عيداً ووضعوا فى صومه حديثا منكرا لا أساس له من الصحة .

معنى هذا الحديث « من كنت مولاه . . . »

---

(٤٢٢) المعارج ١ ، ٢

(٤٢٣) تفسير القرطبى جـ١٨ صـ٢٧٨ - المعارج السيرة الحلبية جـ٣ صـ٣٣٧

والمقام يقتضي بيان هذا الحديث الذي اتخذه الشيعة نصاً في وجوب إمامة علي - رضي الله عنه - وطعنوا به في إمامة غيره . ونستعين في بيان ذلك بما أورده علي بن برهان الدين الحلبي في سيرته . فقال : إن المسيح المولى يطلق على عشرين معنى منها : أنه السيد الذي ينبغي محبته، وتجنب بغضه . ويؤيد ذلك مناسبة هذا الحديث . فقد تقدم بريدة من اليمن، وكان مع علي ، وأخذ يشكو عليا للنبي - ﷺ - فتغير وجه النبي - ﷺ - لما سمعه من إيذان علي وخلقه وقال : يا بريدة ، لا تقع في علي ، فإن عليا مني وأنا منه ، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟؟

قال بريدة : نعم يا رسول الله،

فقال - رسول الله - ﷺ - : «من كنت مولاه فعلي مولاه»

قال النبي - ﷺ - ذلك لبريدة خاصة ، ثم لما وصل إلى غدير خم أحب أن يقوله للصحابة عامة حتى يعرفوا جميعا حب النبي - ﷺ - لعلي . ولعل فرض أن الحديث مقصود به الإمامة في نظر البعض ، فإن الحديث لم يحدد وقتها وليس فيه دليل على أن تكون تلك الإمامة بعد الرسول مباشرة - كما زعم الشيعة . .

وقد سكت علي - كرم الله وجهه - عن تذكير الناس بهذا الحديث حتى بويع بالخلافة ، وانتقض عليه بعض الناس فوقف ينشد من سمع هذا الحديث أن يذكره ، ولو كان علي - رضي الله عنه - يعرف أن هذا الحديث نص في إمامته لما سكت هذه المدة الطويلة دون أن يطالب بالإمامة ؟

قد يقولون : إنه لم يطالب بها امتثالا لوصية النبى - ﷺ - أن لا تقع بعده فتنة . ولكن هذه دعوى مرفوضة ، إذ كيف يجعله النبى إماما على الأمة ويمنعه أن يسل سيفا على من امتنع من قبول الحق ؟

ثم إن هذا الحديث لو كان نصا فى الإمامة ما امتنع علىٌّ عن متابعة العباس - رضى الله عنه - حين قال له العباس : اذهب بنا إلى رسول الله - ﷺ - فإن كان فينا الأمر علمنا وإلا أوصى بنا ؟

ولو كان هذا الحديث نصا فى الإمامة فلماذا قالت الأنصار للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير ؟ وكيف احتج عليهم أبوبكر بقوله : إن الأئمة من قريش - ثم لم يقولوا له : قد ورد النص بخلافة على ؟ مع أن حديث غدير خم لم يكن قد مضى عليه أكثر من شهرين ؟

ولو كان هذا الحديث نصا فى الإمامة لما سكت على عن المطالبة بحقه ، ولو سكت لكان مقصرا فى دينه .

ولقد سئل على - رضى الله عنه - هل نص النبى - ﷺ - على خلافة أحد بعد موته ؟

فأجاب : لم ينص على خلافة أحد . . وقال : لا والله إنه لم ينص على خلافة أحد ، وقد كنت أول من صدق به فلا أكون أول من كذب عليه ، ولو كان عندى من النبى - ﷺ - عهد فى ذلك ما تركت القتال على ذلك ، ولو لم أجد إلا بردتى هذه .

إن كل ما أورده البعض من أحاديث تقضى بإمامة على بعد النبى - ﷺ - أغلب الظن أنها أحاديث موضوعة . .(٤٢٤)

لقد أوصى النبى - ﷺ - أبا بكر أن يصلى بالناس فى مرض موته ، فنظر الناس بعده فاختاروا لدنياهم من اختاره النبى - ﷺ - لدينهم ، وكان هذا اختيارا موفقا والحمدلله .

خلافة على

شغب بعض الناس على عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فى خلافته ، وثارت فتنة وكان عبدالله بن سبأ اليهودى الذى أظهر الإسلام كيدا له وراء تلك الفتنة ، ومازال يؤلب الناس ويزين لهم الباطل حتى حوصر عثمان فى بيته ، ثم قتل صائما وهو يقرأ القرآن .

وحاول الإمام على أن يصد المحاصرين ويمنعهم من إيذاء أمير المؤمنين وأن يفرق جمعهم ما استطاع ، وأمر أبناءه أن يقفوا على باب دار عثمان يمنعون عنه كل شر ويدافعون عنه بسلاحهم مع المدافعين ، ولكن موجة الشر ركبت رأسها وتسور بعض الثائرين الدار واقتحموا الجدار واعتدوا على خليفة رسول الله - ﷺ - .

وأصبح المسلمون ولا خليفة لهم ، واتجهوا بأبصارهم وقلوبهم إلى على - رضى الله عنه - .

---

(٤٢٤) السيرة الحلبية جـ٣ صـ٣٣٨

عن سعيد بن المسيب قال : لما قتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ جاء الناس كلهم إلى على يهرعون ـ أصحاب محمد وغيرهم ـ كلهم يقول : « أمير المؤمنين على » حتى دخلوا عليه داره . . فقالوا : نبايعك فمد يدك ، فأنت أهل لها .

فقال على : ليس ذاك إليكم إنما ذاك إلى أهل بدر ، فمن رضى به أهل بدر فهو خليفة ، فلم يبق أحد إلا أتى عليا ، فقالوا : ما نرى أحداً أحق بها منك فمد يدك نبايعك .

فقال : أين طلحة والزبير ؟

فكان أول من بايعه طلحة . . . فلما رأى على ذلك خرج إلى المسجد ، فصعد المنبر ، فكان أول من صعد إليه فبايعه طلحة وتابعه الزبير وأصحاب النبى ـ ﷺ ـ

لم يسرع على ـ رضى الله عنه ـ إلى الخلافة أو يتهافت عليها ، وهذا يدل على عدم حرصه عليها ، لقد تريث وتأنى وخشى أن يكون طلب الناس له ليس عن إجماع منهم ، ولذلك أراد أن يتأكد أن يكون السابقون إلى الإسلام من أصحاب رسول الله راضين باختياره ، فذلك أحرى أن يعينه على القيام بهذا الأمر حق القيام .

يروى أنه كان يفر من الملاحقة والإصرار ويختبىء من الناس حتى حوصر وضيق عليه وقيل له : لابد مما ليس منه بد . . وكانت أول خطبة خطبها بعد بيعته هو قوله بعد أن حمد الله وأثنى عليه : إن الله ـ تعالى ـ أنزل كتابا هاديا

بين فيه الخير والشر ، فخذوا الخير ودعوا الشر ، إن الله حرم حرما كثيرة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب ـ لاتهملوا أمر العامة ، وخافوا الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإنما خلفكم الساعة تحدو بكم ، فتخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر الناس أخراهم ، اتقوا الله فى عباده وبلاده ، فإنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم ، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض »[٤٢٥]

هى خطبة أشبه بخلق على وسمته وزهده وتقواه ، إنه يذكر الناس بأخراهم ، ولو تذكر الإنسان الآخرة سار فى حياته على نهج مستقيم واستقامة تامة ، وصلاح كامل ، وترك الحقد والحسد والتآمر ، ونصح لنفسه ولغيره ولإمامه ، ووفى بعهده ولم ينقضه . .

نقض البيعة

واستقام الأمر لعلى ورضى الناس به ، ولكن البعض انقلبوا عليه بعد ذلك فلم يلبث أن ظهر قميص عثمان . . . . لقد حمل قميص عثمان الذى قتل فيه إلى معاوية بن أبى سفيان فى الشام ، فنشره معاوية عند المنبر فى

---

(٤٢٥) الإمام على لمحمد قطب صـ ٥٠

المسجد ، ودعا الناس إلى الأخذ بثأره وظل هذا القميص منشوراً وكان الهدف من نشره تجميع أكبر عدد من الناس للمطالبة بدمه دون تريث إلى أن تهدأ أحوال المسلمين ويستتب الأمن والنظام ـ وأصبح قميص عثمان مثلا سائرا يضرب به الناس لاستغلال الموقف وتعجل الأمور ..

وتقدم هؤلاء المطالبون بدم عثمان إلى علي يقولون له : خذ بدم عثمان ..

فوعد بذلك ، ولكن المشكلة هي ـ كيف يمكن العثور على هؤلاء القتلة ؟ لقد كانت فتنة جارفة عمياء وراءها رءوس مدبرة لابد من معرفتها .. وطلب عليٌّ إمهاله حتى تتبين الحقائق ..

ولكنهم لم يمهلوه ، وتسللوا خارجين من المدينة لائذين بمكة ـ تجميعا للصفوف المنشقة ..

وتجمع المنشقون ، فكانت موقعة الجمل أولا .. وفيها قتل طلحة والزبير ـ رضي الله عنهما ـ قتلا غدراً بعد أن تراجعا عن موقفهما المعارض للإمام علي وأرادا حقن دماء المسلمين . ثم كانت موقعة صفين التي انتهت بخدعة رفع المصاحف على أسنة الرماح ، بدعوى تحكيم الله في هذا الخلاف !

ثم كانت موقعة النهروان ضد الخوارج المارقين الذين أحدثوا الفرقة بين صفوف المسلمين ..

لقد أراد علي ـ رضي الله عنه ـ في خلافته أن يحيي سنة الخلفاء الراشدين قبله ، وأراد حمل الناس على الجادة وتذكيرهم بما يجب عليهم

نحو الله ورسوله . . وكان زاهدا ورعا تقيا لا يألو جهدا فى رعاية مصلحة المسلمين . .

عن محمد بن كعب القرظى قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : لقد رأيتنى أربط الحجر على بطنى من الجوع ، وإن صدقتى لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار . .

وحدث عثمان بن أبى شيبة عن أبيه قال : سمعت أبا نعيم ـ لعله يعنى أبا نعيم الفضل بن دكين ـ قال : سمعت سفيان يقول : ما بنى على لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وإن كان ليؤتى بحبوته[٤٢٦] من المدينة فى جراب

وحدث بعضهم قال : رأيت على علىّ ـ عليه السلام ـ إزاراً غليظاً ، قال : اشتريته بخمسة دراهم ، فمن أربحنى فيه درهما بعته .[٤٢٧]

لقد قال له النبى ـ ﷺ ـ يوما : « أنت تؤتى ولا تأتى فإن أتاك هؤلاء القوم فسلموها إليك ـ يعنى الخلافة ـ فاقبل منهم ، وإن لم يأتوك فلا تأتهم حتى يأتوك »

ولقد نفذ الإمام على وصاة النبى ـ ﷺ ـ فلم يطلب الخلافة ولم يحرص عليها ، بل إن القوم هم الذين عرضوها عليه وألحوا فى ذلك ، فقبل رأباً لصدع المسلمين ، وتأليفاً لصفوفهم ، وجمعاً لكلمتهم . ولكن المصالح

---

(٤٢٦) الحبوة : الخراج

(٤٢٧) أسد الغابة جـ ٤ صـ ١٠٢

الدنيوية كانت قد صبغت نفوس بعض الناس ، وهذا ما حذر منه النبى - ﷺ - وبهذا نرى أن الإمام عليا - رضى الله عنه - لم يطلب الخلافة ، وإنما ألح عليه الناس حتى قبلها . وهذا ما يلتقى مع شيمته وزهده وطاعته لأوامر نبيه - ﷺ -

أما وقد بويع فقد أصبح له على المسلمين جميعا حق الطاعة ، فلما شق البعض عصا الطاعة رأى أن من الواجب عليه مقاتلة الذين يشقون عصا المسلمين . وهذا ما حدث .. والرواة يذكرون لنا أن كثيراً من المسلمين وأصحاب الرسول قد ندموا على ما حدث منهم فى تلك الفتنة ..

لقد ندم كل من الزبير وطلحة على خروجهما على علىّ .

كما ندم كل صحابى انقبض عن مناصرته فى حربه تحرزا من الفتنة .
قال ابن عمر حين حضره الموت : ما أجد فى نفسى من الدنيا إلا أنى لم أقاوم الفتنة حين وقعت[٤٢٨] .

وقال الشعبى : ما مات مسروق حتى تاب إلى الله تعالى من تخلفه عن القتال مع على ..

وقد مر بنا ما قاله ضرار الصدائى لمعاوية
كما أن عبدالله بن عمرو بن العاص اعتذر للحسين بن على عن حضوره معركة صفين ضد الإمام على - وقال له : لقد قال لى رسول الله - ﷺ - :

---

(٤٢٨) الاستيعاب - ترجمة عبد الله بن عمر

« ياعبدالله ، قم ونم وصم وأفطر وأطع عمراً » . . . فلما كان يوم صفين أقسم علي - يعني أبوه عمرو - فخرجت ، فوالله ما اخترطت سيفا ولا طعنت برمح ولا رميت بسهم .(٤٢٩)

لقد بويع علي بالخلافة في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين في مسجد رسول الله - ﷺ - بعد مقتل عثمان رضي الله عنه . .

ولكن الأمر لم يصف له كما يجب ، وظل في جهاد حتى قتل غدراً بيد خارجي مارق اسمه عبدالرحمن بن ملجم . نقص قصته فيما يأتي :



(٤٢٩) أسد الغابة ٣ / ٣٥٠

مقتله

قتل الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ بيد خارجى مارق يدعى عبدالرحمن ابن ملجم المرادى .. ويستدعى ذلك الإشارة إلى هؤلاء الخوارج الذى فرقوا كلمة المسلمين وشقوا عصا الطاعة على الإمام ..

حين دارت معركة صفين بين أنصار على ومعارضيه وأنصار معاوية بن أبى سفيان غلب أنصارُ على وولى معارضوه الفرار ، فلجأ بعض المعارضين إلى حيلة توقف القتال الدائر ، وهى حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح ، ويعنون بذلك : أن كفوا عن القتال ولنحتكم إلى كتاب الله ،

وفهم على بن أبى طالب هذه الخدعة ، فحذر أصحابه من قبولها ، وقال لهم : هذه كلمة حق يراد بها باطل ، والله إنهم مارفعوها إلا خديعة ودهاء ..

ولكن قوماً من أنصار على كان يطلق عليهم القرّاء كفوا عن القتال وقالوا : ياعلى أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه ، والا دفعناك برُمّتك إلى القوم ...... وصمموا على الاستجابة إلى التحكيم ، ووقف القتال .

قال على : فاحفظوا عنى نهيى إياكم واحفظوا مقالتكم لى . إنه تحذير لهم ، وتذكير لهم فيما بعد حين يندمون على مخالفتهم ، ويحاولون إلقاء اللوم عليه فى الفشل المترتب عن مشورتهم ..

وبالفعل أجبروه على أن يكف عن القتال ..

وجاءت قصة التحكيم ، وأراد على أن يمثله ابن عباس ولكن هؤلاء

القراء أنفسهم أجبروه على أن يختار أبا موسى الأشعرى ، واختار معاوية عمرو بن العاص . . .

واتفق الحكمان أبوموسى وعمرو أن يخلعا عليا ومعاوية ليختار المسلمون خليفة يرتضونه .

وبدأ أبوموسى فقال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله - صلى الله عليه وسلم - : أيها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لها ، ولا ألم لشعثها من رأى اتفقت عليه أنا وعمرو ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ونترك الأمر شورى ، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا عليهم من أحبوه ، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية . ثم تنحى .

ثم جاء عمرو فقام مقامه وقال : قد قال ماسمعتم ، وإنه قد خلع صاحبه ، وأنا قد خلعته كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية فإنه ولىّ عثمان بن عفان ، والطالب بدمه وهو أحق الناس بمقامه . .

وثارت الفتنة ، وحدث الهرج . . وأسقط فى يد القراء الذين أجبروا علياً على قبول التحكيم أولا ، وعلى اختيار أبى موسى ثانيا ، فخرجوا على علىٍّ - رضى الله عنه - وبالغوا فى النكير عليه . . . وجاءه وفد منهم برئاسة رجلين هما : زرعةُ بن البرج الطائى ، وحرقوص بن زهير السعدى فقالا له : لاحكم إلا لله . فقال على : لاحكم إلا لله .

فقال له حرقوص : ارجع عما كان واذهب بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا .

فقال على : قد أردتكم على ذلك فأبيتم ، وقد كتبنا بيننا وبين القوم

عهوداً وقد قال الله ـ تعالى ـ

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم »

فقاا، حرقوص : ذلك ذنب ينبغى أن نتوب منه

فقال على ، ماهو بذنب ولكنه عجز فى الرأى . . . وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه .

فقال له زرعة : أما والله ياعلى لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله لأقاتلنك أطلب بذلك رحمة الله ورضوانه .

فقال له على : تباً لك ماأشقاك ، كأنى بك قتيلاً تسفى عليك الريح

قال : وددت أن قد كان ذلك .

فقال على : إنك لو كنت محقاً كان فى الموت تعزية عن الدنيا ، ولكن الشيطان قد استهواكم . .

فخرج الرجلان من عند على ثائرين عليه ، وجعلا يثيران الفتنة والعصيان ضده ، ويسبانه ويشتمانه . .

واشتد أمر الخوارج وعاثوا فى الأرض فساداً ، وجمعوا جموعهم لمحاربة على ، وساروا إليه ، فلقوا فى طريقهم عبدالله بن خباب ـ صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسروه وامرأته معه وهى حامل .

فقالوا له : من أنت ؟

قال : أنا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنكم قد روعتمونى .

فقالوا : لابأس عليك ، حدثنا ماسمعت من أبيك .

قال : سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعى .

فاقتادوه بيده ، فبينما هو يسير معهم إذ لقى بعضهم خنزيراً لبعض أهل الذمة ، فضربه فشق جلده .

فقال له آخر : لم فعلت هذا وهو لذمى ؟ فذهب إلى ذلك الذمى فاستسمحه وأرضاه .

وبينما هو معهم إذ سقطت تمرة من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها فى فمه ، فقال له آخر : بغير إذن ولاثمن ؟

فألقاها الرجل من فمه .

ومع هذا قدموا عبدالله بن خباب فذبحوه ، وجاءوا إلى امرأته ، فقالت : إنى امرأة حبلى ، ألا تتقون الله ؟

فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها . .

فقال بعض الناس : عجباً لهؤلاء يقتلون ابن الصحابي ويذبحون زوجته ، ويسترضون الذمى فى خنزير ؟ ؟

فلما بلغ الناس هذا من صنيعهم خافوا إن ذهبوا إلى الشام ، واشتغلوا بقتال أهله أن يخلفهم هؤلاء فى ذراريهم وديارهم بهذا الصنع ، فخافوا غائلتهم . .

ووجد علىٌ ألاّ بد من قتال هؤلاء لأن الفتنة منهم أعم ، والشر منهم أكثر . . فسار إليهم وحاربهم فى النهروان وقتل منهم عدداً كثيراً . مما أدى

إلى حقد هؤلاء عليه فعزموا على اغتياله ، واختاروا لذلك ـ عبدالرحمن بن ملجم .(٤٣٠)

ولقد كان على يتوقع أن يحدث له ذلك ، فقد أخبره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم : « لاتموت حتى تُضرب ضربة على هذه فتخضب هذه ـ وأومأ إلى لحيته وهامته ـ ويقتلك أشقاها ، كما عقر ناقة الله أشقى بنى فلان من ثمود »(٤٣١)

وحدث أبو الأسود ـ الدؤلى ـ عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : أتانى عبدالله بن سلام وقد وضعت رجلى فى الغَرْز ، فقال لى : لاتقدم العراق ، فإنى أخشى أن يصيبك فيها ذباب السيف ، فقال على : وأيم الله لقد أخبرنى به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال أبو الأسود : فما رأيت كاليوم قط محاربا يخبر بذلك عن نفسه . .

ثم قال على : قال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من أشقى الأولين ؟ »

قلت : عاقر الناقة .

قال : « فمن أشقى الآخرين ؟ »

قلت : لاعلم لى يارسول الله

قال : « الذى يضربك على هذا وأشار إلى يافوخه .

---

(٤٣٠) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٠٨ ومابعدها . .

(٤٣١) أسد الغابة جـ ٤ ص ١١٦

وكان يقول : وددت أنه قد انبعث أشقاكم ، فخضب هذه من هذه ، يعني لحيته ورأسه[٤٣٢]

أما كيف قتله ذلك الخارجي فلنقرأ ماكتبه ابن كثير حول ذلك - قال : تعاقد ثلاثة من الخوارج هم عبدالرحمن بن عمرو - المعروف بابن ملجم الحميري ثم الكندي - والبَرك بن عبدالله التميمي ، وعمرو بن بكر التميمي أيضاً . على أن يقتلوا علياً ومعاوية وعمرو بن العاص .

قال ابن ملجم : أنا أكفيكم علياً ، وقال البرك : وأنا أكفيكم معاوية ، وقال عمرو بن بكر : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص .

وأخذوا أسيافهم فسقوها السم ، وتواعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يبيت كل منهم لصاحبه في بلده الذي هو فيه .

وسار ابن ملجم إلى الكوفة وكتم أمره حتى عن أصحابه الخوارج ، فبينما هو جالس في قوم من بني الرباب يتذاكرون قتلاهم يوم النهروان ، إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها قطام بنت الشجنة ، قتل أبوها وأخوها في ذلك اليوم . وكانت فائقة الجمال مشهورة به ، وكانت قد انقطعت في المسجد الجامع تتعبد فيه .

فلما رآها ابن ملجم سلبت عقله ونسي حاجته التي جاء من أجلها ، وخطبها إلى نفسها ، فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم وخادما وقنية ، وأن يقتل لها علي بن أبي طالب .

---

(٤٣٢) مجمع الزوائد - باب وفاة علي رضي الله عنه ١٣٦/٩

قال : فهو لك ، ووالله ماجاء بى إلى هذه البلدة إلا قتل على .

فتزوجها ودخل بها . ثم شرعت تحرضه على ذلك ، وندبت له رجلاً من قومها اسمه وردان ليكون معه ردءاً ، واستمال هو رجلاً آخر اسمه شبيب ابن نجدة الأشجعى .

وجاءت الليلة الموعودة ، ودخل ابن ملجم وصاحباه المسجد ، وجلسوا مقابل السدة التى يخرج منها على ، فلما خرج على جعل ينهض الناس من النوم إلى الصلاة ، وهو يقول : الصلاة الصلاة . فثار شبيب بالسيف فضربه فوقع فى الطاق ، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته .

وقال ابن ملجم وهو يضربه : لاحكم إلا لله ليس لك ياعلى ولا لأصحابك وجعل يقرأ .... « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد »

ولم يدر هذا الشقى أن هذه الآية إنما نزلت فى حق على .. لقد أراد ابن ملجم أن ينسب هذا الشرف لنفسه زورا وبهتانا ..

ونادى على ... عليكم به .. فأُمسك ابن ملجم وهرب شبيب ، وقُتل وردان .. وأمر علىٌّ جعدة بن هبيرة أن يصلى بالناس .

وحُمل على ـ رضى الله عنه ـ إلى منزله واقتيد إليه عبدالرحمن بن ملجم مكتوفاً فأوقف بين يديه ، فقال له على : أى عدو الله ألم أحسن إليك ؟

قال : بلى .

قال له : فما حملك على هذا ؟

قال اللعين : شحذت السيف أربعين صباحاً ، وسألت الله أن أقتل به شر الناس .

فقال له علي : ماأراك إلا مقتولاً به ، ولا أراك إلا من أشر خلق الله .

ثم قال علي : إن مت فاقتلوه ، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به .

وفي رواية قال علي لأصحابه : أطيبوا طعامه وألينوا فراشه ، فإن أعش فأنا ولي دمي : عفو ، أو قصاص - وإن أمت فألحقوه بي أخاصمه عند رب العالمين[٤٣٣]

وقد قال ابن مياس المرادي الشاعر في هذه القصة :

فلم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام بيّناً غير معجم

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بالحسام المصمم

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولافتك إلا دون فتك ابن ملجم[٤٣٤]

كان اغتيال علي بهذه الصورة في ليلة السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة

وقد أحس علي في تلك الليلة أنه سيموت . . . فقد أخبر الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال : أتيت أبي في السحر في تلك الليلة . فجلست إليه فقال : إني بت الليلة أوقظ أهلي فملكتني عيناي وأنا جالس ، فسنح لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يارسول الله ، لقيت من الناس كثيراً من الأَوَدِ ، فقال : « ادع عليهم » فقلت : اللهم أبدلني بهم خيراً

---

(٤٣٣) أسد الغابة ٤/١١٨

(٤٣٤) البداية والنهاية ٧/٣٢٩

منهم ، وأبدلهم بى من يقسو عليهم .

ومما يؤيد إحساسه بأنه سيلقى ربه فى خلال هذا الشهر ماحدث به عثمان بن المغيرة قال : لما دخل شهر رمضان جعل على يتعشى ليلة عند الحسن ، وليلة عند الحسين ، وليلة عند عبدالله بن جعفر لايزيد على ثلاث لقم ، ويقول : يأتى أمر الله وأنا خميص ـ جائع ضامر البطن ـ وانما هى ليلة أو ليلتان(٤٣٥)

وكانت الليلة الموعودة هى ليلة السابع عشر من رمضان .

لقد كانت هذه الرؤيا الخاطفة إعلاماً لعلى بأنه سوف يبدله الله بقومه خيراً منهم وهم أهل الجنة الذين سبقوه .

وسيلقى هؤلاء القوم بعده من هو شديد عليهم . . . وحينئذ سيعرفون أن علياً كان بهم رحيماً عادلاً .

وفى هذه الليلة مضى البرك بن عبدالله التميمى إلى معاوية فضربه بالسيف فأصاب فخذه ، ولم يقتله .

أما عمرو بن بكر التميمى فقد مضى إلى عمرو بن العاص ، ولكن فى هذه الليلة لم يخرج عمرو للصلاة بل خرج صاحب شرطته ويسمى خارجة بن أبى حبيبة من بنى عامر بن لؤى ، فقتله الخارجى وهو يظنه عمراً ومن هنا ضرب المثل المشهور : أردت عمراً وأراد الله خارجة . .

إخبار النبى عن الخوارج

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخبر عن هؤلاء الخوارج

---

(٤٣٥) أسد الغابة ٤/١١٨

ووصفهم ، وذكر أن علياً ـ رضى الله عنه ـ يقاتلهم ، فطوبى لمن عضده فى قتالهم .

روى ابن كثير حديث زيد بن وهب الجهنى أنه كان فى الجيش مع الذين ساروا إلى الخوارج ، فقال على : يأيها الناس ، إنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « يخرج قوم من أمتى يقرأون القرآن ، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء ، ولاصلاتكم إلى صلاتهم بشىء ، ولاصيامكم إلى صيامهم بشىء ، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم ، ولو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ماقضى لهم على لسان نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاتكلوا على العمل ، وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد على رأس عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض »

وإنى لأرجوا أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا فى سرح الناس ، فسيروا على اسم الله[436]

وفى رواية أخرى عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : إذا حدثتكم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلأنْ أخِرَّ من السماء أحب إلىَّ من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فإن الحرب خدعة . . . سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « يخرج قوم من أمتى فى آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البرية ، يقرأون القرآن لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من

---

(٤٣٦) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢٩١

الرمية ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجرا لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة »[٤٣٧]

ورواه الإمام أحمد أيضاً من طريق الوليد بن القاسم . قال : سار علىّ إلى النهروان وخرجنا معه لقتل الخوارج ، فقال : اطلبوا المخدج فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : سيجىء قوم يتكلمون بكلمة الحق لاتجاوز حلوقهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، سيماهم ـ أوفيهم ـ رجل أسود مخدج اليد ، فى يده شعرات سود ، إن كان فيهم فقد قتلتم شر الناس[٤٣٨]

ـ أما قتال علىّ لهؤلاء فقد أخبر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه أبو سعيد الخدرى قال : أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين . فقلنا : يارسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من ؟ قال : مع على بن أبى طالب[٤٣٩]

وروى أيضاً قال : كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانقطع شسعه ، فأخذها علىّ يصلحها ، فمضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « إن منكم رجلاً يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله » فاستشرف لها القوم .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لكنه خاصف النعل »

---

(٤٣٧) أخرجه الامام أحمد عن سويد بن غفلة وفى الصحيحين عن طريق الأعمش
(٤٣٨) البداية والنهاية جـ٧ ص ٢٩٢
(٤٣٩) أسد الغابة ٤/١١٤

فجاء فبشرناه بذلك ، فلم يرفع به رأساً ـ كأنه شيء قد سمعه من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٤٤٠] قبل ذلك .

وذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هؤلاء الخوارج أيضاً حين جاءه رجل من تميم اسمه « ذو الخويصرة التميمى » وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسم بعض الغنائم . فقال ذو الخويصرة : يارسول الله اعدل .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل » ؟
فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ ائذن لى يارسول بأن أضرب عنقه .

قال : « لا ، إن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كمروق السهم من الرمية ، ينظر إلى نصله فلايوجد فيه شيء ، وينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، وينظر إلى نَضيِّه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى قُذَذه فلا يوجد فيه شيء ، سبق الفرث والدم يخرجون على حين فرقة من الناس ، آيتهم رجل إحدى يديه مثل ثدى المرأة . . .

قال أبوسعيد : أشهد لقد سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشهد أنى كنت مع على ـ رضى الله عنه ـ حين قاتلهم فالتمس فى القتلى ، فأتى به على النعت الذى نعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٤٤١]

---

(٤٤٠) المرجع السابق
(٤٤١) أسد الغابة جـ٢ ص١٧٣
الرِصاف : جمع رَصَفة : عقب يُلوى على مدخل نصل السيف
النضِيّ : نصل السيف
القُذَذ : جمع قذة ـ هى ريش السهم

وحين قاتلهم على ـ رضى الله عنه ـ أراد أن يبحث عن ذلك الرجل الذى وصفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو « المخدج ذو الثُّدَيَّة » ، وقد قتل فيهم خلق كثير منهم قادتهم وأئمتهم ، كانوا زهاء أربعة آلاف لم يفلت منهم إلا عشرة ، وقتل من رجال علىٍّ تسعة .

فطلب جنود علىٍّ المخدج فلم يستطيعوا العثور عليه بين هذه الآلاف من القتلى .

فقام علىٌّ وعليه أثر الحزن لعدم وجود المخدج بين القتلى ، فانتهى إلى قتلى بعضهم على بعض .

فقال : أفرجوا هؤلاء القتلى ففرجوا يميناً وشمالاً ، واستخرجوه .
فقال على ـ رضى الله عنه ـ : الله أكبر ، ماكذبت على محمد ، وإنه لناقص اليد ليس فيها عظم ، طرفها حلمة مثل ثدى المرأة ، عليها خمس شعرات أو سبع رءوسها معققة .

ثم قال : ائتونى به ، فنظر إلى عضده ، فإذا لحم مجتمع على منكبيه كثدى المرأة عليه شعرات سود ، إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده الأخرى ، ثم تترك فتعود إلى منكبه ، فثنى رجله وخر ساجداً لله .
قال بعض أصحابه : قد قطع الله دابرهم آخر الدهر .

فقال على ـ رضى الله عنه ـ : كلا والذى نفسى بيده ، وإنهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء لاتخرج خارجة إلا خرجت بعدها مثلها . . [٤٤٢]

---

(٤٤٢) مروج الذهب للمسعودى جـ١ ص ٦٥٢

وصية على

وقد أوصى علىٌّ أولاده والمسلمين جميعاً لفظاً وكتابة . .

حدث الرواة قالوا : لما احتضر على ـ رضى الله عنه ـ جعل يكثر من قول لاإله إلا الله ، لايتلفظ بغيرها ، وقيل : إن آخر ماتكلم به قوله ـ تعالى ـ « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

وقد أوصى ولديه الحسن والحسين بتقوى الله والصلاة والزكاة وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتفقه فى الدين والتثبت فى الأمر ، والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش ،

ووصاهما بأخيهما محمد بن الحنفية ، ووصاه أيضاً بما وصاهما به ، وأن يعظمهما ولايقطع أمراً دونهما . وكتب ذلك كله فى كتاب وصيته ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ

لقد كتب فى هذه الوصية :

هذا ماأوصى به على بن أبى طالب ـ إنه يشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

أوصيك يا حسن وجميع ولدى من بلغه كتابى بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ـ فإنى سمعت أبا القاسم ـ ﷺ ـ يقول : « إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام » انظروا إلى ذوى أرحامكم فصلوهم ليهون عليكم الحساب ، الله

الله فى الأيتام . . . الله الله فى جيرانكم فإنهم وصية نبيكم . . . الله الله فى القرآن فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم ، الله الله فى الصلاة فإنها عمود دينكم ، الله الله فى بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم . . . الله الله فى شهر رمضان . . الله الله فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . . . الله الله فى الزكاة فإنها تطفىء غضب الرب . . . الله الله فى ذمة نبيكم لا تظلمن بين ظهرانيكم . . الله الله فى أصحاب نبيكم . . . الله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معاشكم . . الله الله فيما ملكت أيمانكم .

الصلاة الصلاة ، لا تخافن فى الله لومة لائم . . . وقولوا للناس حسنا . . ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيولى الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم .

وعليكم بالتواصل والتراحم ، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق ، وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ عليكم شرع نبيكم ، أستودعكم الله ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله .

ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله ، حتى قبض ـ رضى الله عنه وأرضاه . . وكانت ابنته أم كلثوم تبكى من وراء حجاب ، فسمعها فقال لها : اسكتى فلو ترين ما أرى ما بكيت .

فقال بعض الحاضرين من أصحابه : يا أمير المؤمنين ، وماذا ترى ؟ قال : هذه الملائكة وفود ، وهؤلاء الصالحون ، وهذا محمد ـ ﷺ ـ يقول : يا على أبشر ـ فما تصير إليه خير مما أنت فيه .

وأم كلثوم هذه هى التى كان قد تزوجها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

زوجات على وأولاده

زوجة على الأولى السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ ابنة خير البرية ـ ﷺ ـ وسيدة نساء العالمين .

ولم يتزوج عليها فى حياتها ، وقد أراد بنو مخزوم أن يزوجوا عليا إحدى بناتهم فغضب النبى ـ ﷺ ـ وقال فيما يحدث به الرواة : إنما فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها ، وقد بلغنى أن بنى مخزوم يريدون أن يزوجوا على بن أبى طالب ، فوالله لا أرضى . إلا إذا أراد أن يطلق ابن أبى طالب ابنتى ، فوالله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت أعداء الله فى بيت واحد أبدا ، فترك على الخطبة(٤٤٤)

وأولاد على من فاطمة ـ رضى الله عنها ـ هم : حسن ، وحسين ، ومحسن .

عن هانىء بن هانىء عن على قال : لما ولد الحسن جاء رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « أرونى ابنى ما سميتموه . . ؟ »

فقال على : سميته حربا .

فقال : « بل هو حسن »

فلما ولد الحسين ـ قال : « أرونى ابنى ما سميتموه ؟ »

فقال على : سميته حربا .

(٤٤٤) مشارق الأنوار للعدوى ١٤٣

فقال : « بل هو حسين »

فلما ولد الثالث جاء النبي - ﷺ - فقال : « أروني ابني ما سميتموه ؟ »

فقال علي : حربا .

فقال : « بل هو محسن » ثم قال : « سميتهم باسم ولد هارون - شبر وشبير ومشبر »[٤٤٥]

وقد مات محسن صغيراً - وقيل : أدرج سقطا .

كما أنجب علي من فاطمة - أيضا - زينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى . . وبعد وفاة فاطمة - رضي الله عنها - تزوج علي من خولة بنت جعفر بن قيس من بني حنيفة ، فولدت له محمداً الأكبر - الملقب بابن الحنفية .

كما تزوج ليلى بنت مسعود بن خالد من بني تميم ، وأنجب منها ولدين هما عبيد الله بن علي ، وأبو بكر بن علي . ولا عقب لهما .

الأول قتله المختار بن أبي عبيد ، والثاني قتل مع أخيه الحسين . . . . .

وتزوج علي أيضا - أم البنين بنت حزام بن خالد الكلابية ، أنجبت منه العباس الأكبر ، وعثمان ، وجعفر الأكبر ، وعبدالله ، وقد قتلوا جميعا مع الحسين ولا عقب لهم .

وأنجب علي محمداً الأصغر من أم ولد له . وقتل محمد الأصغر مع أخيه الحسين أيضا .

---

(٤٤٥) البداية والنهاية جـ٧ ص ٣٣١

وتزوج من أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأنجب منها محمد الأوسط .

وأنجب من أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفى بنتين ـ إحداهما اسمها : أم الحسن بنت على ، والأخرى اسمها رملة الكبرى .

ويقال إن له بنات آخريات من زوجاته وهؤلاء البنات هن أم هانىء ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم الصغرى ، وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، ونفيسة .

قال ابن سعد : وجميع ولد على ـ رضى الله عنه ـ لصلبه أربعة عشر ذكراً وتسع عشرة بنتا ..

وكان النسل الذى بقى من هؤلاء لخمسة : الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، والعباس ابن الكلابية ، وعمر ابن التغلبية[٤٤٦] ....

وبعد ، فالحديث عن الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ لا يمل ، وهو أبو الشجرة المباركة التى حفظ الله بها نسل رسول الله ـ ﷺ ـ تصديقا لحديثه الذى يقول فيه « إن الله جعل ذرية كل نبى فى صلبه وجعل ذريتى فى صلب على بن أبى طالب »[٤٤٧] ..

وقد عرضنا فى حديثنا الموجز هذا لبعض جوانب هذه الشخصية المتميزة ، ولكن هناك جوانب أخرى سوف يتناولها سياق الحديث عن أبنائه وإخوته فيما بعد إن شاء الله ..

---

(٤٤٦) الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٢ ـ المعارف لابن قتيبة

(٤٤٧) ذكره العدوى فى مشارق الأنوار عن ابن عباس رضى الله عنه ـ ص ١٤٧

جعفر بن أبى طالب

هو جعفر بن أبي طالب بن عبدالمطلب ـ واسم أبي طالب عبدمناف ـ بن هاشم وهو شقيق على ـ أمهما فاطمة بنت أسد بن هاشم . .

ولد قبل البعثة بإحدى وعشرين سنة تقريبا ـ وقد استشهد فى مؤتة سنة ثمان وكانت سنه إحدى وأربعين سنة .

وقال بعضهم : كانت سنه حين استشهد ثلاثا وثلاثين سنة ـ وعلى هذا يكون مولده قبل البعثة باثنى عشر عاما وربما كان القول الأول أرجح . . . وقد أسلم مبكراً بعد إسلام أخيه على بقليل

قيل : أسلم بعد واحد وثلاثين إنسانا . وهاجر إلى الحبشة مع زوجته البارة التقية أسماء بنت عميس التى أسلمت معه . . ولم يغضب أبوطالب لإسلام جعفر ، بل سره ذلك ، وربما شجعه عليه . . . . فقد قال الرواة : إن أبا طالب رأى النبى ـ ﷺ ـ يصلى وعلى يمينه على بن أبى طالب ، فقال لجعفر : يابنى صِلْ جناح ابْن عمك وصَلِّ عن يساره(٤٤٨)

كان جعفر أكبر من على بعشر سنين ، وكان أخوه عقيل أكبر منه بعشر سنين ، وكان أخوهم طالب أكبر من عقيل بعشر سنين .

وكان جعفر أشبه برسول الله ـ ﷺ ـ وقد قال له النبى ـ ﷺ ـ حين تنازع مع على وزيد بن حارثة على كفالة ابنة حمزة ـ رضى الله عنه ـ : « يا جعفر أشبه خُلقك خُلقى وخلْقك خلْقى »

---

(٤٤٨) أسد الغابة جـ ١١ ص ٤٣١

هجرته إلى الحبشة

هاجر جعفر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ، بعد أن أمعنت قريش فى إيذاء المسلمين .

يقول ابن هشام : فلما رأى رسول الله - ﷺ - ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر أن يدفع عن أصحابه ما هم فيه من البلاء قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله - ﷺ - إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة فى الإسلام .(٤٤٩)

كانت الهجرة الأولى تضم عشرة أنفس ، أمَّر النبى - ﷺ - عليهم عثمان بن مظعون .

قال ابن إسحاق : ثم خرج جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها . .

ولعل فى خروج جعفر بن أبى طالب بزوجته قدوة لغيره من المسلمين فى الهجرة بأنفسم إلى الله ، فقد كانت الهجرة مسلكا شريفا لذوى النفوس الكبيرة من الناس . ومامن نبى إلا وهاجر فى سبيل الله ، إيثارا لرضاء الله على التعلق بالأهل والوطن .

---

(٤٤٩) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٧٠

وحين هاجر عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت الرسول - ﷺ - إلى الحبشة فى الهجرة الأولى ، وأبطأ خبرهما عن النبى - ﷺ - قدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد قد رأيت ختنك - صهرك - ومعه امرأته .

قال - ﷺ - : « على أى حال رأيتها » ؟

قالت : رأيته قد حمل امرأته على حمار وهو يسوقها - فقال رسول الله - ﷺ - : « صحبهما الله ، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد نبى الله لوط عليه السلام »[٤٥٠]

وكان جعفر بن أبى طالب هو المتحدث باسم الإسلام فى الحبشة ، وهو الأمير على القوم المهاجرين ، وهو الذى تولى الرد على عمرو بن العاص حين أرسله قومه سفيرا ليرد المهاجرين إلى مكة .

قال الحافظ أبو نعيم فى سند متصل بأبى بردة عن أبى موسى قال : أمرنا رسول الله - ﷺ - أن ننطلق مع جعفر بن أبى طالب إلى أرض النجاشى ، فبلغ ذلك قريشا ، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ، وجمعوا للنجاشى هدية ، وقدما عليه ومعهم الهدية فقبلها ، وسجدا له .

ثم قال عمرو بن العاص : إن ناسا من أرضنا رغبوا عن ديننا وهم فى أرضك .

فقال لهم النجاشى : فى أرضى ؟

قال : نعم .

---

(٤٥٠) البداية والنهاية ٦٧/٣

قال أبو موسى : فبعث إلينا النجاشى . . .

فقال لنا جعفر : لا يتكلم منكم أحد ، أنا خطيبكم اليوم .

فانتهينا إلى النجاشى ، وهو جالس فى مجلسه ، وعمرو بن العاص عن يمينه ، وعمارة عن يساره ، والقسيسون جلوس سماطين .
وقد قال له عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك .

فلما انتهى المسلمون إلى النجاشى أمرهم مَنْ عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك .

فقال جعفر : لا نسجد إلا لله ـ عز وجل ـ
فلما انتهينا إلى النجاشى قال : ما منعك أن تسجد ؟
قال : لا نسجد إلا لله .

فقال النجاشى : وما ذاك ؟
قال جعفر : إن الله بعث فينا رسولا ـ وهو الرسول الذى بشر به عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه سيأتى بعده اسمه أحمد ـ وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر .

فأعجب النجاشى قوله .

فلما رأى ذلك عمرو بن العاص قال : أصلح الله الملك ، إنهم يخالفونك فى أمر عيسى بن مريم .

فقال النجاشى : فما يقول صاحبكم فى ابن مريم ؟

قال : يقول فيه قول الله : هو روح الله وكلمته أخرجه من العذراء البتول التى لم يقربها بشر . . .

فتناول النجاشى عوداً من الأرض فرفعه ، فقال : يا معشر القسيسين والرهبان ، ما يزيد هؤلاء على ما نقول فى ابن مريم ولا وزن هذه ـ مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده ، فأنا أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى ، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أتبعه وأقبل يديه ورجليه ـ أمكثوا فى أرضى ما شئتم .

قال أبوموسى : وأمر لنا بطعام وكسوة ، وقال : ردوا على هذين هديتهما .(٤٥١)

وفى رواية ابن إسحاق بسند إلى أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أن الذى أرسلته قريش ليرد المسلمين هو عمرو بن العاص ومعه عبدالله بن أبى ربيعة .

وقد حملا لكل بطريق من البطارقة هدية ، كما هيئا للملك هدية أخرى قيمة ، واستطاع عمرو وعبدالله أن يستميلا إليهما قلوب البطارقة فانحازوا إليهما . وحين كَلَّما الملك فى شأن المسلمين ، وطلبا منه ردهم إلى قومهم قال النجاشى : لا ، لعمر الله لا أردهم عليكم حتى أدعوهم فأكلمهم وأنظر ماأمرهم ، قوم لجئوا إلى بلادى واختاروا جوارى على جوار غيرى ، فإن كانوا كما يقولون رددتهم عليهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم ، ولم أدخل بينهم وبينهم . .

---

(٤٥١) ابن كثير فى البداية والنهاية ٢/٧٠ نقلاً عن دلائل النبوة لأبى نعيم الأصفهانى

ولما حضر القوم إلى مجلس الملك ، وسألهم عن أمرهم ودينهم ، قال جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - :

أيها الملك ، كنا قوما على الشرك ، نعبد الأوثان ونأكل الميتة ، ونسيء الجوار ، يستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها ، لا نحل شيئاً ولا نحرمه ، فبعث الله إلينا نبيا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته ، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونصل الأرحام ونحمي الجوار ، ونصلي لله - عز وجل ، ونصوم له ، ولا نعبد غيره .

قال : فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعبدنا الله وحده لا شريك له ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ليفتنونا عن ديننا ، ويردونا إلى عبادة الأوثان بدلا من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

قالت أم سلمة : فقال النجاشي لجعفر : هل معك شيء مما جاء به ؟ - وكان قد دعا أساقفته فأمرهم أن يكونوا بجانبه - فقال له جعفر : نعم . قال : فاتل على مما جاء به .

فقرأ عليه صدرا من سورة مريم . فبكى والله النجاشي ، حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى ابتلت كتبهم - ثم قال : إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى ، انطلقوا راشدين . . وقال لعمرو ،

وعبدالله بن أبي ربيعة : لا والله لا أردهم عليكم ولا أنعمكم عينا ـ قالت أم سلمة : فخرجنا من عنده ـ وكان أتقى الرجلين فى شأننا ـ عبدالله بن ربيعة ـ فقال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم ، فقال له عبدالله : لا تفعل ياعمرو فإن لهم أرحاما ، وإن كانوا قد خالفونا .

قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .
قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط ، فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه النجاشى ؟

قالوا : نقول والله ما قال الله وجاء به نبينا ، وليكن فى ذلك ما هو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ـ ﷺ ـ هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ما نقول فى عيسى بن مريم أكثر من ذلك ، ولا زنة هذا العود .
قالت : فصاحت بطارقته حوله حين قال ما قال . فقال : وإن غضبتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى ـ أى آمنون ـ من سبكم غرم ، ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم[٤٥٢]

وبقى جعفر بالحبشة حتى عاد إلى المدينة ـ والنبى ـ ﷺ ـ يغزو خيبر .

---

(٤٥٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٨

وشهد جعفر من النجاشى فى أثناء وجوده فى الحبشة ما يدل على إسلامه وفرحه بانتصار المسلمين فى بدر .

قال الحافظ البيهقى فى سند له متصل بجابر عن عبدالرحمن ـ قال : أرسل النجاشى ذات يوم إلى جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، فدخلوا عليه وهو فى بيت عليه خلفان ثياب ـ أى ثياب قديمة بالية ـ جالس على التراب .

قال جعفر : فأشفقنا عليه حين رأيناه على تلك الحال ، فلما أن رأى ما فى وجوهنا قال : إنى أبشركم بما يسركم ، إنه جاءنى من نحو أرضكم عين لى ، فأخبرنى أن الله قد نصر نبيه وأهلك عدوه ، وأسر فلان وفلان ، وقتل فلان وفلان ، التقوا بواد يقال له بدر ، كثير الأراك ، وانتصر أصحاب نبيكم على أعدائهم . .

فقال له جعفر : ما بالك تجلس على التراب ليس تحتك بساط ، وعليك هذه الأخلاط ؟

قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى أنه حقا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعا عندما يحدث لهم من نعمة . فلما أحدث الله نصر نبيه ـ ﷺ ـ أحدثت له هذا التواضع .(٤٥٣)

إن هذا الخبر يشير إلى أن النجاشى قد آمن بالنبى ـ ﷺ ـ وصدق به ـ ولولا ذلك ما فرح هذا الفرح الشديد ، الذى ظهر أثره فى شكر النعمة بتلك الصورة التى أخبر بها نبى الله عيسى ـ عليه السلام ـ فى الإنجيل .

---

(٤٥٣) البداية والنهاية جـ٣ ص ٣٠٧ ـ نقلاً عن دلائل النبوة للبيهقى

ولما كان لإعلان النجاشي إسلامه أثر عكسى على الحبشة فقد خرجوا عليه . وقالوا له ـ فيما أخبر به ابن إسحاق ـ : إنك قد فارقت ديننا ، واستعدوا لمحاربته . .

فأرسل النجاشي إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا ، وقال : اركبوا فيها ، وكونوا كما أنتم ، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا .

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه ـ أنه يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ، ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن .

وخرج إلى الحبشة ، وصَفُّوا له ـ فقال : يا معشر الحبشة ، ألست أحق الناس بكم ؟

قالوا : بلى

قال : فكيف رأيتم سيرتى فيكم ؟

قالوا : خير سيرة .

قال : فما لكم تقفون ضدى .

قالوا : فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد .

قال : فما تقولون أنتم فى عيسى ؟

قالوا : نقول هو ابن الله .

فقال النجاشي : ـ وقد وضع يده على صدره قِبَل الكتاب الذى خبأه ـ وهو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئاً . وإنما يعنى ما كتب ، فرضوا

بذلك وانصرفوا . فبلغ ذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما مات النجاشى صلى عليه النبى واستغفر له[٤٥٤] .

قدوم جعفر من الحبشة

وقدم جعفر ومن معه من الحبشة فى الوقت الذى أتم الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتح خيبر .

قال البخارى فى سند متصل بأبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : بلغنا مخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى أنا أصغرهم ـ أحدهم أبو بردة والآخر أبو رهم ، وكان معنا بضع وخمسون رجلاً من قومى ، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبى طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافقنا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين افتتح خيبر ، فكان أناس من الناس يقولون لنا ـ يعنى لأهل السفينة ـ سبقناكم بالهجرة .

ودخلت أسماء بنت عُميس ـ زوجة جعفر ـ على حفصة زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى الحبشة فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها .

فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟

قالت : أسماء بنت عُميس .

قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟

قالت أسماء : نعم .

---

(٤٥٤) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٩٠

قال : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم .

فغضبت أسماء ـ وقالت : كلا والله ، كنتم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم ، وكنا فى دار ـ أوفى أرض ـ البعداء بالحبشة ، وذلك فى الله وفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وايم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسأله ـ والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه .

فلما جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : يا نبى الله إن عمر قال كذا وكذا .

قالت ـ قال : « فما قلت له » .

قالت : قلت كذا وكذا .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليس بأحق بى منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأهل السفينة يأتونى أرسالاً يسألونى عن هذا الحديث ، ما فى الدنيا شىء هم أفرح به ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولقد فرح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلقاء جعفر فرحاً شديداً . فحين رآه التزمه وقبل بين عينيه وقال : « ما أدرى بأيهما أنا أُسَرّ ـ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ » .

وكان لهذه التحية أثرها فى نفس جعفر فقد قام فرحاً مسروراً . وهذا هو

الفرح الشرعى المطلوب الذى يفرح المؤمن فيه برحمة الله ورضوانه .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ ﴾ (٤٥٥)

وقَسَم النبى - صلى الله عليه وسلم - لجعفر وصحبه من غنائم خيبر .

مع الرسول فى عمرة القضاء

واصطحب النبى - صلى الله عليه وسلم - معه جعفر بن أبى طالب فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع .

وبعثه النبى - صلى الله عليه وسلم - بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث الهلالية فخطبها عليه ، فجعلت أمرها إلى العباس زوج أختها أم الفضل . . فزوجها من النبى - صلى الله عليه وسلم - وبنى بها النبى بمكان اسمه - سرف - بعد خروجه من مكة وإحلاله من العمرة .

وفى أثناء خروج النبى - صلى الله عليه وسلم - من مكة تبعته ابنة لحمزة ابن عبد المطلب وكانت تقيم بمكة وهى تنادى : يا عم يا عم . فتناولها على ابن أبى طالب ، فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك . فأخذتها فاختصم فيها كل من على وزيد وجعفر - كل يريد كفالتها - على يقول : أنا أخذتها وهى ابنة عمى .

وجعفر يقول : هى ابنة عمى وخالتها زوجتى .

وزيد يقول : هى ابنة أخى . لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان قد

---

(٤٥٥) يونس ٥٨

آخى بين زيد بن حارثة وحمزة بن عبد المطلب بعد الهجرة . .

وحين تنازع هؤلاء الثلاثة فى شأن هذه اليتيمة ورعايتها . قال النبى - صلى الله عليه وسلم - « أنا أحكم بينكم » . . . . أما أنت يا زيد فمولى الله ومولى رسول الله ، وأما أنت يا جعفر فتشبه خَلْقِى وخُلُقى ، وأنت يا جعفر أولى بها خالتها عندك - ولا تنكح المرأة على خالتها ولا على عمتها » .

فقضى بها لجعفر ، فلما قضى له بها قام جعفر فأثنى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

ثم قال جعفر للنبى - صلى الله عليه وسلم - تزوجها يا رسول الله .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - إنها « ابنة أخى من الرضاعة » ثم زوجها الرسول - صلى الله عليه وسلم - من سلمة بن أبى سلمة . وقال له : « هل جزيت سلمة . . ؟ ذلك أن سلمة هو الذى زوج أم سلمة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

جعفر فى مؤتة

كانت غزوة مؤتة فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة - وهى مكان إلى جهة البلقاء من أرض الشام - ولّى فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - زيد ابن حارثة على ثلاثة آلاف جندى ، وقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب فليرتض المسلمون من بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم .

فلما حان خروجهم أقبل الناس يودعونهم ، وأقبل عبد الله بن رواحة يبكى فقالوا : ما يبكيك يابن رواحة ؟

قال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ (٤٥٦)

فلست أدرى كيف لى بالصدور بعد الورود ؟

هذا هو الورع الذى يحمل على تدبر معانى القرآن والتفكر فى أمر الآخرة .

فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين .

فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أو طعنة بيدى حرَّان مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثى ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

واتجه الجيش إلى غايته ، حتى وصلوا إلى « معان » من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل « مآب » من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليه من القبائل العربية الموالية له مائة ألف آخرون .

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا فى ـ معان ـ ليلتين ينظرون فى أمرهم ـ فمن قائل : نكتب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا برجال أو يأمرنا بأمر فنمضى له .

---

(٤٥٦) مريم ٧٦

ولكن عبد الله بن رواحة قال : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم من أجلها ..

تطلبون الشهادة ـ ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا عدة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين ؛ إما ظهور وإما شهادة .

فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .

ومضى الجنود حتى كانوا بتخوم البلقاء ، فلقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها « مشارف » .

ودنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ..

وتقدم زيد بن حارثة فقاتل قتالاً شديداً حتى استشهد . وأخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب وكان يمتطى فرساً له شقراء فلما استمر القتال نزل عن الفرس ، وأخذ يقاتل القوم وهو يرتجز قائلاً :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
علىَّ إن لاقيتها ضرابها

وكان جعفر يحمل اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ـ وهذا فى رأى بعضهم كما سبق ـ فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء .

وحمل اللواء بعده عبدالله بن رواحة وقاتل حتى قتل .

ثم اصطلح المسلمون على اختيار خالد بن الوليد أميرا عليهم ، فوضع

خطته البارعة التى استطاع أن ينجى بها المسلمين ، وعاد إلى المدينة بالجيش ليلقبه النبى - ﷺ - بسيف الله المسلول .

لقد كانت هذه المعركة اختبارا لقوة المسلمين فى ملاقاتهم الروم ، وهى أول معركة يلتقون فيها معهم . وقد نجح المسلمون فيها نجاحا عظيما . لقد أبلوا بلاء حسنا ، وأصابوا من عدوهم أضعاف أضعاف ما أصاب منهم ، على الرغم من كثرة العدو وقلة عدد المسلمين . .

وأبدى جعفر فى هذه المعركة بطولة خارقة . . . . فعن عبدالله بن عمر - فيما يرويه البخارى قال : كنت فيهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا فى جسده بضعا وتسعين من ضربة ورمية . . ليس فيها طعنة أو رمية فى ظهره . .

النبى يخبر أصحابه بالموقعة :

لقد كان جعفر - رضى الله عنه - بطلا شجاعا لا يخشى ، الحرب ويحب النزال . . . . .

قال أبو قتادة فارس رسول الله - ﷺ - : بعث رسول الله - ﷺ - جيش الأمراء وقال : عليكم زيد بن حارثة - وقال : إن أصيب زيد فجعفر ، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة ، فوثب جعفر وقال : يا رسول الله ماكنت أرهب أن تستعمل زيدا علىّ - قال النبى - ﷺ - : « امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير » فانطلقوا فلبثوا ما شاء الله . . . فصعد المنبر ، فأمر فنودى : الصلاة جامعة .

فاجتمع الناس على رسول الله - ﷺ - فقال : « أخبركم عن جيشكم

هذا ـ إنهم انطلقوا فلقوا العدو ، فقتل زيد شهيداً ـ ثم استغفر الرسول له ، ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم فقتل شهيداً ـ ثم استغفر له ـ ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً ـ فاستغفر له ـ ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء ـ بل أمّره المقاتلون ـ ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « اللهم إنه سيف من سيوفك أنت تنصره » فمن يومئذ سمى خالد : سيف الله .(٤٥٧)

النبى ينهى عن الجزع على جعفر ورفاقه :

قال الواقدى : أمهل النبى ـ ﷺ ـ آل جعفر ثلاثا أن يأتيهم ، ثم أتاهم ، فقال : « لا تبكوا على أخى بعد اليوم » .

ثم قال عليه الصلاة والسلام ـ « ائتونى ببنى أخى قال عبدالله بن جعفر : فجىء بنا كأننا أفراخ ـ فقال : ـ ﷺ ـ « ادعوا إلىّ الحلاق » فدعى ، فحلق رءوسنا . فقال : « أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب وأما عبدالله فشبيه خَلْقى وخُلُقى » ثم أخذ بيده فأشالها ، وقال ، « اللهم اخلف جعفرا فى أهله ، وبارك لعبدالله فى كل شأنه ـ ثلاث مرات ـ قال : ثم جاءت أمنا فذكرت يتمنا وجعلت تُفْرِحُ له .(٤٥٨)

فقال : « آلعيلة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة ؟ »(٤٥٩)

ولقد حزن النبى ـ ﷺ ـ على هؤلاء الأبطال حزنا شديدا .

---

(٤٥٧) البداية والنهاية نقلاً عن البيهقى ، قال ورواه النسائى من حديث عبدالله بن المبارك
(٤٥٨) تُفْرِح من أفرح اذا غم . الهمزة للإزالة أى أزال عنه الفرح
(٤٥٩) طبقات ابن سعد ٢٥/١/٤

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : لما جاء نعى جعفر وزيد وعبدالله بن رواحة ـ جلس رسول الله ـ ﷺ ـ يُعرف فى وجهه الحزن .

قالت عائشة : وأنا أطّلع عليه من شق الباب ، فجاء رجل فقال : يا رسول الله ـ إن نساء جعفر قد لزمن بكاءهن ، فأمره رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينهاهن .

قالت : فذهب الرجل ثم جاء ، فقال : أنى قد نهيتهن وإنهن لم يُطِعْنه . فأمره رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينهاهن الثانية ، فذهب الرجل ثم جاء ، فقال : والله لقد غلبننى ـ فأمره رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينهاهن .

قالت عائشة : فذهب ثم أتاه فقال : والله يا رسول الله لقد غلبننى فَزَعمتُ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : أحثُ فى أفواههن التراب ـ فذهب الرجل إليهن ـ ربما ليفعل ذلك . فقالت عائشة للرجل أرغم الله أنفك ما أنت بفاعل .

لقد رخص لهم النبى ـ ﷺ ـ فى البكاء ثلاثة أيام ثم نهى عن البكاء بعد ذلك .

روى الحكم بن عبدالله بن شداد عن أسماء أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما أصيب جعفر : « سمح لها بالبكاء ثلاثة أيام . . »

وذلك لشدة حزنها على جعفر أبى أولادها ، ويحتمل أن يكون أمرا لها بالمبالغة فى الإحداد ثلاثة أيام ، ثم تصنع بعد ذلك ما شاءت مما تفعله المعتدات على أزواجهن من الإحداد المعتاد .

ولقد رثت أسماء زوجها قائلة :

فآليت لا تنفك عينى حزينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
فلله عينا من رأى مثله فتى أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا [٤٦٠]

فضائل جعفر :

لقد كان جعفر بن أبى طالب من خيرة شباب قريش ، وبنى هاشم . .
روى عكرمة عن أبى هريرة قال : « ما احتذى النعال ولا انتعل ولا ركب المطايا ولا لبس الكور بعد رسول الله - ﷺ - أفضل من جعفر .

وحدث أبو سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : كان خير الناس للمساكين جعفر بن أبى طالب ، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان فى بيته ، حتى إن كان ليخرج إلينا فى بعض الأحيان - كل ما فى بيته .[٤٦١]

ولقد شهد النبى - ﷺ - له بالجنة - فقال : « رأيت جعفراً يطير فى الجنة مع الملائكة » .

وكان عمر إذا سلم على عبدالله بن جعفر يقول له : السلام عليك يا ابن ذى الجناحين - وكان ابن عمر يقول له ذلك أيضا .[٤٦٢]

وقد رثاه حسان بن ثابت فقال فى رثائه :
ولقد بكيت وعزَّ مهلك جعفر حبُّ النبى على البرية كلها
ولقد جزعت وقلت حين نعيت لى من للجلاد لدى العُقاب وظلها

---

(٤٦٠) الطبقات ٤/ ٢٧
(٤٦١) انظر الطبقات ٤/ ٢٨
(٤٦٢) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٥٦

بالبيض حين تُسَلُّ من أغمادها ضـربا وإنهال الرماح وعَلَّهـا
بعد ابن فاطمة المبارك جعفر خيـر البريـة كلهـا وأجلهـا
رزءاً وأكرمها جميعاً محتداً وأعزهـا متظـلما وأذلَّهـا
للحق حين ينوب غير تنحل كذبا وأنداهـا يـدا وأقلَّهـا
فحشا وأكثرها إذا ما يحتذى فضـلا وأنداهـا يـداً وأبلَّها
بالعـرف غيـر محمـد لا مثلـه حـيٌّ من أحيـاء البريـة كلها

وقال شاعر من المسلمين يرثي جعفرا مع أمراء المسلمين فى مؤتة :

كفى حزنا أنى رجعت ، وجعفر وزيـد وعبـد الله فى رمس أقبر
قضوا نحبهم لما مضـوا لسبيلهم وخُلِّفْتُ للبلوى مع المتغير[٤٦٣]

ومما قصه ابن كثير أيضا فى فضل هؤلاء الثلاثة : جعفر وزيد وعبدالله : ما أخبر به النبى - ﷺ - ورواه أبو أمامة الباهلى - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « بينا أنا نائم إذ أتانى رجلان فأخذا بضَبُعى ، فأتيا بى جبلا وعرا ، فقالا : اصعد ، فقلت : لا أطيقه .

فقالا : إنا سنسهله بمشيئة الله .

قال : فصعدت حتى إذا كنت فى سواء الجبل إذا أنا بأصوات شديدة .

فقلت : ما هذه الأصوات ؟

فقالا : عواء أهل النار .

ثم انطلقا بى ، فإذا بقوم معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم ، تسيل

---

(٤٦٣) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٥٨

أشداقهم دما فقلت : ما هؤلاء ؟

فقالا : هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم ـ فقلت : خابت اليهود والنصارى .

ثم انطلقا بى فإذا قوم أشد انتفاخا وأنتن شىء ريحا ، كأن ريحهم المراحيض ، قلت : من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء قتلى الكفار .

ثم انطلقا بى فإذا بقوم أشد انتفاخا وأنتن شىء ريحا كأن ريحهم المراحيض ، قلت : من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء الزانون والزوانى .

ثم انطلقا بى فإذا بنساء ينهش ثديهن الحيات . فقلت : ما بال هؤلاء ؟

قالا : هؤلاء اللاتى يمنعن أولادهن ألبانهن دون عذر .

ثم انطلقا فإذا بغلمان يلعبون بين بحرين ، فقلت : من هؤلاء ؟

قالا : هؤلاء ذرارى المؤمنين .

ثم أشرفا بى فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر لهم ، فقلت : من هؤلاء ؟

قالا : هذا جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة .

ثم أشرفا بى شرفا آخر فإذا أنا بنفر ثلاثة فقلت : من هؤلاء ؟

قالا : هذا إبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ وهم ينتظرونك .(٤٦٤)

---

(٤٦٤) المرجع السابق ص ٢٥٩

وقال حسان أيضا فى جعفر : ـ

أغر كضوء البدر من آل هاشم أبى إذا سيم الظلامة مجسر
فطاعن حتى مال غير موسد بمعترك فيه القنا متسكر
فصار مع المستشهدين ثوابه جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى فى جعفر من محمد وفاء وأمرا جازما حين يأمر
وما نال فى الإسلام من آل هاشم دعائم عز لا يزلن ومفخر
هو جبل الإسلام والناس حولهم رُضَام إلى طود يروق ويبهر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ومنهمو عقيل وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرج اللأواء فى كل مأزق عَمَاسٍ[٤٦٥] إذا ما ضاق بالناس مصدر
هم أولياء الله أنزل حكمه عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر

أما كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فقال :

صلى الإله عليهم من فتية وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم حذر الردى ومخافة أن ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم أسد عليهن الحديد المرسل
إذ يهتدون بجعفر ولوائه قدام أولهم فنعم الأول
حتى تفرجت الصفوف وجعفر حيث التقى وعث الصفوف مجدل
فتغير القمر المنير لفقده والشمس قد كسفت وكادت تأفل
قرم على بنيانه من هاشم فرعا أشم وسؤددا ما ينقل

---

(٤٦٥) عماس : مظلم

قوم بهم عصم الإله عباده وعليهم نزل الكتاب المنزل
فضلوا المعاشر عزة وتكرما وتغمدت أحلامهم من يجهل
لا يطلقون إلى السفاه جباهمو وترى خطيبهم بحق يفصل
بيض الوجوه ترى بطون أكفهم تندى إذا اعتذر الزمان الممحل
وبهديهم رضى الإله لخلقه وبجدهم نصر النبى المرسل.[٤٦٦]

رحم الله جعفر بن أبي طالب ورضي عنه . لقد قال عنه النبى - ﷺ - فيما يرويه عبدالله بن مُلَيل عن على - قال رسول الله - ﷺ - : « لم يكن قبلى نبى إلا قد أعطى سبعة رفقاء نجباء وزراء - وإنى أعطيت أربعة عشر : حمزة وجعفر وعلى وحسن وحسين وأبوبكر وعمرو والمقداد وحذيفة وسلمان وعمار وبلال »

قال محقق كتاب أسد الغابة : هؤلاء اثنا عشر ويبقى اثنان هما : عبدالله ابن مسعود وأبوذر[٤٦٧]

وحين رأى النبى - ﷺ - ابنته فاطمة تبكى على جعفر وتقول : واعماه ، قال : « عَلَى مِثْل جعفر فلتبك البواكى »[٤٦٨]

وفى شأن آل جعفر قال النبى - ﷺ - موصيا برعايتهم : - « لا تغفلوا آل جعفر فإنهم قد شغلوا » وفى رواية فى سيرة ابن هشام « لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم »[٤٦٩]

---

(٤٦٦) البداية والنهاية ٤/٢٦٠
(٤٦٧) أسد الغابة جـ ١ ص ٣٤٢
(٤٦٨) المرجع السابق ص ٣٤٣
(٤٦٩) السيرة ٢/٣٨١

وفى ذلك تشريع بمواساة أهل الميت وإعداد الطعام لهم رحمة بهم وعطفا عليهم ..

أولاد جعفر

أنزل النبى - ﷺ - عقب عودته من خيبر - جعفراً وأولاده - إلى جنب مسجده .... وقد ترك جعفر من الأولاد من زوجته أسماء بنت عميس : عبدالله ابن جعفر وعونا ومحمداً - ولد ثلاثتهم بالحبشة ..(٤٧٠)

والعقب لهؤلاء من عبدالله الذى تزوج زينب بنت على - رضى الله عنها - أما محمد وعون فلا عقب لهما(٤٧١)

وسوف نتحدث عن هؤلاء فيما بعد إن شاء الله - تعالى -



---

(٤٧٠) أسد الغابة ١٤/٧

(٤٧١) الطبقات ٢٢/٤

عقيل بن أبي طالب

هو عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب ـ وقد مر بنا أن أبا طالب اسمه عبدمناف ـ بن عبدالمطلب بن هاشم ـ

وعقيل أخو علي وجعفر لأبويهما . أمهم جميعا هي فاطمة بنت أسد بن هاشم .

ولهم أخ رابع هو طالب ـ منها أيضا .

وقد أسلمت فاطمة بنت أسد وحسن إسلامها وهاجرت ، وكان النبي ـ ﷺ ـ يقيل في بيتها ـ بيت عمه أبي طالب ـ وهي أول هاشمية ولدت خليفة وهو علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ

والدليل على أنها هاجرت ما رواه الأعمش في سند متصل بعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال : قلت لأمي فاطمة بنت أسد : اكفي فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ قضاء بعض الحاجيات وتكفيك فاطمة ـ الطحن والعجن .

وهو تنظيم تقتضيه الحياة التعاونية في الأسرة ، وفي هذا الخبر دليل آخر على أن فاطمة بنت أسد كانت تعيش مع ابنها علي ـ رضي الله عنه ـ في بيت واحد .

والهاشميات اللاتي ولدن خلفاء قليلات ، أولهن فاطمة بنت أسد هذه ـ أم علي وأم عقيل وأم جعفر ـ وبعدها فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ فقد ولدت الحسن الذي تولى الخلافة بعد أبيه علي ـ رضي الله عنهما ـ وبعدها زبيدة زوجة الرشيد التي ولدت الأمين . .

ويكل أسف لم تصف الخلافة لواحد من هؤلاء الثلاثة . فقد استشهد الإمام على بيد الخوارج كما سبق أن قدمنا . ومات الحسن ـ رضى الله عنه ـ مسموما بيد زوجه ـ كما سيأتى ، وحارب الأمين أخوه المأمون حتى أخذ الخلافة منه فى العصر العباسى .

وكانت فاطمة بنت أسد ـ رضى الله عنها ـ تكرم النبى ـ ﷺ ـ وتعظمه ، وحين توفيت كفنها النبى ـ ﷺ ـ فى قميص له ، ونزل فى قبرها وجزاها خيراً .

روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال الناس : لرسول الله ـ ﷺ ـ ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بهذه ؟

قال : إنه لم يكن بعد أبى طالب أبر بى منها ، إنما ألبستها قميصى لتكسى من حلل الجنة ، ونزلت فى قبرها لتهون عليها وحشة القبر » .(٤٧٢)

ويكنى عقيل بن أبى طالب ـ بأبى يزيد ـ وهو ولده من أم سعيد بنت عمرو . وسيأتى الحديث عن زوجاته وأولاده بعد .

إسلامه

يبدو أن عقيلا كان كعمه العباس الذى كان يعيش فى كنفه . . . . . كان يخفى إسلامه ، وقد أخرجه القرشيون معهم إلى بدر مكرها ، وأسر كما أسر عمه العباس . وافتداه العباس كما فدى نفسه .

ثم أتى مسلما إلى المدينة قبل الحديبية ، ثم هاجر إلى النبى ـ ﷺ ـ سنة

---

(٤٧٢) أسد الغابة جـ٧ ص ٢١٧

ثمان ، وشهد غزوة مؤته . ثم رجع إلى المدينة فعرض له مرض ، فلم يسمع له بذكر فى غزوة الفتح ولا حنين ولا الطائف - كما يقول البعض -

وقد أعطاه النبى - ﷺ - من خيبر مائة وأربعين وسقا كل سنة .

ولكن الراجح فى رأى أغلب الرواة . أنه شهد فتح مكة مع النبى - ﷺ - وشهد حنينا ، وكان أحد الذى ثبتوا مع النبى - ﷺ - والدليل على ذلك ما روته زوجته فاطمة بنت شيبة قالت : دخل عليها عقيل يوم حنين ، وسيفه متلطخ دماً - فقالت : ما أصبت من غنائم المشركين ؟ فناولها إبرة وقال : تخيطين بها ثيابك ، فسمع منادى النبى - ﷺ - يقول : « أدوا الخياط والمخيط » فأخذ الإبرة فألقاها فى الغنائم .[٤٧٣]

عقيل يوم بدر

حين خرج عقيل مع المشركين كرها - كما قلنا - أسر يوم بدر . . . . . فقال النبى - ﷺ - : « انظروا من ها هنا من بنى هاشم » قال راوى الحديث : فجاء على بن أبى طالب فنظر إلى العباس ونوفل وعقيل ، ثم رجع . - يعنى دون أن يكلمهم -

فناداه عقيل : ياابن أم على ، أما والله لقد رأيتنا .

فجاء رسول الله - ﷺ - حتى قام على رأس عقيل ، فقال : « أبا يزيد قتل أبو جهل »

قال عقيل : إن كنت أثخنت القوم وإلا فاركب أكتافهم .

---

(٤٧٣) أسد الغابة جـ ٧ ص ٢٢٧ - الاصابة لابن حجر جـ ٨ ص ٦٤

وفى رواية : قال عقيل : من قتلت من أشرافهم ؟

قال النبى - ﷺ - : « قتل أبو جهل »

قال عقيل : الآن صفالك الوادى . .(474)

وهذا الحوار يشير إلى أن عقيلا كان مسلما ولكنه يخفى إسلامه ، وكان يعلم ما يبيت أبوجهل للنبى - ﷺ - وصحبه من عداء ، ولذلك طلب عقيل من النبى - ﷺ - أن يستأصل شأفتهم .

أما فى مؤتة فقد روى ابن سعد أن عقيلا أصاب خاتما يوم مؤته كان فيه تماثيل ، فأتى به رسول الله - ﷺ - فنفله إياه ، فكان فى يده . . قال قيس ابن الربيع : فرأيته أنا بعد . أى رأيت الخاتم .

صفاته . .

عاش عقيل سنين طويلة ومات فى خلافة معاوية .

وكان سريع الجواب المسكت للخصم ، وله فى ذلك أشياء حسنة ، وكان أعلم قريش بالنسب ، وأعلمهم بأيام العرب ، وكان يعرف مفاخرهم ومساويهم ، وكانوا لا يحبون منه أن يذكر هذه المساوىء .

ولكنه كان يذكرها إذا اقتضى الموقف ذلك . . وكان بعضهم يكرهه من أجل تلك الصراحة .

. . وكانت له طِنْفَسه - بساط - تطرح له فى المسجد - مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويجتمع الناس إليه فى علم النسب وأيام العرب - وكان أحياناً يذكر بعض مثالب قريش فعادَوْه لذلك - كما ذكرنا - وقالوا فيه

(474) الطبقات 3/1/28

بالباطل ونسبوه إلى الحمق ، واختلقوا عليه أحاديث مُزَوَّرة . .

ويشير هذا إلى صراحته وعدم مواراته الأخبار ، لقد تعود أن يقول للناس ما لهم وما عليهم ، ولكن الناس لا يحبون ذلك ، إنما يحبون من يذكر الحسنات ويغضى عن السيئات .

وذكر الرواة أن دينا لزم عقيل بن أبى طالب ، فقدم على أخيه على بالكوفة فأنزله وأكرمه ، وأمر ابنه الحسن فكساه ، فلما أمسى دعا بعشائه ، فإذا خبز وملح وبقل .

فقال عقيل : ما هو إلا ما أرى ؟

قال على : لا ـ يعنى لا يوجد إلا ما تراه .

فقال عقيل لعلى : عَلَىَّ دين ـ اقضه عنى .

قال على : وكم دينك ؟

قال : أربعون ألفاً .

قال على : ما هى عندى ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائى ، فإنه أربعة آلاف فأدفعه إليك .

فقال عقيل : بيوت المال بيدك وتطلب منى أن أنتظر عطاءك .

فقال : أتأمرنى أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد ائتمنونى عليها ؟

قال : فإنى آتى معاوية ـ فأذن له .

فأتى معاوية . فقال له معاوية : يا أبا يزيد ، كيف تركت عليا وأصحابه ؟

قال عقيل : كأنهم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أنى لم أر

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم .

فلما كان الغد قعد معاوية على سريره ، وأمر بكرسي إلى جنب السرير ، ثم أذن للناس فدخلوا ، وأجلس الضحاك بن قيس معه على سريره .

ثم أذن لعقيل فدخل عليه .

فقال : يا معاوية ، من هذا الذى معك ؟

قال : الضحاك بن قيس .

فقال عقيل : الحمد لله الذى رفع الخسيسة وتمم النقيصة ـ هذا الذى كان أبوه يخصى بَهْمَنا بالأبطح ، لقد كان بخصائها رفيقاً .

فقال الضحاك : إنى لعالم بمحاسن قريش ، وإن عقيلا عالم بمساويها روى أبو صالح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان فى قريش أربعة يتنافر الناس إليهم ويتحاكمون : عقيل بن أبى طالب ، ومخرمة ابن نوفل الزهرى ، وأبو جهم بن حذيفة العدوى ، وحويطب ابن عبد العزى العامرى .

وكان الثلاثة يعدون محاسن الرجل إذا أتاهم ، فإذا كان أكثر محاسن نَفَّروه على صاحبه ، وكان عقيل يعد المساوىء ، فأيما كان أكثر مساوىء تركه ، فيقول الرجل : وددت أنى لم آته ، أظهر من مساوِىً ما لم يكن يعلم الناس .

وأعطى معاوية عقيلا خمسين ألف درهم ، فأخذها ورجع[٤٧٥] . .

---

(٤٧٥) أسد الغابة جـ ٤ ص ٦٤

ويروى المسعودى هذا الخبر بصورة أخرى فيقول :

وفد عقيل بن أبى طالب على معاوية بن أبى سفيان منتجعاً وزائراً ، فرحب به معاوية ، وسُرَّ بوروده ، وأوسعه حلماً واحتمالاً .. وقال له : يا أبا يزيد ، كيف تركت عليا ؟

قال : تركته على ما يحب الله ورسوله .

ثم أحب معاوية أن يقطع كلامه مخافة أن يأتى بشىء يخفضه ، فوثب عن مجلسه ، وأمر له بنزل ، وحمل إليه مالاً عظيماً .

فلما كان من غد جلس وأرسل إليه فأتاه ـ فقال له : يا أبا يزيد كيف تركت عليا أخاك ؟

قال : تركته خيراً لنفسه ولأصحابه ..

فقال له معاوية : أنت والله كما قال الشاعر :

وإذا عددت فخار آل محرق ... فالمجد منهم فى بنى عتاب

فمحل المجد من بنى هاشم منوط فيك يا أبا يزيد ، ما تغيرك الأيام والليالى .

لقد أراد معاوية أن يستميله إليه بكلام معسول . ولسان ذرب ، وعبارات رقيقة . ولكنَّ عقيلا صريح ذكى لا يخفى عليه مرمى الكلام ، ولا تغره عبارات الثناء ، ويعرف ما وراء ذلك مما تخفيه الصدور .. فقال لمعاوية :

اصبر لحرب أنت جانيها ... لابد أن تصلى بحاميها

وأنت والله يابن أبي سفيان كما قال الآخر :

وإذا جوازن أقبلت بفخارها ... يوماً فخرتهم بآل مجاشع
بالحاملين عن الموالي غُرْمَهم ... والضاربين الهام يوم الفارع

ولكن أنت يا معاوية ، إذا افتخرت بنو أمية فبمن تفخر ؟

فقال معاوية : عزمت عليك يا أبا يزيد إلا أمسكت ، فإني لم أجلس لهذا ، وإنما أردت أن أسألك عن أصحاب علي فإنك ذو معرفة بهم .

فقال عقيل : سل عما بدالك .

قال معاوية : ميز لي أصحاب علي ، وابدأ بآل صَوْحان[٤٧٦] فإنهم مخاريق الكلام .

قال عقيل : أما صعصعة فعظيم الشان ، عضب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ، يرتق ما فتق ، ويفتق ما رتق ، قليل النظير .

وأما زيد وعبد الله فإنهما نهران جاريان ، يصب فيهما الخلجان ، ويُغاث بهما البلدان ، هم رَجُال جد لا لعب معه ، وبنو صوحان كما قال الشاعر :

إذا نزل العدو فإن عندي ... أسوداً تخلس الأسد النفوسا

---

(٤٧٦) آل صوحان أخوة ثلاثة موالون لعلي بن أبي طالب ، وهم زيد وعبدالله وصعصعة أبوهم صوحان بن حجر بن الحارث من بني عبدالقيس وكان مع زيد راية عبدالقيس يوم الجمل

فاتصل كلام عقيل بصعصعة[٤٧٧] فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم - ذكر الله أكبر - وبه يستفتح المستفتحون ، وأنتم مفاتيح الدنيا والآخرة .

« أما بعد ، فقد بلغ مولاك كلامك ، فحمدت الله على ذلك ، وسألته أن يفيء بك إلى الدرجة العليا .

وإن الله قد رفع عنكم أهل البيت ما وضعه فى غيركم ، فما كان من فضل أو إحسان فبكم وصل إلينا .

« فأجَلَّ الله أقداركم ، وحمى أخْطَاركم ، وكتب آثاركم ، فإن أقداركم مرضية وأخطاركم محمية ، وآثاركم بدرية ، وأنتم سلم الله إلى خلقه ، ووسيلته إلى طرقه ، أيد عَليّه ، ووجوه جلية ، وأنتم كما قال الشاعر :

فما كان من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء أبائهم قَبْلُ
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه ... وتغرس إلا فى منابتها النخلُ[٤٧٨]

ومما يذكره ابن قُتَيْبة فى قصة هذا الحوار الذى دار بين عقيل ومعاوية ما يأتى :

---

(٤٧٧) وكان صعصعة مسلماً على عهد رسول الله ﷺ ولكنه لم يره ، وكان سيدا من سادات قومه ، فصيحا خطيباً لسنا فاضلاً ، وكان من أصحاب على وشهد معه حروبه . وصعصعة هو القائل لعمر بن الخطاب وقد ورد مال فقسمه وفضلت منه فضلة فاختلفوا أين نضعها ؟ ياأمير المؤمنين إنما تشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن ، فأما مانزل فيه قرآن فضعه مواضعه التى وضعها الله تعالى فيها فقال له عمر : صدقت أنت منى وأنا منك - فقسمه بين المسلمين - توفى أيام معاوية ولم يترجم ابن الأثير لصعصعة لأنه لم تؤثر عنه رواية .

(٤٧٨) مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ٢٨

قال : حدثنى أبو حاتم عن الأصمعى قال : ذهب عقيل إلى معاوية ودار بينهما حوار جاء فيه :

قال معاوية : يا أهل الشام ، إن عم هذا أبو لهب .

فقال عقيل : يا أهل الشام ، إن عمة هذا حمالة الحطب ، وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان وزوجة أبى لهب[٤٧٩] .

ولقد أراد معاوية يوماً أن يسمع من عقيل بعضا من مد اعباته التى غالبا ما تكون شديدة فقال ـ فيما يرويه صاحب العقد الفريد : أنتم يا بنى هاشم تصابون فى أبصاركم .

فقال له : وأنتم يا بنى أمية تصابون فى بصائركم[٤٨٠] .

ولكن ابن قتيبة ينسب هذا الخبر إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما[٤٨١] ـ ويبدو أن عقيلا أقام فترة ليست بالقصيرة عند معاوية ـ استطاع معاوية فيها أن يُفيد منه علماً وحكمة وتجربة كان يتميز بها عقيل .

فقد قال له يوماً : يا عقيل ، أى النساء أحب ؟

قال عقيل : المؤاتية لما تهوى .

قال : فأى النساء أسوأ ؟

قال عقيل : المجانبة لما ترضى .

قال معاوية : هذا والله النقد العاجل .

---

(٤٧٩) عيون الأخبار جـ٢ ص ١٩٧

(٤٨٠) العقد الفريد جـ٢ ص ١٣٣

(٤٨١) عيون الأخبار جـ٢ ص ٢١٠

فقال عقيل : بالميزان العادل[٤٨٢] .

إنها الكلمة الصائبة الموافقة التى تأتى عفو الخاطر دون إبطاء أو تَرَوٍّ ، وهذه شنشنة هاشمية ، توارثها الهاشميون كابراً عن كابر . .

قالت له هند بنت عتبة بن ربيعة يوماً ـ ربما قبل أن تسلم ـ يا بنى هاشم لا يحبكم قلبى أبداً ، إن أبى وعمى وأخى كأن أعناقهم أباريق فضة ترد أنوفهم قبل شفاههم .

فقال لها : إذا دخلت النار فخذى على يسارك .

يعنى أنك ستجدينهم فيها ، وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وقد قتلوا جميعاً يوم بدر كافرين ، قتلهم حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث وهم من بنى هاشم[٤٨٣] .

زوجات عقيل وأولاده

ولد عقيل بعدَ طالب بن أبى طالب بعشر سنين ، وولد جعفر بعد عقيل بعشر سنين ، وولد على بعد جعفر بعشر سنين . ولم يلحق طالب الإسلام ـ أو لحقه ولم يسلم كأبيه ـ

كان علىٌّ أصغر إخوته وأولهم إسلاما . . . .

وتزوج عقيل من النساء : أم سعيد بنت عمرو بن يزيد بن مدلج من بنى عامر بن صعصعة ـ وولدت له يزيد الذى كان يكنى به ، كما ولدت له سعيداً الذى كانت تكنى به أمه .

---

(٤٨٢) عيون الأخبار جـ ٤ ص ١٠

(٤٨٣) عيون الأخبار جـ ٤ ص ٦٠

وتزوج أم البنين بنت الثغر ـ وهو عمرو ـ بن الهصّار بن كعب بن عامر ابن عبد ـ من بنى عامر بن صعصعة أيضا .

وأنجبت له جعفر بن عقيل الأكبر وأبا سعيد الأحول .

وكانت له أم ولد اسمها خليلة أنجبت له مسلم بن عقيل ، وعبد الله ابن عقيل وعبد الرحمن بن عقيل وعبد الله الأصغر .

وكانت له أكثر من أم ولد أنجبن له أولاداً كثيرين ـ منهم على وجعفر الأصغر وحمزة وعثمان ومحمد ورملة . وأم هانى ، وأسماء ، وفاطمة ، وأم القاسم ، وزينب ، وأم النعمان ،

وسياق الحديث عن بعض أولاده إن شاء الله تعالى .

وكان النبى ـ ﷺ ـ يحب عقيلا ، ويقول له : يا أبا يزيد ـ إنى أحبك حُبّين ، حبًا لقرابتك ، وحباً لما كنت أعلم من حب عمى إياك .

لقد امتدت الحياة بعقيل حتى قال عطاء : رأيت عقيل بن أبى طالب شيخا كبيراً يُعين العرب ـ أى يقوم بسقايتهم ورفادتهم ـ ويبدو أن ذلك كان على بئر زمزم ـ فقد قال : وكان عليها غروب ودلاء ، قال ورأيت رجالا منهم بعد ، مامعهم مولى فى الأرض يلقون أرديتهم فينزعون فى القميص حتى إن أسافل قمصهم لمبتلة بالماء ، فينزعون قبل الحج أيام منى وبعده .

وكان عقيل قد فقد بصره قبل أن يموت فى خلافة معاوية .

وله دار بالمدينة فى البقيع واسعة كثيرة الأهل والجماعة[484]

---

(٤٨٤) الطبقات الكبرى جـ ٤ ص ٢٠

أولاد الحارث بن عبد المطلب

الحارث هو بِكْرُ عبد المطلب بن هاشم وبه كان يكنى .

وأعقب الحارث من الأولاد مايأتى :

نوفل بن الحارث . وكان أسنَّ إخوته ، وأسنَّ من أسلم من بنى هاشم - هو أسنُّ من حمزة ومن العباس . .

أمه غُزَيَّة بنت قيس بن طريف بن عبد العزى .

أسلم نوفل بن الحارث متأخرا ، وشهد بدراً مع المشركين ، وأسر ، وفداه عمه العباس ، وأسلم بعد فدائه

وقيل أسلم وهاجر أيام الخندق . . .

وقيل إنه هو الذى فدى نفسه ، ولم يفده العباس . فدى نفسه برماح كانت له . وآخى النبى - ﷺ - بينه وبين عمه العباس وكانا شريكين فى الجاهلية متفاوضين متحابين .

وشهد مع النبى - ﷺ - فتح مكة ، وكان معه يوم حنين ، وثبت مع الذين ثبتوا ، وشهد حصار الطائف .

وأعان النبى - ﷺ - يوم حنين بثلاثة آلاف رمح . فقال له النبى - ﷺ - : « كأنى أنظر إلى رماحك تقصف أصلاب المشركين »

ويقال : إن سبب إسلامه أنه حين أسر ببدر - قال له النبى ﷺ : « افد نفسك »

فقال : مالى مال أفتدى به نفسى .

فقال له النبى - ﷺ - : « افد نفسك برماحك التى فى جدة . . . .

فقال نوفل : والله ماعلم أحد أن لى بجدة رماحا بعد الله غيرى .

أشهد أنك رسول الله ، ففدى نفسه بها ، وكانت ألف رمح[٤٨٥]

ونوفل هو الذى عرض على النبى - ﷺ - أن يولى أبناءه عملا - فرفض النبى - ﷺ - فقد روى عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن نوفل ابن الحارث قال لابنيه : انطلقا إلى النبى - ﷺ - لعله يستعملكما على الصدقات .

فقال لهما رسول الله - ﷺ - : « لا أحل لكم أهل البيت من الصدقات شيئا ، ولاغسالة الأيدى ، إن لكم فى خمس الخمس مايكفيكم - أو يغنيكم[٤٨٦] »

وأبناء نوفل هم : -

الحارث - وكان يكنى به وكان رجلا على عهد رسول الله - ﷺ - وأسلم الحارث حين أسلم أبوه نوفل .

وكان له أيضا عبد الله بن نوفل وكان يشبه النبى - ﷺ - وهو أول من ولى القضاء بالمدينة فقال أبو هريرة حينئذ : هذا أول قاض رأيته فى الإسلام ، وذلك فى خلافة معاوية .

وله أيضا عبد الرحمن بن نوفل ، وربيعة بن نوفل ، وسعيد بن نوفل - وكان فقيها . . . .

---

(٤٨٥) أسد الغابة ٥/٣٦٩

(٤٨٦) المرجع السابق

ومن أولاده أيضا : المغيرة ، وأم سعيد ، وأم المغيرة ، وأم حكيم .

ومن أخبار نوفل بن الحارث أنه حين أخرجه المشركون من مكة إلى غزوة بدر أخرجوه ـ كرها ـ كما أخرجوا العباس وعقيل بن أبي طالب ـ فقال نوفل في ذلك :

حرام على حربُ أحمد إنني ... أرى أحمداً منى قريباً أواصره
وإن تك فِهْرٌ أَلَّبتْ وتجمعتْ ... عليه فإن الله لاشك ناصره

وحين أسلم قال مخاطبا المشركين :

إليكم إليكم إننى لست منكم ... تبرأت من دين الشيوخ الأكابر
لعمرك ماديني بشيء أبيعه ... وما أنا إذ أسلمت يوما بكافر
شهدت على أن النبي محمداً ... أتى بالهدى من ربه والبصائر
وأن رسول الله يدعو إلى التقى ... وأن رسول الله ليس بشاعر
على ذاك أحيا ثم أبعث موقنا ... وأثوى عليه ميتا فى المقابر(٤٨٧)

توفى نوفل بن الحارث فى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وتبعه عمر إلى البقيع بعد أن صلى عليه ـ رضى الله عنه ـ

٢ ـ ربيعة بن الحارث

ومن أولاد الحارث ربيعة بن الحارث ، وأمه غزية بنت قيس ـ فهو شقيق نوفل . وقيل ـ : إن اسمها عَزَّة بنت قيس بن طريف ، وكان ربيعة أَسَنُّ من عمه العباس بن عبد المطلب .

---

(٤٨٧) الطبقات ٤/٣١

وربيعة بن الحارث هو الذى قال فيه النبى - ﷺ - يوم فتح مكة : « الا كل دم ومأثرة كانت فى الجاهلية فهو تحت قدمى ، وإن أول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث »

وذلك أنه قتل لربيعة فى الجاهلية ولد اسمه آدم ، وقيل اسمه : إياس - فوضع النبى - ﷺ - دَمَه

وهو الذى قال النبى - ﷺ - فيه أيضا : « نعم الرجل ربيعة - لو قصر شعره وشمر ثوبه »

وكان ربيعة شريكاً لعثمان بن عفان - رضى الله عنهما - فى التجارة ، وأعطاه النبى - ﷺ - من خيبر مائة وسق ..... وروى ربيعة عن النبى - ﷺ - أحاديث منها : « إنما الصدقة أو ساخ الناس[٤٨٨]

وروى عنه ابنه عبد المطلب بن ربيعه

أولاد ربيعة

وكان لربيعة من الأولاد محمد ، وعبد الله ، والعباس ، والحارث وأمية ، وعبد شمس ، وعبد المطلب ، وأروى الكبرى - ويقال بل هند الكبرى ، وهند الصغرى . وأم هؤلاء جميعا أم الحكم بنت الزبير بن عبد المطلب وهى ابنة عمه .

وله أيضا أروى الصغرى - وأمها أم ولد ، وبها كان يكنى فيقال له : أبو اروى

---

(٤٨٨) أسد الغابة جـ٣٢ ص ٢١٠

وله أيضا : آدم بن ربيعة الذى أبطل النبى - ﷺ - دمه فى فتح مكة .

وكان آدم هذا مسترضعا فى هذيل ، فقتله بنوليث بن بكر فى حرب كانت بينهم . . وكان صبيا يلعب أمام البيوت فرموه بحجر فأصابه فرضخ رأسه فمات .

وقد قيل إن اسم هذا الصبى إياس ، وقال بعضهم : بل اسمه تمام ، وأن آدم كان تحريفا . وربما قرأ بعضهم قوله - ﷺ - : « دم ابن ربيعة » فزاد ألفا وقال : آدم بن ربيعة .

متى أسلم ربيعة ؟

حين خرج العباس بن عبد المطلب إلى بدر مع المشركين مكرها ، كان ربيعة بن الحارث غائبا بالشام ، فلم يشهد بدرا مع المشركين ، ثم قدم بعد ذلك . . .

وحين خرج العباس مهاجرا إلى رسول الله - ﷺ - ومعه نوفل بن الحارث - خرج ربيعة يشيعهما إلى الأبواء ، ثم أراد الرجوع إلى مكة فقال له العباس ونوفل : أين ترجع ؟ إلى دار الشرك الذين يقاتلون رسول الله ويكذبونه ، وقد عز رسول الله - ﷺ - وكثر أصحابه ، عد ربيعة فرجع وسار معهما حتى قدموا جميعا إلى رسول الله - ﷺ - وكان ذلك أيام الخندق . . . وأعطاه النبى - ﷺ - من خيبر مائة وسق كل سنة .

ثم شهد مع النبى - ﷺ - فتح مكة والطائف وحنين ، وثبت مع النبى - ﷺ - فى حنين .

وأقام بعد ذلك بالمدينة وبنى دارا بها . . . وتوفى فى خلافة عمر - رضى

الله عنه ـ بعد أخويه نوفل وأبي سفيان[489]

٣ ـ عبد الله بن الحارث

كان اسم عبد الله هذا ـ عبد شمس ، فغيره النبى ـ ﷺ ـ إلى عبد الله . وأمه أيضا غزية ـ أو عزة ـ بنت قيس بن طريف .

إسلامه

روى ابن إسحاق عن إسحاق بن الفضل عن أشياخه ـ أن عبد شمس بن الحارث خرج من مكة قبل الفتح مهاجرا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ مسلما ، فقدم على رسول الله ـ ﷺ ـ فسماه عبد الله ، وخرج مع الرسول فى بعض مغازية ، فمات بالصفراء . . .

والصفراء واد من ناحية المدينة كثير النخل والزرع بينه وبين بدر مرحلة .

ودفنه رسول الله ـ ﷺ ـ وكفنه فى قميصه ، وقال : هذا سعيد أدركته سعادة .

وليس لعبد الله بن الحارث عقب .

أبو سفيان بن الحارث ـ شاعر قريش واسمه المغيرة بن الحارث بن عبدالمطلب ، وأمه غزية ـ أو عزة ـ بنت قيس .

وقد غلبت عليه كنيته أبوسفيان ، وله كنية أخرى هى أبو عبدالملك .[490] وهو ابن عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخوه من

---

(٤٨٩) الطبقات ٣٢/٤

(٤٩٠) أسد الغابة جـ٥ صـ٢٤٦

الرضاعة ، أرضعتها حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية .

وكان يشبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ذكر ابن الأثير قال : إن الذين كانوا يشبهون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بنى هاشم ـ جعفر بن أبي طالب ، والحسن بن على ، وقثم بن العباس ، وأبوسفيان بن الحارث .

إسلامه

كان أبوسفيان بن الحارث مباعداً للاسلام ، معيناً عليه بشعره ، وكان شاعراً مطبوعاً ، وله شعر فى هجاء المسلمين ، والشعر سلاح من أمضى الأسلحة قديماً كما هو معروف ـ ولذلك كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلب من شعراء الإسلام أن يردوا على أولئك الشعراء الذين يؤذون المسلمين بشعرهم .

وكان من الذين يردون عن المسلمين أذى قريش حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة .

قال قائل لعلى بن أبي طالب : اهج القوم الذين يهجوننا ، فقال : إن أذن لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعلت .

فقالوا : يارسول الله ائذن له .

فقال : إن عليا ليس عنده مايراد من ذلك . ثم قال : مايمنع القوم الذين نصروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأسيافهم أن ينصروه بألسنتهم فقال حسان : أنا لها ـ يارسول الله وأخذ بطرف لسانه ، وقال : مايسرنى به مِقول بين بصرى وصنعاء .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي ؟

فقال : يارسول الله : سأستلك منهم كما تسل الشعرة من العجين .

فقال : ائت أبابكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك .

فكان يمضي الى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ليقفه على أنسابهم ، فكان يقول له : كف عن فلان وفلانة ، واذكر فلان وفلانة ، فجعل يهجوهم ، فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا : هذا شعر ماغاب عنه ابن أبي قحافة . . . ومن قول حسان في أبي سفيان بن الحارث :

وإن سنام المجد في آل هاشم   بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

ومن ولدت أبناء زهرة منهم   كرام ولم يقرب عجائزك المجد

ولست كعباس ولا كابن أمه   ولكن لئيم لايقام له زند

وإن امرءاً كانت سمية أمه   وسمراء مغموز إذا بلغ الجهد

ويعني حسان بقوله : بنت مخزوم فاطمة بنت عمرو بن عمران بن مخزوم وهي أم أبي طالب وعبدالله والزبير بني عبدالمطلب .

وقوله : ومن ولدت أبناء زهرة منهم يعني حمزة وصفية ـ أمها هالة بنت وهيب بن عبدمناف بن زهرة .

وقوله عباس وابن أمه : هو ضرار بن عبدالمطلب ـ أمها نتيلة امرأة من بني النمر بن قاسط ، وسُمَيَّة أم أبي سفيان ، وسمراء أم أبيه الحارث .[٤٩١]

---

(٤٩١) أسد الغابة جـ٢ صـ٥

وقد يبدو أن هناك تناقضا بين كون أمه غزية بنت قيس وكونها سمية ، كما يقول حسان . وربما كان ذلك من اختلاف أقوال الرواة ومن شعر حسان فى هجاء أبى سفيان بن الحارث أيضاً :

ألا أبلغ أباسفيان عنى مغلغلة[٤٩٢] فقد برح الخفاء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

ومن قوله أيضا له :

أبوك أبٌ حرٌ وأمك حرة وقد يلد الحران غير نجيب

ويلغ هذا الشعر أباسفيان بن الحارث فأثار فى نفسه دوافع طيبة وحرك عنده أواصر القربى ، وأعاد إليه صوابه ، فقد أدرك أنه يسير على غير هدى . . . . لقد كان مقذعاً فى هجاء المسلمين ، ولكن شعراء المسلمين لم يتناولوا الأعراض كما تناولها ، بل كانوا يقفون فى الهجاء عند الشخص نفسه وأخلاقه ـ فى أكثر الأحيان ـ ولذلك قرر أن يسلم . .

واصطحب معه ابنه جعفراً ، وعبدالله بن أبى أمية بن المغيرة وانطلق ثلاثتهم فى طريقهم إلى المدينة مسلمين مهاجرين . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طريقه إلى مكة فاتحاً فالتقوا به عند ثنية العقاب .

والتمس أبوسفيان وعبدالله الدخول على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خيمته ولكنه أعرض عنهما ، ومازالت به أم سلمة حتى أذن لهما فأسلما .

---

(٤٩٢) مغلغلة : رسالة

ولنستمع إلى أبي سفيان يقص علينا هذا الخبر الذي يرويه عنه ابن سعد :

قال ابن سعد : كان أبوسفيان شاعراً فكان يهجو أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان مباعداً للاسلام شديداً على من دخل فيه ، وكان أخاً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاعة ، أرضعته حليمة أياماً ، وكان يألف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان له ترباً ، فلما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاداه وهجا أصحابه ، فمكث عشرين سنة عدواً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فلما ضرب الإسلام بجرانه ، وتحرك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة عام الفتح ألقى الله فى قلب أبى سفيان بن الحارث الإسلام

قال أبوسفيان : فجئت إلى زوجتى وولدى فقلت : تهيأوا للخروج فقد أظل قدوم محمد .

فقالوا : عجباً لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعث محمداً وأنت مُوضِعٌ فى عداوته ، وكنت أولى الناس بنصرته فألقى الله الإسلام فى قلبه . .

قال : فقلت لغلامى مذكور : عجل على بأبعرة وفرسى .

ثم خرجنا من مكة نريد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسرنا حتى نزلنا الأبواء وقد نزلت مقدمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأبواء تريد مكة .

فخفت أن أقبل ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أهدر دمى ، فتنكرت وخرجت ، وأخذت بيد ابنى جعفر فمشينا على أقدامنا نحوا من ميل فى الغدا التى صبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها الأبواء ، فتصدينا له تلقاء وجهه ، فأعرض عنى إلى الناحية الأخرى ، فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى ، فأعرض عنى مراراً ، فأخذنى ماقرب ومابعد ، وقلت : أنا مقتول قبل أن أصل إليه .

وتذكرت بره ورحمته وقرابتى منه ، فتملك ذلك منى ..

وكنت أظن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفرح بإسلامى . . . فأسلمت وخرجت معه على هذا الحال حتى شهدت فتح مكة وحنين .

فلما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسى وبيدى السيف مصلتاً ، ولم يعلم أنى أريد الموت دونه وهو ينظر إلىّ ، فقال العباس : يارسول الله هذا أخوك وابن عمك أبوسفيان بن الحارث فارض عنه .

قال - صلى الله عليه وسلم - : « قد فعلت فغفر الله له كل عداوة عادانيها »

ثم التفت إلىّ فقال : « أخى »

ولم يملك أبوسفيان نفسه من شدة الفرح حين أقبل عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - وهتف بهذه الكلمة قائلاً له : أخى - لم يملك نفسه أن قبّل يده ورجله فى فرح وسرور .

قال أبوسفيان : لعمرى قبّلت رجله فى الركاب . .(٤٩٣)

---

(٤٩٣) الطبقات الكبرى جـ٤ صـ٣٤

وفى أسد الغابة يروى لنا ابن الأثير خبر إسلام أبى سفيان ـ فيقول :
كان أبوسفيان بن الحارث وعبدالله بن أبى أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بثنية العقاب ـ بين مكة والمدينة ـ فالتمسا الدخول عليه فرفض ، فكلمته أم سلمة فيهما وقالت : يارسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لاحاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهجانى بشعره ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال بمكة ماقال .
يعنى أن عبدالله بن أبى أمية هو الذى قال ماحكاه القرآن الكريم :

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [٤٩٤]

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ـ وكان مع أبى سفيان ابن له ـ فقال : والله ليأذنن لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لآخذن بيد ابنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً .

فلما بلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رق لهما فدخلا عليه ، فأنشده أبوسفيان قوله فى إسلامه واعتذاره مما كان مضى ، فقال :

لعمرك إنى يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمظلم الحيران أظلم ليلة ... فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى
هدانى هادٍ غير نفسى ودلنى ... على الله من طردت كل مطرد
أصد وأنأى جاهداً عن محمد ... وأدعى وإن لم أنتسب من محمد[٤٩٥]

---

(٤٩٤) الإسراء ٩٠
(٤٩٥) أسد الغابة جـ٦ صـ١٤٦

ولما قال أبوسفيان : من طردت كل مطرد ـ رد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بل نحن طردناكم .

فى حنين

وشهد أبوسفيان مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتح مكة ، وسار معه إلى حنين ، فكان ثابتاً كالطود مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقتحم عن فرسه يقاتل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ محاولا أن يفديه بنفسه .

روى جابر بن عبدالله الأنصارى قال : خرج مالك بن عوف النصرى بمن معه إلى حنين ، فسبق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه ، فأعدوا وتهيأوا فى مضايق الوادى وأحنائه .

وأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ونزل بهم الوادى فى عماية ـ ظلام ـ الصبح ، فلما نزل الناس ثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم فانكفأ الناس منهزمين ، وركبت الإبل بعضها بعضاً .

فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر الناس ومعه رهط من أهل بيته ورهط من المهاجرين ـ والعباس آخذ بحكمة ـ بلجام ـ البغلة البيضاء وقد شجرها ـ وثبت معه من أهل بيته على بن أبى طالب ، وأبوسفيان بن الحارث ، والفضل بن العباس ، وربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب وغيرهم ، وثبت معه من المهاجرين أبوبكر وعمر فثبتوا حتى عاد الناس .

ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحب أباسفيان ـ بعد ذلك ـ

وشهد له بالجنة ، وقال : أرجوا أن تكون خلفاً من حمزة[496]

وأخبر أبوإسحاق عن البراء وقد سأله : ياأبا عمارة أولّيتم يوم حنين ؟ فقال البراء : أشهد أن نبى الله - صلى الله عليه وسلم - لم يول يومئذ . كان أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب يقود بغلته - فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

أبوسفيان بعد إسلامه

لقد استبان لأبى سفيان وجه الحق ، وأدرك أنه كان على باطل حين كان يعادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان اعتذاره عما فرط منه عملياً ، جاهد فى الله حق جهاده ، وثبت مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين فرَّ كثير من الناس . وكان لثبات من ثبت مع النبى يومذاك - أثر فى عودة من فرَّ إلى موقعه حتى تحول وجه المعركة من النقيض إلى النقيض ، وتحول الفر إلى الكر ، والهزيمة إلى النصر . .

لقد قال أبوسفيان للنبى - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أسلم : لاتثريب يارسول الله .

قال له : لاتثريب ياأباسفيان ، ثم التفت إلى على بن أبى طالب ، وقال له : خذ بيد ابن عمك وبصِّره بالوضوء والصلاة والسنة ثم أقبل به . . . فراح ثم أقبل به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصلى معه .

---

(٤٩٦) أسد الغابة جـ٦ صـ١٤٦

وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن ينادى فى الناس : ألا إنّ الله ورسوله قد رَضِيَا عن أبي سفيان فارضوا عنه .

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول عن أبي سفيان : « أبوسفيان أخي ومن خير أهلى وقد أعقبنى الله من حمزة أباسفيان بن الحارث » . . . . فكان يقال لأبي سفيان بعد ذلك : أسد الله وأسد الرسول .

ولقد كان أبوسفيان فارساً شجاعاً ، وأبلى فى حنين بلاء حسناً ، وله أشعار كثيرة قالها فى هذه الغزوة - منها :

لقد علمت أفناء كعب وعامر غداة حنين حين عم التضعضع
بأنى أخو الهيجاء أركب حدَّها أمام رسول الله لاأتتعتع
رجاء ثواب الله والله واسع إليه تعالى كل أمر سيرجع[497]

وأكثر أبوسفيان من العبادة بعد إسلامه ، وكأنه يريد بذلك أن يكفر عما فرط منه .

فقد روى سعيد بن المسيب أن أبا سفيان بن الحارث كان يصلى فى الصيف بنصف النهار إلى وقت الكراهة ، ثم يصلى من الظهر إلى العصر[498]

وشهد أبوسفيان وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - فحزن حزناً شديداً ، وجاشت شاعريته فقال فيها قال :

---

(٤٩٧) الطبقات ٤ /٣٦

(٤٩٨) المرجع السابق

أرقت فبات ليلى لايزول وليل أخى المصيبة فيه طول
وأسعدنى البكاء ، وذاك فيما أصيب المسلمون به قليل
فقد عظمت مصيبته وجلت عشية قيل : قد قبض الرسول
وتصبح أرضنا مما عراها تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحى والتنزيل فينا يروح به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ماسالت عليه نفوس الناس أو كادت تسيل
نبى كان يجلو الشك عنا بما يوحى إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالا علينا ، والرسول لنا دليل
فلم نر مثله فى الناس حيا وليس له من الموتى عديل
أفاطم إن جزعت فذاك عذر وإن لم تجزعى فهو السبيل
فعودى بالعزاء فإن فيه ثواب الله والفضل الجزيل
وقولى فى أبيك ولا تملّى وهل يجزى بفعل أبيك قيل ؟
فقبر أبيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول(٤٩٩)

زوجاته وأولاده

تزوج أبوسفيان بن الحارث جُمانة بنت أبي طالب بن عبدالمطلب ـ ابنة عمه

وأعقب منها ابنه جعفراً ، وكان معه حين ذهب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعلن إسلامه ، وكانا مُعْتَمّين حين توجها إليه ، فلما انتهيا إليه قالا : السلام عليك يارسول الله ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه

(٤٩٩) أسد الغابة جـ٦ صـ١٤٦

وسلم ـ : « أسفروا تُعْرفوا » . فانتسبوا إليه وكشفوا عن وجوههم وقالوا : نشهد أن لاإله الا الله وأن محمداً رسول الله . . . . . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك .

وتزوج أيضاً من نغمة بنت همام بن الأفقم ، وأعقب منها ـ عبدالله ـ وكنيته أبوالهياج ـ وجمانة ، وحفصة ويقال لها : حميدة . وقال بعضهم : إن حفصة أمها جمانة بنت أبى طالب .

وتزوج أيضاً أم عمرو بنت المقوم بن عبدالمطلب بن هاشم ، وأعقب منها بنتاً اسمها عاتكة .

وكانت له أمهات أولاد أعقب من إحداهما : أُمية ـ وأم كلثوم ـ وقال بعضهم : إن أم أمية هى أم عبدالله أبى الهياج .

وجاء فى الطبقات أن على بن أبى طالب زوجه ابنة من بناته

فقد روى سعيد بن المسيب أن أبا سفيان انصرف من صلاته فى يوم قبل الوقت الذى ينصرف فيه ـ فلقيه على ـ رضى الله عنه ـ فقال له : مالك انصرفت اليوم قبل الوقت الذى كنت تنصرف فيه ؟

فقال : أتيت عثمان بن عفان فخطبت إليه ابنته فلم يُجر إلىَّ شيئا ، فقعدت ساعة فلم يُجر إلىَّ شيئا .

فقال على : أنا أزوجك ـ فزوجه ابنته(٥٠٠)

---

(٥٠٠) الطبقات جـ٤ صـ٣٦

وفاته

توفى أبو سفيان بن الحارث سنة عشرين ، وكان سبب موته الظاهر أنه حج فحلق رأسه ، فقطع الحجام ثؤلولا[٥٠١] كان فى رأسه فمرض منه حتى مات بعد مَقْدمه من الحج بالمدينة .

وحين حضرته الوفاة قال لأهله : لا تبكوا علىَّ فإنى لم أتنطف[٥٠٢] بخطيئة منذ أسلمت . .

قال عنه النبى - ﷺ - « أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة »
وقد اعتبره الفقهاء شهيداً ، لأن وفاته بهذه الصورة تفيد شهادته . . . .
وقيل : توفى أبو سفيان بعد وفاة أخيه نوفل بن الحارث بأربعة أشهر إلا ثلاث عشرة ليلة . وذلك سنة خمس عشرة .

وصلى عليه عمر بن الخطاب ، وقبر فى ركن دار عقيل بن أبى طالب بالبقيع . . . . وأبو سفيان هو الذى حفر قبره بيده قبل أن يموت بثلاثة أيام وقال : اللهم لا أبقى بعد رسول الله - ﷺ - ولا بعد أخى وأتبعنى إياهما . فلم تغب الشمس من يومه ذلك حتى توفى[٥٠٣] .

---

(٥٠١) الثؤلول : هو حبة مستديرة مشققة فى حجم الحمصة أو دونها تظهر على الجلد وجمعه ثاليل

(٥٠٢) لم أتلطخ

(٥٠٣) أسد الغابة جـ٦ صـ١٤٧ - الطبقات جـ٤ صـ٣٦

أولاد العباس بن عبدالمطلب

(١) الفضل بن العباس

نسبه : هو الفضل بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأمه هى لبابة بنت الحارث الهلالية ـ أخت ميمونة بنت الحارث ـ أم المؤمنين ـ وكانت لبابة تكنى بالفضل ـ فيقال لها : أم الفضل ، وهو أكبر ولد العباس وبه كان يكنى كذلك .

إسلامه . . .

أسلم الفضل مع أبيه وأمه حين أسلما ، وكان العباس كما قلنا يكتم إسلامه فى مكة ، حتى قدم مهاجراً إلى المدينة والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طريقه إلى مكة فاتحاً لها ، فعاد معه إلى مكة .

وعاد كذلك الفضل ، وشهد مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفتح ، ودخل معه الكعبة حين دخلها وأزال منها الصور والتماثيل ، وشهد حُنيناً وثبت مع من ثبتوا ولم ينهزم كما انهزم الناس ، وكان الفضل رديف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ناقته فى حجة الوداع ، وكان من أجمل الناس .

قال الفضل : أردفنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جمع ـ وهى المزدلفة ـ إلى منى ، فلم نزل نلبى حتى رمى الجمرة(٥٠٤)

وذكر الرواة حديثاً آخر حول ركوب الفضل خلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجة الوداع .

---

(٥٠٤) تحفة الأحوذى ـ أبواب الحج حديث رقم ٩٢١ جـ٣ صـ٦٦٥

فعن سُكين بن عبدالعزيز قال : حدثني أبي قال : سمعت ابن عباس يقول : كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم عرفة ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ له : « ابن أخي ، إن هذا يوم من مَلَك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له »[٥٠٥]

وحدث عبدالله بن عُبيد قال : أردف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفضل بن عباس يوم عرفة ، وكان رجلاً حسن الجسم تُخاف فِتنته على النساء . قال : فحدث الفضل أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة .

وفي رواية أخرى لهذا الخبر ذكرها ابن كثير قال : ولوى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنق الفضل ـ يعني حين تلفت ينظر إلى النساء . . . . فقال له العباس : يارسول الله ، لم لويت عنق ابن عمك ؟

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما »[٥٠٦]

ولحظ الفضل فعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كله في الحج ، فحدث به فأفاد المسلمين في ذلك فائدة كبرى . . . . وروى عنه أخوه عبدالله بن عباس ـ حبر الأمة ـ ذلك .

وقد رُوي عنه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر الناس في وادي محسر بحصى الخذف الذي يرمي به الجمرة .

قال الفضل : قال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غداة يوم النحر ـ هات فالقط لي حصا ، فلقطت له حصيات مثل حصى الخذف

---

(٥٠٥) الطبقات جـ٤ صـ٣٨

(٥٠٦) البداية والنهاية جـ٥ صـ١٨٥

فوضعهن فى يده ، فقال : « بأمثال هؤلاء ، بأمثال هؤلاء ، وإياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين »(٥٠٧)

وشهد الفضل وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان من الذين اشتركوا فى غسله ـ كان يصب الماء على على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ

وروى فى ذلك قوله : كُفن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثوبين أبيضين وبُرْد حمراء .

جهاده

واشترك الفضل بن عباس فى الجهاد الإسلامى ـ وقيل : إنه استشهد فى موقعة اليرموك سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وقال بعضهم : بل استشهد فى موقعة مرج الصفر فى العام نفسه ، وقال بعضهم : بل استشهد فى موقعة أجنادين سنة خمس عشرة .

وقيل : بل مات فى طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة . .

أولاده

تزوج الفضل بن العباس من صفية بنت محمية بن جَزْء بن الحارث بن عُرَيْج من سعد العشيرة من مِذْحج ـ وأعقب منها بنتاً واحدة هى أم كلثوم ، ولا ولد له غيرها .

وتزوجت هذه الفتاة من ابن عمها الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ ثم فارقها فتزوجها أبوموسى الأشعرى ، ومات عنها . . . .

وماتت بالكوفة ودفنت بها ولها من الحسن محمد وجعفر ولها من أبى موسى ابنه موسى(٥٠٨)

---

(٥٠٧) المرجع السابق صـ١٨٦ قال ورواه البيهقى .

(٥٠٨) أسد الغابة جـ٧ صـ٢٨٦

(٢) حبر الأمة ـ عبدالله بن عباس

هو ترجمان القرآن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم ، ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمه لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية ـ وهو ابن خالة خالد بن الوليد .

وكانت خالة عبدالله ميمونة بنت الحارث ـ أم المؤمنين ـ عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان مولده بِشِعْب أبي طالب في مكة قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً فأتى به إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحنكه . .

روى مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الشعب جاء أبي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : يامحمد أرى أم الفضل قد اشتملت على حمل .

فقال : « لعل الله أن يقر أعينكم »

قال : فلما ولدتني أتى بي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا في خرقة فحنكني بريقه .

قال مجاهد : فلا نعلم أحداً حنكه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بريقه غيره . وفي رواية أخرى : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لعل الله أن يبيض وجوهنا بغلام نجيب » فولدت عبدالله بن عباس .

وفي رواية لبعضهم أنه ولد عام الهجرة .

ولكن الواقدي روى من طريق شعبة عن ابن عباس أنه قال : ولدت قبل الهجرة بثلاث سنين ونحن بالشعب ، وتوفي رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ وأنا ابن ثلاث عشرة سنة . قال الواقدى : وهذا مالا اختلاف فيه »[509]

وعبد الله بن عباس هو الذى روى الحديث المشهور الذى يعد أساس الوصول إلى الله ـ تعالى ـ ومعرفته واليقين به . لقد أردفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلفه ذات يوم فقال له : « ياغلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن ، ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئاً لم يكتبه الله ـ عز وجل ـ لك لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يمنعوك شيئاً كتبه الله ـ عز وجل ـ لك لم يقدروا عليه ، فاعمل لله ـ تعالى ـ بالرضا فى اليقين ، واعلم أن فى الصبر على ماتكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً »[510]

لقد بلغ من فقه ابن عباس فى صغره ـ أنه وصل من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى درجة عزت على كثير من الرجال . فهو يقول : صليت خلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من آخر الليل فجعلنى حذاءه ، فلما انصرف قلت له : وينبغى لأحد أن يصلى حذاءك وأنت رسول الله الذى أعطاك الله النبوة ؟

قال : فدعا الله أن يزيدنى فهما وعلما .[511]

---

(٥٠٩) البداية والنهاية جـ٨ صـ ٢٩٠

(٥١٠) رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء جـ١ صـ٣١٤ عن الزهرى

(٥١١) المرجع السابق .

لقد كان ابن عباس محل نظر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ صغره ، ورباه على عينه ، وفى خلال السنوات القليلة التى قضاها فى كنف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ هاجر به أبوه عام الفتح حتى قبض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ استفاد عبدالله من بركة النبى ودعائه ورعايته الشىء الكثير . .

روى عبدالمؤمن الأنصارى قال : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كنت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقام إلى سقاء فتوضأ وشرب قائماً ، قلت : والله لأفعلن كما فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقمت وتوضأت وشربت قائماً ، ثم صففت خلفه ، فأشار إلىّ لأوازى به ـ أى أقوم عن يمينه ، فأبيت ـ فلما قضى صلاته قال : « مامنعك أن لاتكون وازيت بى » ؟

قلت : يارسول الله أنت أجلّ فى عينى وأعز من أن أوازى بك .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم آته الحكمة »(٥١٢)

وحدث طاووس عن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : دعانى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمسح على ناصيتى وقال « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب »(٥١٣)

وحفظ ابن عباس الكثير من الأحكام على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وكان قد ناهز الاحتلام ، روى مالك عن الزهرى عن عبيد الله عن ابن عباس قال : أقبلت راكباً على أتان وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام

---

(٥١٢) المرجع السابق صـ٣١٥

(٥١٣) الطبقات جـ٢ قسم ٢ صـ١١٩

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلى بالناس إلى غير جدار ، فمررت بين يدى بعض الصف ، فنزلت وأرسلت الأتان ترتع ، ودخلت فى الصف فلم ينكر عليَّ أحد .

لقد صحب ابن عباس النبى - صلى الله عليه وسلم - منذ هاجر عام الفتح ولزمه وأخذ عنه وحفظ وضبط الأقوال والأفعال والأحوال ، وأخذ عن الصحابة علما عظيماً مع الفهم الثاقب والبلاغة والفصاحة والجمال والملاحة والأصالة والبيان - ودعا له رسول الرحمن كما وردت به الأحاديث الثابتة الأركان - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا له بأن يعلمه الله التأويل وأن يفقهه فى الدين(٥١٤)

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : « ضمنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : « اللهم علمه الحكمة »(٥١٥)

ابن عباس فى المدينة

كان سن ابن عباس حين هاجر مع أبيه إلى المدينة فى حدود الحادية عشرة . . وتوفى النبى - صلى الله عليه وسلم - وسنه فى حدود الثالثة عشرة . .

وبارك الله له فى المدة التى قضاها فى صحبة النبى - صلى الله عليه وسلم - فحصَّل فى خلالها من علمه الشىء الكثير .

وأكرمه الله فأراه جبريل أمين الوحى مرتين ، وبشره على لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - بأنه سيكون ترجمان القرآن وحبر هذه الأمة . .

---

(٥١٤) البداية والنهاية ٨ /٢٩٦

(٥١٥) أسد الغابة جـ٣ صـ٢٩١

ورزق الله ابن عباس قلباً عقولاً ، وذهناً صافياً ، وملكة قوية وذاكرة واعية حافظة ، كما رزقه دأباً على طلب العلم ، وشغفا به وإقبالاً عليه ، فكان يقصد أهل الفقه من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجلس إليهم ويتعلم منهم ، ويأخذ عنهم ، ويتأدب معهم .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : لما قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنهم اليوم كثير .

قال : فقال لى : واعجبا لك يابن عباس ، أترى الناس يفتقرون إليك وفى الناس من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فيهم ؟

قال : فتركت ذاك ، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الحديث ، فإن كان ليبلغنى الحديث عن الرجل فآتى بابه وهو قائل ـ أى وقت القيلولة ـ فأتوسد ردائى على بابه تسفى الريح علىَّ التراب ، فيخرج فيرانى فيقول لى : يابن عم رسول الله ماجاء بك ؟ ألا أرسلت إلىَّ فآتيك ؟

فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك ـ فأسأله عن الحديث .

فعاش ذلك الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع الناس حولى ليسألونى . فيقول : هذا الفتى كان أعقل منى[٥١٦]

إنه حريص على العلم متواضع له ، فانظر إليه كيف يرد على ذلك

---

(٥١٦) الطبقات قسم ٢ صـ١٢١

الصحابى الذى قال له : ألا أرسلت إلىّ فآتيك ؟ بقوله : أنا أحق أن آتيك .

ويروى عنه أبو سلمة قوله : وجدت عامة حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الأنصار ، فإن كنت لآتى الرجل فأجده نائماً لوشئت أن يوقظ لى لأوقظ ، فأجلس على بابه تسفى على وجهى الريح حتى يستيقظ ، متى مااستيقظ ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف(٥١٧)

ولقد رأى زيد بن ثابت يوماً راكباً دابته فأخذ ابن عباس بزمامها يقودها له ، وزيد يقول له : اتركها يابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول له ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا . فيرد عليه زيد قائلاً : أرنى يدك . فيأخذها زيد ويقبلها ويقول له : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

إنه عرف الطريق إلى العلم . وطريقه التواضع والصبر وعدم الملل ، وإن فى هذا درساً لأولادنا وطلاب العلم منا ـ يأخذون منه عبرة تقيهم شر الملل والعبث والهزل فى تلقى العلم ، وتعلمهم كيف يكونون جادين فى دروسهم حريصين على وقتهم ، مكرمين لأساتذتهم متواضعين لهم ، وما أصدق الأثر الذى يقول : تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والحلم .

عن أبى معبد قال : سمعت ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يقول : ماحدثنى أحد قط حديثاً فاستفهمته . . . ولقد كنت آتى باب أبى بن كعب وهو نائم فأقبل على بابه ، ولو علم بمكانى لأحب أن يوقظ لى لمكانى من

---

(٥١٧) المرجع السابق

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنى أكره أن أمله .

وبهذه السيرة وصل ابن عباس إلى ماوصل إليه من علم ، فقد تمكن من ناصية العلم وماكان هناك من يفوقه فى أى فنٍّ فيه .

عن عبيدالله بن عبد الله بن عتبة قال : كان ابن عباس قد فات الناس بخصال : بعلم ماسبقه ، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه ، وحلم وذكاء ونوال . . وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه ، ولا أعلم بقضاء أبى بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفقه فى رأى منه ، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولابتفسير القرآن ولابحساب ولا بفريضة منه ، ولا أعلم بما مضى ولا أثقف رأيا فيما احتيج إليه منه . . . . ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه ، ويوماً يذكر فيه التأويل ، ويوماً يذكر فيه المغازى ، ويوماً يذكر فيه الشعر ، ويوماً يذكر فيه أيام العرب ، ومارأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له ، وما رأيت سائلا قط سأله إلا وجد عنده الجواب[٥١٨]

رؤيته جبريل

عن ابن عباس قال : كنت مع أبى عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده رجل يناجيه ـ قال عفان ـ أحد رواة الحديث : وهو ـ أى رسول الله ـ كالمعرض عن العباس ـ فخرجنا من عنده . فقال العباس : أرى ابن عمك كالمعرض عنى فقلت : إنه كان عنده رجل يناجيه .

---

(٥١٨) الطبقات ٢ / ٢ / ١٢٢

قال العباس : أو كان عنده أحد ؟

قلت : نعم

فرجع إليه ـ فقال : يارسول الله ، هل كان عندك أحد آنفاً ؟ فإن عبدالله أخبرنى أنه كان عندك رجل يناجيك .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل رأيته ياعبدالله ؟

قال : قلت نعم

قال : ذاك جبريل ـ عليه السلام ـ(٥١٩)

وروى موسى بن ميسرة أن العباس بن عبدالمطلب بعث ابنه عبدالله فى حاجة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد عنده رجلاً ، فرجع ولم يكلمه من أجل مكان ذلك الرجل ، فلقى العباس بعد ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال العباس : يارسول الله ، أرسلت إليك ابنى فوجد عندك رجلاً فلم يستطع أن يكلمك فرجع . . .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياعم . أتدرى من ذاك الرجل ؟

قال : لا .

قال : ذاك جبريل ـ ولن يموت ابنك حتى يذهب بصره ويؤتى علماً .

تقريب عمر لابن عباس

لقد بلغ ابن عباس من العلم مبلغاً كبيراً حتى كان عمر بن الخطاب يقربه ويستفتيه ، روى سعيد بن جبير عن عمر أنه قال لابن عباس : لقد علمت علماً ماعلمناه .

---

(٥١٩) البداية والنهاية ٨ /٢٩٧

وقال الأوزاعى : قال عمر لابن عباس : إنك لأصبح فتياننا وجها ، وأحسنهم عقلاً ، وأفقههم فى كتاب الله عز وجل .

وروى مجاهد عن الشعبى عن ابن عباس ، قال ـ قال لى أبى : إن عمر يدنيك ويجلسك مع أكابر الصحابة فاحفظ عنى ثلاثاً ، لا تفشينَّ له سراً ، ولاتغتابن عنده أحداً ، ولايجربن عليك كذباً .

قال الشعبى : قلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف . فقال ابن عباس : بل كل واحدة خير من عشر آلاف .

وظل ابن عباس يفتى فى عهد عمر ، وفى عهد عثمان إلى يوم مات .

جهاده فى سبيل الله

ولم يقتصر ابن عباس على طلب العلم والتبحر فيه ـ بعد أن جمع الله له آلته من ذكاء وفهم واستعداد وطلب واستقامة وعمل بما يعلم . مصداقاً لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » وهذا مايشير إليه الحق ـ سبحانه وتعالى بقوله :

« واتقوا الله ويعلمكم الله »

ويقوله :

« يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » ـ

بل إنه شارك فى الجهاد فى سبيل الله ، وألقى بنفسه فى أتون المعارك الإسلامية التى تبشر بدين الله .

وكان أحد الذين اشتركوا فى فتح أفريقيا فى جيش يطلق عليه جيش العبادلة ـ فقد كان يقوده عبدالله بن أبى سرح ـ وفيه عبدالله بن عباس

وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص .

واشترك مع علي بن أبي طالب في موقعة الجمل ، وكان أميراً على الميسرة . عن علي بن الحسين عن أبيه ، قال : نظر أبي إلى ابن عباس يوم الجمل يمشي بين الصفين فقال : أقر الله عين من له ابن عم مثل هذا . . . وهذا يدل على شجاعة ابن عباس وحسن بلائه .

وشهد مع علي قتال الخوارج .

آراؤه السياسية

كان ابن عباس ذا نظرة بعيدة في السياسة ، وكان عليٌّ يعرف له ذلك وإن خالفه في بعض المواقف . فقد أشار على عليٍّ ألا يعزل معاوية عن الشام ، وقال له : ثبته في مكانه ولاتخلعه في باديء الأمر - حتى قال له فيما قال : إن أحببت عزله فوله شهرا واعزله دهراً ، فأبى عليٌّ إلا أن يعزله ، فكان ماكان من أمر الوقائع المشهورة التي انتهت بما انتهت إليه في صفين والنهروان ثم اغتيال علي - رضي الله عنه -

ولأن علياً كان يقدر براعة ابن عباس أراد أن ينوب عنه في التحكيم ولكن مذحج وأهل اليمن أصروا على أن يكون أبوموسى هو وكيل علي ، وحدث ماحدث .

وولاه عثمان - رضي الله عنه - في أيام حصاره أميراً على الحج سنة خمس وثلاثين فخطب بالناس في عرفات خطبة فسر فيها سورة البقرة ، وفي رواية سورة النور ، قال من سمعه : فسر السورة تفسيراً لو سمعته الروم والترك لأسلموا .

وولاه عليٌّ البصرة ، وكان إذا خرج منها استخلف أبا الأسود الدؤلي على الصلاة . . . . فكان أهل البصرة مغبوطين به ـ يفقههم ويعلم جاهلهم ويعظهم ولم يزل عليها حتى مات علي ـ رضي الله عنه ـ

وكان ابن عباس يشير على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ فيرجع إلى مايراه أحياناً وقد سمع ابن عباس أن بعض الولاة حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم بالنار فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لاتعذبوا بعذاب الله » بل كنت أقتلهم لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من بدَّل دينه فاقتلوه . . وقد ذكر بعض الرواة أن ابن عباس كان يرى إباحة المتعة وتحليل الحمر الإنسية ـ فقال له علي : إنك امرؤ تائه ، إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الإنسية يوم خيبر(٥٢٠)

وكان ابن عباس محبوباً حتى من الأمويين أنفسهم الذين حاربوا الهاشميين ويقال : إنه وفد على معاوية بعد أن استقر له الأمر فأكرمه معاوية وقربه واحترمه وعظمه ، وكان يلقى عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعاً ، فكان معاوية يقول : مارأيت أحداً أحضر جوابا منه .

ولما جاء الكتاب بموت الحسن ـ رضي الله عنه ـ اتفق أن ابن عباس كان عند معاوية ، فعزاه معاوية أحسن تعزية ، وأرسل إليه ابنه يزيد فجلس بين يديه وعزاه بعبارة فصيحة وجيزة شكره عليها ابن عباس .

---

(٥٢٠) البداية والنهاية ٨ / ٣٠٠

وقد أشار ابن عباس على الحسين رضى الله عنه ـ بعدم الخروج إلى الكوفة . . . . .

عن طاووس عن ابن عباس قال : استشارنى الحسين بن على فى الخروج فقلت : لولا أن يُزْرِى بى وبك الناس لشبثت يدى فى رأسك فلم أتركك تذهب ، فكان الذى رد علىَّ أن قال : لأن أقتل فى مكان كذا وكذا أحب إلىَّ من أن أقتل بمكة . قال : فكان هذا الذى سلَّ نفسى عنه .

ورُوى : أن حسينا لما أجمع المسير إلى الكوفة أتاه ابن عباس فقال له : يابن عم إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق فبين لى ماأنت صانع ؟

فقال : إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين أن شاء الله ـ تعالى ـ فقال له ابن عباس : أخبرنى إن كانوا قد دعوك بعدما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم ـ فسر إليهم ، وإن كان أميرهم حياً وهو مقيم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم فإنما هم دعوك للفتنة والقتال ، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ، ويقلبوا قلوبهم عليك ، فيكون الذين دعوك أشد عليك .

فقال الحسين : إنى أستخير الله وأنظر مايكون .

ثم جاءه ابن عباس بعد ذلك فقال له : يابن عم ـ إنى أتصبر ولا أصبر وإنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك ، إن أهل العراق قوم غدر ، فلا تغترن بهم ، أقم فى هذا البلد حتى ينفى أهل العراق عدوهم ثم اقدم عليهم ، وإلا فسر إلى اليمن فإن به حصوناً وشعاباً ولأبيك به شيعة ، وكن

عن الناس فى معزل ، واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم ، فإنى أرجو إن فعلت ذلك أن يكون ماتحب .

فقال الحسين : يابن عم والله انى لأعلم أنك ناصح شفيق ، لكنى قد أزمعت المسير .

فقال له ابن عباس : فإن كنت ولابد سائراً فلا تَسِر بأولادك ونسائك فوالله إنى لخائف أن تقتل وهم ينظرون إليك كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه .

ثم قال ابن عباس : أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه بالحجاز ، فوالله الذى لاإله إلا هو لو أعلم أنى إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علىّ وعليك الناس أطعتنى وأقمت ـ لفعلت ذلك .

وكان ابن عباس قد أضير ببصره فلم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك .
ثم خرج من عنده فلقى ابن الزبير فقال له : قرت عيناك يابن الزبير ؟
ثم قال ابن عباس : هذا حسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز .
وخرج الحسين ـ رضى الله عنه ـ فكان مصرعه بكربلاء كما سيجىء فى الحديث عنه فيما بعد .(٥٢١)

ولقد أشار ابن عباس بالرأى الصواب على الحسين فبعد أن حدث ماحدث وأحاط القوم بالحسين يريدون قتله ارتفعت أصوات أخواته وبناته بالبكاء فقال عند ذلك : لايبعد الله ابن عباس ـ يعنى حين أشار عليه بعدم

---

(٥٢١) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٥٩

الخروج بالنساء معه وأن يبقيهم حتى ينتظم الأمر .

بين عبدالله بن عباس وابن الزبير

وبعد موت يزيد بن معاوية دعا عبدالله بن الزبير لنفسه وبايعه الناس وأراد من ابن عباس أن يبايعه فأبى عليه ، فحاصره ومعه بنو هاشم فى الشعب وأراد أن يقاتلهم ، ولكن أنصارهم أدركوهم فأنقذوهم منه ، وألجأوا ابن الزبير الى التعلق بأستار البيت لائذا به .

قال ابن الأثير : لما وقعت الفتنة بين عبدالله بن الزبير وعبدالملك بن مروان ارتحل عبدالله بن عباس ومحمد بن الحنفية بأولادهما ونسائهما حتى نزلوا مكة . فبعث عبدالله بن الزبير إليهما قائلا : أتبايعان ؟

فأبيا وقالا : أنت وشأنك ، لانعرض لك ولالغيرك .

فأبى وألح عليهما إلحاحاً شديداً ، فقال لهما فيما يقول : لتبايعن أو لأقاتلنكم ، فبعثا أبا الطفيل إلى أنصارهم بالكوفة وقالا : إنا لانأمن هذا الرجل .

فانتدب أربعة آلاف رجل ـ أقبلوا فدخلوا مكة فكبروا تكبيرة سمعها أهل مكة وابن الزبير ، فانطلق هارباً إلى دار الندوة ، ويقال : إنه تعلق بأستار الكعبة وقال : أنا عائذ بالبيت .

وانطلقوا إلى ابن عباس وابن الحنفية وهم محصورون فى الشعب وقد أحاط بهم الحطب ، ولو أن ناراً وقعت فيه ماروؤى منهم أحد . .

فرفعوا هذا الحطب من حول الأبواب وأخرجوهم .

وقالوا لابن عباس : ذرونا نريح الناس منه ، فقال : لا ، هذا بلد حرام

حرمه الله ، ماأحله الله عز وجل لأحد إلا للنبى - صلى الله عليه وسلم - ساعة - ولكن امنعونا وأجيزونا . .

فخرجوا بهم حتى أنزلوهم منى فأقاموا ماشاء الله ، ثم خرجوا الى الطائف . .(٥٢٣)

ولقد كانت تحدث محاورات بين ابن عباس وابن الزبير ، وكان الغالب فيها ابن عباس دائماً .

ذكر سعيد بن جبير قال : دخل عبدالله بن عباس على ابن الزبير ، فقال له ابن الزبير : أنت الذى تؤنبنى وتبخلنى ؟

فقال ابن عباس : نعم سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ليس المسلم الذى يشبع ويجوع جاره »

وجرى بينهما خطب طويل - فخرج ابن عباس من مكة وأقام بالطائف(٥٢٤)

وقد انتقص ابن الزبير يوماً من ابن عباس

فقال ابن عباس لغلامه : ياغلام اصمدنى صمده ، يعنى أوقفنى تجاهه .

فقال : يابن الزبير :

قد أنصف القارة من راماها   إنا إذا مافئة نلقاها

نرد أولاها على أخراها

---

(٥٢٣) أسد الغابة جـ٣ صـ٢٩٣

(٥٢٤) مروج الذهب للمسعودى جـ١ صـ٦٢

وحين كف بصر ابن عباس ـ وكان بسبب كثرة بكائه على عليٍّ والحسن والحسين ـ قال :

إن يأخذ الله من عينى نورهما ففى لسانى وقلبى منهما نور
قلبى ذكى وعقلى غير مُدْخَلٍ وفى فمى صارم كالسيف مأثور (٥٢٥)

وفاته

توفى ابن عباس بالطائف سنة ثمان وستين ، وهو ابن سبعين سنة ، وكان حوله حين مات بعض شيعة أهل البيت الذين قدموا من الكوفة لنجدته هو وابن الحنفية من ابن الزبير .

وقال حين حضرته الوفاة : « إنى أموت فى خير عصابة على وجه الأرض أحبهم إلى الله وأكرمهم عليه وأقربهم إلى الله زلفى ، فإن مت فيكم فأنتم هم » . . . . ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخبره بأوصاف قوم يموت بينهم .

وصلى عليه ابن الحنفية ، فأقبل طائر أبيض فدخل فى أكفانه ، فما خرج منها حتى دفن معه ، فلما سُوِّى عليه التّراب قال محمد بن الحنفية : مات والله حَبْر هذه الأمة . . (٥٢٦)

شذرات من علمه

تحدثنا عن علم ابن عباس وكثرته . . . . ومن نماذج هذا العلم الذى كان

(٥٢٥) أسد الغابة جـ٣ صـ٢٩٤
(٥٢٦) أسد الغابة جـ٣ صـ٢٩٤

يعجب به عمر وعثمان وبقية الصحابة ـ مايقدمه لنا الرواة ، ونقتطف منه مايأتى : ـ

عن محمد بن كعب القرظى عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنه ـ أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ جلس فى رهط من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المهاجرين ـ فذكروا ليلة القدر ، فتكلم منهم من سمع فيها بشىء مما سمع ، فتراجع القوم فيها الكلام . . . .

فقال عمر : مالك يابن عباس صامت لاتتكلم ؟ تكلم ولاتمنعك الحداثة .

قال ابن عباس : فقلت : ياأمير المؤمنين إن الله تعالى وتر يحب الوتر ، فجعل أيام الدنيا تدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، وخلق أرزاقنا من سبع ، وخلق فوقنا سموات سبعاً ، وخلق تحتنا أرضين سبعاً ، وأعطى من المثانى سبعاً ، ونهى فى كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع ، وقسم الميراث فى كتابه على سبع ، ونقع فى السجود من أجسادنا على سبع ، وطاف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالكعبة سبعاً ، وبين الصفا والمروة سبعاً ، ورمى الجمار بسبع لإقامة ذكر الله مما ذكر فى كتابه . . . . فأراها فى السبع الأواخر من شهر رمضان والله أعلم .

فتعجب عمر وقال : ماوافقنى فيها أحد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا هذا الغلام الذى لم تستو شئون رأسه ، إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « التمسوها فى العشر الأواخر »

ثم قال : ياهؤلاء من يؤدينى فى هذا كما أدانى ابن عباس ؟[٥٢٧]

---

(٥٢٧) حلية الأولياء جـ١ صـ٣١٧

محاجته للخوارج

قال ابن عباس : لما اعتزلت الحرورية قلت لعلىّ : لَعلِّ آتى هؤلاء القوم فأكلمهم .

قال : إنى أتخوفهم عليك .

قلت : كلا إن شاء الله .

فلبست أحسن ماأقدر عليه من هذه اليمانيةّ ، ثم دخلت عليهم وهم قائلون فى نحر الظهيرة ، فدخلت على قوم لم أر قوماً أشد اجتهاداً منهم . أيديهم كأنها ثفن إبل ، ووجوههم مقلبة من آثار السجود .

قال : فدخلت فقالوا : مرحباً بك يابن عباس ماجاء بك ؟

قال : جئت أحدثكم ، عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نزل الوحى وهم أعلم بتأويله .

فقال بعضهم : لاتحدثوه ، وقال بعضهم : لنحدثنه .

قلت : أخبرونى ماتنقمون على ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وختنه وأول من آمن به ، وأصحاب رسول الله معه ؟

قالوا : ننقم عليه ثلاثاً .

قلت : وماهن ؟

قالوا : أولاهن أنه حكم الرجال فى دين الله ، وقد قال الله « إن الحكم إلا لله »

وثانيهن أنه قاتل ولم يغنم - لئن كانوا كفاراً لقد حلت أموالهم ، وإن كانوا مؤمنين لقد حرمت دماؤهم .

وثالثهن : أنه محا عن نفسه أمير المؤمنين . . . .

فإذا لم يكن أمير المؤمنين فمن يكون أميرهم ؟

فقال ابن عباس : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم عن سنة رسوله مالاتنكرون أترجعون ؟

قالوا : نعم .

فقال : أما قولكم حكم الرجال فى دين الله . فإن الله ـ تعالى ـ يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ (٥٢٨)

وقال فى المرأة

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (٥٢٩)

أنشدكم الله ، هل الرجال فى حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحق أم فى أرنب ثمنها ربع درهم ؟

فقالوا : اللهم فى حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم .

---

(٥٢٨) المائدة ٩٥

(٥٢٩) النساء ٣٥

قال : أخرجت من هذه ؟

قالوا : نعم .

قال : وأما قولكم قاتل ولم يغنم ، فأقول : أتأسرون قومكم ثم تستحلون منهم ماتستحلون من غيرهم ؟ فقد كفرتم ، وإن زعمتم أنهم ليسوا من إخوتكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام

إن الله عز وجل يقول « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » فأنتم تترددون بين ضلالتين فاختاروا أيهما شئتم .

أخرجت من هذه ؟

قالوا : نعم

قال : وأما قولكم محا عن نفسه أمير المؤمنين ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا قريشاً يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتاباً فقال : « اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله » فقالوا : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك ولكن اكتب : محمد بن عبدالله ـ فكتب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ محمد بن عبدالله ، ورسول الله أفضل من علىّ ـ أخرجت من هذه ؟

قالوا : نعم .

فرجع منهم عشرون ألفاً . وبقى أربعة آلاف هم الذين قاتلهم علىّ فى النهروان .(٥٣٠)

---

(٥٣٠) المرجع السابق

حوار بينه وبين نافع بن الأزرق

وتحداه نافع بن الأزرق حول تفسير ألفاظ من غريب القرآن .

قال السيوطى : بينما عبدالله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن . قال نافع بن الأزرق لنجدة بن عُوَيمر : قم بنا إلى هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن بما لاعلم له به . فقاما إليه فقالا : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فإن الله ـ تعالى ـ إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين .

فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما .

فقال نافع : أخبرنى عن قول الله ـ تعالى ـ

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ ﴾(531)

قال : العزون : الحلق الرقاق .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم ـ أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبرة عزينا . ؟

قال : أخبرنى عن قوله : « وابتغوا إليه الوسيلة »(532)

قال ابن عباس : الوسيلة الحاجة

قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟

---

(531) المعارج 37

(532) المائدة 35

قال : نعم ، أما سمعت قول عنترة وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة   إن يأخذوك تكحلي وتخضبي ؟

قال نافع : أخبرني عن قوله

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٥٣٣)

قال ابن عباس : الشرعة الدين ، والمنهاج الطريق .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم ، أما سمعت قول أبي سفيان بن الحارث يقول :

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى   وبين للاسلام دينـاً ومنهاجـاً ؟

قال : أخبرني عن قوله

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ

---

(٥٣٣) المائدة ٤٨

خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ [٥٣٤]

قال : نُضْجه وبلاغه .

قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال ابن عباس : نعم أما سمعت قول الشاعر :

إذا مامشت وسط النساء تأوّدت

كما اهتز غصن النبت يانع ؟

ومازال يسأله وابن عباس يجيب حتى استقصى فى ذلك مسائل كثيرة أحصاها العلماء ودونوها فى كتبهم[٥٣٥]

ورعه وعبادته

كان ابن عباس ورعاً تقياً ، كثير العبادة ، كثير البكاء من خشية الله . .

قال أبو رجاء : كان هذا الموضع من ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ يقصد مجرى الدمع ـ كأنه الشراك البالى .

وقال طاووس : مارأيت أحداً كان أشد تعظيماً لحرمات الله من ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنه ـ والله لو أشاء إذا ذكرته أن أبكى لبكيت .

قال له معاوية يوماً : أنت على مذهب على ؟

---

(٥٣٤) الأنعام ٩٩

(٥٣٥) راجع ذلك فى كتاب الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٢ صـ٦٧

فقال له : أنا على ملة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٥٣٦]

أولاده

كان لعبدالله بن عباس من الولد : على ـ وهو أبو الخلفاء العباسيين ، ـ الذين أقاموا الخلافة العباسية ـ والعباس ، ومحمد ، والفضل ، وعبدالرحمن ، وعبيد الله ، ولبابة ـ وأمهم زرعة بنت مشرح الكندية .

فأما عبيدالله ومحمد والفضل فلا أعقاب لهم[٥٣٧]

رضى الله عن عبدالله بن عباس الذى يؤثر عنه قوله : « نحن أهل البيت شجرة النبوة ، ومختلف الملائكة ، وأهل بيت الرسالة ، وأهل بيت الرحمة ، ومعدن العلم »[٥٣٨]



(٥٣٦) حلية الأولياء
(٥٣٧) مروج الذهب جـ٢ صـ٧٨
(٥٣٨) أسد الغابة جـ٣ صـ٢٩١

عبيد الله بن العباس

بحر الكرم

هو عبيدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأمه هى لبابة الكبرى بنت الحارث ـ أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين وزوجة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ويكنى بأبى محمد . .

ولد بعد أخيه عبدالله بن عباس بعام ـ أى قبل الهجرة ـ بسنتين وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحبه كما كان يحب إخوته الآخرين . روى عن عبدالله بن الحارث قال : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَصُفُّ عبدالله وعبيد الله وكثيراً من بنى العباس ، ثم يقول : من سبق إلىَّ فله كذا وكذا ، فيستبقون إليه فيقفون على ظهره وصدره ، فيقبلهم ويضاحكهم »(٥٣٩)

ونشأ عبيدالله مع إخوته فى كنف والده العباس ، ولكنه لم ينشغل بالعلم كما انشغل به أخوه عبدالله ـ ولكنه ورث من أبيه وأسرته كثيراً من خصال الهاشميين ، وبرز فى الكرم حتى أصبح مضرب الأمثال فى ذلك .

توليته اليمن

ولَّاه على بن أبى طالب ـ فى خلافته ـ اليمن ، وأمَّره على الموسم ، فحج بالناس سنة ست وثلاثين وسنة سبع وثلاثين . .

---

(٥٣٩) مسند الامام احمد ١ / ٢١٤

فلما كانت سنة ثمان وثلاثين ، بعثه علىّ أيضا أميرا على الحج ـ وكان معاوية قد بعث يزيد بن شجرة الرهاوى ، فاجتمع الأميران فى الموسم وحدث خلاف انتهى إلى صلح يقضى بأن يصلى بالناس « شيبة بن عثمان الحجبى » وهو الذى أقام للناس الحج .

ولم يلبث أن ولّى معاوية بُسْر بن أرطأة اليمن ، فسار إليها ، وكان همه أن يقتل شيعة علىّ فيها ويأخذ البيعة لمعاوية ، وكان قد ولاه الحجاز مع اليمن ، فسار أولاً إلى المدينة ، ويقال إنه أساء إلى بعض الناس فيها ـ ثم سار إلى اليمن ، ولم يكن بها عبيدالله بن عباس ، ولكن كان فيها أهله .

فظفر بابنين لعبيد الله بن عباس هما : يحيى وقُثَم ـ وقيل : عبدالرحمن وقثم ـ وكانا صبيين صغيرين يلعبان فأخذهما وقتلهما أمام أمهما عائشة بنت عبدالمدان . فحزنت حزناً شديداً : وأنشأت تقول :

هـامن أحـسَّ بنىَّ اللذيـن همـا كالدرتيـن تشـظّى عنهما الصـدفُ
هامـن أحـس بنى اللـذين همـا قلبى وسمعى ، فقلبى اليـوم مختطف
مـن دل والهـة حـرَّى موهـة على صبيين ضلاَّ إذ مضى السـلف
خبرت بسـراً وماصـدَّقت مازعمـوا من إفكهم ومن القول الذى اقترفوا[٥٤٠]

وبلغ علىّ بن أبى طالب فعل بسر بالصبيين والناس فدعا عليه قائلاً : اللهم اسلبه عقله .

فخرف الرجل حتى ذهل عقله ، واشتهر بالسيف فكان لايفارقه ، فجعل

---

(٥٤٠) نهج البلاغة صـ ٥٠ حـ ١ الشعب

له سيف من خشب ، وجعل بين يديه زق منفوخ يضربه ، وكلما تخرق أبدل .

فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف ، حتى مات ذاهل العقل يلعب بالأقذار ، وربما كان يتناول منها ثم يقبل على من يراه فيقول : انظروا كيف يطعمنى هذان الغلامان ابنا عبيدالله ؟

وكان ربما شدت يداه إلى الوراء منعا من ذلك ، فأنجى ـ أحدث ـ ذات يوم فى مكانه ، ثم أهوى بفيه فتناول منه ، فبادروا إلى منعه فقال : أنتم تمنعونى وعبدالرحمن وقثم يطعمانى[541]

ومات بسر فى أيام الوليد بن عبدالملك سنة ست وثمانين .

وكان عبيدالله بن عباس قد دخل يوماً على معاوية ، وعنده بسر بن أرطأة ـ قاتل ولديه .

فقال له عبيدالله : أيها الشيخ ، أنت قاتل الصبيين ؟

قال : نعمْ .

قال عبيدالله : والله لوددت أن الأرض أنبتتنى عندك .

فقال بُسْر : فقد أنبتتك الساعة .

فقال عبيدالله : ألا سيف ؟

فقال بُسر : هاك سيفى

فلما هوى عبيد الله إلى السيف ليتناوله قبض معاوية ومن حضره على يد عبيدالله قبل أن يقبض على السيف .

---

(٥٤١) مروج الذهب حـ ٢ صـ ١٢٥

ثم أقبل معاوية على بُسر فقال : أخزاك الله من شيخ ، قد كبرت وذهل عقلك ، تعمد إلى رجل موتور من بنى هاشم ، فتدفع إليه سيفك ، إنك لغافل عن قلوب بنى هاشم ، والله لو تمكن من السيف لبدأ بنا قبلك .

فقال عبيدالله : ذلك والله أردت(٥٤٢)

وبسر بن أرطأة هذا قد عده بعضهم فى الصحابة ، وقيل : ولد قبل وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنتين ، ولكن أهل الشام يقولون إنه سمع من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أحد الذين بعثهم عمر بن الخطاب مددا لعمرو بن العاص لفتح مصر ـ فى بعض الأقوال ـ ولكن غير هذا القول أولى بالصواب .

لقد قام هذا الرجل بأفعال منكرة فى الحجاز واليمن ، وأفنى خلقاً كثيراً ، وحين دخل المدينة هرب منه كثير من أهلها ـ منهم جابر بن عبدالله ، وأبو أيوب الأنصارى ، وغيرهما . . . وأغار على همدان باليمن وسبى نساءهم ، فكن أول مسلمات سبين فى الإسلام ، وهدم بالمدينة دوراً ،(٥٤٣) ، وقد حقت عليه دعوة على بن أبى طالب التى ذكرناها آنفاً .

كرم عبيدالله

كان عبدالله بن عباس وأخوه عبيدالله إذا قدما المدينة أوسع عبدالله الناس علماً وأوسعهم عبيدالله كرماً وطعاماً .

وكان ينحر كل يوم جزوراً ، فنهاه عبدالله عن ذلك ، فلم ينته . . . . .

---

(٥٤٢) المرجع السابق

(٥٤٣) أسد الغابة حـ ١ صـ ٢١٤

وجعل يذبح كل يوم جزورين .

وذكر الرواةِ فى كرم عبيدالله قصة طريفة رواها أبوالحجاج الفزارى ـ قال : خرج عبيدالله بن العباس فى سفر ، ومعه مولى له ، حتى إذا كانا ببعض الطريق شاهدا بيت أعرابى ، فقال لمولاه : لو أنا مضيناً فنزلنا بهذا البيت وبتنا فيه ؟

قال : فمضى ، وكان عبيدالله رجلاً جميلاً جهيراً ، فلما رآه الأعرابى أعظمه وقال لامرأته : لقد نزل بنا رجل شريف ـ وأنزله الأعرابى . ثم إن الأعرابى قال لامرأته : هل من عشاء لضيفنا ؟

فقالت : لا ، إلا هذه الشويهة التى حياة ابنتك من لبنها .

قال : لابد من ذبحها .

قالت : افتقتل ابنتك ؟

قال : وإن .

ثم إنه أخذ الشاة والشفرة وجعل يقول :

ياجـــارتى لاتوقظـــى البُنَيَّـــــة إن توقظيهـــا تنتحـــب عليّـــــه
وتنـــزع الشـــفرة من يـــديه

ثم ذبح الشاة ، وهيأ منها طعاماً ، ثم أتى به عبيدالله ومولاه فعشاهما ، وكان عبيدالله يسمع كلام الأعرابى لامرأته ومحاورتها ـ

فلما أصبح عبيدالله قال لمولاه : هل معك شىء ؟

قال : نعم خمسمائه دينار فضلت من نفقتنا .

قال : ادفعها إلى الأعرابى

قال : سبحان الله ، أتعطيه خمسمائة دينار وإنما ذبح لك شاة ثمنها خمسة دراهم ؟

قال عبيدالله : ويحك ، والله لهو أسخى منا وأجود ، إنما أعطيناه بعض ماتملك ، وجاد هو علينا بكل مايملك وآثرنا على مهجة نفسه وولده .

فبلغ ذلك معاوية فقال : لله در عبيدالله ، من أى بيضة خرج ؟ ومن أى عش درج ؟(٥٤٤)

ومما يروى عنه أيضاً أن سائلاً وقف عليه فقال له : تصدق عليَّ مما رزقك الله فإنى نبئت أن عبيدالله بن العباس أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر إليه .

فقال له : وأين أنا من عبيدالله ؟

قال السائل : أين أنت منه فى الحسب أم فى كثرة المال ؟

قال عبيدالله : فيهما جميعاً .

قال السائل : إن الحسب فى الرجل مروءته وحسن فعله ، فإذا فعلت ذلك كنت حسيباً .

فأعطاه ألفى درهم واعتذر إليه .

فقال له السائل : إن لم تكن عبيدالله فأنت خير منه ، وإن كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس .

فأعطاه ألفاً أخرى .

---

(٥٤٤) اسد الغابة حـ٣ صـ٥٢٤ ـ البداية والنهاية حـ٨ صـ٩٠

فقال الرجل : لئن كنت عبيدالله إنك لأسمح أهل دهرك ، وما إخالك إلا من رهط فيهم محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسألك بالله أأنت هو؟

قال السائل : فو الله ماأخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحى . . . . . وإلا فهذه الصورة الجميلة والهيئة المنيرة لاتكون إلا فى أهل بيت نبى(٥٤٥)

ويروى أن معاوية وصله بخمسمائة ألف درهم ، ثم بعث من يتعرف له خبره ، فانصرف الرجل إلى عبيد الله . . ثم عاد إلى معاوية فأعلمه أنه قسمها فى سماره وإخوانه أقساماً متساوية وأبقى لنفسه مثل نصيب أحدهم .

فقال معاوية : إن ذلك ليسوؤنى ويسرنى ، فأما الذى يسرنى فإن عبدمناف والده ، وأما الذى يسوؤنى فقرابته من أبى تراب دونى .

وأبو تراب كنية على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه .

وفاته

توفى عبيدالله بن عباس فى أيام الوليد بن عبدالملك وذلك فى سنة سبع وثمانين وله من العمر تسع وثمانون سنة تقريباً .

وقد مر بنا أنه كان متزوجاً من عائشة بنت عبدالمدان ـ فولدت له عبدالرحمن وقثم ـ اللذين قتلهما بسر بن أرطأة أمامها . . . . وقيل : بل هى جويرية بنت قارظ الكنانى ـ وقد ذهل عقلها بسبب مافعل بابنيها .

---

(٥٤٥) مروج الذهب للمسعودى حـ ٢ صـ ١٢٤

وقد ذكر أن عبيدالله بن عباس لم يرو إلا حديثاً واحداً هو حديث الرميصاء أو الغميصاء رواه عنه سليمان بن يسار . .

قال : عن عبيدالله بن العباس قال : جاءت الغميصاء - أو الرميصاء - إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تشكو زوجها ، تزعم أنه يسيء اليها ولا يصلها ، فما كان إلا يسيراً حتى جاء زوجها فزعم أنها كاذبة ، وإنما تريد أن ترجع إلى زوجها الأول . . . .

والغميصاء هذه أو الرميصاء هي مطلقة عمرو بن حَزْم ، وهي غير الغميصاء المعروفة بأم سليم وأم حرام - خالة أنس بن مالك . . . .

والغميصاء هذه تعرف بالأنصارية ، كانت عند عمرو بن حزم فطلقها فنكحها رجل آخر فطلقها قبل أن يمسها[٥٤٦] .

ولعبيد الله بن عباس أولاد آخرون غير الولدين اللذين ذُبحا - منهم :

- عبدالله بن عبيد الله - وأمه أم ولد . .
- والعباس بن عبيدالله وأمه أم ولد أيضاً - غير أم عبدالله .

(٥٤٦) مسند احمد ١ / ٢١٤

قُثم بن العباس

هو قُثم بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمه لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية ـ وكانت أول امرأة أسلمت بمكة بعد خديجة ـ رضى الله عنها .(٥٤٧)

كان قثم أشبه الناس خلقاً برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحبه . . .

قال عبدالله بن جعفر : كنت أنا وعُبَيد الله وقثم ابنا العباس نلعب ، فمر بنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على دابة ، فقال : ارفعوا هذا الصبى فجعلنى أمامه ، وقال لِقُثَم : ارفعوه إلىَّ فحمله وراءه . وكان عبيدالله أحب إلى العباس من قثم ، فما استحيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عمه أن حمل قثم وتركه .

وكان قثم آخر الناس عهداً برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقد كان آخر الذين خرجوا من القبر الشريف بعد دفنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ روى مقسم ـ مولى عبدالله بن الحارث عن مولاه عبدالله بن الحارث قال : اعتمرت مع على بن أبى طالب زمن عمر ، فنزل على أخته أم هانىء بنت أبى طالب

فلما فرغ من عمرته أتاه نفر من العراق ، فقالوا : ياأبا الحسن جئناك نسألك عن أمر نحب أن تخبرنا عنه .

---

(٥٤٧) اسد الغابة جـ ٤ صـ ٣٩٢ نقلا عن الكلبى

قال : أظن أن المغيرة بن شعبة يحدثكم أنه كان آخر الناس عهداً برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟

قالوا : أجل .

قال علىّ : آخر الناس عهداً به - ﷺ - قُثَم بن العباس(٥٤٨)

وكان المغيرة بن شعبة يذكر خبراً يفيد أنه آخر الناس عهداً برسول الله - صلى الله عليه وسلم -

فقد ذكر الواقدى أن المغيرة لما دفن النبى - صلى الله عليه وسلم - وخرج علىّ من القبر ألقى خاتمه وقال : ياأبا حسن خاتمى ، قال له على : انزل فخذ خاتمك ، فنزل فأخذ خاتمه . .

وفى رواية أنه قال : إنه قد بقى من قبل رجلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شىء لو تصلحونه ؟ قالوا : فادخل فأصلحه ، فدخل فمسح قدميه - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : أهيلوا علىَّ التراب ، فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف ساقيه ، فخرج فجعل يقول : أنا أحدثكم عهداً برسول الله - صلى الله عليه وسلم -(٥٤٩)

تولية قثم مكة

وحين تولى على بن أبى طالب الخلافة جعل قثم بن العباس والياً على مكة ، ولم يزل قائماً عليها حتى قتل علىٌّ - كرم الله وجهه -

وكان قثم عاقلاً لبيبا حسن الجواب .

---

(٥٤٨) مسند الامام احمد ١ / ١٠١

(٥٤٩) الطبقات حـ ١ قسم ٢ صـ ٧٧

روى زهير عن أبي إسحاق قال : قيل لقثم بن العباس : كيف ورث عليٌّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دونكم ؟

فقال : إنه كان أولنا لحوقاً وأشدنا لزوقاً .

ويعنى بالوراثة أنه أصبح القائم بشئون أهل البيت ، المتحدث باسمهم ، المطالب بحقوقهم . .

ويعنى بأنه كان أولهم لحوقاً ـ أنه كان أول من أسلم .

ويعنى بأنه كان أشدهم لزوقاً أنه كان ملازماً النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايكاد يفارقه ، وقد تزوج ابنته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وزوج الابنة فى منزلة الابن .

وقيل : إن الذى سأل قثم هذا السؤال هو عبدالرحمن بن خالد ، قال له : ماشأن على ، ولم كان له من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منزلة لم تكن للعباس ؟

فأجابه الجواب المتقدم

جهــاده

كان قثم عالماً مجاهداً ، يعمل بعلمه ويعرف فضل الجهاد وأثره ، وقد انطلق مجاهداً مع سعيد بن عثمان بن عفان إلى خراسان ، فالتقى مع الترك فى سمرقند فاستشهد فى هذه المعركة مع من استشهد من المسلمين .

وقد بلغ نعيه أخاه عبدالله بن عباس فاسترجع ، وكان مسافراً فأناخ راحلته ، وصلى ركعتين فأطال فيهما الجلوس ، ثم قام إلى راحلته وهو يقرأ

قوله ـ تعالى

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (٥٥٠)

وكان ذلك فى سنة خمس وخمسين أو ست وخمسين .... ولم يعقب قُثم ـ رضى الله عنه ـ (٥٥١)



---

(٥٥٠) البقرة ٤٥

(٥٥١) أسد الغابة ٤ صـ٢٩٢ ـ البداية والنهاية ٨ / ٧٨

(٥) عبدالرحمن بن العباس

هو عبدالرحمن بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمه لبابة بنت الحارث

ولد على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولم يسمع له ذكر إلا أنه انضم تحت لواء عبدالله بن سعد بن أبى سرح سنة سبع وعشرين ، فى خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ومضى مجاهداً معه فى غزو أفريقية .

وكان عثمان قد كتب إلى عبد الله بن سعد أن يغزو أفريقية ، فإذا افتتحها الله عليه فله خمس الخمس من الغنيمة نفلاً ، فسار إليها فى عشرة آلاف فافتتحها ـ سهلها وجبلها ، وقتل كثيراً من الأعداء ، حتى اجتمعوا على الطاعة والإسلام وحسن إسلامهم . . . وأخذ عبدالله بن سعد خمس الخمس وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان ، وقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الجيش فأصاب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار[٥٥٢]

ويطلق على هذا الجيش جيش العبادلة . .

وقد استشهد عبدالرحمن بن العباس فى هذه الموقعة .

وقال بعضهم : بل استشهد بالشام[٥٥٣]

---

(٥٥٢) البداية والنهاية جـ ٧ صـ ١٥١

(٥٥٣) اسد الغابة جـ ٣ صـ ٤٦٥

(٦) معبد بن العباس

معبد بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابن عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمه لبابة بنت الحارث الهلالية .

وهو الشقيق السادس لعبدالله بن العباس .

وكانت أم الفضل قد ولدت ستة ذكور هم : الفضل ، وعبدالله وعبيد الله ، وقُثم ، وعبدالرحمن ، ومعبد .

وقال الشاعر فى حق هؤلاء :

ما ولدت نجيبة من فحل كستة من بطن أم الفضل

أكرم بها من كهلة وكهل عم النبى المصطفى ذى الفضل

وخاتم الرسل وخير الرسل(٥٥٤)

وقد ولد معبد على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخباره مطوية إلا ماذكره الرواة من أنه استشهد بأفريقية سنة خمس وثلاثين ،(٥٥٥) وكان قد غزاها مع عبدالله بن سعد ، وكان معه أخوه عبدالرحمن ـ كما سبق أن ذكرنا .

إلا أن غزو أفريقية لم يكن سنة خمس وثلاثين بل كان سنة سبع وعشرين .

وقد ذكر ذلك ابن كثير فى البداية والنهاية .

---

(٥٥٤) الاستيعاب لابن عبد البر ٤ / ١٩٠٨ ـ الطبقات ٨ / ٢٠٣

(٥٥٥) اسد الغابة حـ ٥ صـ ٢٢٠

وقد أخبر هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال : كان يقال : مارأينا بنى أب وأم قط ـ أبعد قبوراً من بنى العباس بن عبدالمطلب من أم الفضل .

فقد رأينا أن الفضل مات شهيداً فى مرج الصفر ، أو أجنادين ، أو اليرموك . . . . أو مات بالشام فى طاعون عمواس ـ على خلاف بين الرواة ـ وليس له عقب وعبدالله مات بالطائف وله عقب طيب

وعبيد الله مات بالمدينة وله عقب طيب

وقثم مات شهيداً بسمرقند وليس له عقب

وعبدالرحمن مات بأفريقية أو الشام وليس له عقب . . .

ومعبد مات بأفريقية شهيداً وله عقب ـ رضى الله عنهم .

(٧) الحارث بن العباس

هو الحارس بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابن عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمه امرأة من هذيل اسمها حجيلة بنت جندب بن الربيع من بنى سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس

ويبدو أنه ولد كذلك فى عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه رأى الرسول ـ إلا أن الأخبار لم توضح لنا تفصيلاً عن حياته .

وللحارث عقب منهم السرى الذى كان واليا على اليمامة .

كثير بن العباس

هو كثير بن العباس بن عبدالمطلب ـ ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمه أم ولد رومية ـ وقيل : أمه حميرية .

وكنيته أبو تمام .

قيل : إنه ولد سنة عشر قبل وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأشهر . . . ولكن ورد حديث عن العباس بن كثير عن أبيه كثير ـ قال فيه : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجمعنا أنا وعبدالله وعبيد الله وقثم ـ ويُفَرِّجُ يديه هكذا ـ ومد باعه ـ ويقول : من سبق إلىَّ فله كذا . .

وهذا الحديث لايدل على أنه ولد قبل وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأشهر ـ بل يشير إلى أن ولادته تمت قبل ذلك بفترة أكبر حتى يمكن لكثير فيها أن يتسابق مع إخوته بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكان كثير بن العباس فقيهاً فاضلاً ـ روى عنه عبدالرحمن الأعرج ، وابن شهاب الزهرى[٥٥٦]

(٩) معين بن عباس

هو معين بن عباس بن عبدالمطلب ـ ابن عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكره ابن سعد فى طبقاته عند ذكر ابنه عبدالله بن معين . ولم يشر إليه ابن الأثير فى أسد الغابة ، ولم يشر إليه أيضاً ابن حجر فى الإصابة .

(١٠) تمام بن العباس

هو تمام بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمه أم ولد رومية ، ولدته هو وأخوه كثير بن العباس .

---

(٥٥٦) أسد الغابة ٤ / ٤٦٠ ـ نسب قريش لمصعب الزبيرى صـ ٢٧

وقد اختلف العلماء فى صحبته للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين يقولون بصحبته يستندون إلى حديث رواه ابنه جعفر عنه ـ قال : أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « مالى أراكم تأتوق قُلْحاً ؟ . . . استاكوا . . . لولا أن أشق على أمتى لفرضت عليهم السواك كما فرض عليهم الوضوء »[557]

وقد أسند بعضهم رواية هذا الحديث إلى جعفر بن تمام عن أبيه عن العباس .

ومعنى ذلك أنه ليست له صحبة . .

وذكر الرواة أن تمام بن العباس كان والياً لعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ على المدينة .

وكان على بن أبى طالب حين سار إلى العراق ، ولًى على المدينة سهل بن حنيف ، ثم عزله عنها وأخذه إليه ، واستعمل مكانه تمام بن العباس . . . ثم عزله أيضاً ، واستعمل مكانه أبا أيوب الأنصارى . . . ثم سار أبوأيوب إلى على ، واستخلف مكانه على المدينة رجلا من الأنصار فلم يزل عنيها إلى أن استشهد على ـ رضى الله عنه ـ .

وكان تمام بن العباس أصغر بنى العباس العشرة ، وكان العباس يحمله ويقول :

تمـوا بتمـام فصـاروا عشـرة   يـارب فاجعلهـم كراما بـررة

واجعل لهـم ذكراً وأتـم الثمرة

---

(٥٥٧) اسد الغابة جـ ١ صـ ٢٥٣

وقد استجاب الله دعاءه فبارك فى أولاده ، وجعل لهم ذكراً .

قال أبوعمر بن عبدالبر فى الاستيعاب : كل بنى العباس لهم رؤية ـ أى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعنى ذلك أن لهم صحبة ـ إذا لم تشترط فى الصحبة الرواية .

ولتمام بن العباس ولد اسمه قُثَم ـ على اسم عمه ـ واشتبه أمره على بعض الرواة فقالوا : إن تماماً هو ابن قُثَم بن العباس ، والصواب ماذكرناه عن أسد الغابة(٥٥٨)

ولتمام ولد آخر اسمه جعفر بن تمام ـ وأمه العالية بنت نُهَيْك بن قيس ـ من بنى عامر بن صعصعة .

أولاد حمزة ـ رضى الله عنه ـ

١) يعلى بن حمزة

هو يعلى بن حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمه هى بنت الملة بن مالك بن عبادة بن حجر بن فائد بن الحارث من الأنصار ـ من الأوس .

وكان له أخ آخر من أمه مات صغيراً ـ واسمه عامر

ويعلى هو الذى كان يكنى به أبوه الحمزة ـ فيقال له : أبو يعلى . كما كان يكنى بابن له آخر اسمه عمارة ـ فيقال : أبوعمارة .

وأعقب يعلى بن حمزة خمسة رجال لصلبه ـ ماتوا جميعاً ولم يعقبوا(٥٥٩)

---

(٥٥٨) اسد الغابة حـ ١ صـ ٢٥٤

(٥٥٩) اسد الغابة حـ ٥ صـ ٥٢٤

٢) عُمارة بن حمزة

هو عمارة بن حمزة بن عبدالمطلب ـ ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمه خولة بنت قيس بن فهد بن مالك بن النجار ـ وكان أبوه يكنى به ـ كما قلنا ـ

ولم تؤثر لعمارة ويعلى ، رواية عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا عقب لعمارة(٥٦٠)

هل أسلم أولاد أبى لهب ؟

قد يخرج من ظهر الطالح الصالح ، وقد يخرج من ظهر الصالح الطالح هذه حكمة الله . . وإبراهيم ـ عليه السلام ـ أبو الأنبياء أبوه أو عمه ـ آزر الذى كان يصنع الأصنام ويبيعها .

ونوح ـ عليه السلام ـ كان ابنه كافراً ـ لقى مصير الكافرين فأغرقه الطوفان ـ وحين نادى نوح ربه قائلاً : « رب إن ابنى من أهلى »
قال له ربه « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح »

وكذلك جاء من صلب أبى لهب الذى كذب بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاداه ـ مَنْ كتب صفحة جديدة كلها برٌ بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحب له ، وإيمان بالله وجهاد فى سبيله .

ومن أولاده الذين آمنوا عتبة ومعتب

عتبة بن أبى لهب

أما عتبة فأمه أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان

---

(٥٦٠) اسد الغابة جـ ٤ صـ ١٣٨

يروى ابن سعد قائلاً : عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبدالمطلب قال : لما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة فى الفتح قال لى : ياعباس ، أين ابنا أخيك عتبة ومعتب ـ لاأراهما ؟

قال : قلت يارسول الله ، تنحيا فيمن تنحى من مشركى قريش .

فقال لى : اذهب إليهما وائتنى بهما .

قال العباس : فركبت إليهما بعُرَنة فأتيتهما فقلت : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوكما .

فركبا معى سريعين حتى قدما على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعاهما إلى الإسلام فأسلما وبايعا .

ثم قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذ بأيديهما وانطلق بهما يمشى بينهما ، حتى أتى بهما الملتزم ـ وهو مابين باب الكعبة والحجر الأسود ـ فدعا ساعة ، ثم انصرف والسرور يرى فى وجهه .

قال العباس ـ : فقلت له : سرك الله يارسول الله ـ فإنى أرى فى وجهك السرور .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم إنى استوهبت ابنى عمى هذين ربى فوهبهما لى ـ أى هداهما الله إلى الإسلام ـ

قال حمزة بن عتبة : فخرجا معه فى فوره ذلك إلى حنين فشهدا غزوة حنين ، وثبتا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ فيمن ثبت من أهل بيته وأصحابه[٥٦١]

---

(٥٦١) الطبقات الكبرى حـ ٤ صـ ٤١

وأقام عتبة فى مكة ولم يهاجر . فقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لاهجرة بعد الفتح »

ولعتبة أولادهم :

أبوعلى ، وأبوالهيثم ، وأبوغليظ ـ وأمهم عتبة بنت عوف بن عبدمناف من بنى عامر بن لؤى .

وله أيضاً عمرو ، ويزيد ، وأبوخداش ، وعباس ، وميمونة ـ وأم هؤلاء هى أم العباس بنت شراحيل بن أوس بن حبيب من حمير .

وله أيضاً عبدالله ومحمد وشيبة وأم عبدالله ـ وأم هؤلاء أم عكرمة بنت خليفة بن قيس من الأزد .

وله أيضاً عامر بن عتبة ـ وأمه هالة الأحرية من بنى الأحمر . . . . . وله أيضاً عُبَيْد بن عتبة ـ وأمه أم ولد .

وله أيضاً إسحاق بن عتبة ـ وأمه أم ولد سوداء . . . . وله أيضاً أم عبدالله بنت عتبة ـ وأمها أم ولد اسمها خولة[٥٦٢]

والمعروف أن عتبة بن أبى لهب كان قد خطب رقية بنت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يدخل بها . فأجبره أبوه على تركها بعد البعثة فتركها وكان أخوه عُتيبة قد خطب أم كلثوم أختها ولم يدخل بها أيضاً فأجبره أبوه أبولهب على تركها وآذى عتيبة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا عليه النبى قائلاً : اللهم سلط على عُتَيْبة كلباً من كلابك .

---

(٥٦٢) المرجع السابق

وحين سمع أبوطالب هذه الدعوة قال لعُتَيْبة : ماكان أغناك يابن أخى عن هذه الدعوة .

وقد استجيبت هذه الدعوة . . . . فقد افترسه سبع فى إحدى رحلات تجارته وذلك من بين الناس جميعاً الذين تحلقوا حوله . حماية له وخوفاً عليه من السباع .

قال الرواة : فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عُتَيْبة فقتله . وقال عتيبة وهو بآخر رمق : ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس لهجة ؟(٥٦٣)

ولقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - بسؤاله عن ابنى أبى لهب عُتْبة ومعتب - على الرغم مما فعله عتبة ، وعلى الرغم من إيذاء أبيهما وأمهما له - غايةً فى البر ومثلاً أعلى فى الرحمة والوفاء بذوى رحمه ولو كانوا مخطئين فى حقه . . إنه أحق الناس بالصفح والعفو عند المقدرة ، والسماحة والفضل .

معتب بن أبى لهب

هو معتب بن عبد العزى بن عبد المطلب - أمه أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان بن حرب .

أسلم يوم الفتح هو وأخوه . وقد ذكرنا قصة إسلامهما . ومضى معتب مع النبى - ﷺ - إلى حنين ، وثبت مع من ثبت من أهل بيت النبى - ﷺ - وأصحابه ، وفقئت عينه يوم ذاك . . . وأقام معتب هو وأخوه عتبة بمكة ولم يهاجرا إلى المدينة .

---

(٥٦٣) السيرة الحلبية جـ١ صـ٤٦٨

قال الرواة : لم يقم من بنى هاشم بمكة غير عتبة ومعتب ابنى أبى لهب .
ولمعتب أولاد منهم :

عبد الله ، ومحمد ، وأبو سفيان ، وموسى ، وعُبيد الله ، وسعيد .
وخالدة . وأم هؤلاء هى عاتكة بنت أبى سفيان بن الحارث وهى ابنة عمه .
وله من الابناء أيضا - أبو مسلم ، ومسلم ، وعباس - لأمهات أولاد .
وله أيضا عبد الرحمن - وأمه من حمير .

بنات عم النبى - ﷺ -

تحدثنا فيما سبق عن أولاد عم النبى - ﷺ - ونتحدث الآن عن بنات أعمامه . .

ونبدأ ببنات الزبير بن عبد المطلب . . وهن :

١ - ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب بن هاشم - بنت عم النبى - ﷺ - وأمها عاتكة بنت أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

زوَّجها رسول الله - ﷺ - المقداد بن عمر بن ثعلبه من بهراء - الذى يطلق عليه المقداد بن الأسود . . وكان من السابقين إلى الاسلام وأنجبت ضباعة من المقداد - عبد الله وكريمة .

وقتل عبد الله يوم الجمل وكان فى الصف المقابل لعلى بن أبى طالب .
وكان أبوه من المجاهدين الذين ورد فيهم قوله - ﷺ - : « لم يكن نبى إلا أعطى سبعة نجباء وزراء ورفقاء ، وإنى أعطيت أربعة عشر - حمزة وجعفر وأبو بكر وعمر وعلى والحسن والحسين وابن مسعود وسلمان وعمار وحذيفة

وأبو ذر والمقداد وبلال »[٥٦٤] .

٢ ـ أم الحكم بنت الزبير بن عبد المطلب ـ ابنة عم النبى ـ ﷺ ـ وهى شقيقة ضباعة ـ أمها عاتكة بنت أبى وهب . وقيل ـ اسمها : أم حكيم .

تزوجها ابن عمها ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ فولدت له محمداً وعبد الله ، وعباسا ، والحارث ، وعبد شمس ، وعبد المطلب ، وأمية وأروى الكبرى .

وأعطاها النبى ـ ﷺ ـ من خيبر ثلاثين وسقا .

ولها رواية عن النبى ـ ﷺ ـ . . . .

وروى عنها الفضل بن الحسن بن عمرو بن أمية الضمرى أنها قالت : أصاب رسول الله ـ ﷺ ـ سبياً ، فذهبت أنا وأختى إلى فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ ثم أتينا رسول الله ـ ﷺ ـ فشكونا إليه ما نحن فيه ، وسألناه أن يأمر لنا بشىء من السبى . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « سبقكن يتامى بدر ، ولكن سأدلكن على ماهو خير لكن من ذلك : تكبرن الله ـ عز وجل ـ على إثر كل صلاة ثلاثا وثلاثين تكبيرة ، وثلاثا وثلاثين تسبيحة ، وثلاثا وثلاثين تحميدة ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير »[٥٦٥] .

٣ ـ صفية بنت الزبير

هى صفية بنت الزبير بن عبد المطلب بن هاشم ـ ابنة عم النبى ـ ﷺ ـ

---

(٥٦٤) اسد الغابة ٥ / ٢٥٣ وأخرجه الترمذى فى أبواب المناقب ١٠ / ٢٩١

(٥٦٥) اسد الغابة حـ ٧ صـ ٣١٩ ورواه أبو داود فى كتابة الخراج والامارة

وأمها عاتكة بنت أبي وهب بن عمرو بن عائذ .

ولم تشر المصادر إلى زواجها وذريتها ـ وذكر ابن سعد أن النبي ـ ﷺ ـ أعطاها من خيبر أربعين وسقا .[٥٦٦]

وذكرها ابن حجر فى الإصابة[٥٦٧] .

٤ ـ أم الزبير بنت الزبير

هى أم الزبير بنت الزبير بن عبد المطلب بن هاشم ـ ابنة عم النبى ـ ﷺ ـ وأمها أيضا عاتكة بنت وهب .

ولم تشر ـ المصادر إلى زواجها وذريتها ـ إلا ان ابن سعد ذكر أن النبى ـ ﷺ ـ أعطاها كأختها أربعين وسقا فى خيبر ، وذكر ابن حجر فى الإصابة عنه ذلك[٥٦٨] .

بنات أبي طالب

١ ـ أم هانىء بنت أبي طالب بن عبد المطلب ـ ابنة عم النبى ـ ـ ﷺ ـ .

واسمها فاختة ، وقيل : هند ، وقيل فاطمة .

وهى شقيقة على بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أمها فاطمة بنت أسد ابن هاشم .

تزوجها فى الجاهلية هبيرة بن أبي وهب المخزومى ، وولدت له جعدة بن هبيرة .

---

(٥٦٦) الطبقات ٨ / ٣٢

(٥٦٧) الاصابة ٧ / ٧٤٢

(٥٦٨) الاصابة ٨ / ٢١٠ ـ الطبقات ٨ / ٣٢

وقيل : ولدت له جعدة ، وهانىء الذى به تكنى ، ويوسف .

وقال الزبير[٥٦٩] ولدت أم هانىء لهبيرة أربعة بنين - جعدة وهانىء ويوسف ، وعمرو - وكان أبوه يكنى به . . . . أسلمت أم هانىء عام الفتح ، وكان زوجها من الضالعين فى الكفر ، ومن المقاتلين للنبى - ﷺ - عام الفتح ، ولما دخل النبى - ﷺ - مكة هرب هبيرة إلى نجران وقال معتذراً عن فراره :

لعمرك ما وليت ظهرى محمداً　　وأصحابه جُبْنا ولا خيفة القتل

ولكننى قلبت أمرى فلم أجد　　لسيفى غناء إن ضربت ولا نبلى

وقفت فلما خفت ضيقة موقفى　　رجعت لعود كالهزبر أبى الشبل

وقد قال نقاد الأدب إن هذه الأبيات خير أبيات قيلت فى الاعتذار عن الفرار . وقد فضل خلف بن الأحمر هذه الأبيات على قول الحارث بن هشام :

الله يعلم ما تركت قتالهم　　حتى علوا فرسى بأشقر مزبد

وعلمت أنى إن أقاتل واحدا　　أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى

فصددت عنهم والأحبة فيهم　　طمعا لهم بعقاب يوم سرمد[٥٧٠]

والحارث بن هشام هو أخو أبى جهل بن هشام . وكان الحارث قد فر أيضا فى الفتح ، ولكنه عاد وأسلم .

---

(٥٦٩) لعله الزبير بن بكار النسابة أو الزبيرى صاحب كتاب نسب قريش

(٥٧٠) المعارف لابن قتيبة صـ ٩٥

ولكن الأصمعى يفضل أبيات الحارث على أبيات هبيرة[571] .

وحاولت أم هانىء إرجاع زوجها ليسلم كما أسلم رفقاء سلاحه مثل عكرمة بن أبى جهل والحارث بن هشام ، ولكنه لج فى الطغيان وأقام على كفره فى نجران . وحين بلغه إسلام زوجته أم هانىء قال أبياتا منها : ـ

وعــاذلة هــبت بليــل تلومـنى وتعذلـنى بالليـل ضـل ضــلالها

وتزعـم انى إن أطعـت عشـيرتى سأرْدَى وهل يردين إلا زوالها ؟

وفيها يقول :

فإن كـنتِ قد تابعـتِ ديـنِ محمـد وقطعـت الأرحـام مـنك حبالهــا

فكـونى على أعلـى سـحيق بهضبـة ململمـة غــبراء يبـس بلالهــا[572]

وبإسلام أم هانىء وبقاء زوجها على الكفر أصبحت بائنا منه بحكم القرآن الكريم والشرع الحكيم .

وكان النبى ـ ﷺ ـ قد خطب إلى عمه أبى طالب فى الجاهلية ابنته أم هانىء . وكان قد خطبها هبيرة وأعطاه أبو طالب كلمة .

فقال أبو طالب للنبى ـ ﷺ ـ : يابن أخى إنا قد صاهرنا إليهم والكريم يكافىء الكريم .

فلما فرق الإسلام بينها وبين زوجها خطبها النبى ـ ﷺ ـ إلى نفسها . فقالت : والله ما كنت لأرفض طلبا لرسول الله ـ ولكنى امرأة كثيرة الأولاد وأكره أن يؤذوك .

---

(٥٧١) أسد الغابة جـ ٧ صـ ٤٠٤

(٥٧٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٢٠

فقال النبى - ﷺ - : خير نساء ركبن المطايا نساء قريش ، أحناهن على ولد فى صغره وأرعاهن على زوج فى ذات يده .

وقيل : إنها قالت للنبى - ﷺ - : يارسول الله لأنت أحب إلى من سمعى وبصرى ، وحق الزوج عظيم ، فأخشى إن أقبلت على زوجى أن أضيع بعض شأنى وولدى ، وإن أقبلت على ولدى أن أضيع حق الزوج . فقال رسول الله - ﷺ - « إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناهن على ولد فى صغره ، وأرعاهن على بعل فى ذات يده » .

وقيل فى مناسبة هذا الحديث رواية أخرى هى :

دخل رسول الله - ﷺ - على أم هانىء فخطبها إلى نفسها ، فقالت : كيف بهذا ضجيعا وهذا رضيعا ؟ لولدين بين يديها .

فقال رسول الله - ﷺ - : « نساء قريش خير نساء ركبن الإبل ، أحناهن على ولد فى صغره ، وأرعاهن على زوج فى ذات يده ، ولو أن مريم بنت عمران ركبت الابل مافضلت عليها أحدا » .... وكبرَ أولاد أم هانىء واستغنوا عنها ، ولم يبق عائق يحول بينها وبين الزواج من الرسول - ﷺ - ولكن الله - جلت حكمته - أنزل قوله - تعالى -

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ

﴿فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾ (٥٧٣)

فكان هذا القيد ـ قيد الهجرة ـ حائلا بين أم هانىء وزواجها من الرسول ـ ﷺ ـ .

عن أبي صالح مولى أم هانىء قال : خطب رسول الله ـ ﷺ ـ أم هانىء بنت أبي طالب فقالت : يارسول الله ، إنى موتمة وبنىَّ صغار .

قال : فلما أدرك بنوها عرضت نفسها عليها ، فقال : أماَ الآن فلا لأن الله أنزل عليه .. « يأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن .. » الآية .

وقد ذكرها الرواة بين اللاتى وهبن أنفسهن للنبى ـ ﷺ ـ(٥٧٤)

أم هانىء يوم الفتح

روى أبو مرة مولى عقيل بن أبي طالب ـ أن أم هانىء بنت أبي طالب قالت : لما نزل رسول الله ـ ﷺ ـ بأعلى مكة فر إلىَّ رجلان من أحمائى من بنى مخزوم ـ أى من أهل زوجها ـ وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومى ـ قالت : فدخل علىَّ علىٌّ بن أبي طالب أخى فقال : والله لأقتلنهما ، فأغلقت عليهما باب بيتى ، ثم جئت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بأعلى مكة ، فوجدته يتوضأ من جفنة ـ إن فيها لأثر العجين ـ فلما توضأ أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ، ثم انصرف إلىّ ، فقال : مرحبا وأهلا يأم هانىء ، ما جاء بك ؟

---

(٥٧٣) الأحزاب ٥٠

(٥٧٤) الطبقات الكبرى جـ ٨

فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليٍّ.

فقال: قد أجرنا من أجرت، وأمّنا من أمّنت فلا يقتلهما.

قال ابن هشام: والرجلان هما الحارث بن هشام، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة[575].

وقال السهيلى: أحدهما ابنها جعده لأنها قالت - فى روايته هو: زعم ابن أمى علىٌّ أنه قاتل رجلا أجرته فلان بن هبيرة[576]

وذكر السهيلى أن الصلاة التى صلاها النبى - ﷺ - هى صلاة الفتح - يصليها الأمراء إذا افتتحوا بلدا - قدوة بالنبى - ﷺ - فى فتح مكة - قال الطبرى: صلى سعد بن أبى وقاص حين افتتح المدائن ودخل إيوان كسرى، قال: فصلى فيه صلاة الفتح وهى ثمانى ركعات لا يفصل بينها، ولا تصلى بإمام ولا يجهر فيها بالقراءة.

أم هانىء وحديث الإسراء

وقد روت أم هانىء حديثاً فى الإسراء والمعراج

قالت: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة أسرى به كان فى بيت عمه.. فصلى العشاء الآخرة.. ثم نام ونمنا، فلما كان قبل الفجر أهبّنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال: يأم هانىء، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترين..

---

(٥٧٥) سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ٩٢

(٥٧٦) الروض جـ ٤ صـ ١٠٣

والمقصود بالصلاة التي صلاها هي الصلاة التي كانت مفروضة آنذاك : ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي . .

ومعنى صليت معكم ـ أي عندكم ـ والمعروف أن أم هانىء لم تسلم إلا يوم الفتح ـ كما ذكرنا ـ ولكن ذلك لايعنى أنها كانت تعادى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما عاداه زوجها ، لقد كانت عواطفها مع الإسلام ، وكم كانت تتمنى أن لو ملكت أمرها لتعلن إسلامها كما أعلنه غيرها من النساء ، ولكنها كانت مغلوبة على أمرها من زوج أصر على موقفه من الكفر حتى آخر لحظة من حياته ، فى الوقت الذى دخل فيه الإسلام كل القرشيين إلا القليل .

أولاد أم هانىء

وقد ذكرنا أولاد أم هانىء من هبيرة بن أبى وهب .

ويعد أبرزهم جعدة بن هبيرة الذى كان يفتخر قائلاً :

أبى من بنى مخزوم إن كنت سائلاً   ومن هاشم أمى لخير قبيل
فمن ذا الذى يبأى[٥٧٧] علىَّ بخاله   كخالى علىٍّ ذى الندى وعقيل

وقد ولَّى علىُّ ابن أبى طالب جعدة خراسان فى أثناء خلافته ـ ولجعدة رواية عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومما رواه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الآخر أردأ »[٥٧٨]

---

(٥٧٧) يبأى : يفخر
(٥٧٨) أسد الغابة حـ ١

(٢) أم طالب بنت أبى طالب

ذكر ابن سعد فى طبقاته ـ أم طالب بنت أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابنة عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ
وأمها فاطمة بنت أسد . .

ولم يتعرض ابن سعد لتفصيل فى ذكرها ، إلا أنه قال : أعطاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خيبر أربعين وسقاً ، فدل ذلك على إسلامها . . . . ويحتمل أن يكون اسمها ريطة ـ كما أخبر بذلك هشام بن الكلبى فى كتاب النسب فى أولاد أبى طالب[٥٧٩]

(٣) جمانة بنت أبى طالب

هى جمانة بنت أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابنة عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمها أيضاً فاطمة بنت أسد .

وقد تزوجها أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عمها ، فولدت له ابنه جعفراً الذى اصطحبه فى طريقة إلى الإسلام عام الفتح .

وقيل : بل ولدت له عبدالله بن أبى سفيان الذى تزوج أمامة بنت أبى العاص بن الربيع ـ وهى أيضا بنت زينب بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقيل أيضاً : إن أبا سفيان لم يتزوج جمانة بنت أبى طالب ، وإنما جمانة كانت متزوجة من المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب وهو ابن عم عبدالله بن أبى سفيان .

---

(٥٧٩) الطبقات ٨ / ٣٢

وأسلمت جمانة وقسم لها النبي - صلى الله عليه وسلم - فى خيبر ثلاثين وسقاً(٥٨٠)

بنت حمزة أسد الله

لم يعقب حمزة سوى بنت واحدة هى أمامة بنت حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم - وأمها هى سلمى بنت عميس بن تيم بن مالك . . . . وسلمى هى أخت أسماء التى كانت زوجة لجعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه -

وكانت أمامة مقيمة بمكة مع أمها ، حتى كانت عمرة القضاء سنة ثمان .

ودخل النبى - صلى الله عليه وسلم - مكة . وفى أثناء خروجه جرت وراءه أمامة هاتفة : ياعم ياعم .

فأخذها على بن أبى طالب وأعطاها لزوجته فاطمة - رضى الله عنها - وقال لها : دونك ابنة عمك .

وفى المدينة اختصم فى شأنها على بن أبى طالب ، وجعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة ، كل منهم يود أن تكون فى كفالته .

وكل منهم له حجة فى ضمها إليه .

قال على : هى ابنة عمى وأنا أحق بها .

وقال : جعفر هى ابنة عمى وخالتها عندى فأنا أحق بها

وقال زيد : هى ابنة أخى - لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان قد آخى بين زيد وحمزة . . ولهذا رأى زيد أنه أحق بها .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - أنا أقضى بينكم .

---

(٥٨٠) طبقات ابن سعد ٨ / ٣٢ - أسد الغابة ٧ / ٤٩

أما أنت ياعلى فأخى فى الدنيا والآخرة .

وأما أنت يازيد فمولى الله ورسوله .

وأما أنت ياجعفر فأشبهت خلقى وخلقى .

ثم قضى بها لجعفر وقال : إن خالتها عنده ولاتنكح المرأة على خالتها أو عمتها .

وزوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك من سلمة ابن أم سلمة وقال حين زوجها منه : « هل جزيت سلمة . . ؟ »[٥٨١]

ذلك أن سلمة هو الذى زوج أم سلمة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوفى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يدخل سلمة على أمامة[٥٨٢]

بنات العباس

أم حبيبة بنت العباس

وقيل : هى أم حبيب بنت العباس بن عبدالمطلب ـ وهذا الاسم أكثر من أم حبيبة .

وأمها هى أم الفضل ـ لبابة بنت الحارث . .

وقد تزوجها الأسود بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله المخزومى فولدت له ـ رزق بن الأسود ، ولبابة بنت الأسود ـ سمتها باسم أمها أم الفضل . . . .

---

(٥٨١) اسد الغابة جـ ٧ صـ ٢١

(٥٨٢) الطبقات ٣ / ١ / ٤

هذا ماقاله ابن الأثير - أما ابن سعد فيقول : ولدت له - زرقاء ، ولبابة .

وفي الإصابة : تزوجها الأسود بن سنان بن عبدالأسد - والصواب ماذكر أولا(٥٨٣)

وللعباس ابنتان أخريان هما : صفية ، وأميمة - وهما أختا تمام - أمهم جميعاً أم ولد - ولم تشر المصادر إلى خبر هاتين الفتاتين .

بنات المقوم بن عبدالمطلب

من أبناء عبدالمطلب بن هاشم - المقوم - وقد أعقب فتيات هن :

١- هند بنت المقوم بن عبدالمطلب بن هاشم

وأمها قلابة بنت عمرو بن غزية

وتزوج هند هذه أبو عمرة - واسمه بشير بن عمرو بن محصن بن عمرو بن عتيك بن عمرو بن الحارث من بني النجار .

وقيل في اسمه : بشر ، وقيل : ثعلبة ، وقيل : بل ثعلبة أخوه .

وقد ولدت هند بنت المقوم من أبي عمرة هذا ولدين - عبدالله ، وعبدالرحمن .

وروى عبدالرحمن عن أبيه قوله : قلت للنبي - صلى الله عليه وسلم - : يارسول الله أرأيت من آمن بك ولم يرك ؟ قال : « أولئك منا وأولئك معنا »(٥٨٤)

---

(٥٨٣) طبقات ابن سعد ٨ / ٣٣ - اسد الغابة ٧ / ٣١٢ - الاصابة ٨ / ١٨٦

(٥٨٤) اسد الغابة جـ ١ صـ ٢٢٣

وروى عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي عمرة عن جده أبي عمرة ـ أنه جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه إخوته يوم بدر أو يوم خيبر ، ومعهم فرس ـ وهم أربعة ـ فأعطى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجال بأعيانهم سهماً ، وأعطى الفرس سهمين »[٥٨٥]

وذكر ابن الأثير أنه أحد الذين شهدوا بدراً وأحداً ، والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتل يوم جسر أبي عبيد ـ في خلافة عمر ، وإن كان الواقدى ذكر أنه توفى في خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ بالمدينة[٥٨٦]

وترجم له ابن الأثير مرة أخرى بكنيته أبي عمرة ، وذكر في هذه الترجمة أنه قتل مع علىّ بصفين ، كما ذكر أنه شهد العقبة مع الأنصار وشهد بدراً وأحداً ، وكان يوم صفين صائماً يتلوى من العطش ، فقال لغلام له : تَرَّسْنى ، فَتَرَّسَه الغلام ، ثم رمى بسهم فنزع نزعاً ضعيفاً ، حتى رمى بثلاثة أسهم ثم قال :

إنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من رمى بسهم في سبيل الله فبلغ أو قصر كان ذلك السهم له نوراً يوم القيامة .

وقتل قبل غروب الشمس .

فهذه أقوال ثلاثة في وفاته أولها أنه مات في العراق في موقعة الجسر مع أبي عبيد الثقفى في عهد عمر

---

(٥٨٥) المرجع السابق

(٥٨٦) أسد الغابة جـ ١ صـ ٢٩١

الثانى أنه مات بالمدينة فى عهد عثمان

الثالث أنه مات مع على فى موقعة صفين

وأسند إليه الرواة أيضا حديثا عن ابنه عبدالرحمن جاء فيه : « أخبرنى الأوزاعى ، حدثنى المطلب بن حنطب المخزومى ، حدثنى عبدالرحمن بن أبى عمرة الأنصارى ، حدثنى أبى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة فأصاب الناس مخمصة - مجاعة - فاستأذن الناس رسول الله صلى الله على وسلم فى نحر بعض ظهرهم - نياقهم - وقالوا : يارسول الله يبلغنا الله به ، فلما رأى عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد هم أن يأذن لهم فى نحر بعض ظهرهم قال : يارسول الله ، كيف بنا إذا نحن لقينا القوم غداً جياعاً رجالا ؟ ولكن إن رأيت يارسول الله أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ، ثم تدعو فيها بالبركة ؟

فدعا النبى صلى الله عليه وسلم - ببقايا أزوادهم ، فجعل الناس يجيئون بالبقية من الطعام فجمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثم قام فدعا الله ما شاء الله أن يدعو ، ثم دعا الجيش بأوعيتهم وأمرهم أن يأخذوا فما بقى فى الجيش وعاء إلا ملئوه ، وبقى مثله - فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بدت نواجذه[٥٨٧]

٢ - أروى بنت المقوم بن عبدالمطلب

أروى بنت المقوم بن عبدالمطلب بن هاشم - بنت عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أمها قلابة بنت عمرو بن غزية - فهى شقيقة أختها السابقة .

---

(٥٨٧) اسد الغابة حـ ٦ صـ ٢٣١

تزوجها أبو مسروح الحارث بن يعمر بن حيان بن عميرة من بنى بكر بن هوازن ، وكان حليفا للعباس بن عبدالمطلب

فولد له عبدالله بن أبى مسروح[٥٨٨]

٣ ـ أم عمرو بنت المقوم

هى أم عمرو بنت المقوم بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابنة عم النبى صلى الله عليه وسلم ـ

وأمها قلابة بنت عمرو ـ أيضا ـ تزوجها مسعود بن معتب الثقفى ، فولدت له عبدالله بن مسعود ـ ثم تزوجها ابن عمها أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب فولدت له عاتكة بنت أبى سفيان بن الحارث .[٥٨٩]

أروى بنت الحارث بن عبد المطلب

أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف ـ ابنة عم النبى صلى الله عليه وسلم ـ والحارث هو أكبر أولاد عبدالمطلب .

وأمها هى غزية بنت قيس بن طريق بن عبد العزى ـ من بنى فهر وتزوجها أبو وداعة بن صبيرة بن سعيد بن سعد من بنى سهم .

واسم أبى وداعة الحارث . .

وهو الحارث بن صُبيرة ـ بالتصغير ـ بن سعُيَد ـ بالتصغير ـ بن سعد بن سهم . .

شهد بدراً مع المشركين وأسر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(٥٨٨) الطبقات الكبرى حـ ٨ صـ ٣٣

(٥٨٩) المرجع السابق ، والاصابة لابن حجر حـ ٨ صـ ٢٧٠

إن له ابنا كيساً بمكة له مال

فخرج ابنه المطلب من مكة إلى المدينة فى أربع ليال فافتدى أباه فكان أول من افتدى من أسرى قريش . . . وأسلم أبو وداعة يوم الفتح ، وبقى إلى خلافة عمر ، وكان أبوه صبيرة قد عمر كثيرا ولم يشب فقال فيه الشاعر :

حجاج بيت الله إن صبيرة القرشى ماتا بغت منيته المشيب وكان ميتة افتلاتا[٥٩٠]

وأعقبت أروى من أبى وداعة ذكرين وثلاث إناث هم :

المطلب ، وأبوسفيان ، وأم جميل ، وأم حكيم ، والربعة[٥٩١]

أما المطلب فقد أسلم يوم الفتح أيضا ، ثم نزل الكوفة ، ثم تحول إلى المدينة وهو الذى سارع فى فك أبيه من أسره يوم بدر ، ودفع فدية قدرها أربعة آلاف درهم ، وقد لامته قريش فى مسارعته فى الفداء ودفع هذا المبلغ الكبير فى نظرهم .

فقال لهم : ما كنت لأدع أبى أسيراً ـ وهذا يعنى أنه كان عظيم البر بأبيه ـ ثم سار الناس بعده إلى النبى صلى الله عليه وسلم ففدوا أسراهم .

وله أولاد رووا عنه ـ منهم ـ كثير وجعفر ، كما روى عنه ـ المطلب بن السائب بن أبى وداعة وغيرهم .

ولم يترجم ابن الأثير لأبى سفيان بن أبى وداعة ، ولكن ابن حجر ترجم له فى الإصابة[٥٩٢]

---

(٥٩٠) أسد الغابة حـ ١ صـ ٣٩٨
(٥٩١) الطبقات حـ ٨ صـ ٣٤
(٥٩٢) الاصابة حـ ٧ صـ ١٨٢

ولم يترجم واحد منهم للإناث .

بنات أبي لهب

١ ـ ومن بنات أبي لهب اللائى أسلمن وحسن إسلامهن :
درة بنت أبي لهب بن عبدالمطلب ـ ابنة عم النبى صلى الله عليه وسلم ـ وأمها أم جميل بنت حرب .
أسلمت درة وهاجرت إلى المدينة .

وزوجها هو الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم ـ أبوه ابن عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وابن عم درة أيضا وأسلم الحارث مع أبيه نوفل . .

واستعمل أبو بكر الحارث على مكة ، ثم انتقل إلى البصرة واختط بها دارا ومات فى خلافة عمر ، وقيل فى خلافة عثمان ـ والصواب أن النبى صلى الله عليه وسلم استعمله على جدة ، ولذلك لم يشهد حنينا ، وولاه أبو بكر ، ثم ولاه عثمان ، ثم انتقل إلى البصرة [٥٩٣] وأعقبت درة من زوجها الحارث : عقبة والوليد وأبا مسلم ـ هذا ما ذكره ابن الأثير[٥٩٤]

وحين قدمت درة المدينة أقامت فى دار رافع بن المعلى الزرقى ، فقال لها نسوة جلسن إليها من بنى زريق : أنت ابنة أبي لهب الذى يقول الله له : « تبت يدا أبي لهب وتب » فما يغنى عنك مهاجرتك ؟

---

(٥٩٣) أسد الغابة جـ ١ صـ ٤١٩
(٥٩٤) أسد الغابة جـ ٧ صـ ١٠٣

فأتت درة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت له ما قلن لها فسكنها ، وقال لها : اجلسى

■ثم صلى بالناس الظهر ، وجلس على المنبر ساعة ثم قال : « أيها الناس ، ما لى أوذى فى أهلى ؟ فوالله إن شفاعتى لتنال بقرابتى حتى إن صداءَ وحكماً وسلها لتناها يوم القيامة »(٥٩٥)

لقد غضب النبى صلى الله عليه وسلم لابنة عمه ، لأنها مسلمة ، والإسلام يجب ما قبله .

وروت درة عن رسول الله صلى ـ الله عليه وسلم ـ وروى عنها زوجها ـ ومما روى عنها ـ عن سماك بن حرب عن زوج درة بنت أبى لهب ـ عن درة بنت أبى لهب قالت : قام رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهو على المنبر فقال : يارسول الله ، أى الناس خير ؟

فقال : « خير الناس أقرؤهم وأتقاهم ، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم »(٥٩٦)

أولادها

وقد ذكرنا ما قاله ابن الاثير حول زوجها وأولادها ، ولكن ابن سعد يقول قولا آخر فى ذلك .

يقول : إن الذى تزوجها ـ هو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ـ

---

(٥٩٥) أسد الغابة جـ ٧ صـ ١٠٣ ، وصُداء ـ بضم الصاد ـ هو ابن يزيد بن حرب من بنى كهلان بن سبأ ـ بطن عظيم ـ وسِلْهَم ـ بكسر السين ـ فى نسب اليمن

(٥٩٦) مسند الامام احمد ٦ / ٤٣٢

وقد ولدت له الوليد وأبا الحسن ومسلما . وقتل زوجها يوم بدر كافرا ، فتزوجها دحية بن خليفة بن فروة الكلبى [٥٩٧]

وقد يبدو أن كلام ابن سعد هو الصواب ـ لأن الحارث بن نوفل كان متزوجا من هند بنت أبى سفيان بن حرب ـ أخت أم حبيبة أم المؤمنين ـ زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان ذلك لا يمنع أ ن يكون متزوجا أيضا من درة ابنة أبى لهب إلا أن ابن الأثير لم يذكر ذلك فى ترجمته للحارث .

٢ ـ عزة بنت أبى لهب

عزة بنت أبى لهب بن عبدالمطلب ـ ابنة عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمها أم جميل بنت حرب .

وتزوجها أوفى بن حكيم بن أمية بن حارثة السلمى ـ وولدت له عبيدة وسعيدا وإبراهيم [٥٩٨]

ولم يترجم لها ابن الأثير فى كتابه

ولكن ابن حجر ذكرها فى الإصابة بما ذكرناه

٣ ـ خالدة بنت أبى لهب

وهى خالدة بنت أبى لهب بن عبدالمطلب بن هاشم ـ ابنة عم النبى صلى الله عليه وسلم ـ وأمها أيضا أم جميل بنت حرب

تزوجها عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد بن دهمان ـ فولدت له . . .

---

(٥٩٧) الطبقات حـ ٨ صـ ٣٤

(٥٩٨) الطبقات ٨ صـ ٣٤ ـ الاصابة ٨ / ٢٥

وأسلم عثمان مع وفد ثقيف حين وفد على النبى صلى الله عليه وسلم بعد حصار الطائف .

واستعمله النبى صلى الله عليه وسلم ـ على الطائف وكان أحدث القوم سنا . . . . ذلك أنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن . فقال أبوبكر : يارسول الله إنى قد رأيت هذا الغلام أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن .

وأوصاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال عثمان بن أبى العاص : كان آخر ما أوصانى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حين بعثنى إلى ثقيف قال : « ياعثمان تجوز فى الصلاة ، وأقدر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة والصغير »[599]

ولم يزل عثمان على الطائف طيلة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلافة أبى بكر وستتين من خلافة عمر ـ وقد استعمله عمر على عمان والبحرين سنة خمس عشرة . .

وكان له موقف مع أهل الطائف بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد منعهم من الردة كما ارتد العرب ،وأطاعه قومه فى ذلك .[600]

ويقال : إنه سكن البصرة بعد ذلك

قال ابن سعد : ابتنى بالبصرة دارا واستخرج فيها أموالا ، منها شط عثمان الذى ينسب إليه بحذاء الأبُلّة ، وبقى ولده بها إلى اليوم وشرقوا

---

(٥٩٩) سيرة ابن هشام ٣ / ٥٤١

(٦٠٠) اسد الغابة جـ٣ صـ٥٨٠

وكثرت غلاتهم وأموالهم ولهم عدد كبير وبقية حسنة [601]

وقال ابن الاثير : ولعثمان عقب أشراف

ويلتحق ببنات العمات ماهن فى مقامات العمات من بنات أعمام الأب ومنهن . .

١) فاطمة بنت أسد

هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ـ أبوها أخو عبدالمطلب بن هاشم .

وهى زوجة أبي طالب ـ وأم على بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وأمها هى فاطمة بنت هرم بن رواحة بن حجر بن عبدمعيص بن عامر ابن لؤى .

أسلمت وهاجرت إلى المدينة وتوفيت بها .

ويكفيها من الفخر أنها كانت أم على كرم الله وجهه ، وحماة فاطمة بنت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيدة نساء أهل الجنة . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبرها ، ويزورها . . وحين ماتت دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبرها وكفنها فى قميصه ، ودعا لها وقال : إنما ألبستها قميصى لتكسى من حلل الجنة ، ونزلت فى قبرها ليهون عليها وحشة القبر[602]

قال الرواة : انقرض ولد أسد بن هاشم إلا من ابنته فاطمة بنت أسد .

---

(٦٠١) الطبقات حـ ٧ قسم ١ صـ ٢٧

(٦٠٢) اسد الغابة حـ ٧ صـ ٢١٧

وهى أم على ، وجعفر ، وعقيل ـ وطالب . . . . وأم ـ أم هانى وجمانه ، وريطة ، وكلهم أولاد أبى طالب منها .

(٢) رقيقة بنت صيفى بن هاشم بن عبدمناف

وهى ابنة عم فاطمة بنت أسد ، وابنة عم عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم ـ والد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأمها هالة بنت كلدة بن عبدالدار بن قصى .

تزوجها نوفل بن أهيب بن عبدمناف بن زهرة .

وولدت منه مخرمة بن نوفل .

واختلف فى إدراكها البعثة ، والجمهور على أنها أدركتها وأسلمت ، وينسب إلى رقيقة حديث يشير إلى علامات النبوة وبشرياتها .

فقد روى مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة بنت صيفى ـ قال ـ وكانت لدة عبدالمطلب بن هاشم ـ[٦٠٣]

قالت : تتابعت على قريش سنون ، أمحلت[٦٠٤] الضرع ، وأدقت[٦٠٥] العظم ، فبينما أنا راقدة ـ اللهم أو مهومة[٦٠٦] ـ إذا أنا بهاتف يصرخ بصوت صحل[٦٠٧] ، ويقول : يامعشر قريش ، إن هذا النبى المنتظر ، قد أظلتكم أيامه ، وهذا إبان[٦٠٨] نجومه ، فحىَّ هلاً[٦٠٩] بالحيا والخصب ، فانظروا

---

(٦٠٣) لدة : فى مثل سنة

(٦٠٤) امحلت : أيبست

(٦٠٥) أدقت : جعلت العظم ضعيفا من الجهد

(٦٠٦) التهويم : أول النوم

(٦٠٧) صحل : فيه بحة

(٦٠٨) إبان : زمن ، ونجومه : ظهوره

(٦٠٩) حى هلا : كلمة تعجيل ، والحيا : المطر

رجلاً منكم وسيطاً ، عُظَاما جُساماً ،[٦١٠] أبيض بضاً ،[٦١١] أوطف الأهداب سهل الخدين ، أشم العرنين[٦١٣] ، له فخر يكظم عليه ، وسنة تهدى إليه ، فليخلص هو وولده ، وليهبط إليه من كل بطن رجل فليشُنُّوا من الماء[٦١٤] ، وليمسوا من الطيب ، وليستلموا الركن ، ثم ليرقوا أبا قُبيس ، ثم ليدع الرجل وليؤمن القوم فغثتم ماشئتم[٦١٥]

فأصبحت ـ علم الله ـ مذعورة ، اقشعر جلدى ، ودله عقلي[٦١٦] ، وقصصت رؤياى ، ونمت فى شعاب مكة ، فوالحرمة والحرم ـ مابقى بها أبطحى إلا قال : هذا شيبة الحمد ،[٦١٧] وتناهت إليه رجالات قريش ، وهبط إليه من كل بطن رجل ، فشنوا ومسُّوا واستلموا ، ثم ارتقوا أباقبيس ، واصطفوا حوله مايبلغ سعيهم مهله[٦١٨] حتى إذا استووا بذروة الجبل قام عبدالمطلب ومعه ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ غلام قد أيفع ، أو كرب[٦١٩]

فرفع يديه فقال : اللهم سادَّ الخلة[٦٢٠] ، وكاشف الكربة ، أنت معلم

---

(٦١٠) الوسيط : النسيب ، والعظام : العظيم ، والجسام ، أبلغ من الجسيم

(٦١١) البض : الرقيق البشرة

(٦١٢) أوطف : طويل

(٦١٣) العرنين : الأنف

(٦١٤) فليشنوا : فليصبوا

(٦١٥) فغثتم : اتاكم الغيث

(٦١٦) دله : تحير

(٦١٧) شيبة الحمد هو اسم عبد المطلب

(٦١٨) مهلة : سكونه

(٦١٩) كرب : قارب

(٦٢٠) الخلة : الحاجة

غير معلم ، ومسئول غير مبخل ، وهؤلاء عبادك وإماؤك بعذرات[٦٢١] حرمك ، يشكون إليك سِنتهم التى أذهبت الخف والظلف ،[٦٢٣] اللهم فأمطر علينا مغدقاً مرتعاً[٦٢٤]

فورب الكعبة ماراموا حتى تفجرت السماء بما فيها ، واكتظ[٦٢٥] الوادى بثجيجه[٦٢٦] ، فسمعت شيوخ قريش وجلتها[٦٢٧] ـ عبدالله بن جدعان ، وحرب بن أمية ، وهشام بن المغيرة يقولون لعبد المطلب : هنيئاً لك أبا البطحاء ـ أى عاش بك أهل البطحاء ـ وفى ذلك تقول رقيقة :

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر
فجاد بالماء جونيٌ له سبل سحاً فعاشت به الانعام والشجر
منّاً من الله بالميمون طائره وخير من بشرت يوماً به مضر
مبارك الأمر يستسقى الغمام به ماق الانام له عدل ولاخطر[٦٢٨]

وقد جاء فى الطبقات :

أسلمت رقيقة وأدركت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كانت

---

(٦٢١) العذرات : الافنية
(٦٢٢) سنتهم : السنة : القحط والشدة
(٦٢٣) الظلف والخف : كناية عن الغنم والابل
(٦٢٤) مغدقا : كثيرا ـ مرتعا : ترتع فيه الدواب
(٦٢٥) اكتظ : ازدحم
(٦٢٦) الثجيج : سيلان كثرة الماء
(٦٢٧) جلتها : ذوو الأقدار منهم
(٦٢٨) اجلوذ المطر : تأخر
جونى : الجونى : السحاب الاسود
سحاً : متتابعا منصبا

أشد الناس على ابنها مخرمة .

وهى التى حذرت النبى - صلى الله عليه وسلم - ليلة الهجرة - روى عبدالله بن جعفر عن أم بكر بنت المسور عن أبيها أن رقيقة بنت صيفى بن هاشم بن عبدمناف وهى أم مخرمة بن نوفل حذرت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت :

إن قريشاً قد اجتمعت تريد الغدر بك الليلة - قال المسور : فتحول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن فراشه وبات عليه على بن أبى طالب - كرم الله وجهه(٦٢٩)

أبناء وبنات الأخوال والخالات

سبق أن ذكرنا أن ابن قتيبة قال فى كتابه المعارف : لم يثبت أن لآمنة بنت وهب أخ أو أخت فيكون خالا للنبى - صلى الله عليه وسلم - أو خالة له - إلا أن بنى زهرة جميعاً يفتخرون بأنهم أخوال النبى - صلى الله عليه وسلم . .

وقد اعتمدنا على كلام ابن قتيبة وسرنا على ذلك ، وتحدثنا عن بعض أعلام بنى زهرة الذين كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يعدهم أخواله . .

واستدراكاً على ماذكرنا نشير إلى ماورد فى كتاب روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم للعلامة الألوسى ، عند تفسير قوله - تعالى -

« وبنات خالك وبنات خالاتك »

---

(٦٢٩) الطبقات الكبرى حـ ٨ صـ ٣٥

قال : « وأما الخال والخالة فلم يشتهر ذكرهما . . نعم ذكر فى الإصابة ـ فريعة بنت وهب الزهرية قال عنها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من أراد أن ينظر إلى خالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلينظر إلى هذه » .

وقال فى صفية بنت عبدالمطلب وهى شقيقة حمزة ـ أمها هالة ـ خالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى هالة بنت وهب ـ كما فى المواهب ، ولم نقف لهذه الخالة على بنت غير صفية عمته عليه الصلاة والسلام ، وكذا لم نقف على بنات لمن ذكرنا قبلها .

قال : ووقفنا على خال واحد له ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو عبديغوث بن وهب ، ولم نقف على بنت له .

وإنما وقفنا على ابنين له ـ أحدهما : الأرقم ـ وله ابن يسمى عبدالله وهو صحابى كتب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولصاحبيه ،

وكان على بيت المال فى خلافة عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان أثيراً عنده ، حتى إن حفصة روت عن أبيها أنه قال لها : « لولا أن ينكر على قومك لاستخلفت عبدالله بن الأرقم » وقيل : هو ابن عبد يغوث ـ والأرقم هو عبد يغوث وقد أسلم يوم الفتح .

وقال بعضهم فيه : خال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن الناس من ذكر لعبدالله هذا أخاً ـ اسمه عبد الرحمن بن الأرقم ويثبت له صحبة .

وثانيهما : الأسود ، وأطلق عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اسم الخال .

وروى عنه أنه كان أحد المستهزئين بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقصد جبريل ـ عليه السلام ـ إهلاكه ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ياجبريل ، خالى .

فقال : دعه عنك .

وله ابن اسمه عبدالرحمن ، وبنت اسمها خالدة ـ وكانت من المهاجرات الصالحات وقد أطلق عليها اسم الخالة »[٦٣٠]

وإتماماً للفائدة من هذا الذى ذكرناه نتحدث عن هؤلاء الأعلام التى ورد ذكرها .

١ ـ فريعة بنت وهب

ورد ذكرها فى الإصابة فعلا تحت اسم : فريعة بنت وهب الزهرية .
وقال ابن حجر : أشار إليها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده
وقال : من أراد أن ينظر إلى خالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلينظر الى هذه .

وهذا ماذكره ابن الأثير ولم يزد عليه[٦٣١]

وقال ابن حجر : ذكرها أبو موسى فى الذيل عن المستغفرى ، ولم يزد على هذا .

وأشار ابن حجر أيضاً إلى أن هناك من تسمى فاختة بنت عمرو الزهرية خالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقال : أخرج الطبرانى من طريق عبدالرحمن بن عثمان الوقاصى عن ابن

---

(٦٣٠) روح المعانى جـ ٢٢ صـ ٥٥ ، صـ ٥٦
(٦٣١) اسد الغابة جـ ٧ صـ ٢٢٩ والاصابة جـ ٨ صـ ٧٤

المنكدر عن جابر قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : وهبتُ خالتى فاختة بنت عمرو غلاماً ، وأمرتها ألا تجعله جازراً ولاصائغا ولاحجاماً .

قال ابن حجر : والوقاصى ضعيف[٦٣٢]

٢ـ وأما صفية بنت عبدالمطلب فقد مر بنا أنها ابنة خالته حكماً ، لأن أمها هى هالة بنت وهيب بن عبد مناف ـ وقال السهيلى : بنت أهيب ـ وهى ابنة عم آمنة وليست أختها .

وقد سبق أن ذكرنا ذلك حين تحدثنا عن زواج عبدالمطلب ، وزواج ابنه عبدالله . فقد تزوج عبدالمطلب هالة بنت وهيب وزوَّج ابنه آمنة بنت وهب .

والمعروف أن صفية شقيقة حمزة ، فحمزة على هذا ابن خالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكماً ، لأن الأُمَّين أبناء عمومة :

أمّا ما أشار إليه الألوسى حول عبديغوث خال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ذكر أن له ولدين .

وقد أشار ابن الأثير إلى أحدهما وهو الأرقم ، عند ترجمته للأرقم بن الأرقم ، وذكر غلط من زعم أن الأرقم هذا هو والد عبدالله بن الأرقم . ذلك أن الأرقم بن الأرقم ـ زهرى وهو من السابقين إلى الإسلام .

أما عبدالله بن الأرقم ـ فهو عبدالله بن الأرقم بن عبديغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة .

---

(٦٣٢) الاصابة لابن حجر حـ ٨ صـ ٤٧ ، وهذا ماذكره ابن الأثير فى اسد الغابة ٧ / ٢١٣

وعلى ذلك فقد كان لآمنة أخ هو عبديغوث .

وعبدالله بن الأرقم هذا كانت آمنة بنت وهب عمة أبيه الأرقم .

وأمه أميمة بنت حرب بن أبي هَمْهَمة ـ واسمه عمرو ـ بن عبدالعُزَّى الفهرى .

وأسلم عبدالله عام الفتح ، وكان كاتباً فكتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كتب لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وكتب أيضاً لعمر ـ رضى الله عنه ـ وأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خيبر خمسين وسقاً .

وكان عبدالله لبيباً عاقلًا أمينا ، فاستعمله عمر على بيت المال ، واستعمله عثمان بعده ، ثم إنه استعفى عثمان فأعفاه

وحين استكتبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمن إليه ووثق به ، فكان إذا كتب له إلى بعض الملوك يأمره أن يختم الكتاب ولايقرؤه عليه لأمانته عنده .

روى مالك قال : بلغنى أنه ورد على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاب فقال : من يجيب عنه ؟

فقال عبدالله بن الأرقم : أنا يارسول الله ـ فأجاب ، وأتى به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعجبه وأنفذه . وكان عمر حاضراً فأعجبه ذلك من عبدالله ، حيث أضاف ماأراده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما ولى عمر استعمله على بيت المال .

وروى مالك قال : بلغنى أن عثمان أجاز عبدالله بن الأرقم ـ وهو على بيت المال ـ بثلاثين ألفاً فأبى أن يقبلها .

وروى عمرو بن دينار أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ أعطاه ثلاثمائة ألف درهم ، فأبى أن يقبلها ، وقال : عملت لله وإنما أجرى على الله .

وهذه هى الأريحية التى يعز أن يوجد لها نظير ، وهى تُعلِّم الناس كيف يكونون شرفاء فى أداء أعمالهم ، وأن يتورعوا عن استغلال نفوذهم فى إثراء غير مشروع أو أكل الأموال بالباطل .

لقد قال له عمر بن الخطاب يوماً : لو كان لك مثل سابقة القوم ماقدمت عليك أحداً . وهذا هو مايفسر قوله ـ رضى الله عنه ـ لابنته حفصة « لولا أن ينكر علىَّ قومك لاستخلفت عبدالله بن الأرقم »

أجل ، وهل تحتاج الدولة فى إدارتها إلا إلى مثل هذا الرجل النزيه الورع الذى يرعى الله فيما استأمنه عليه ؟

ولعبد الله بن الأرقم رواية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رواها عنه غيره . . . . ومن ذلك ماروواه هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن الأرقم قال : أقيمت الصلاة فأخذ بيد رجل فقدمه ـ وكان إمام القوم ـ وقال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إذا أقيمت الصلاة ووجد أحدكم الخلاء فليبدأ بالخلاء »[٦٣٣]

وهذا الحديث يعلمنا الاطمئنان فى الصلاة والخشوع فيها بحيث لا يكون هناك مايشغل المصلى عن ذلك من حقن البول أو كتمان الغائط ، فإنه لاصلاة لحاقن أو حاذق . بمعنى أن صلاة الحاقن والحاذق مكروهة .

أما الأسود الذى أشار إليه الألوسى بأنه ابن عبد يغوث بن وهب .

---

(٦٣٣) رواه الترمذى فى كتاب الطهارة ـ تحفة الأحوذى ١ / ٤٣٥

فقد ذكره ابن الأثير ، على أنه ابن وهب .

وهذا يفيد أنه أخو آمنة لا ابن أخيها .

وقال ابن الأثير فى ترجمته عنه :

الأسود بن وهب بن عبد مناف بن زهرة . وقيل : وهب بن الأسود .

روى صدقة بن عبدالله ، عن أبى معبد حفص بن غيلان عن زيد بن أسلم ، عن وهب بن الأسود ، عن أبيه الأسود بن وهب خال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ألا أنبئك بشىء عسى الله أن ينفعك به .. ؟

قال : بلى

قال : « إن أربى الربا استطالة المرء فى عرض أخيه بغير حق »

وروى القاسم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « إن الأسود بن وهب خال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ استأذن عليه فقال النبى : ياخال ، ادخل فدخل فبسط له رداءه ، وقال : اجلس عليه ، قال : حسبى .

قال : اجلس على ماأنت عليه

قال : إن الخال والد ياخال ، من أُسْدى إليه معروف فلم يشكر فليذكر ، فإنه إذا ذكر فقد شكر(٦٣٤)

وللأسود هذا ولد اسمه عبدالرحمن . جاء فى ترجمته :

عبدالرحمن بن الأسود بن عبديغوث بن وهب بن عبدمناف بن زهرة ، وأمه آمنة بنت نوفل بن أهيب بن عبدمناف بن زهرة ـ

---

(٦٣٤) اسد الغابة جـ١ صـ١٠٧

كان عبدالرحمن ذا قدر كبير ومنزلة عند الناس ، وهو ابن خال النبى - صلى الله عليه وسلم - وابن عم عبدالله بن الأرقم .

قال ابن الأثير : أدرك النبى - صلى الله عليه وسلم - ولاتصح له رؤية ولا صحبة ، وشهد الحكمين ، وكان ممن ذكره كل من أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص فى حكومتهما .

ولم يهاجر هو وأبوه ، وكان ذا منزلة عند عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها .

وقيل : إن له رواية .... روى عنه مروان بن الحكم ، وسليمان بن يسار وغيرهما .

ومما روى عنه : روى معمر عن الزهرى ، عن عوف بن الحارث ، عن المسور بن مخرمة وعبدالرحمن بن الأسود بن عبديغوث أنهما قالا : « إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عن الهجر ، وأنه لايحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »(٦٣٥)

خالدة بنت الأسود

٣- وللأسود بن عبديغوث بنت اسمها خالدة - جاء فى ترجمتها :

هى خالدة بنت الأسود بن عبديغوث بن وهب بن عبدمناف بن زهرة القرشية الزهرية .

وأمها آمنة بنت نوفل بن وهيب بن عبدمناف بن زهرة .

أسلمت خالدة بالمدينة ، وبايعت رسول - صلى الله عليه وسلم -

---

(٦٣٥) أسد الغابة جـ٣ صـ٤٢٧

وتزوجها عبدالله بن الأرقم - ابن عمها -

روى ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر ، حدثنى معمر عن الزهرى فى قوله تعالى :

« يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى »

قال : دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بعض نسائه ، فاذا هو بامرأة حسنة الهيئة فقال : من هذه ؟

قالوا : إحدى خالاتك .

فقال : إن خالاتى بهذه الأرض لغرائب .... وأى خالاتى هذه ؟

قالوا : خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث .

فقال : سبحان الله الذى يخرج الحى من الميت .

قال ابن سعد : وكانت امرأة صالحة ومات أبوها كافراً[٦٣٦]

وقد ذكرنا قبل ذلك أن بعض الروايات تذكر أن الأسود أسلم ، ووفد على النبى - صلى الله عليه وسلم - وبسط له رداءه ، وقال له : إن الخال والد .

وربما يكون وفوده لايعنى إسلامه . . . فقد سبق أن ذكرنا ماقاله الألوسى من أن جبريل أراد إهلاكه ، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - ياجبريل ، خالى فقال : دعه عنك .

وذكر ذلك ابن الأثير فى أسد الغابة ،[٦٣٧] وأورد الحديث الذى أورده ابن سعد من طريق آخر .

---

(٦٣٦) طبقات ابن سعد ٨ / ١٨٧

(٦٣٧) اسد الغابة حـ ٧ صـ ٧٧

إخوة وأخوات النبى صلى الله عليه وسلم من الرضاعة

فى حديثنا السابق أشرنا إلى أن حمزة بن عبد المطلب عم النبى - ﷺ - كان أخا للنبى - ﷺ - من الرضاعة ، أرضعتهما ثويبة مولاة أبى لهب .

وكذلك كان أبو سلمة - الذى كان زوجا لأم سلمة أم المؤمنين - أخاه من الرضاعة أيضا . أرضعته معه ثويبة بلبن ابنها مسروح .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخا للنبى - ﷺ - من الرضاعة أيضا - أرضعتهما حليمة السعدية .

وقد سبق الحديث عن هؤلاء الثلاثة . .

ويعتبر أولاد حليمة السعدية إخوة النبى - ﷺ - من الرضاعة وهم : عبد الله ، وأنيسة ، وحذافة - التى تعرف بالشيماء . .

وهؤلاء الثلاثة هم أولاد الحارث بن عبد العزى الذى يطلق عليه أبو النبى - ﷺ - من الرضاع .

وقد تكلم بعضهم فى إسلام الحارث . . ورجح بعض الرواة إسلامه ، وترجم له ابن الأثير فى كتابه قائلا :

الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملّان بن ناصرة بن قُصَّة بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن - أبو رسول الله - ﷺ - من الرضاعة .

قال : وروى يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسار عن رجال من بنى سعد بن بكر قالوا : قدم الحارث بن عبد العزى أبو رسول الله

- ﷺ - من الرضاعة ، على رسول الله - ﷺ - مكة - فقالت له قريش : ألاتسمع مايقول ابنك هذا ؟

قال : مايقول ؟

قالوا : يزعم أن الله يبعثنا بعد الموت ، وأن للناس دارين دار الدنيا هذه ، ودار الآخرة التى يعذب فيها من عصاه ويكرم من أطاعه ، وقد شتت أمرنا ، وفرق جماعتنا .

فأتاه الحارث فقال له : أى بنى ، مالك ولقومك يشكونك ، ويزعمون أنك تقول : إن الناس يبعثون بعد الموت ، ثم يصيرون إلى جنة ونار ؟

فقال رسول الله - ﷺ - : نعم ، أنا أقول ذلك . ولوقد كان ذلك اليوم ياأبة قد أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك هذا اليوم .

فأسلم الحارث بعد ذلك . فحسن إسلامه ، وكان يقول حين أسلم : لوقد أخذ ابنى بيدى ، فعرفنى ماقال لم يرسلنى حتى يدخلنى الجنة[٦٣٨] . .

أما حليمة أمه فقد أسلمت فى رأى كثير من الرواة ، وقد قدمت على النبى - ﷺ - فى « الجعرّانة » بعد حصار الطائف ، ولاشك أنها جاءت مسلمة ، فلم يكن أحد فى ذلك الوقت باق على كفره إلا النادر . . .

حدث يحيى بن ثوبان عن عمارة بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره أن النبى - ﷺ - كان بالجعرانة يقسم لحما وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير ، فأقبلت امرأة بدوية ، فلما دنت من النبى - ﷺ - بسط لها رداءه فجلست عليه . فقلت : من هذه ؟

---

(٦٣٨) أسد الغابة لابن الأثير حـ ١ صـ ٤٠٤ - الروض الأنف للسهيلى حـ ١ صـ ١٨٥

قالوا : أمه التي أرضعته[٦٣٩] .

وحدث ابن سعد أن حليمة كانت قد وفدت على النبي - ﷺ - قبل ذلك فقد جاءته حين تزوج خديجة فتشكت جدب البلاد وهلاك الماشية ، فكلم رسول الله - ﷺ - خديجة فيها ، فأعطتها أربعين شاة وبعيرا . . وانصرفت إلى أهلها[٦٤٠] وجاءته بعد ذلك أيضا فأكرمها . .

وعاشت حليمة إلى أيام أبي بكر وعمر ، فأعطياها من البر ما كان يفعله النبي - ﷺ -

ولقد حفظ النبي - ﷺ - الجميل لبني سعد بن بكر جميعا ، وأطلق لهم أسراهم الذين أسرهم المسلمون في غزوة حنين من هوازن . . . .

عن عبد الله بن جعفر وابن أبي سبرة وغيرهما قالوا : قدم وفد هوازن على رسول الله - ﷺ - بالجعرانة بعدما قسم النبي الغنائم ، وفي الوفد عم النبي - ﷺ - من الرضاعة واسمة أبو ثروان

فقال يومئذ : يارسول الله ، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا وأرضعناك بثُدِيِّنا ، ولقد رأيتك مرضَعاً فما رأيت خيرا منك ، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيماً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شابا خيرا منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك ، فامنن علينا منَّ الله عليك .

فقال رسول الله - ﷺ - : قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لاتقدمون ، وقد قسمت السبي وجرت فيه السهمان .

---

(٦٣٩) اسد الغابة ٧ / ٦٨

(٦٤٠) الطبقات ١ / ١ / ٧١

ويقال : إن المتكلم عن هوازن فى ذلك الوقت هو أبو صُرَد زهير بن صرر وقد قال العبارات المتقدمة وأضاف : لو أنا وقعنا تحت يد الحارث بن أبى شمر الغسانى ، والنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا أحدهما بمثل مانزلت به لرجونا عطفه وعائدته ، وأنت خير المكفولين ، ثم أنشد قائلا :

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على بيضة إعتاقها قدر ... ممزّق شملها فى دهرها غير
أبقت لنا الحرب تهتاناً على حزن ... على قلوبهم الغماء والغَمَر
إن لم تداركها نعماء تنشرها ... ياأرجح الناس حلما حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤها من محضها دررُ
إذ كنت طفلا صغيرا كنت ترضعها ... وإذ يزينك ماتأتى وماتذر
لاتجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زهر[٦٤١]
إنا لنشكر آلاء وإن كُفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مُدَّخرُ

فقال رسول الله - ﷺ - : « نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم » ؟

فقالوا : يارسول الله ، خيرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا ، أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا .

فقال رسول الله - ﷺ - : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا صليت بالناس قوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله - ﷺ - إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله - ﷺ - فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم

---

(٦٤١) شالت نعامتهم : كناية عن موتهم وتفرقهم ، والنعامة الجماعة

عند ذلك وأسال لكم الناس .

فلما صلى رسول الله - ﷺ - بالناس الظهر قاموا فقالوا ماأمرهم رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ - : ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهولكم .

فقال المهاجرون : ماكان لنا فهو لرسول الله .

وقال الأنصار : ماكان لنا فهو لرسول الله .

فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عباس بن مرداس السلمى : أما أنا وبنو سليم فلا .

فقالت بنوسليم : بلى ، ماكان لنا فهو لرسول الله - ﷺ -

وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا .

فقال النبى - ﷺ - : من تنازل عن حقه منك فله بكل إنسان ست فرائض من أول فىء نصيبه .

فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم(٦٤٢)

كان النبى - ﷺ - يعرف لبنى سعد بن بكر مكانهم ، وكان يفتخر أنه ربى فيهم فنشأ فصيحا . قال رسول الله - ﷺ - : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش واسترضعت فى بنى سعد بن بكر(٦٤٣) »

وقصة إرضاع حليمة للنبى - ﷺ - مشهورة فى السيرة ، وقد اعتنى بها الرواة لما تتضمنه من دلائل النبوة وإشارات الرسالة .

---

(٦٤٢) أسد الغابة حـ ٢ صـ ٢٦٣ - الطبقات الكبرى - ١ / ١ / ٧٢ - البداية والنهاية ٤ / ٣٥٢

(٦٤٣) زهر الآداب للحصرى حـ ١ صـ ٥٩

روى عبد الله بن جعفر عن حليمة قالت :

قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد بن بكر نلتمس الرضعاء فى سنة شهباء ، فقدمت على أتان قمراء كانت أذمّت بالركب[٦٤٤] ، ومعى صبى لنا وشارف[٦٤٥] لنا ، والله ماننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذلك ـ مايجد فى ثديى مايغنيه ، ولافى شارفنا مايغذيه .

فقدمنا مكة فوالله ماعلمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا قيل : يتيم تركناه . وقلنا : ماذا عسى أن تصنع لنا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أب الولد ، فأما أمه فماذا عس أن تصنع إلينا ؟

فوالله مابقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعا إلا أنا ـ فلما لم أجد غيره قلت لزوجى الحارث بن عبد العزى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآ خذنه . فقال : لاعليك .

فذهبت فأخذته ، فما هو إلا أن أخذْتُه فجئت به رحلى ، فأقبل علىّ ثدياى بما شاء الله من لبن ، وشرب أخوه حتى روى ، وقام صاحبى إلى شارفى أى ناقتى المسنة ـ فإذا بها حافل ، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا ، فبتنا بخير ليلة .

فقال لى صاحبى : يا حليمة ، والله إنى لأراك أخذت نسمة مباركة فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

---

(٦٤٤) الشهباء : الشديدة القاسية ، والقمراء البيضاء فيها كدرة ، وأذمت : حبستهم لضعفها

(٦٤٥) الشارف : الناقة المسنة

قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى ، وحملته عليها معى ،. فوالله لقد أسرعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم . حتى إن صواحبى ليقلن لى : ياابنة أبى ذُؤيب ويحك ، اربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهى هى .

فيقلن : والله إن لها لشأنا .

قالت ؛ ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تَبِضُّ بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً كثيرة اللبن ، فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفراً .(٦٤٦)

لقد كان العرب قديماً يحرصون على استرضاع أولادهم فى البادية لأهداف منها . . أن ينشأ على الخشونة ، فيكون قوياً جلداً ـ ومنها أن يتعود لسانه الفصاحة والسلامة .

قال السهيلى : وأما دفع قريش وغيرهم من أشراف العرب أولادهم إلى المراضع لينشأ الطفل فى الأعراب فيكون أفصح للسانه وأجلد لجسمه وأجدر

---

(٦٤٦) أسد الغابة جـ ٧ صـ ٦٨ ـ سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ١٨٥

أن لا يفارق الهيئة المَعَدِّية ـ نسبة إلى مَعَدِّ بن عدنان ـ كما قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : تمعددوا وتمعززوا واخشوشنوا وقد قال ـ عليه السلام ـ لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ حين قال له : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله ، فقال : « وما يمنعنى وأنا من قريش وأرضعت فى بنى سعد ؟ »

وقد ذكر أن عبدالملك بن مروان كان يقول : « أضَرَّبنا حب الوليد ـ لأن الوليد كان كثير اللحن فى الكلام ، وكان سليمان فصيحا . . . ذاك أن الوليد أقام مع أمه ، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعربوا ، ثم أُدِّبُو فتأدبوا .[٦٤٧]

الشيماء :

ولم يذكر الرواة أن أحداً من أولاد الحارث بن عبدالعزى أسلم إلا الشيماء . وهى أخت الرسول ـ ﷺ ـ من الرضاعة ـ كما ذكرنا ـ وكانت كبرى أولاد الحارث وكانت تحمل النبى ـ ﷺ ـ مع أمها . . وقيل : إن اسمها حُذافة . . وغلب عليها اسم الشيماء . .

وحدث الرواة أنها وفدت على النبى ـ ﷺ ـ بعد معركة حنين .

قال ابن كثير راويا عن ابن إسحاق : حدثنى بعض بنى سعد بن بكر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوم هوازن : « إن قدرتم على نجاد ـ وقيل : بجاد ـ رجل من بنى سعد بن بكر ـ فلا يفلت منكم » وكان بجاد قد أحدث أمراً عظيماً ضد المسلمين .

---

(٦٤٧) الروض الأنف جـ ١ صـ ١٨٧

فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى ـ أخت رسول الله ـ ﷺ ـ من الرضاعة ـ وكانت زوجة لبجاد .

قال : فعنفوا عليها فى السُّوْق ، فقالت للمسلمين : تعلمون والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاعة .

فلم يصدقوها ، حتى أتوا بها رسول الله ـ ﷺ ـ

قال ابن إسحاق : فحدثنى يزيد بن عبيد السعدى قال : فلما انتهى بها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قالت : يا رسول الله إنى أختك من الرضاعة .

قال : وما علامة ذلك ؟

قالت : عضة فى ظهرى منك وأنا أحملك صغيراً .

قال: فعرف رسول الله ـ ﷺ ـ العلامة ، فبسط لها رداءه فأجلسها عليه . وخيّرها وقال : « إن أحببت فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أعطيتك ورجعت إلى قومك .... »

قال : بل تعطينى وتردنى إلى قومى .

فأعطاها رسول الله ـ ﷺ ـ وردها إلى قومها . فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً يقال له مكحول ، وجارية . فزوجتها فلم يزل فيهم من نسلها بقية .(٦٤٨)

وذكر صاحب المواهب اللدنية أن النبى ـ ﷺ ـ أعطاها خادماً وجارية ونَعَماً وشاءً ، وحين رآها دمعت عيناه . فأسلمت .(٦٤٩)

---

(٦٤٨) البداية والنهاية حـ ٤ صـ ٣٦٣

(٦٤٩) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية صـ ١٦٢ ليوسف بن اسماعيل النبهانى

وروى البيهقى من حديث الحكم بن عبدالملك عن قتادة قال : لما كان يوم فتح هوازن جاءت جارية إلى رسول الله - ﷺ - فقالت : يا رسول الله ، أنا أختك شيماء بنت الحارث .

فقال لها : « إن تكونى صادقة فإن بك منى أثرا لا يبلى »

قال : فكشفت عن عَضُدِها . فقالت : نعم يا رسول الله وأنت صغير عضضتنى هذه العضة .

قال : فبسط لها رسول الله - ﷺ - رداءه ، ثم قال : « سلى تُعْطى واشفعى تُشَفَّعى »

وقال البيهقى : أنبأ أبو نصر بن قتادة ؛ أنبأ عمرو بن إسماعيل بن عبدالسلمى ، ثنا مسلم ، ثنا أبو عاصم ، ثنا جعفر بن يحيى بن ثوبان ، أخبرنى عمى عمارة بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره قال : كنت غلاماً أحمل عضو البعير ، ورأيت رسول الله - ﷺ - يقسم نعما بالجعرانة .

قال : فجاءته امرأة فبسط لها رداءه فقلت : من هذه ؟ قالوا : أمه التى أرضعته . .

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب ، ولعله يريد أخته ، وقد كانت تحمله مع أمها حليمة السعدية - وإن كان محفوظا - فقد عمرت حليمة دهراً . . . . فإن من وقت أرضعت رسول الله - ﷺ - إلى وقت الجعرانة أزيد من ستين سنة ، وأقل ما كان عمرها حين أرضعته - ﷺ - ثلاثين سنة ، ثم الله أعلم كم عاشت بعد ذلك .

وقد ورد حديث مرسل فيه أن أبويه من الرضاعة قدما عليه - والله أعلم بصحته .

قال أبو داود فى المراسيل : ثنا أحمد بن سعيد الهمدانى ، ثنا ابن وهب ثنا عمرو بن الحارث أن عمر بن السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله - ﷺ - كان جالساً يوماً فجاءه أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه فجلست عليه ، ثم جاءه أخوه من الرضاعة فأجلسه - ﷺ - بين يديه .. (٦٥٠)

إن هذا هو البر الذى تحلى به النبى - ﷺ - وكان طبعاً فيه كان يقول : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »

ولقد اتسع بره حتى شمل الناس جميعا ، ولا عجب فقد أرسله الله رحمة للعالمين ..

وقد مر بنا أن هوازن كلها افتخرت برضاع النبى - ﷺ - من بنى سعد بن بكر ، وهم جماعة من هوازن ، وقد قال خطيبهم فى طلب العفو من النبى - ﷺ - فى النص الذى قدمناه : إنما فى الحظائر أمهاتك وخالاتك وعماتك من الرضاعة فامنن علينا منَّ الله عليك ، وقال فيها قال :

امنن على نسوة قد كنت ترضعها : إذ فوك يملؤه من محضها در

وانما أرضعته واحدة هى حليمة ، ولكن الخير عم الجميع ، لم يشمل بنى سعد بن بكر وحدهم ، بل عم هوازن كلها .. ولئن كان فى حنين قد شملت رحمته هوازن بأكملها فإن رحمته السالفة شملت العالمين جميعا مصداقا لقوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقوله - ﷺ - عن نفسه « إنما أنا رحمة مهداة »

---

(٦٥٠) البداية والنهاية ٤ / ٣٦٤

وشهدت الشيماء حادث شق صدر رسول الله ـ ﷺ ـ حين كان يرعى معها ومع أخيها الغنم ، فجاءه ملكان فشقا صدره الشريف واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبه وبطنه بالثلج . .

وكان لهذه الحادثة أثرها فى نفس حليمة وزوجها ، فقد خافا على هذا الغلام فرداه إلى أمه قبل أن ينتهى الأجل المتفق عليه . .

ولا شك أن الشيماء كانت تدرك الحادث وتعيه قد تأثرت بذلك أيضاً واستقر فى وجدانها منه شيء ، وعرفت أن أخاها هذا سوف يكون له شأن فوق كل شأن ، إلا أن الأيام حالت بينها وبينه فلم تلقه إلا فى ذلك اليوم الذى عم فيه فضله على قومها أجمعين . فعادت إلى ذهنها الذكريات القديمة وتجمعت فى خاطرها تلك الأحداث القديمة ، والمداعبات البريئة التى تكون بين الأخوة والأخوات والتصرفات النبيلة التى تشهد برجولة مبكرة لا تكون إلا بين النوابغ من الرجال والنوادر من الأبطال ، ولا يدركها إلا أصحاب سوابق الهمم والنفوس الكبيرة من النساء والرجال . .

الذرية الطيبة

إذا كان الله ـ تعالى ـ قد قال فى حق آل إبراهيم وآل عمران « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم »

فإن آل محمد قد ورد فى حقهم قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

لقد وردت كلمة « آل » فى حق إبراهيم وعمران ، وهى كلمة تطلق على الأخص والأشهر ، ووردت كلمة أهل مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتشمل كل من يتصل به من ذويه . وإذاً فقد خُصَّ الاصطفاء فى حق السابقين وأُطلق الاصطفاء فى حقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتلك خصيصة من خصائصه .

وقد تحدثنا فيما سبق عن بعض من يتصل بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأعمام والعمات وأبنائهم وبناتهم . . . ونتحدث الآن عن ذرية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى ورد فيها قوله

« كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى »

ونبدأ حديثنا بأولاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

القاسم

ذكر ابن سعد حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ الذى رواه عنه أبو صالح فقال : « كان أول من ولد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة قبل النبوة ـ القاسم ـ وبه كان يكنى .

ثم ولد له زينب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم .

ثم ولد له فى الإسلام عبد الله فسمى ـ الطيب والطاهر ، وأمهم جميعاً خديجة بنت خويلد بن أسد ـ رضى الله عنها ـ وكان القاسم أول من مات من ولده ـ صلى الله عليه وسلم ـ واختلف فى سن القاسم ـ قال مجاهد : مات وله سبعة أيام .

وقال الزهرى : مات وهو ابن سنتين

وقال قتادة : عاش حتى مشى

وقد ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة لا على أنه صحابى ، بل على أنه من ولده ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولم يشهد القاسم الدعوة على وجه اليقين ـ إلا أن يونس بن بكير روى عن أبى عبد الله الجعفى عن محمد بن على قال : كان القاسم بن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجيبة ، فلما قبضه الله ـ تعالى ـ قال الكفار لقد أصبح محمد أبتر ، فأنزل الله ـ تعالى :

« إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر[٦٥١] »

وقد ضعف بعضهم هذا الخبر . . . وأكدوا أن السورة نزلت حين مات عبد الله ـ وذكروا أن الذى قال إن محمداً أبتر هو العاص بن وائل[٦٥٢] .

---

(٦٥١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور ، والبيهقى فى الدلائل ٦ / ٤٠٤

(٦٥٢) اسد الغابة حـ ٤ صـ ٣٧٨

والخبر الأول يفيد أن القاسم عاش حتى نزل الوحى ، وعلى ذلك فهو معدود فى الصحابة . ولكن ذلك مردود عليه بما تقدم .

ويذكر السهيلى أن رضاعة القاسم لم تكن كملت ، وقال : وقع فى مسند الفريابى أن خديجة دخل عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد موت القاسم وهى تبكى ، فقالت : يا رسول الله درت لبينة القاسم ـ فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعه لهوَّن علىَّ ـ فقال لها : إن له مرضعاً فى الجنة تستكمل رضاعته .

فقالت : لو أعلم ذلك لهون علىَّ .

فقال : لوشئت أسمعتك صوته فى الجنة .

فقالت : بل أصدق الله ورسوله .

وعلق السهيلى على هذا الخبر بقوله : وهذا من فقهها ـ رضى الله عنها ـ كرهت أن تؤمن بهذا الأمر معاينة فلا يكون لها أجر التصديق والإيمان بالغيب وقد أثنى الله على الذين يؤمنون بالغيب .

قال : وهذا الحديث يدل أيضاً على أن القاسم لم يهلك فى الجاهلية بل هلك فى الإسلام .

عبد الله

المشهور أن عبد الله كان يلقب بالطيب ويلقب بالطاهر .

وإن كان ابن هشام يرى أن الطيب ولد والطاهر ولد آخر . . . قال : أكبر بنيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر[٦٥٣] .

---

(٦٥٣) سيرة ابن هشام حـ ١ صـ ٢١٤

والمعروف عند أكثر الرواة أن خديجة لم تلد من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الذكور إلا ولدين ، ومن الإناث أربع .

فأما الذكران فهما القاسم وعبد الله . وأما الأناث فهن رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة ـ رضى الله عنهم ـ

وربما أدرك عبد الله البعثة ـ فقد نزل فى شأن وفاته وتعيير الكفار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه أبتر قوله ـ تعالى

« إن شانئك هو الأبتر »

فقد ورد أن العاص بن وائل السهمى قال حين مات عبد الله : بُتر محمد ، أى انقطع أثره ـ فأنزل الله سورة الكوثر ـ وفيها يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم ـ لقد أعطيناك ما هو أفضل من الولد ، وهو النهر الكوثر الذى يجرى فى الجنة ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى مذاقاً من العسل ، فصل لربك وانحر . شكراً على هذه النعمة ـ ولست أبتر يا محمد فذكرك باق دائماً ، وإنما الأبتر هو الذى يبغضك ويكرهك .

إلا أنه ليس من الضرورى أن يكون هذا القول قد حدث بعد البعثة ـ فأكثر الرواة على أن القاسم وعبد الله ماتا قبل البعثة ، والمعروف أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تزوج من خديجة قبل البعثة بخمسة عشر عاماً ـ وفى خلال هذه الفترة ولد له أبناء منهم القاسم وعبد الله .

وقد مات هذان الولدان قبل البعثة ، ولم تتحدث قريش فى شأن ذلك ـ ولعلهم عزّوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وواسوه فى موت ولديه ، ولكن الرسالة حين جاءت فجرت الحقد ، والحقد لا مروءة له ، فأخذ المشركون يفتشون عن عيوب فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما لم يجدوا عيباً

تحدثوا عن فقده ولديه الذكرين ـ وقالوا إنه أبتر ـ قال القرطبي : وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات ـ ثم مات البنون وبقي البنات ـ أبتر فيقال : إن العاص وقف مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلمه ، فقال له جمع من صناديد قريش : مع من كنت واقفاً ؟

فقال : مع ذلك الأبتر . فأنزل الله سورة الكوثر ولعل هذا هو الذى يتفق مع الأحداث . . وهو أن الوفاة حدثت قبل البعثة ولكن التعبير بها تم بعد البعثة .

أما قول من يقول إن هذه السورة نزلت حين توفى ابنه إبراهيم ـ فقال أبو جهل حينئذ ـ بُتر محمد فأنزل الله هذه السورة ، فهو قول مردود ـ لأن أبا جهل مات قبل موت إبراهيم ـ عليه السلام ـ بسنين ـ لأن أبا جهل مات فى بدر فى العام الثانى الهجرى ، وإبراهيم ولدته مارية القبطية التى أهداها المقوقس للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العام الثامن الهجرى . . . والذى يزعم أن الذى قال ذلك هو عقبة بن معيط لا أبو جهل لم يزد شيئاً . . ويرد عليه بالرد نفسه لأن عقبة أيضاً قتل فى بدر .

وكانت وفاة الذكور من أولاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحكمة عليا ، ندرك من خلالها أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قمة فى الصبر ، وقد صبر على ما لا يصبر عليه غيره ، فقد مات أبوه وهو جنين فى بطن أمه ، وماتت أمه وهو فى الخامسة ، ومات جده وهو فى السابعة أو الثامنة ، ونشأ عصامياً يرعاه ربه ويؤدبه ويهديه .

« ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى » فلما أن تزوج فأنجب ورأى حب الأولاد اختطفهم الموت منه صغاراً فلم

ييأس ولم يجزع ، بل كان آية فى الصبر ومثلاً أعلى فى الاحتساب ليراه من فقد والده فيقتدى به ، ومن فقد ولدَه فيتعزى به .

إبراهيم

وإذا كان من حق بنى زهرة أن يفتخروا جميعاً بأنهم أخوال النبى - صلى الله عليه وسلم - ومن حق بنى سعد بن بكر أن يفتخروا بأنهم أرضعوا النبى - صلى الله عليه وسلم - فإن من حق أهل مصر أن يفخروا بأنهم أصهار النبى - صلى الله عليه وسلم - وأخوال ولده إبراهيم - عليه السلام - وقد أشار النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك فقال

« ستفتح عليكم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لكم فيها نسبا وصهرا » .

ذكر ابن سعد قال : لما رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية سنة ست من الهجرة بعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط صاحب الاسكندرية ، وكتب معه كتاباً يدعوه إلى الإسلام .

فلما قرأ المقوقس الكتاب قال فيه خيراً ، وأخذ الكتاب ، فجعله فى حق من عاج وختم عليه ، ودفعه إلى جارية له ، وكتب للنبى - صلى الله عليه وسلم - جواب كتابه ، ضمنه كلاماً حسناً ولكنه لم يُسلم ، وأهدى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - مارية وأختها سيرين وطبيباً وبغلة .

كانت مارية من قرية حَفْن من كورة أنصنا فى مصر الوسطى على الشاطىء الشرقى من إقليم المنيا . وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق :

وأنزل النبى - صلى الله عليه وسلم - مارية وأختها على أم سليم بنت ملحان ، وعرض عليهما الإسلام فأسلمتا .

واختار الله سبحانه وتعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مارية وأعطى الرسول أختها سيرين لحسان بن ثابت الشاعر فولدت له عبد الرحمن ، وولدت مارية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابنه إبراهيم ، فهو وعبد الرحمن بن حسان ابنا خالة .

وذبح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقيقة عن إبراهيم يوم سابعه ، وحلق له رأسه وتصدق بوزنه فضة على المساكين ، وأمر بشعره فدفن فى الأرض .

وكانت قابلته مولاة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اسمها سلمى ـ زوجة أبى رافع ـ مولى النبى ـ ﷺ ـ فنزلت إلى زوجها فأخبرته بولادة إبراهيم ، فأسرع أبو رافع إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزف له البشرى فأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عطاء كثيرا ـ وكانت ولادة إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان .

ويقال إن الذى سماه هو جبريل عليه السلام ، فقد أخبر الزهرى عن أنس بن مالك قال : لما ولد إبراهيم جاء جبريل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : السلام عليك يا أبا إبراهيم .

ولا تناقض بين ذلك وبين قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه يونس بن عبيد عن أنس بن مالك قال : خرج علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أصبح فقال : إنه ولد لى الليلة غلام وإنى سميته باسم أبى إبراهيم ـ لاحتمال أن يكون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمى ابنه إبراهيم بعد أن سلم عليه جبريل بذلك ـ وقد ورد أيضاً أن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء قبل الولادة بزمن للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبشره بأن فى

بطن مارية ولداً اسمه إبراهيم .

وتنافست نساء الأنصار أيتهن ترضع إبراهيم إكراماً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدفعه النبى إلى أم بردة بنت المنذر بن زيد بن لبيد من بنى عدى بن النجار ، وزوجها البراء بن أوس بن خالد من بنى عدى بن النجار أيضاً ، فكانت ترضعه ـ وكان يبقى عندها ويأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه كثيراً لزيارته ورؤيته .

ثم أعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أم سيف ـ وهى امرأة حداد ـ بالمدينة يقال له أبو سيف فكانت ترضعه .

عن عمرو بن سعيد عن أنس بن مالك قال : ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إبراهيم مسترضعاً فى عوالى المدينة ، فكان يأتيه ونجىء معه ليطمئن عليه فيجاء به إليه فيأخذه فيقبله . .

وفاته

ولم تطل الحياة بإبراهيم فقد مرض ومات وهو دون العامين . .

عن جابر بن عبد الله الأنصارى عن عبد الرحمن بن عوف قال : أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيدى فانطلق بى إلى النخل الذى فيه إبراهيم ، فوضعه فى حجره وهو يجود بنفسه ، فذرفت عيناه .

فقلت له : أتبكى يا رسول الله ، أو لم تنه عن البكاء ؟

قال : « إنما نهيت عن النوح ـ عن صوتين أحمقين فاجرين ، صوت عند نعمة ـ لهو ولعب ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة ـ طمس وجوه وشق جيوب ورنة شيطان » .

قال عبد الله بن نمير فى حديثه : « إنما هذا - أى البكاء - رحمة ، ومن لا يرحم لا يُرحم . . . يا أبا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صادق ، وأنها سبيل مأتية ، أخرانا ستلحق أولانا لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا ، وإنا بك لمحزونون ، تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب - عز وجل » . . . وقد تعددت رواية هذا الحديث من طرق مختلفة وألفاظ متقاربة يؤيد بعضها بعضاً . وتشير إلى حزن النبى - صلى الله عليه وسلم - على ابنه الذى أحبه حباً شديداً . وهذه عاطفة صادقة ، ورحمة طبيعية فطر الله عليها العباد جميعاً من أولهم إلى آخرهم - حتى لقد روى أن آدم عليه السلام - حين نظر إلى ذريته أعجبه منهم داود فَسُرَّ به ، فوهبه أربعين عاماً من عمره فأصبح عمر داود مائة عام ، وعمر آدم ألف عام إلا أربعين عاماً[٦٥٤] » .

لقد أراد آدم أن يزيد فى عمر ولده داود من عمره حباً له . وعطفاً عليه .

فإذا ما حزن النبى - صلى الله عليه وسلم - على ابنه إبراهيم فقد سار على الفطرة السوية الشريفة والعاطفة الصادقة التى أودعها الله فى القلوب وفطر عليها النفوس .

ولكنه كان فى حزنه نبيلاً مشرعاً ، وعظ الناس ولفت أنظارهم إلى ما يجب أن تكون عليه تصرفاتهم إزاء ما ينتابهم من كوارث ومصائب

---

(٦٥٤) روى احمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما استخرج الله من ظهر آدم ذريته فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام - ورأى فيهم رجلا يزهر . فقال : أى رب من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود . قال : اى رب كم عمره ؟ قال : ستون عاما . قال : اى رب زد فى عمره ، قال : لا إلا أن أزيده من عمرك - وكان عمر آدم الف عام فزاده أربعين عاما ، فلما انقضى عمر أدم جاءه ملك الموت فقال : بقى من عمرى أربعون سنة ، ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود ، فأتمها الله لأدم ألف سنة ولداود مائة سنة - قصص الأنبياء لابن كثير صـ ٤٩٢

وما يجب أن يلتزموا به من آداب فى ساعات يغلب الوجد فيها مشاعر الناس وينأى بهم عن السلوك اللائق والتصرف الحكيم .

لقد حدث أن كسفت الشمس عند وفاة إبراهيم ، فقال قائل : لقد كسفت الشمس حزنا على إبراهيم . . ولكن النبى الحكيم وهو فى ساعة حزنه لم يجعل هذه الكلمة تمر دون أن ينبه الناس إلى تدارك أخطائهم ، وتصحيح مفاهيمهم . فيقول لهم فى خطبة جامعة : بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد ، أيها الناس ـ إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد ، ثم دمعت عيناه .

لم ينس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهمته فى ساعة حزنه ، ولم يتخل عن واجب الدعوة فى تلك اللحظة التى كان يمكن أن ينتهزها أى إنسان آخر غير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليجعل منها مظاهرة دعائية ، ويستغلها هو ومظاهروه أحسن استغلال .

وتوفى إبراهيم وهو ابن ثمانية عشر شهراً ، ولم يتم رضاعه بعد . . . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن له مرضعاً فى الجنة » .

وحمل إلى البقيع حيث دفن هناك .

وكان أول من دفن بالبقيع عثمان بن مظعون ـ رضى الله عنه ـ وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ندفن إبراهيم عند فرطنا عثمان بن مظعون .

ورش النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الماء على قبر إبراهيم وقبره قريب من الطريق . وقد عُلِّم هذا القبر بحجر ليعرف . .

ولما سوى قبر إبراهيم رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجراً ناتئاً ،

فجعل يسويه بيده ويقول : « إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه فإنه مما يسلى بنفس المصاب » .

وفى رواية : رأى فرجة فى اللحد ، فناول الحفار مَدَرَة وقال : إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحى .

لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ طبيباً للنفوس ـ عالماً بما تنطوى عليه من أحاسيس ومشاعر ، وفى الوقت نفسه كان حريصاً على التوجيه والإرشاد فى كل مناسبة من المناسبات . . وكانت وفاة إبراهيم ـ يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر .

وكانت وفاته عند أم بردة ـ ونقل من بيتها إلى قبره فى البقيع . وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى » أى لوضعت الجزية عن أخواله ـ أهل مصر ـ أى ما أصبح هناك رقيق فى مصر ـ وقد حفظ أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصيته من بعده .

وصدقت نبوءة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أهل مصر حين قال : إذا افتتحت مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فإنهم خير أجناد الأرض ، لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة . .

ولقد تتابعت الأجيال تلو الأجيال ومازالت مصر وجنودها فى جهاد متواصل ، تنصر الحق وتدفع العدو ، وترفع شأن الدين وتعمل على الألفة والتعاون ، وترد كيد الطامعين والمخذلين . .

بنات النبى - صلى الله عليه وسلم -

زينب

يقول ابن سعد : ولد للنبى صلى الله عليه وسلم : - زينب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم . .

ويقول ابن هشام : أكبر بناته رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

ويعلق السهيلى على ذلك بقوله: اختلفوا فى الكبرى والصغرى من البنات ، غير أن أم كلثوم لم تكن الكبرى من البنات ولا فاطمة ، والأصح فى فاطمة أنها أصغر من أم كلثوم

وسوف نتبع فى حديثنا هذا الترتيب : زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

قال ابن الأثير : ولدت زينب وللنبى - صلى الله عليه وسلم - ثلاثون سنة ، وهى أكبر بناته - وقد قال البعض إنها أكبر بناته - وليس بشىء . . . إذ الاختلاف بين القاسم وزينب أيهما ولُد قبل الآخر .

قال بعض علماء النسب : أول من ولُد له - صلى الله عليه وسلم - القاسم ثم زينب

وقال ابن الكلبى : زينب ثم القاسم ، وقد هاجرت زينب بعد بدر(٦٥٥)

ونقل ابن كثير قوله : أكبر بناته رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة

ونقل البيهقى عن الحاكم : قرأت بخط أبى بكر بن خيثمة : حدثنا

---

(٦٥٥) أسد الغابة ٧ / ١٣٠

مصعب بن عبدالله الزبيرى قال : أكبر ولده ـ عليه الصلاة والسلام ـ القاسم ثم زينب ثم عبدالله ثم أم كلثوم ثم فاطمة[٦٥٦]

زواجهـــــا

تزوجها فى مكة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبدالعزى بن عبد شمس ـ وأمه ـ هالة بنت خويلد أخت السيدة خديجة رضى الله عنها ـ وكان ذلك قبل الوحى

فلما نزل الوحى ، وكفر القرشيون به أراد الكفار إغاظة ـ النبى صلى الله عليه وسلم ـ

فقال أبو لهب : اشغلوا محمداً بنفسه ، فأمر ابنيه عتبه وعتيبة أن يطلقا رقية وأم كلثوم ، وكانا قد خطبا لهما ولم يدخلا بهما بعد ـ وكان ذلك كرامة من الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ومشى القرشيون إلى أبى العاص بن الربيع فقالوا له : فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأى امرأة من قريش شئت .

فقال : لا والله لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بها امرأة من قريش .

وقد امتدحه ـ النبى صلى الله عليه وسلم ـ فكان يثنى عليه فى صهره وقال عنه : « حدثنى فصدقنى ووعدنى فوفى »

وظل أبو العاص فى مكة على شركه ولم يسلم ، ولكنه كان وفيا لأهله

---

(٦٥٦) البداية والنهاية جـ ٢ صـ ٢٩٤

صادقا فى حبه لزوجته ، وقد أعقبت منه ولداً اسمه على ، وبنتا اسمها أمامة .

وهاجر النبى - صلى الله عليه وسلم - وحدثت موقعة بدر

وشارك فيها أبو العاص مع المشركين ، وكان ضمن الأسرى . أسره خراش بن الصمة أحد بنى حرام .

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة .

وبعث أهل مكة فى فداء أسراهم ، وبعثت زينب بنت - رسول الله صلى الله عليه وسلم - تفدى زوجها ، وكان فيها أرسلت لفدائه قلادة لها كانت أعطتها إياها أمها خديجة - رضى الله عنها - ليلة زفافها .

فلما رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - القلادة عرفها ، ورق لابنته رقة شديدة ، وقال لأصحابه : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا »

قالوا : نعم يارسول الله

فأطلقوه . وردوا لها ما أرسلته ، واشترط عليه النبى صلى عليه وسلم - أن يرسل إليه ابنته - فقبل أبو العاص

قال ابن إسحاق : ولما رجع أبو العاص إلى مكة وقد خلى سبيله ، بعث - النبى صلى الله عليه وسلم - زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار - فقال : كونا « ببطن يأجج » حتى تمر بكما زينب فتصحباها فتأتيان بها .

فخرجا إلى ذلك المكان - وذلك بعد بدر بشهر أو نحوه

وكان أبو العاص حين قدم إلى مكة قد أمر زوجته أن تتجهز لتلحق

بأبيها ، وحدثت زينب ـ فيما يرويه ابن إسحاق عنها قائلة فى قصة خروجها : بينا أنا أتجهز لقيتنى هند بنت عتبة فقالت : يابنة محمد بلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك .

قالت : فقلت ما أدرى ذلك .

فقالت : أى ابنة عم لا تجزعى إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك ، فلا تترددى فى طلب أى شىء . .

فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال

قالت زينب : والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكنى خفتها فأنكرت أن أقول أى شىء

قال ابن إسحاق : فتجهزت فلما فرغت من جهازها قدَّم إليها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيرا فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهاراً يقود بها البعير وهى فى هودج لها .

وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا فى طلبها ، حتى أدركوها بذى طوى ـ وكان أول من سبق إليها هباربن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى الفهرى ، فروعها هبار بالرمح وهى فى الهودج ، وكانت حاملا فلما روعها سقطت من فوق البعير وأدى ذلك إلى موت جنينها ـ ولما رأى كنانة ذلك نثر كنانته ، ثم قال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما ، فابتعد الناس عنه . .

وجاء أبوسفيان فى جملة من جاء من قريش ، فقال لكنانة : أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك ـ فكف

فأقبل عليه حتى وقف أمامه فقال له : إنك لم تصب فيما فعلته - خرجت با بنة محمد على رءوس الناس علانية من بين أظهرنا وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، إن الناس يظنون إذ خرجت بهذه الصورة أن ذلك لذل أصابنا وضعف منا ووهن ، ولعمرى مالنا بحبسها من أبيها من حاجة ، ومالنا من ثورة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أنا قد رددناها فاخرج بها سرا وألحقها بأبيها ، ففعل كنانة ، وانتظر حتى سكن الناس ، فخرج بها وسلمها لزيد بن حارثة .

وقالت هند بنت عتبة تذم قومها إذ فعلوا ما فعلوا :

أفى السلم اعتباراً جفاء وغلظةً ... وفى الحرب أشباه النساء العوارك

وقال كنانة بن الربيع :

عجبت لهبار وأوباش قومه ... يريدون إخفارى ببنت محمد

ولست أبالى ما حييت عديدهم ... وما استجمعت قبضا يدى بالمهند

وبلغ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - ما حدث من هبار بن الأسود ومن معه ، فأهدر دمه . . . .

وعن أبى هريرة قال : بعث - رسول الله صلى الله عليه وسلم - سرية أنا فيها ، فقال لنا : إن ظفرتم بهبار بن الأسود ، أو الرجل الذى سبق معه إلى زينب - وهو نافع بن عبد قيس - فحرقوهما بالنار ، قال : فلما كان الغد بعث إلينا فقال : إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغى أن يعذب بالنار الا الله فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما (٦٥٧)

---

(٦٥٧) سيرة ابن هشام حـ٣ صـ٥٩

وسنتحدث عن ذلك فيما بعد

ويذكر البيهقى فى دلائل النبوة هذا الخبر ـ خبر عودة زينب ـ رضى الله عنها ـ إلى أبيها ـ فيقول :

عن عبدالله بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ : أن ـ النبى صلى الله عليه وسلم ـ بعث زيد بن حارثة وأعطاه خاتمه لتجىء زينب معه فتلطف زيد حتى أعطاه راعيا من مكة ، فأعطى الراعى الخاتم لزينب ، فلما رأته ، عرفته فقالت : من دفع إليك هذا ؟

قال : رجل فى ظاهر مكة .

فخرجت زينب ليلاً فركبت وسارت وراءه حتى قدم بها المدينة ـ فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « لله زينب أصيبت من أجلى ـ هى أفضل بناتى »

قال راوى الحديث : فبلغ ذلك على بن الحسين فأتى عروة فقال : ما حديث بلغنى أنك تحدثه ؟

فقال عروة : والله ما أحب أن لى ما بين المشرق والمغرب وأنى أنتقص فاطمة حقا هو لها ـ ولا أحدث بعد ذلك بهذا أبدا[٦٥٨]

وفى حادثة إيذاء زينب وهى خارجة من مكة ، وتعرض قريش لها ومعهم أبوسفيان قال عبدالله بن رواحة :

أتانى الذى لا يقدر الناس قدره لزينب فيهم من عقوق ومأثم

---

(٦٥٨) البداية والنهاية جـ٣ صـ ٣٣١

وإخـراجها لم يخـز فيهـا محمـد ... على مأقــط وبيننا عطر منشم (٦٥٩)

وأمسى أبوسـفيان من حلف ضمضم ... ومن حـربنا فى رغـم أنف ومنـدم

قرنـاً ابنه عمـراً ومولى يمينـه ... بذى خلـق جـلد الصـلاصل محكم

فأقسـمت لا تنفـك منا كتـائب ... سـراة خميس فى كَـهـاَم مســوم

نردع قريش الكفـر حتى نغلهـا ... بخاطمــة فوق الأنوف بميســم

فأبلغ أبا سفيان إما لقيته ... لئن أنت لم تخلص سـجودا وتسـلم

فأبشـر بخـزىٍ فى الحيــاة معجـل ... وسربال قار خــالدا فى جهنــم . .

وأصبح هبار بن الأسود مهدداً لا يقر له قرار ، وفى فتح مكة توارى عن أعين المسلمين . حتى قدم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منصرفه من الجعرانة فأسلم .

ويقص علينا جبير بن مطعم قصة إسلامه فيقول :

كنت جالسا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منصرفه من الجعرانة ،فاطلع هبَّار بن الأسود من باب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يارسول الله إنه : هبار بن الأسود .

قال : قد رأيته .

فأراد رجل من القوم يقوم إليه ، فأشار إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن اجلس . . .

---

(٦٥٩) مأقط : مكان ضيق ، والموضع الذى يحدث فيه القتال ، وعطر منشم : مثل يضرب فى التفانى فى الحرب

فوقف هبار عليه . وقال : السلام عليك يانبى الله ، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محُمداً رسول الله ـ ولقد هربت منك فى البلاد فأردت اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وفضلك عمن جهل عليك ، وكنا يانبى الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من الهلكة فاصفح عن جهلى وعما كان يبلغك عنى ، وإنى مقر بسوء فعلى ، معترف بذنبى .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : قد عفوت عنك ، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام ، والإسلام يجب ما قبله (٦٦٠)

ولقد حسن إسلام هبَّار وصحب النبى ـ ﷺ ـ واستطاع بسلوكه الطيب بعد إسلامه أن يمحو أثر فعلته الشنعاء التى فعلها فى أيام حمقه وجهله .

إجارة زينب لأبى العاص .

وأقامت زينب بعد هجرتها مع النبى ـ ﷺ ـ

وأقام أبو العاص بمكة على شركه . ولكن حنينه لزوجته التى كان يحبها لا ينقطع ، وقد كان فى إمكانه أن يسلم ويصل حبله بزوجته ولكن الهداية ليست بيد أحد ، وإذا جاءت فلها وقت معلوم حدده الله . وهذا ما حدث مع أبى العاص . . فقد خرج أبو العاص فى تجارة لقريش إلى الشام قبل الفتح .

فلما قفل من الشام لقيته سرية لرسول الله ـ ﷺ ـ فأصابوا ما معه وكانت السرية بقيادة زيد بن حارثة فى سبعين أو مائة راكب ، ولقوا عير أبى العاص بناحية العيص فى جمادى الاولى سنة ست . وأعجزهم هاربا .

---

(٦٦٠) اسد الغابة جـ ٥ صـ ٣٨٤

فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله - ﷺ - فاستجار بها فأجارته .

فلما خرج رسول الله - ﷺ - إلى صلاة الصبح فكبر وكبر الناس معه صرخت زينب من حجرتها : أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فلما سلم رسول الله - ﷺ - من الصلاة أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟

قالوا : نعم

قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، وإنه يجير على المسلمين أدناهم .

ثم انصرف رسول الله - ﷺ - فدخل على ابنته فقال : أى بنية ، أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له .

وبعث النبى - ﷺ - إلى رجال السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به .

لم يكرههم النبى - ﷺ - على شىء وإنما فوض إليهم الأمر وخيرهم فى التصرف ، ولكنه أشار إلى ما يحب . مع أنه صاحب الكلمة النافذة والأمر الذى لايستطيع أحد منهم أن يرده ، ولو شاء لأمر ، ولكنه كان رءوفا بأصحابه رفيقا بهم - يحسن معاملتهم ويشاورهم فى الأمر .

وقد فهم المسلمون إشارته وعرفوا أن الخير فيها ، لأنهم تعودوا أن النبى - ﷺ - لا يشير إلا بخير ، ولا يصدر إلا عن حكمة ، ولا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

فقالوا : يارسول الله ، بل نرده عليه ، وردوا على أبي العاص بن الربيع ماله كله لم ينقص منه شيء ، حتى إن الرجل كان يأتى بالدلو ، والرجل يأتى بالشنة وبالإداوة حتى ردوا عليه ماله بأسره ، لايفقد منه شيئا ثم ذهب أبو العاص الى مكة فأدى إلى كل ذى مال ماله ، ومن كان أبضع معه - ثم قال : يامعشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟

قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما .

قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى أردت أن آكل أموالكم - فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .

ثم خرج حتى قدم على رسول الله - ﷺ - فى المحرم سنة سبع . .
لقد دل ذلك على مروءة أبي العاص وشهامته ووفائه وبره . من أجل ذلك كان النبى - ﷺ - يمتدحه ويثنى عليه .

ولقد حدث بعض الرواة أن البعض قال لأبي العاص بن الربيع لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين : هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين ؟

فقال : بئسما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى[٦٦١]

---

(٦٦١) سيرة ابن هشام حـ٣ صـ٦٠

لقد عرف أبو العاص أن الإسلام دين مُثُلٍ وقيم عليا وأنه جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، والإسلام لا يعرف الغدْر ولا يحب الخائنين - لذلك فقد كان أبو العاص حكيما حين تصرف هذا التصرف السليم الذى رفعه فى أعين قومه قبل أن يرفعه فى أعين المسلمين .

وحين أسلم أبو العاص رد النبى ﷺ زوجته إليه على النكاح الأول ولم يطلب لها صداقا

وإن كان بعض الرواه قد ذكر أن النبى - ﷺ - ردها عليه بمهر جديد ونكاح جديد(٦٦٢)

وفاتهــــا

لم يمض بعد إسلام أبى العاص عام واحد ، وقد اجتمع شمله بأهله حتى فجعه الله فى زوجته - فتوفيت سنة ثمان ، وقد تركت ولدين علياً - وكان رديف النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الفتح - وأمامة .

ونزل النبى - ﷺ - قبر زينب وهو محزون مهموم ، فلما خرج من القبر بعد دفنها سرى عنه وقال : « كنت ذكرت زينب وضعفها فسألت الله - تعالى - أن يخفف عنها ضيق القبر وغمه - ففعل وهون عليها »

ثم توفى بعدها زوجها أبو العاص بن الربيع سنة اثنتى عشرة

أولادهــــا

من أولاد زينب - على بن أبى العاص .

وقد ولد على بن أبى العاص فى مكة قبل هجرة أمه ، واصطحبته أمه

---

(٦٦٢) اسد الغابة جـ ٧ صـ ١٣٠

معها ، وكان مسترضعا فى بنى غاضرة - وأبوه يومئذ مشرك - فضمه رسول الله - ﷺ - إليه ، وقال رسول الله - ﷺ - « من شاركنى فى بنى فانا أحق بهم منه ، وأيما كافر شارك مسلما فى شىء فالمسلم أحق به منه »

وحين دخل النبى - ﷺ - مكة فانما كان على رديف النبى - ﷺ -

وتوفى على وقد ناهز الحلم وذلك فى حياة الرسول - ﷺ - [٦٦٣]

أما أمامة فقد كان رسول الله - ﷺ - يلاعبها ، ويحملها فى الصلاة أحيانا وكان إذا ركع أو سجد تركها وإذا قام حملها .

وروت عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - أهديت له هدية فيها قلادة من جزَع - خرز يمانى - فقال : لأدفعنها إلى فتاة أحبها من أهل بيتى ، فدعا أمامة بنت زينب فعلقها فى عنقها [٦٦٤]

ولما كبرت أمامة تزوجها على بن أبى طالب - رضى الله عنه - بعد موت فاطمة - رضى الله عنها - وكانت فاطمة قد أوصت علياً أن يتزوجها ، فلما توفيت فاطمة تزوجها - وقد تولى أمر زواجها منه الزبير بن العوام لأن أباها قد أوصاه بها .

فلما جرح على - رضى الله عنه - خشى عليها من بعده فأوصى المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بها .

وقد تزوجها المغيرة بعد وفاة على وانقضاء عدتها ، فولدت له يحيى وبه كان يكنى .

---

(٦٦٣) أسد الغابة جـ ٤ صـ ١٢٥

(٦٦٤) مسند الامام أحمد ٦ / ١٠١

وتوفيت أمامة وهى عند المغيرة .

وقيل : إنها لم تلد لعلى ولا للمغيرة ، وليس لزينب ولا لرقية ولا لأم كلثوم ـ رضى الله عنهن ـ عقب بقى ـ وإنما العقب لفاطمة ـ رضى الله عنها[665]

رُقَيَّة

ولدت رقية ولرسول الله ـ ﷺ ـ ثلاث وثلاثون سنة أى قبل البعثة بسبع سنين ، وبعد زواجه من خديجة بثمانى سنوات ، وبعد ولادة أختها زينب بثلاث سنين .

وخُطبت رقية لعتبة بن أبى لهب . ولم تزف إليه . ذلك أنها كانت صغيرة على ما يبدو حتى إذا أدركت كانت البعثة قد جاءت ودعا النبى ـ ﷺ ـ أهله إلى الإسلام ، ووقف أبو لهب فى الصف المعارض للدعوة ، وحين نزل قوله تعالى « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » .[666]

قالت أم جميل زوجة أبى لهب لابنها عتبة وابنها عتيبة ـ وكان قد خطب أم كلثوم بنت النبى ـ ﷺ ـ : رأسى من رأسيكما حرام إن لم تطلقا بنتى محمد .

وظاهرها فى ذلك زوجها أبو لهب لأنه أراد ـ كما قال ـ أن يشغل النبى ـ ﷺ ـ بنفسه ـ أى يجعله مهموما بسبب عدم زواج بناته ـ لأنه يعرف أن الرجل الحر ينشغل بالتفكير فى أمر بناته واختيار الأكفاء لهن ، ورؤيتهن

---

(٦٦٥) اسد الغابة حـ ٧ صـ ٢٠

(٦٦٦) سورة المسد

مستورات فى ظل أزواج كرام . . ومن أجل ذلك سوغ أن يخطب الرجل لابنته ، ويعرض على من يراه كفئا كريماً أن يتزوج من ابنته ، كما فعل شعيب عليه السلام مع موسى ـ عليه السلام فقال له : « إنى أريد إن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على تأجرنى ثمانى حجج »[٦٦٧] وكما حدث من عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حين عرض ابنته على كل من أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما .

واستجاب عتبة بن أبى لهب لأمر والده ووالدته فطلق رقية ـ وكان لم يدخل بها بعد .

وما كان أسرع أن اختار الله لها من هو خير من عتبة ، فقد تزوجها عثمان ابن عفان ـ رضى الله عنه ـ أحد السابقين إلى الإسلام . وأول المهاجرين إلى الحبشة مع امرأته رقية ابنة رسول الله ـ ﷺ ـ وذلك فى أول هجرة هاجرها المسلمون فراراً بدينهم من بطش المشركين الذين لم يألوا جهداً فى مناهضة الإسلام وإيذاء المسلمين .

وكان عثمان بن عفان يتوق إلى مصاهرة النبى ـ ﷺ ـ ويطمع أن يظفر برقية . .

وحين بلغه أن عتبة بن أبى لهب خطب رقية انتابه ما يشبه الحزن والألم

---

(٦٦٧) القصص ٢٧

ذكر الحافظ ابن عساكر قال :

لما بلغ عثمان بن عفان أن رسول الله - ﷺ - خطب ابنته رقية لابن عمها عتبة بن أبي لهب تأسف إذ لم يكن هو الذي تزوجها ، فدخل على أهله مهموما فوجد عندهم خالته سعدى بنت كريز - وكانت كاهنة .

فقالت له : أبشر وحُيِّيت ثلاثاً ثم ثلاثاً وثلاثاً أخرى ، ثم بواحدة أخرى كي تتم عشراً ، أتاك خير ووقيت شراً ، أنكحت والله حَصانا زهراً ، وأنت بكر ولقيت بكراً ، وافيتها بنت عظيم قدراً ، بنيت أمراً قد أشاد ذكراً .

قال عثمان : فعجبت من أمرها إذ تبشرني بالمرأة التي قد خطبت لغيري .

فقلت : يا خالة ، ما تقولين .

فقالت : عثمانُ لك الجمال ولك اللسان ، هذا النبي معه البرهان أرسله بحقه الديان ، وجاءه التنزيل والفرقان ، فاتبعه لاتغتالك الأوثان .

قال : فقلت إنك لتذكرين أمراً عظيماً .

فقالت : محمد بن عبدالله ، رسول من عند الله ، جاء بتنزيل الله ، يدعو به إلى الله .

ثم قالت : مصباحه مصباح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ذلت له البطاح ، ما ينفع الصباح ، لو وقع الذُباح ، وسُلَّت الصِّفاح ، ومُدَّت الرماح .

قال عثمان : فانطلقت مفكراً فلقيني أبو بكر فأخبرته .

فقال : ويحك يا عثمان ، إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ، ما هذه الأصنام التي يعبدها قومنا ؟ أليست من حجارة صم

لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ؟

قال : قلت بلى ، والله إنها لكذلك .

فقال : والله لقد صدقتك خالتك - هذا رسول الله محمد بن عبدالله قد بعثه الله إلى خلقه برسالته ، هل لك أن تأتيه ؟

قال عثمان فاجتمعنا برسول الله - ﷺ - فقال : يا عثمان أجب الله إلى حقه فإنى رسول الله إلى خلقه .

قال : فوالله ما تمالكت نفسى منذ سمعت كلام رسول الله - ﷺ - أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية بنت رسول الله - ﷺ - فكان يقال :

أحسن زوج رآه إنسان رقية وزوجها عثمان

وقالت فى ذلك سعدى بنت كريز :

هدى الله عثماناً بقولى إلى الهدى وأرشده والله يهدى إلى الحق
فتابع بالرأى السديد محمداً وكان برأى لا يصد عن الصدق
وأنكحه المبعوث بالحق بنته فكانا كبدر مازج الشمس فى الأفق
فداؤك يا بن الهاشميين مهجتى وأنت أمين الله أرسلت للخلق .[٦٦٨]

هذه القصة التى ذكرها ابن كثير ورواها عن ابن عساكر تدل على أسبقية عثمان - رضى الله عنه - إلى الإسلام ، وتشير إلى أنه كان يطمع فى أن يزوجه النبى - ﷺ - ابنته رقية ، وحزن على أنها فاتته - حتى مرت عليهم خالته

---

(٦٦٨) البداية والنهاية جـ ٧ صـ ١٩٩

سعدى فلقيها ، وبشرته بما بشرته به - وحسن إسلام عثمان حتى كان أول مهاجر إلى الحبشة .

حدث قتادة قال : أول من هاجر إلى الله تعالى - بأهله عثمان - رضى الله عنه - سمعت النضر بن أنس يقول : سمعت أبا حمزة - يعنى أنس بن مالك - يقول : خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله - ﷺ - إلى أرض الحبشة ، فابطأ خبرهما على رسول الله - ﷺ - فقدمت امرأة من قريش ، فقالت : يا محمد ، قد رأيت ختنك - صهرك - ومعه امرأته .

قال : « على أى حال رأيتها »

قالت : رأيته قد حمل امرأته على حمار وهو يسوقها - فقال رسول الله - ﷺ - : « صحبهما الله ، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام .(٦٦٩)

وولدت رقية فى الحبشة ابنها عبدالله ، وبه كان يكنى عثمان - وبلغ هذا الغلام ست سنين ، فنقر عينه ديك ، فورم وجهه ومات سنة أربع من الهجرة ، وصلى عليه رسول الله - ﷺ - ودفنه ونزل أبوه عثمان فى حفرته .(٦٧٠)

ويبدو أنه مات بعد أمه ، لأن أمه مرضت بعد هجرتها إلى المدينة ، وكان المسلمون قد خرجوا إلى بدر فى أول العام الثانى من الهجرة ، فخلف النبى

---

(٦٦٩) البداية والنهاية جـ٣ صـ٦٦
(٦٧٠) أسد الغابة جـ٧ صـ١١٤

ـ ﷺ ـ عثمان بن عفان زوجها يمرضها ويرعاها ـ ولم تلبث أن توفيت من مرضها هذا ، قالوا إنها مرضت بالحصبة .

وكانت وفاتها لحظة مجيء زيد بن حارثة بشيراً لأهل المدينة بانتصار المسلمين فى بدر ، فبينما هم يدفنونها سمع الناس التكبير .

فقال عثمان : ما هذا التبكير .

فنظروا فإذا زيد على ناقة رسول الله ـ ﷺ ـ الجدعاء ـ يبشرهم بالنصر وقتل المشركين وأسرهم والغنيمة منهم .

فضرب رسول الله ـ ﷺ ـ لعثمان بسهمه وأجره . فهو معدود فيمن شهد بدراً .

وزوجة رسول الله ـ ﷺ ـ بعدها أختها أم كلثوم وماتت عنده أيضاً ، وقال النبى ـ ﷺ ـ : « لو كانت عندنا أخرى لزوجناها عثمان » ولقب عثمان بذى النورين لذلك ، فقد تزوج بنتين من بنات الرسول ـ ﷺ ـ .

وكانت وفاة رقية ـ رضى الله عنها ـ لسنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً من الهجرة وهى ابنة اثنتين وعشرين عاماً تقريباً .

وحين عاد النبى ـ ﷺ ـ من بدر ووقف على قبرها ـ قال لها : الحقى بسلفنا عثمان بن مظعون ، فبكت النساء على رقية ـ فجاء عمر بن الخطاب فجعل يضربهن بسوطه ، فأخذ النبى ـ ﷺ ـ بيده ثم قال : « دعهن يا عمر يبكين ، ثم قال : « ابكين وإياكن ونعيق الشيطان ، فإنه مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان » فقعدت فاطمة على شفير القبر إلى جنب النبى ـ ﷺ ـ فجعلت

تبكى وجعل رسول الله - ﷺ - يمسح الدمع من عينيها بطرف ثوبه . »[671] .

أم كلثوم

قال الزبير بن بكار : أم كلثوم أسن من رقية ومن فاطمة . وخالفه غيره والصحيح أنها أصغر من رقية ، لأن رسول الله - ﷺ - زوج رقية من عثمان فلما توفيت زوجه أم كلثوم ، وما كان ليزوج الصغرى ويترك الكبرى[672]

وربما كانت أصغر من رقية فهى أصغر بسنة أو بسنتين ، فقد ورد أن أولاد خديجة - رضى الله عنها - بين كل واحد والآخر سنة - فإن كانت أصغر من فاطمة فبينهما وبين رقية عامان وإن كانت أكبر من فاطمة فبينهما عام .

وكانت أم كلثوم مخطوبة لعتيبة بن أبى لهب ، وفارقها قبل الدخول بها حين أرغمه أبواه على ذلك بعد أن نزلت سورة المسد .

وكان عتيبة شديد العداوة للنبى - ﷺ - كأبويه - روى أنه أغلظ القول يوما للنبى - ﷺ - وساءه ، فدعا عليه النبى قائلا : اللهم سلط على عتيبة كلبا من كلابك . .

وسمع أبو طالب هذه الدعوة ، فقال : ما كان أغناك يا ابن أخى عن هذه الدعوة ؟

لأنه يعلم أن هذه الدعوة لابد محققة ، فلم يجربوا على النبى - ﷺ - كذبا .

---

(٦٧١) الطبقات جـ ٨ صـ ٢٤٠

(٦٧٢) أسد الغابة جـ ٧ صـ ٣٨٤

وليس أبو طالب فقط الذى توقع استجابة هذه الدعوة ، بل إن أبا لهب نفسه وكذلك ابنه عتيبة توقعا ذلك ، وظلا متوجسين خوفاً من وقوعها . . فكان إذا سافر تحصن وتحرز حتى كان فى سفرة مع أبيه أبى لهب فى الشام وكان معهما جماعة . ونزلوا فى مكان ـ فأطل عليهم راهب من دير هناك فقال لهم : إن هذه الأرض مسبعة ـ أى ذات سباع ـ

فالتفت أبو لهب إلى أصحابه الذين معه فقال لهم : انكم قد عرفتم نسبى وحقى .

فقالوا : نعم يا أبا لهب .

فقال : أعينونا يامعشر قريش هذه الليلة فإنى أخاف على ابنى دعوة محمد . فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، ثم افرشوا لابنى وسطكم وافرشوا لأنفسكم حوله .

ففعلوا ذلك ، وأتوا بجمالهم فأناخوها حولهم وأحدقوا بعتيبة . ولكن ذلك لم يغنه شيئا عن مصيرة الذى يتربص به ، فقد أقبل الأسد يتشمم وجوه القوم واحدا واحدا حتى وصل إلى عتيبة وسطهم فضربه وشج رأسه وقتله . .

وقال عتيبة وهو بآخر رمق : ألم أقل لكم إن محمدا أصدق الناس لهجة ؟ ومات .

وقال أبوه وهو يكظم لوعته : لقد عرفت والله ما كان ليفلت من دعوة محمد(٦٧٣)

---

(٦٧٣) السيرة الحلبية جـ ١ صـ ٤٦٨

أجل ، ما كان أغناك أبا أبالهب وأغنى ولدك عن معاداة صاحب هذه اللهجة الصادقة والدعوة المتحققة . ولكنه القضاء الذى يشقى قوما ويسعد آخرين .

ولقد شاء الله أن ينقذ عتبة بن أبى لهب من هذا المصير المشئوم فقد أسلم يوم الفتح ..

وكان من كرامة الله لنبيه - ﷺ - أن عتيبة لم يدخل بأم كلثوم - وأن ادخر الله لها من هو أهل لها ..

وهاجرت أم كلثوم مع فاطمة وسودة بنت زمعة زوجة النبى - ﷺ - إلى المدينة ..... أرسل النبى - ﷺ - لهن زيد بن حارثة فاصطحبهن بعد هجرته - ﷺ -

وظلت فى بيت أبيها مع فاطمة حتى توفيت رقية فى السنة الثانية من الهجرة - على ماقدمنا ...

وحزن عثمان لموت زوجته رقية حزنا شديدا ، ولقيه النبى - ﷺ - مهموما لهفان - فقال له : مالى أراك مهموما ؟

فقال : يارسول الله ، وهل دخل على أحد ما دخل علىَّ ؟ ماتت ابنة رسول الله - ﷺ - التى كانت عندى ، وانقطع ظهرى ، وانقطع الصهر بينى وبينك .

فبينما هو يحاوره إذ قال النبى - ﷺ - « هذا جبريل عليه السلام - يأمرنى أن أزوجك أختها أم كلثوم على مثل صداقها وعلى مثل عشرتها »(٦٧٤)

---

(٦٧٤) اسد الغابة حـ ٧ صـ ٣٨٤

فكان تزويجها لعثمان بوحى من السماء ..

كان زواجها من عثمان سنة ثلاث - فى ربيع الأول ، وبنى بها فى جمادى الآخرة ولم تنجب منه ، وظلت فى صحبته ست سنوات حيث توفيت سنة تسع ... وصلى عليها النبى - ﷺ -

وروى أن التى غسلتها أم عطية الأنصارية ، وحكت قوله - ﷺ - «غسّليها ثلاثا أو خمسا أو أكثر»

وقال النبى - ﷺ - : «لو أن لنا ثالثة لزوجنا عثمان بها»

وقال ابن سعد : إن التى غسلت أم كلثوم هى أسماء بنت عميس ؛ روى عنها قولها : أنا غسلت أم كلثوم بنت رسول الله - ﷺ - وصفية بنت عبد المطلب ، وجعلت عليها نعشا وواريتها بجرائد رطبة ..

وحين أدليت أم كلثوم فى قبرها قال النبى - ﷺ - فيما يرويه أنس - : «رأيت النبى - ﷺ - جالسا على قبرها فرأيت عينيه تدمعان ...

لقد حزن عليها النبى - ﷺ - كما حزن على أختيها اللتين سبقتاها . وجلس على حفرتها حتى فرغوا من دفنها(٦٧٥)

---

(٦٧٥) الطبقات جـ ٨ صـ ٢٥

السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها

متى ولدت

زواجها

خطبة الزواج

فاطمة في بيت الزوجية

أثاث بيت الزوجية

مشقة العمل الذي تقوم به فاطمة

أثر مشاهدات فاطمة في حياتها

الساعدة في طاعة الله والرضا

فاطمة تشهد وفاة أبيها

فاطمة بعد الرسول

ماقيل عن خلافها مع أبي بكر

وفاتها



سيدة نساء الجنة - رضى الله عنها -

ذكر القرطبى فى تفسيره لقوله - تعالى -

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٦٧٦)

بعض الأحاديث التى وردت فى فضل السيدة فاطمة - رضى الله عنها - فقال : رُوى من طرق صحيحة أنه - عليه السلام - قال فيما رواه عنه أبو هريرة : « خير نساء العالمين أربع - مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم - امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد »

وحديث ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون »

ومن طريق آخر عنه : « سيدتا نساء أهل الجنة بعد مريم - فاطمة وخديجة »(٦٧٧)

فهذه الأحاديث تشيد بالسيدة فاطمة - رضى الله عنها - وتشهد بفضلها . . . . ولاغرو فى ذلك فقد جمعت المجد من أقطاره ، واستحقت الشرف الذى ناله من أبويها العظيمين . فأبوها خير البشر - لا مراء فى ذلك - وأمها ذات المجد الأثيل ، التى بشرها جبريل عليه السلام بأن الله أعد لها فى الجنة بيتاً من قصب ، لاصخب فيه ولانصب .

---

(٦٧٦) آل عمران ٤٢

(٦٧٧) تفسير القرطبى جـ٤ صـ٨٣

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يثني على فاطمة بما تستحقه هذه الزهراء البتول من شرف وسؤدد ، وما تجدر به من فخر ومجد .

متى ولدت ؟

ولدت فاطمة - فيما يرويه الرواة - وقريش تبني البيت ، أي قبل البعثة بخمس سنوات .

وأغلب الرواة على أنها أصغر بنات الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال ابن الأثير : وقد اختلف في أية بنات النبي - صلى الله عليه وسلم - أصغر سناً ؟ فقال البعض : إن رقية أصغرهن ، - وفي ذلك نظر - لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - زوج رقية من ابن أبي لهب فطلقها قبل الدخول بها - أمره أبوه بذلك - ثم تزوجها عثمان - رضي الله عنه - وهاجر بها إلى الحبشة ، وما كان النبي ليزوج الصغرى ويترك الكبرى ،[٦٧٨]

ويروى ابن سعد قائلاً : دخل العباس على عليٍّ وفاطمة وهو يقول لها : أنا أسنُّ منكِ . فقال العباس : أما أنت يافاطمة فولدت وقريش تبني الكعبة ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - ابن خمس وثلاثين سنة ، وأما أنت ياعلي فولدت قبل ذلك بسنوات .[٦٧٩]

وقد فتحت فاطمة عينيها على النور الذي نزل به جبريل عليه السلام ، كانت سنها إذ ذاك خمس سنوات حين جاء الوحي ، وفي هذه السن الصغيرة سمعت القرآن ، ورأت أباها وأمها يصليان ، وشاهدت أشياء جديدة لم

---

(٦٧٨) أسد الغابة ٧ / ٢٢٠

(٦٧٩) أسد الغابة ٨ /١٧

تكن موجودة فى البيئة المكية .

قال العقاد : درجت فى دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمع بوادره فى غير تلك الدار وغار حراء .

أمر جلل لاتقف جلالته عند جدران تلك الدار ، ولاعند أبواب المدينة التى اشتملت عليها ، ولاعند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذى يتلق العالم بأسره أزماناً بعد أزمان إلى يوم الدين - إنه أمر الدعوة الإسلامية التى كانت يومئذ تختلج فى صدر واحد ، هو صدر أبى الزهراء - عليه السلام -

ماهذه الصلوات والتسبيحات ؟ ماهذه الهيمنة بين الأبوين ؟ ماهذا الوجل وما هذا القنوت ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئاً من هذا ، لأن الطفل لايستغرب الأمر إلا إذا رأى مايخالفه ، وهى لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات .(٦٨٠)

لقد ولدت الزهراء - رضى الله عنها - وأبوها يستعد لتلقى النبوة ، وكان قبل هبوط الوحى قد وجهه الله للتأمل والتحنث ، فكان فيما أخبر به ابن هشام يذهب إلى غار حراء يتحنث - أى يتعبد - الليالى ذوات العدد . .

ولاشك أن زوجته خديجة - رضى الله عنها - كانت ترقب فيه أمراً غير معهود من الرجال ، ولم تفاجأ حين هبط الوحى عليه ذات ليلة فى رمضان وأقبل عليها يرتعد قائلاً : دثرونى دثرونى . . لم تفاجأ بذلك ، ولم تر فى ذلك

---

(٦٨٠) فاطمة والفاطميون للعقاد صـ٢٣ دار الهلال

شيئاً غريباً ، فقد قالت له على الفور : والله لن يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر . .

وانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذى أخبرها أن هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى .

فى هذا الجو الملائكي الذى كان يظلل هذا البيت الكريم ولدت فاطمة الزهراء ودرجت . . . . . وكانت أختها الكبرى زينب قد تزوجت من أبى العاص بن الربيع ، وزفت إليه .

ولم تلبث رقية أن زفت بعد بعثة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى زوجها عثمان بن عفان وسافرت معه إلى الحبشة .

وظلت هى فى البيت مع أختها أم كلثوم التى كانت تكبرها بسنة أو سنتين ، وشاهدتا معا ماتعرض له أبوهما من أذى الكفار وتضييقهم عليه . .

ووقفت كلتاهما - على ضعفهما - تحاولان التخفيف عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يلقاه من أذى ، ويشدان من أزر أمهما التى كانت وزيرة صدق لزوجها - صلى الله عليه وسلم - تناصره بكل ماأوتيت من قوة وجهد ومال . . وقد وضعت كل ماتملكه من ثروة فى يد زوجها ينفقها فى سبيل هذه الدعوة وإبلاغ كلمة ربه .

كان الكفار يلقون الشوك والقذر فى طريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليعثر فيه فى أثناء سيره ، وكانت الفتاتان تخرجان لتميطا ذلك الأذى من الطريق ، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - لايملك إلا أن يقول :

يابنى عبدالمطلب أى جوار هذا ؟

وكان من الذين يؤذونه أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط وعدى بن حمراء وابن الأصداء الهزلى ـ وكانوا جيرانه ـ ولم يُسلم من هؤلاء أحد إلا الحكم بن العاص .

وكان بعضهم يطرح على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحم الشاة وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها فى برمته ـ فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا طرحوا عليه ذلك يخرج به على العود ويقف على الباب فيقول : يابنى عبدمناف أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه بعيداً[٦٨١]

ولما مات أبوطالب نالت قريش من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأذى مالم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر عليه تراباً . .

ودخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيته والتراب على رأسه فقامت إحدى بناته ـ وماف البيت إلا فاطمة وأم كلثوم ـ فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لها : « لاتبكى يابنية فإن الله مانع أباك »[٦٨٢]

جاء فى أسد الغابة : قال مدرك بن الحارث : حججت مع أبى حتى إذا كنا بمنى إذا جماعة على رجل ، فقلت : ياأبى ـ ماهذه الجماعة ؟

فقال : هذا الصابىء الذى ترك دين قومه .

---

(٦٨١) سيرة ابن هشام جـ١ صـ٢٥

(٦٨٢) المرجع السابق

ثم ذهب أبي حتى وقف عليهم على ناقته ، وذهبت حتى وقفت عليهم على ناقتي ، فاذا هو يحدثهم وهم يُزرون - يعيبون - عليه ، فلم يزل موقف أبي حتى تفرقوا عن ملال وارتفاع من النهار ، وأقبلت جارية وفي يدها قدح من ماء وهي تبكي .

فقال لها : هوني على نفسك يا ابنتي ولاتخافي على أبيك غلبة ولا ذلا »[٦٨٣]

لقد شاركت فاطمة كما شاركت اختاها في تحمل التبعة ، وازدادت تبعة فاطمة وأختها أم كلثوم بعد وفاة أمهما خديجة - رضي الله عنها - قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً .

وفي خلال هذه السنوات الثلاث ألقت قريش بثقلها كله على النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى نصره الله بالهجرة .

زواج فاطمة

تزوجت فاطمة بعد الهجرة ..... قال ابن سعد : تزوج علي بن أبي طالب فاطمة في رجب بعد مقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة بخمسة أشهر ، وبنى بها بعد مرجعه من بدر ، وكانت سنها إذ ذاك ثماني عشرة سنة .[٦٨٤]

واختلف العلماء في المهر الذي ساقه عليّ لفاطمة ..

فقد قال بعض العلماء : باع علي بعيرا له وبعض متاعه ، فبلغ أربعمائة

---

(٦٨٣) أسد الغابة ٥ / ١٣٠

(٦٨٤) الطبقات ٨ / ١٣

وثمانين ، فقبلها ـ صلى الله عليه وسلم ـ صداقاً لفاطمة .

وقال بعضهم : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعلي : قدم شيئاً ـ أي اجعل لزوجتك مهراً ـ فقال علي : ماأجد شيئاً .

فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فأين درعك الحطمية ؟ فجاء بها علي فأعطاها مهرا لفاطمة . .

وكانت هذه الدرع قد وهبها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلي ذات يوم قبل ذلك .

وحدث علي ـ رضي الله عنه ـ في أمر زواجه فقال : أردت أن أخطب الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابنته فاطمة ، فقلت : والله مالي من شيء . فكيف أخطبها ؟

قال : ثم ذكرت صلة الرسول وعائدته فخطبتها إليه فقال : وهل عندك من شيء ؟

قلت : لا .

قال : فأين درعك الحطمية التي أعطيتك يوم كذا وكذا ؟

قال : هي عندي .

قال : فأعطها إياها ، فأعطاها إياها . .

واختلف في ثمن هذه الدرع ، فقال بعضهم : قيمتها أربعمائة درهم ، وقال بعضهم : كان ثمنها أربعة دراهم . . .

وعن عكرمة قال : أمهر علي فاطمة درعاً قيمتها أربعة دراهم . . ـ ولكن هذه مبالغة في القلة ، ويبدو أن هناك خطأ من السامع أو الكاتب أو الناسخ جعل الأربعمائة أربعة

وفي رواية عن عكرمة أيضاً عن علي قال : تزوجت فاطمة على بَدَنٍ من حديد[٦٨٥]

خطبة الزواج

لقد كان زواج علي من فاطمة أمراً من السماء ـ كما ذكر بعض الرواة ـ ذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم كان قد سبق أن وعد بها عنياً . . وكان عليٌّ يتمنى في قرارة نفسه أن تكون فاطمة من نصيبه ، ولكن الحياء كان يمنعه من التقدم بأمنيته إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضاف إلى ذلك ماكان فيه من عَوَزٍ وحاجة . .

وقد أحس بعض الأنصار بما يعتمل في نفس علي من رغبة في الزواج من فاطمة فشجعوه على التقدم إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمنيته .

فعن أبي بُريدة عن أبيه قال : قال نفر من الأنصار لعلي : عندك فاطمة .

فأتى علي النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له النبي : ماحاجة ابن أبي طالب ؟

قال علي : ذكرتُ فاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مرحباً وأهلا ، لم يزد على ذلك شيئاً .

فخرج علي إلى أولئك الرهط من الأنصار الذين كانوا ينتظرونه ، فقالوا له : ماوراءك ؟

قال علي : لاأدري ، غير أنه قال لي مرحباً وأهلا .

---

(٦٨٥) الطبقات ٨/ ١٢ والمقصود بالبدن من الحديد : الدرع

فقالوا له : يكفيك من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم إحداهما ، أعطاك الأهل ، وأعطاك المرحب .(٦٨٦)

بل إن هناك من الروايات مايدل على أن عليًا لم يستطع أن يفصح بما يريد أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وروى عن على أنه قال : قالت لى مولاة لنا ـ لم لاتتزوج ؟
قال ـ فقلت لها : ماعندى ماأتزوج به .

قالت : فما يمنعك أن تأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيزوجك ؟

فقلت : وعندى شىء أتزوج به ؟

فقالت : إنك إن جئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زوجك .

قال : فوالله مازالت تطلب منى حتى دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت لرسول الله جلالة ، وهيبة عظيمة ـ فلما قعدتُ بين يديه أفحمتُ فوالله ماأستطيع أن أتكلم .

فقال : ماجاء بك ؟ ألك حاجة ؟

فسكت .

فقال : لعلك جئت تخطب فاطمة ؟

قلت : نعم .

قال : وهل عندك من شىء تصدقها به ؟

فقلت : لا والله يارسول الله .

---

(٦٨٦) الطبقات ٨ /١٢

فقال : مافعلت بالدرع التى أعطيتك إياها .

فقلت : عندى ، والذى نفسى على بيده أنها لحطمية[٦٨٧] .. ثمنها أربعمائة درهم .

قال : قد زوجت ، فابعث بها ..[٦٨٨]

لقد ورد من الأخبار مايدل على أن أمر السماء كان وراء تزوج فاطمة من على ، ـ رضى الله عنهما ـ

فقد روى عن أنس قال : كنت عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغشيه الوحى ، فلما أفاق قال لى : ياأنس ، أتدرى ماجاءنى به جبريل عليه السلام ـ من صاحب العرش ـ عز وعلا ـ ؟

قلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما الذى ماجاءك به جبريل ؟

قال : قال لى : إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يأمرك أن تزوج فاطمة من على ، فانطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير ، وعددهم من الأنصار .

قال أنس : فانطلقت فدعوتهم .

فلما أن أخذوا مجالسهم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب إليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته

---

(٦٨٧) الحطمية ـ بضم الحاء وفتح الطاء : التى تحطم السيوف ، وقيل : هى العريضة الثقيلة ويقال : هى منسوبة إلى بطن من عبدالقيس يقال لهم : حُطمة بن محارب ، كانوا يعملون الدروع . قال ابن الأثير : وهذا أشبه الأقوال ، النهاية لابن الأثير

(٦٨٨) أسد الغابة جـ٧ صـ٢٢١

وميزهم بأحكامه وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن الله عز وجل ـ جعل المصاهرة نسباً لاحقاً ، وأمراً مفترضاً ، وحكماً عادلا . وخيراً جامعاً ، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام ، فقال الله ـ عز وجل ـ

« وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً » وأمر الله يجرى إلى قضائه ، وقضاؤه يجرى إلى قدره ، ولكل أجل كتاب . . . يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . . . . ثم إن الله أمرنى أن أزوج فاطمة من على ، وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من على على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك ـ على السنة القائمة والفريضة الواجبة ـ فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

قال أنس : وكان على ـ رضى الله تعالى عنه ـ غائباً فى حاجة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بعثه فيها .

ثم أمر لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : كلوا باسم الله .

فبينما نحن كذلك إذ أقبل على ـ رضى الله عنه وكرم وجهه ـ فتبسم إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : ياعلى ـ إن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة ، وإنى قد زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة .

فقال على : رضيت يارسول الله . ثم إن علياً خر ساجداً شكراً لله ، فلما رفع رأسه قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما ، وأخرج منكما الكثير الطيب .

قال أنس : والله لقد أخرج الله منها الكثير الطيب[٦٨٩]

ولاشك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو المشرع لأمته قد استشار فاطمة فى زواجها ، كعادته مع غيرها من بناته .

كما جاء فى مسند الإمام أحمد أنه كان يقول للبنت : فلان يذكرك ، فإن سكتت أمضى الزواج ، وإن نقرت الستر علم أنها تأباه .

وفى زواج الزهراء قال لها : يافاطمة ، إن علياً يذكرك ـ فسكتت .

وفى بعض الروايات أنه دخل على فاطمة فقال لها ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد أنكحتك أكثر أصحابى علماً ، وأفضلهم حلماً ، وأولهم سلماً »[٦٩٠] ـ أى إسلاماً ـ

ولابد أن يكون لكل عرس وليمة ، وقد أعد علىٌّ لهذا الأمر عُدَّته . ولا يشترط أن تكون الوليمة قبل الدخول ، بل ربما تكون بعده .

فقد ورد أنه لما كان بعد أن زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ علياً بفاطمة ، قال له : ياعلى ، إنه لابد للعروس من وليمة .

فقال على : عندى كبش . . . فجمع له رهط من الأنصار آصعاً من ذرة ، فلما كانت ليلة البناء قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى : لاتحدث شيئاً حتى تلقانى .

قال : فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإناء فتوضأ فيه ، ثم أفرغه على علىٍّ ، ثم قال : « اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما فى

---

(٦٨٩) نور الأبصار للشبلنجى صـ٤٦ ـ فاطمة والفاطميون للعقاد صـ٣٠

(٦٩٠) فاطمة الفاطميون صـ٣٠

نسلها»[691]

وهذه هى دعوة الزواج المشروعة ، جعلها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدلا من الدعوة التى كانت متوارثة وهى : بالرفاء والبنين ـ فحين تزوج عقيل بن أبى طالب خرج على أصحابه فقالوا له : بالرفاء والبنين .

فقال : لاتقولوا ذلك فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن ذلك وقال : قولوا : بارك الله لك وبارك عليك وبارك لك فيها»[692]

والتهنئة بالرفاء والبنين معناها : بالسلامة والاتفاق والسكون والطمأنينة وإنجاب الأولاد ـ كرّه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لما تحمله هذه التهنئة من روح الكراهية للبنات وتفضيل الذكور عليهن وهذا مايأباه الإسلام .

وبعد أن نضح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهما الماء ودعا لهما هذا الدعاء المبارك خرج ، وقال كلمة تعد من أبلغ ماقيل من كلمات . . قال : «جَدَع الحلال أنف الغيرة»

وعلق الجاحظ فى البيان والتبيين على هذا التعبير بقوله : إنه من روائع التصوير ومحاسن الخيال»[693]

وهناك بعض الأخبار التى تشير إلى أن علياً ـ رضى الله عنه ـ كان يعد لهذا الأمر عدته ، فقد قال بعض الرواة : إن عليا كانت له ناقتان قد أعدهما

---

(٦٩١) الطبقات جـ٨ صـ١٣

(٦٩٢) أسد الغابة ٤ /٦٦

(٦٩٣) البيان والتبيين جـ٣ صـ٢٧

لهذا الزواج المرتقب ، وكان حمزة عمه - قبل أن تحرم الخمر - قد شرب قدراً من الخمر أثمله ، وخرج إلى هاتين الناقتين فبقر خاصرتيهما ، وجَبَّ أسنمتهما .

ورأى على ماحل بناقتيه فتألم وغضب ، وأسرع إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يشكو عمه إليه .

وكان حمزة فى حالة من السكر جعلته لايقدر الموقف حق قدره وكان ذلك من الأسباب التى عجلت بتحريم الخمر[٦٩٤] ونزل قوله - تعالى - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[٦٩٥]

فهذا الخبر الذى أشار إليه القرطبى يفيد أن علياً كان قد أعد ناقتيه اللتين فجعه فيهما عمه حمزة ليوم زفافه . .

وعلى أى فإن ذلك لاينافى عوزه واحتياجه ، وقد تكون الناقتان أهديتا إليه كما أهدى إليه سعد بن عبادة الكبش الذى أولم به فى ليلة الزفاف المباركة . .

وكان هذا الزفاف مباركاً حقاً بكل المقاييس التى يقيس بها الناس التوفيق فى الحياة الزوجية .

فلم تكن فاطمة إلا كفئاً لعلى ، ولم يكن على إلا كفئا لفاطمة ، لقد كان

---

(٦٩٤) راجع تفسير القرطبى جـ٦ صـ٢٨٧ تفسير قوله - تعالى « إنما الخمر والميسر والأنصاب . . » ٩٠

(٦٩٥) سورة المائدة ٩٠

التقاؤهما كالتقاء البحرين اللذين يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ..

وخرج منهما ماهو أرفع قدراً وأغلى قيمة من اللؤلؤ والمرجان .

خرج منهما النسل الكثير الطيب كما دعا النبى المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحفظ الله بما خرج منهما نسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى اقتضت حكمة الله أن يكون نسله الشريف فى ابنته فاطمة . فقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل بنى أنثى فإن عصبتهم لأبيهم ماخلا ولد فاطمة فإنى أنا عصبتهم . وأنا أبوهم »(٦٩٦)

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل بنى آدم ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم »(٦٩٧)

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى »(٦٩٨)

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى »(٦٩٩)

---

(٦٩٦) أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى المعرفة عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وهو فى جمع الجوامع برقم ١٩٤ /١٦٥٨٧ جـ٣ صـ١٧٢ ط مجمع البحوث الاسلامية

(٦٩٧) الحديث فى تاريخ بغداد للخطيب جـ١١ صـ٢٨٥ عند الترجمة لعثمان بن محمد بن أبى شيبة .

وأخرجه الطبرانى عن فاطمة بنت الحسين عن فاطمة الكبرى ـ رضى الله عنها ـ وفى جمع الجوامع برقم ١٩٦ / ١٦٥٨٩ جـ٣ صـ١٧٣

(٦٩٨) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير جـ٣ صـ٣٦ عن المسور بن مخرمة

(٦٩٩) الحديث فى مختصر ابن عساكر جـ٦ صـ٢٧ فى ترجمة زيد بن عمر بن الخطاب ، وذكر قصة زواج عمر من أم كلثوم ابنة على وفاطمة ـ رضى الله عنهم ، والحديث فى جمع الجوامع برقم ٢٦٦ /١٦٦٥٩ جـ٣ صـ٢٢٨ ط مجمع البحوث الاسلامية .

فاطمة فى بيت الزوجية

ولم تخل حياة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فى بيت زوجها من مشقة . . فهى لم تركن إلى الدعة ، ولم تنظر فى نفسها إلى أنها بنت سيد هذه الأمة ، ومن حقها أن تستمتع بحياتها كما تستمتع بنات الطبقة الراقية فى مجتمعاتهن . .

إنها ابنة سيد هذه الأمة حقاً ، ولكن سيد هذه الأمة كان قدوة طيبة لأبنائها ، ومثلاً أعلى للمسلمين جميعاً فى الكفاح والجهاد والمشقة والصبر على متاعب الحياة ، وشظف العيش والتقشف .

وابنته كانت صورة منه . فكانت حياتها حياة دأب وجهاد .

فهى تغسل وتطبخ وتطحن وتعجن وتخبز ، وهى مع ذلك ترعى حق زوجها وحق أولادها ، ومن الطبيعى أن تتعب ، وأن تمرض ، وأن يظهر عليها أثر الكد والجهد .

قال العقاد : وكانت فاطمة تشكو حينا بعد حين ، ويعودها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يواسيها فى مرضها ـ وقد زارها يوماً وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدينك يابنية ؟ »

فقالت : « إنى لوجعة » ثم قالت : « وإنه ليزيدنى أنى مالى طعام آكله . . فاستعبر ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : « يابنية ، أما ترضين أنك سيدة نساء الجنة »(٧٠٠)

لقد عرفها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تكاليف السيادة صعبة ، وأن ثمنها غال يتمثل فى النصب والتعب وتحمل مشاق الجوع والمرض ،

---

(٧٠٠) فاطمة والفاطميون صـ٦٠

والصبر على ذلك دون شكوى أو ضجر ..
وليس كل أحد يطيق ذلك ..

وليست هذه السيادة سيادة فى الدنيا يطلبها صاحبها بالدعاية والإعلام وحشد الأشياع والأعوان ، وتوزيع الأموال والمناصب والوعود ، ولكنها سيادة روحية لاتحصل إلا بما يبذله الإنسان من جهد بينه وبين ربه ، لايطلع على نجواه إلا رب السموات والأرض البصير بنوايا العباد ونزعاتهم ..

وكانت فاطمة بنت أسد - أم على - تعيش مع فاطمة فى بيتها .. واستطاع علىٌّ أن يقسم العمل بينهما فقال لأمه : اكفى فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعض الأشياء وتكفيك هى الطحن والعجن[701]

وقد تعبت يدا فاطمة - رضى الله عنها - من عناء العمل والدأب على إدارة الرحا .

أثاث بيت الزوجية ومتاعها

وإنك لتعجب حين ترى أن جهاز ابنة سيد الأمة ونبيها لايتجاوز حشية من ليف ووسادة .. وإن أردت الدقة فى ذلك فاقرأ ماروته الأخبار فى ذلك :

عن عون بن محمد بن على بن أبى طالب عن أمه - أم جعفر ، عن جدتها - أسماء بنت عميس قالت : جهزت جَدَّتك فاطمة إلى جدك على ، وماكان حشو فراشها ووسائدهما إلا الليف .....

---

(701) أسد الغابة ٧ /٢١٧

قال ابن سعد فيما يرويه عن الرواة : أخبرنا أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن أبيه أن علياً حين دخل بفاطمة كان فراشهما إهاب كبش أو كبشين ، إذا أرادا أن يناما قلباه على صوفه ، ووسادتهما من أدم حشوها ليف .. ولايمنع أن يكون هناك إلى جانب ذلك مايسمى بالضروريات ـ فقد روى عكرمة قال : لما زوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليا وفاطمة كان فيما جهزت به سرير مشروط[٧٠٢] ووسادة من أدم حشوها ليف ، وإناء من أدم وقربة ....

ولايخلو الأمر من أن تكون هناك إتحافات تتحف بها العروس فى ليلة زفافها . قال دارم بن عبدالرحمن بن ثعلبة الحنفى ـ قال : حدثنى رجل أخواله الأنصار قال : أخبرتنى جدتى أنها كانت مع النسوة اللاتى أهدين فاطمة إلى على . قالت : أُهديت فى بردين من برود الأول ، عليها دملوجان من فضة مصفران بزعفران ، فدخلنا بيت على فاذا إهاب شاة على دُكّان ، ووسادة فيها ليف وقربة ومنخل ومنشفة وقدح[٧٠٣]

هذا هو أثاث الزوجية فى بيت ابنة نبى المسلمين .. لم يضم إلا ماهو دون الضرورى من مستلزمات الحياة ، ولم تتطلع فاطمة الزهراء سيدة نساء الجنة إلى أن يكون لها من الأثاث ماتصبو إليه أدنى فتاة فى مجتمعنا الحاضر .. وإن القائمة التى تدون لأقل فتاة الآن يشترط فيها من الحلى كذا ، ومن

---

(٧٠٢) فى اللسان : الشريطة شبه خيوط تفتل من الخوص والليف ، وقيل هو الحبل سمى بذلك لأنه يشرط خوصه ، فقد يكون السرير المشروط الذى يشد بذلك .
والبطحاء : الحصى السهل اللين

(٧٠٣) هذه الآثار من الطبقات جـ٨ صـ١٤ ، صـ١٥ ـ والدكان مكان مرتفع من خشب ، وكأنه يعنى به السرير

الأثاث كذا وكذا ..

ولكن هناك فرق كبير بين من يضع الآخرة أمام نظره ، وبين من يضع الدنيا وزهرتها فى خاطره ..

ماكانت فاطمة إلا ابنة أبيها الذى راودته الجبال الشم أن تكون له ذهباً فأعرض عنها وضرب عنها صفحاً .

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لاتعدو على العصم[704]

لم تتبرم فاطمة بهذا الشظف وتلك القسوة ، لقد نشأت عليها ، ورأت أباها وهو يؤثر المسلمين على نفسه ، ويجوع ليشبع غيره ، وربما رأته وهو يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع ، ورأته وهو يجود بكل مايملك من غير منّ ولا خوف ولاتردد .

فلماذا تضيق بحياتها الجديدة التى تعتبر امتداداً لحياتها فى بيت أبيها ؟؟ ..

ولم تزد حفلة العرس على بضع نساء شهدن ذهابها إلى بيت زوجها ، لامهرجان ولاضجيج ولاصخب ، اللهم إلا ذلك الفرح الهادىء الرزين الذى يدل على انشغال البال بما هو أجدى للمرء وأفضل له فى دنياه وأخراه ، ذلك هو الفرح بالله ورسوله

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير لهم مما يجمعون »[705]

---

(٧٠٤) البوصيرى فى بردته

(٧٠٥) يونس ٥٨

والإسلام لايحرم أفراح الزواج المعتدلة ، فهو ليس دين تضييق وحرج على النفوس . . . . . ولكنه يراعى الأحوال النفسية والاجتماعية بشرط عدم التكلف وعدم الخروج على آداب الشرع العامة .

فالسرور الذى يصاحب الزواج بمظاهره الميسرة أمر لايأباه الدين ، وتجلية العروس وتزيينها لزوجها من الأمور التى يدعو إليها الإسلام . .

وقد أباح الإسلام الغناء فى الأفراح - وحين زوج النبى - صلى الله عليه وسلم - الفارعة بنت أسعد بن زرارة الأنصارى من بنيط بن جابر من بنى النجار - كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يرغب أن تغنى الجوارى فى فرحها . . .

قال ابن حجر : عن عائشة قالت : أهدينا يتيمة من الأنصار ، فلما رجعنا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ماقلتم » ؟
قالت : سلمنا وانصرفنا

قال : « إن الأنصار قوم يعجبهم الغناء ألا قالت النساء ياعائشة : أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم » ؟ وهذه اليتيمة هى الفارعة بنت أسعد بن زرارة[706]

وقيل : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يكره الغناء بعامة . جاء فى ترجمة طرية مولاة حسان بن ثابت . عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أمر حسان بن ثابت جاريته طَرِيَّة ، وعنده ناس فى سماطين بغناء أُطُمِه « فارع » أمرها أن تغنى - فمر بهم النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(٧٠٦) الاصابة ٨ /٤٨

لم يأمرهم ولم ينههم .

وفى رواية : مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحسّان ومعه أصحابه فى سماطين وجارية له يقال لها « سيرين » تختلف بين السماطين ، وهى تغنيهم فلم يأمرهم ولم ينههم(٧٠٧) ويبدو أن ذلك كان فى مناسبة سارة .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشهد إملاك أصحابه . . . . ففى ترجمة من يدعى بعبد الرحمن بن فلان قال ابن الأثير : شهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إملاك رجل من الأنصار فزوجه ـ وقال : « على الخير والألفة والطائر الميمون والسعة فى الرزق ، دفُّوا على رأسه . فجاءوا بالدف فضربوا به ، وجاءت الأطباق عليها فاكهة وسكر فنثرت عليه ، فكف الناس أيديهم .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مالكم لاتأكلون ؟ فجاذبهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاذبوه(٧٠٨)

وإذا كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبتهج بهذه الصورة لأفراح أصحابه وبنات أصحابه ، فابتهاجه بفرح أحب بناته إليه وزفافها إلى أحب أصحابه إليه من باب أولى .

قال ابن سعد : عندما زفت فاطمة إلى بيت على .
جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستفتح ، فخرجت إليه أم

---

(٧٠٧) أسد الغابة ٧ / ١٨٠ ـ الاصابة ٧ /٧٢٢
(٧٠٨) أسد الغابة ٣ /٤٨٨

أيمن ، فقال : أئم أخى » ؟

قالت . وكيف يكون أخوك وقد أنكحته ابنتك ؟

قال : « فإنه كذلك »

ونظر النبى - صلى الله عليه وسلم - فرأى أسماء بنت عُمَيس - وكانت زوجة جعفر بن أبى طالب فى ذلك الوقت -

فقال : « أسماء بنت عميس » ؟

قالت : نعم

قال : « جئت تكرمين بنت رسول الله » ؟

قالت : نعم :

فقال لها خيراً ودعا لها .

ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بماء فأُتى به إما فى تَوْر(٧٠٩) وإما فى سواه قال : فمجّه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده ، ثم دعا علياً فنضح من ذلك الماء على كتفيه وصدره وذراعيه ، ثم دعا بفاطمة فأقبلت تعثر فى ثوبها حياءً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنضح عليها أيضاً مثل ذلك ، ثم قال لها : « يافاطمة أما إنّى ماألَيت(٧١٠) أن أزوجك خير أهلى »(٧١١)

فهذا الخبر يشير إلى أن فاطمة لم تكن وحدها فى ليلة عرسها ، بل ذهبت معها نساء من بينهن أم أيمن وأسماء . .

---

(٧٠٩) تور : إناء من صفر أو حجارة

(٧١٠) ألَيت : قصرت

(٧١١) الطبقات ٨ / ١٤

إلا أنا نقول : لعل أسماء التى ذُكرت ليست أسماء بنت عميس ، ـ كما جاء فى هذا الخبر الذى ذكره ابن سعد ـ بل هى أسماء أخرى ، لأن المعروف أن أسماء بنت عميس كانت مهاجرة مع زوجها جعفر بن أبى طالب إلى الحبشة ولم يعودا معا إلا فى أثناء فتح خيبر ، بعد أن تزوجت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بسنوات .

منزلها

كانت فاطمة تقيم مع أبيها قبل أن تتزوج ، وكان أبوها يقيم فى بيت أبى أيوب الأنصارى قبل أن يبنى الحجرات التى ألحقت بالمسجد ، فلما تزوجت فاطمة ، قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى : اطلب منزلاً .

فطلب على منزلا فأصاب منزلاً مستأخرا ـ أى بعيدا ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبنى بفاطمة فيه ، وهذا هو الذى يفسر الفترة التى كانت بين الزواج والدخول ـ بين رجب ورمضان ـ فقد سبقت الإشارة إلى أن الزواج كان فى رجب بعد مقدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة ، ولكن البناء كان فى رمضان .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شقَّ عليه أن تبعد فاطمة عنه ، فقال لها : إنى أريد أن تقتربى منى .

إنه يريدها أن تكون قريبة منه . وكان حارثة بن النعمان الأنصارى الخزرجى ـ وهو من بنى النجار ـ له منزل قريب من النبى ـ ﷺ ـ فكلمت فاطمة أباها أن يكلم حارثة بن النعمان .

وكأنها تريد بذلك استبدال المنزلين كل منهما بالآخر .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :« استحييت أن أكلم حارثة »

وبلغ ذلك حارثة فتحول ، وذهب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : يارسول الله إنه بلغنى أنك تريد أن تقرب فاطمة إليك ، وهذه منازلى ، وهى أسقب ـ أقرب وألصق ـ بيوت بنى النجار بك ، وإنما أنا ومالى لله ولرسوله ، والله يارسول الله إن المال الذى تأخذ منى أحب إلىّ من الذى تدع .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : صدقت ، بارك الله فيك وعليك .

فتحولت فاطمة إلى بيت حارثة[712]

فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمر ببيت فاطمة إذا خرج لصلاة الفجر يقول : الصلاة ياأهل بيت محمد « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً »[713]

ويتحدث العقاد عن منزل فاطمة الذى تحولت إليه . فيقول :

إن بيت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ الذى تحولت إليه كان بينه وبين بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خوخة . . . وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدث فاطمة من الكوة أحياناً ويسألها عن أحوالهم . .

وقد روى أن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى يوماً : إن ابنىّ أمسيا عليلين فلو نظرت لنا إداما نستصبح به .

---

(٧١٢) الطبقات ٨ / ١٤

(٧١٣) أسد الغابة جـ٧ صـ٢٢٣

فخرج علىّ إلى السوق فاشترى لهم أدماً وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت ـ أشعلت مصباحاً ـ

فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل .

فهذا الخبر يشير إلى قرب دار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من دار فاطمة ـ التى كانت لحارثة قبل أن يتحول عنها .[٧١٤]

من حارثة ؟

وتصرف حارثة مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشهد بفضله وتقدمه ، ويشير إلى صدق يقينه وعمق إيمانه .

ولقد كافأه الله على هذا الإيثار ، فكان من الذين يكرمهم الله برؤية جبريل ـ عليه السلام ـ

روى عبدالله بن عامر بن ربيعة عن حارثة بن النعمان قال : مررت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه جبريل جالساً بالمقاعد فسلمت عليه وجزت ، فلما رجعت وانصرف جبريل ـ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هل رأيت الذى كان معى » ؟ قلت : نعم

قال : « فإنه جبريل ، وقد رد عليك السلام »

وروى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن حارثة بن النعمان مر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه جبريل يناجيه ، فلم يسلم .

فقال جبريل : مامنعه أن يسلم ؟

---

(٧١٤) فاطمة والفاطميون ـ العقاد ـ صـ٤٠

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مامنعك أن تسلم حين مررت ؟ »

قال : رأيت معك إنساناً تناجيه ، فكرهت أن أقطع حديثك .

قال : « أوقد رأيته » ؟

قال : نعم .

قال : « أما إن ذاك جبريل ، وقد قال : أما إنه لو سلم لرددت عليه »

ثم قال : « إنه من الثمانين »

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما الثمانون ؟ »

قال : يفر الناس عنك غير ثمانين فيصبرون معك يكرمهم الله ويرزقهم رزقاً عظيماً في الجنة . .

فأخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حارثة بذلك .

وقد حدث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشيداً بفضل حارثة فقال ـ فيما ترويه عائشة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « دخلت الجنة فسمعت قراءة ، فقلت : من هذا ؟ فقيل : حارثة بن النعمان ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « كذلك البرّ وكان حارثة برًّا بأمه »

أما الاشارة إلى الثمانين فتعني أن الناس يوم حنين فروا عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يثبت معه إلا ثمانون رجلاً . . كان منهم حارثة بن النعمان . .

وعاش حارثة بن النعمان حتى فقد بصره ـ وكان محسناً جواداً ـ فاتخذ خيطاً من مصلاه إلى باب حجرته ، ووضع عنده مكتلاً فيه تمر ، فكان إذا جاء أحد المساكين فسلم ، أخذ من ذلك المكتل ، ثم أخذ بطرف الخيط حتى

يناوله ، فكان أهله يقولون : نحن نكفيك .

فيقول : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « مناولة المسكين تقى ميتة السوء »

لقد شهد حارثة بن النعمان ـ رضى الله عنه ـ المشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان من فضلاء الصحابة(٧١٥)

وتصرفه حين آثر فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بمنزله يشهد بفضله .

كثرة العمل ومشقته على فاطمة

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن فاطمة كانت تعمل عملاً كثيراً فى بيتها بل كانت تجهد نفسها فى ذلك ، حتى شعر زوجها بما تعانيه . . وكان هو ـ رضى الله عنه ـ قد جهد وتعب .

قال لها يوماً : والله لقد سنوت(٧١٦) حتى قد اشتكيت وجهدت ـ وقد أفاء الله على أبيك بسبى فاذهبى إليه ، واطلبى منه خادماً .

فقالت : وأنا والله قد طحنت حتى تعبت يداى وتقرحت فأتت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ماجاء بك يابنية ؟

قالت : جئت لأسلم عليك ، واستحيت أن تسأله ورجعت ، فقال على : مافعلت ؟

قالت : استحييت أن أسأله .

فأتياه جميعاً .

---

(٧١٥) راجع ترجمته فى أسد الغابة جـ١ صـ٤٢٩

(٧١٦) سنوت : أى عملت فى استخراج الماء من الآبار ـ ومنه السانية بمعنى الساقية .

فقال على : والله يارسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى .

وقالت فاطمة : قد طحنت حتى قرحت يداى ، وقد أتى الله بسبى وسعة فاجعل لنا خادما .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « والله لاأعطيكما وأدع أهل الصُّفَّة تطوى بطونهم ، لاأجد ماأنفق عليهم ، ولكنى أبيع وأنفق عليهم مما أبيعه .

فرجعا ـ . . . . فأتاهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد دخلا بيتهما وجلسا على فراش لايكفيهما ـ فقاما إليه ـ

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مكانكما ، ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟ »

فقالا : بلى .

فقال : « كلمات علمنى جبريل إياها ـ تسبحان فى دبر كل صلاة عشراً ، وتحمدان عشراً ، وتكبران عشراً ، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين »

قال على : فوالله ماتركتهن منذ علمنيهن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له رجل : ولا ليلة صفِّين ؟

فقال : قاتلكم الله ياأهل العراق ، ولا ليلة صَفين . .

أثر مشاهدات فاطمة فى حياتها

لقد ذكرنا صوراً من حياة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وهذه الصور تشهد أنها كانت كلها جد أقرب إلى الصرامة . .

فقد تفتحت عيناها ـ كما سبقت الإشارة ـ على ماكان يلاقيه أبوها ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أذى قريش وعنتهم .

ولقد شهدت أهم فترة من القسوة حين حاصر القرشيون بنى عبدالمطلب فى شعب بنى هاشم ، لايبيعونهم ولايصاهرونهم ولايعاملونهم ، وكتبوا بذلك صحيفة ظالمة حفظوها فى جوف الكعبة .

وظل الأمر على ذلك ثلاث سنوات يقاسى المسلمون فى خلالها أشد أنواع العذاب ، حتى مزقت الأرضة هذه الصحيفة الظالمة ، وقيض الله من أبناء قريش أنفسهم من ثار على هذه المقاطعة الظالمة .

كانت فاطمة إذ ذاك فى حدود العاشرة من عمرها ، ورأت القسوة التى تملأ عليها قلوب القرشيين على أبيها وقومها بنى هاشم .

فليس عجيبا أن يترك ذلك أثره الواضح عليها . وأن تظهر عليها أحيانا مسحة من الحزن العميق .

وكيف لا تحزن وهى ترى أباها العظيم وقد جاء برسالة هادية تسعد الناس فيقابلونه هذه المقابلة العنيفة ، بل يستخدمون معه ومع كل من آمن به أقسى أنواع الأذى

لقد رأت فاطمة فى يوم من الأيام عصبة من المشركين تجتمع على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بجوار الكعبة يستلم الركن ـ ويحيطون به ، ويقولون له : أنت الذى تقول كذا وكذا ، وعددوا ما يقوله ـ ﷺ ـ من شتم وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم .

فيقول الرسول ـ ﷺ ـ : نعم أنا الذى يقول ذلك .

فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ـ ﷺ ـ يريد أن يخنقه وأبو بكر ـ رضى

الله عنه - يدفع عنه ويقول :

أتقتلون رجلا ان يقول ربي الله ؟

وشاهدت فيا شاهدت عقبة بن أبي معيط يضع سلا جزور(٧١٧) على ظهر رسول الله - ﷺ - وهو ساجد .

فتتقدم فاطمة ، وترمى بما على ظهر رسول الله - ﷺ - وتنظف له ملابسه وجسمه .

وتدعو على من فعل ذلك بأبيها .

ودعا النبى - ﷺ - على هؤلاء الملأ من قريش الذين طغوا وبغوا وجاوزوا الحد فى الأذى - فقال : « اللهم عليك بالملأ من قريش : أبي جهل ، وعتبة ، وشيبة ، وعقبة بن أبي معيط ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف » (٧١٨) .

ولقد حمّل النبى - ﷺ - فاطمة - المسئولية منذ نعومة أظفارها ، فقال حين نزل عليه قول الله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » .

يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا .

ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً .

ياصفية بنت عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا .

يافاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً . .

لقد خصها بهذا الخطاب دون أخواتها الثلاث . .

---

(٧١٧) سلا جزور : مايخرج من بطن الجمل بعد ذبحه

(٧١٨) فاطمة الزهراء - د . محمد عبدالمنعم خفاجى ص ٣٠

فكان هذا التخصيص له أثره فى نفس فاطمة ، لقد شعرت أنه تكليف بأن تبلغ أقصى الجهد فى إرضاء الله ورسوله ، وأن تسعى فى تنفيذ أوامر هذا الدين ومبادئه الغاية القصوى ، فقد سمعت من أبيها أنه لا يغنى عنها مع الله شيئا ، وكل امرىء بما كسب رهين .

لقد وعت هذه الكلمة تماما وتركت فى نفسها أثرا قويا لم يبارحها حتى لحقت بأبيها بعد فترة قصيرة من لحوقه بالرفيق الأعلى .

ولقد شهدت بعض المشاهد التى أيقظت فى نفسها أحاسيس جياشة ومشاعر قوية ، وأوقفتها أمام الأمور الغيبية موقف المشاهد اللامس ، فلم يداخل قلبها أدنى شك فيما يخبر به أبوها من عالم الغيب .

ففى معجزة الإسراء والمعراج فى السابع والعشرين من رجب قبل الهجرة النبوية بقليل ، كان لفاطمة فى بدء الرحلة موقف كريم ، فهى التى فتحت لجبريل ـ عليه السلام ـ ليدخل على رسول الله ـ ﷺ ـ وماكان جبريل يحول بينه وبين لقاء رسول الله ـ ﷺ ـ باب أو جدار ـ ولكن الله له شأن فى أن يوقف فاطمة على مشهد لا تنساه .

«ففى حديث الإسراء والمعراج لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان فى البيت ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب ، وكان معه فاطمة الزهراء وعمرها تسع سنين .

وإذا بالباب قد طرق ، فخرجت فاطمة لترى من بالباب .

فرأت شخصا عليه الجلال والحلل .

فقالت له فاطمة : ما تريد ؟

قال : أريد محمداً .

فرجعت ودخلت على الرسول - ﷺ - تستأذن للطارق .

فخرج النبي - ﷺ - فلما رآه إذا به جبريل .. إلى آخر ماورد(719) .

فرؤيتها جبريل وهي في هذه السن المبكرة أوقفها على صورة من يأتي بالوحي على أبيها ، وجعلتها تدرك جلال المهمة التي بعث بها رسول الله - ﷺ - ومدى ما تفرضه عليه من تكاليف وأعباء .... لابد أن تعد نفسها لتكون جديرة بالانتساب إلى هذا الرجل الذي اختاره الله واصطفاه ..

وشهدت وفاة أمها العظيمة التي تركت عند رسول الله فراغا عظيما ، وشعر بالحزن الشديد لفقدها ، وحتى سمى العام الذي فقدت فيه بعد أبي طالب بعام الحزن .. وقد أحزن فاطمة فقدها كما أحزن أباها .

وشهدت حادث الهجرة ، وكيف خرج أبوها من داره وقد أحاط بها المشركون وهم مدججون بالسلاح يريدون أن يقطعوه بسيوفهم .. فأي فتاة في سن فاطمة - رضي الله عنها - ترى هذا المشهد ، وتدرك مدى المصير الذي كان يمكن أن يحدث لولا عناية الله ولطفه ورحمته - ولا يترك في نفسها أثرا لا تمحوه الأيام ؟

وقد قطعت الطريق التي قطعها أبوها مهاجرة إليه بعده .

فقد روت عائشة - رضي الله عنها - قائلة : لما هاجر رسول الله خلفنا وخلف بناته بمكة ، فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهم بعيرين وخمسمائة درهم أخذها من أبي بكر يشتريان بها ما نحتاج إليه من الظهر .

---

(719) فاطمة الزهراء د محمد عبدالمنعم خفاجي صـ20

وبعث أبو بكر عبد الله بن أريقط ببعيرين أو ثلاثة ـ وكتب إلى عبد الله ابن أبي بكر يأمره أن يحمل أهله أم رومان ، وأنا وأختي أسماء ـ فخرجوا ، فلما انتهوا إلى قديد اشترى بتلك الدراهم ثلاثة أبعرة ، ثم دخلوا مكة ، وصادفوا طلحة يريد الهجرة بآل أبي بكر .

قالت : فخرجنا جميعا ، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأم أيمن وأسامة ، فاصطحبنا جميعا ، فقدمنا على رسول الله ـ ﷺ ـ والمسجد يُبنى .(٧٢٠)

وفي المدينة المنورة شاهدت فاطمة جوانب متعددة ـ كثير منها يثير الفرح والسرور ، وبعضها يثير الحزن والكآبة والانزعاج .

فها هي ذي تشهد تسابق الأنصار إلى إيثار المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وقد سجل القرآن الكريم لهم ذلك مثنيا عليهم في آية تتلى على مر الأزمان وتبقى خالدة أبد الدهر . قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾(٧٢١)

وهاهي ذي تشهد موقعة بدر وماأتمه الله على المسلمين من نعمة النصر المؤزر بعد أن أبلوا في سبيل ذلك بلاء حسنا ، وبعد أن أمدهم الله بملائكته

---

(٧٢٠) سيرة أعلام النبلاء للذهبي جـ٢ صـ١٠٩

(٧٢١) الحشر ٩

المسومين ، وعلت راية الحق وانتصرت كلمة الإسلام ، وباء العدو بالخزى والخذلان .

ولكن ما أن جاء البشير بهذا النصر العظيم حتى كان المسلمون الذين لم يشهدوا المعركة يقومون بتوديع أختها البرة التقية رقية .. زوجة عثمان بن عفان ـ إلى مثواها الأخير .

وعاد النبي ـ ﷺ ـ من الموقعة بعد انتهائها ، فوقف على قبر ابنته الغالية ، وبكت فاطمة على أختها بكاء كثيرا ، وكأنها تذكرت بوفاتها وفاة أمها خديجة ـ رضى الله عنها ـ فتجددت أحزانها ، ولقد أخذ النبي ـ ﷺ ـ يمسح بثوبه دموع فاطمة (٧٢٢) ، ويخفف عنها وإن فؤاده ليتفطر ألما وحزنا .

وجاءت موقعة أُحُد ، واستشهد فيها أسد الله حمزة ، فكان حزن فاطمة عليه حزناً عميقاً وبكته بكاءً مراً .

وكانت أخبار الموقعة قد وصلت المدينة فخرجت النساء وفيهن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فلما رأت رسول الله ـ ﷺ ـ أسرعت إليه وأخذت تغسل جراحاته ، وعلى كرم الله وجهه يسكب الماء ، وكان الدم يتزايد ـ فرأت ذلك فأخذت شيئا من حصير فأحرقته بالنار حتى صار رمادا ، فأخذت ذلك الرماد وضمدته حتى لصق بالجرح ، فاستمسك الدم وانتهى (٧٢٣)

وحين عاد النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة دفع سيفه ذا الفقار لابنته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وقال : اغسل عنه دمه ولقد صدقنى اليوم ، وناولها على

---

(٧٢٢) الطبقات جـ٨ صـ٢٤

(٧٢٣) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٥١٩

ابن أبي طلب ـ رضى الله عنه ـ كذلك سيفه وقال لها : وهذا فاغسلى دمه فو الله لقد صدقنى اليوم . فقال ـ ﷺ ـ : وقد صدق معك سهيل بن حنيف وأبو دجانة » (٧٢٤)

وبلغتها بعد ذلك بزمن أنباء مؤتة التى استشهد فيها ابن عمها جعفر بعد أن أبلى بلاء حسنا .

وبكت نساء النبى ـ ﷺ ـ وأهله جعفر بن أبى طالب ، ودخل ـ ﷺ ـ على فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وهى تقول : واعماه .

فقال ـ ﷺ ـ : « علَى مثل جعفر فلتبك البواكى » .

لم يعنفها النبى ـ ﷺ ـ على بكائها ، لأنه كان يعرف بالمشاعر الإنسانية ، وكان لا ينهى عن البكاء على الميت ما لم يكن هذا البكاء يخرج عن صورته النبيلة الإسلامية .

هذه بعض المشاهد التى رأتها فاطمة فى المدينة بعد هجرتها إليها .

وهذه الأحداث جاءت متلاحقة متتابعة شهدتها فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وهى فى سن مبكرة ، وتركت أثرها من غير شك فى نفسها وخلفت ظلالها الحزينة التى جعلتها تزداد تعلقا بأبيها ، وتحبه حبا شديدا يفوق كل شىء .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحبها أيضاً حباً شديداً ، فقد رأى فيها صورة من أمها المجاهدة الصابرة ، كما رأى فيها صورة المؤمنة المثالية التى تؤثر رضا الله ورسوله على كل شىء ، فلا عجب أن يشيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنزلتها ، ويتحدث عن فضلها ودرجتها ـ

---

(٧٢٤) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٥٤٧

وقد ذكرنا بعض ذلك فى صدر حديثنا عنها ..

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قدم من سفر قبل ابنته فاطمة .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : أقبلت فاطمة تمشى كأن مشيها مشى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « مرحبا بابنتى » ثم أجلسها عن يمينه ثم أسر إليها حديثاً فبكت ، ثم أسر إليها حديثاً فضحكت .

فقلت : مارأيت كاليوم أقرب فرحاً من حزن .

فسألتها عما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها :

فقالت : ماكنت لأفشى على رسول الله سره .

فلما قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سألتها ، فأخبرتنى أنه قال : « إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة وإنه عارضنى هذا العام مرتين . ما أراه إلا قد حضر أجلى وإنك أول أهل بيتى لحوقاً بى ، ونعم السلف أنا لك فبكيت .

فقال : « ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة » ؟

فضحكت ومن أجل هذا لقبت بسيدة نساء أهل الجنة ..

وحق لفاطمة أن تضحك ، فقد نالت من أبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل من ربها ـ عز وجل ـ هذا اللقب الرفيع الذى لم ينله أحد غيرها ..(٧٢٥)

---

(٧٢٥) فاطمة الزهراء د محمد عبدالمنعم خفاجى ص٥

ولقد حرص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رضا فاطمة ، وكان يعمل على تجنيبها كل مكروه ماأمكن ذلك . .

فقد نما إلى علم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن بنى مخزوم يريدون أن يزوجوا على بن أبى طالب من ابنة لهم ، فغضب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك ـ من أجل أن ذلك يغضب فاطمة .

فعن ابن أبى مليكة عن المسور بن مخرمة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول وهو على المنبر : « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لاآذن ، ثم لاآذن ، إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم إن فاطمة بضعة منى يريبنى مارابها ويؤذينى ماآذاها[٧٢٦]

وفى رواية : لاتجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله فى بيت واحد أبداً .

حياة سعيدة

ولاشك أنه على الرغم من ظلال الحزن التى كانت تستشعرها فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بين الحين والحين ـ إذ ترى أباها يتعرض لكثير من المشاق فى سبيل الدعوة وجهاده فيها ، ومايناله من الكفار وعنتهم وتربصهم وجمعهم الجموع ـ وكل ذلك كان يكلفه الجهد المضنى والتعب الشديد ـ إلا أنها على الرغم من ذلك كانت فى حمى من الإيمان والوثوق بالله ـ ملأ حياتها رضاً وسكينة وغبطة . .

---

(٧٢٦) تحفة الأحوذى ـ أبواب المناقب ـ باب ماجاء فى فضل فاطمة رضى الله عنها الحديث رقم ٣٩٥٩ ـ ١٠ / ٣٦٩ ـ قال الترمذى : هذا حديث صحيح

ووجدت فى زوجها ـ رضى الله عنه ـ ماتجده كل فتاة فى زوج مؤمن قانع يمتلىء قلبه حناناً لزوجته وحباً لها . .

وجاء الأولاد فملأوا الحياة سعادة وأمنا . . وتعلق قلب جدهم بهم حتى لايكاد يصبر عنهم .

ولانزعم أن الحياة الزوجية خلت تماماً من بعض مايحدث بين الزوج وزوجته ، أو من بعض مايشكى منه . فهذا أمر طبيعى يكون فى كل زمان ومكان .

ولكن حكمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت لمثل هذه الأشياء بالمرصاد تزيلها وتذهب آثارها .

جاء فى الطبقات ـ حدثنا عمرو بن سعيد قال : كان فى علىّ ـ رضى الله عنه ـ شدة ، فقالت له فاطمة : لأشكونك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانطلقت وانطلق علىٌّ بأثرها .

فشكت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غِلظ على وشدته عليها ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يابنية اسمعى واستمعى واعقلى ، إنه لابد للمرأة أن تفعل مافى وسعها لتلبية رغبات زوجها . .

قال على : فكففت عما كنت أصنع ، وقلت : والله لاآتى شيئاً تكرهينه أبداً[٧٢٧]

قال ابن سعد : كان بين على وفاطمة كلام ، فدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَوُضِعَ له فراش فاضطجع عليه ، فجاءت فاطمة

---

(٧٢٧) الطبقات ٨ / ١٦

فجلست من جانب ، وجاء على فجلس من جانب ، فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيد على وأخذ بيد فاطمة وضمهما - ولم يزل حتى أصلح بينهما .

ثم خرج ، فقيل له : دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك ؟

فقال : ومايمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلى ؟(٧٢٨)

وللعقاد تعليل طريف فيما قال الرواة عنه إنه شدة من على - قال : ربما أخذت فاطمة عَلَى زوجها بعض الشدة ، وماهى بشدة ، فما كان رجل مثل على ليعنف على بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله ، إنما هو اعتزاز فاطمة بنفسها وإباؤها أن تُهمل حيث كانت ، وإنما هو الحنان الذى تعودته من أبيها فلا تستريح إلى ماهو دونه ، وكل حنان أدنى من حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة ، أو قريب من القسوة عند من يتنقده فلايجد نظيره فى قلب إنسان(٧٢٩)

شهودها الوفاة

وقد كانت وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أفجع حدث فى حياة المسلمين جميعاً ، لقد ذُهلوا عن أنفسهم ، وأصابهم الجزع ، حتى لقد قال رجل - فى مثل عمر - : من زعم أن محمدا مات قطعت عنقه بسيفى هذا - وجرد سيفه . ولم يكن أحد رابط الجاش مستكيناً لقضاء الله إلا

---

(٧٢٨) المرجع السابق

(٧٢٩) فاطمة والفاطميون صـ٤٣

أبوبكر - رضى الله عنه - الذى ظهر فضله فى هذا الموقف ، فتناول الحدث بإيمانه القوى ومنطقه السديد فخطب الناس قائلاً : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت وتلا قوله - تعالى -

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٧٣٠)

وثاب المسلمون إلى رشدهم ، وأقبلوا يتأهبون لاستئناف الجهاد فى سبيل الدعوة التى وقف النبى - صلى الله عليه وسلم - حياته على تبليغها وجاهد فى سبيلها حتى أتاه اليقين . .

ومن نافلة القول أن نتحدث عن جزع فاطمة على أبيها - صلى الله عليه وسلم - فقد كانت أشد الناس جزعاً على فقده ، لقد فقدت بوفاته القلب الحانى والصدر الحنون .

ووقفت أمام قبره فى ذهول تقول لأنس :

أطابت نفوسكم أن تضعوا على رسول الله التراب ؟ ؟

إنها كلمة ذات دلالة تشهد بمدى حزنها الشديد ولوعتها العظيمة . .

لقد شهدته فى أيامه الأخيرة قبل الوفاة ، ورأته والمرض يرقده فى فراشه ، وكان المرض شديداً عنيفاً به فقالت فاطمة وقد شعرت بما يعانيه أبوها - صلى الله عليه وسلم - من آلام - واكرب أباه .

---

(٧٣٠) آل عمران ١٤٤

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينظر إليها فى حنان ورحمة ويقول لها :

« ليس على أبيك كرب بعد اليوم »

وفاضت الروح الطاهرة إلى ربها ، فأخذت فاطمة تقول فى لوعة وأسى :

يا أبتاه أجاب ربا دعاه

يا أبتاه جنة الفردوس مأواه

وتوجهت مراثى الشعراء والشاعرات جميعاً بالعزاء إلى فاطمة ـ فهى وحدها التى تركها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذريته ، وإن كان المسلمون جميعاً قد استشعروا اليتم بعده .

فقد قالت أروى بنت عبدالمطلب ترثى ابن أخيها وتذكر فاطمة ....

كأن على قلبى لذكر محمد ... وما خفت من بعد النبى المكاويا

أفاطم ـ صلى الله رب محمد ـ ... على جدث أمسى بيثرب ثاويا

أبا حسن فارقته وتركته ... نبكّ بحزن آخر الدهر شاجيا

وقالت صفية بنت عبدالمطلب :

أفاطم بَكّى ولاتسأمى ... بصبحك ماطلع الكوكب

هو المرء يبكى وحق البكاء ... هو الماجد السيد الطيب

فأوحشت الأرض من فقده ... وأى البرية لاينكب ؟

وقالت هند بنت أثاثة بن عباد بن عبدالمطلب بن عبدمناف أخت مسطح بن أثاثة :

رسـول اللـه فارقنـا وكنـا نرجـى أن يكـون لنـا خلـوداً
أفاطـم فاصبرى فلقـد أصابت رزيتـك التهـائم والنُّجُـودا
وأهـل البر والأبحـار طُـرًّا فلـم تخطـىء مصـيبته وحيـداً
وكـان الخيـر يصبح فـى ذراه سـعيد الجـد قـد رائد السـعودا

وقالت أيضاً :

إلـى رب البرية ذاك نشـكو فـإن اللـه يعلـم ماأتـيت
أفاطـم إنـه قـد هُـدَّ ركـنى وقد عظمت مصيبة من رزيتُ[٧٣١]

أما رثاء فاطمة لأبيها فقد فاق كل رثاء قيل فيه ، أجل كان المسلمون جميعاً صادقين فى حزنهم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى بكائهم عليه ورثائهم له ـ ولكن حزن فاطمة كان مضاعفاً ، لقد فقد المسلمون فيه رسولهم الأمين وهاديهم العظيم ، ونبيهم الكريم ـ ولكن فاطمة فقدت فيه ذلك ، وفقدت معه الأب العطوف ، والوالد المشفق والقلب الذى تفزع إليه فى الملمات ، والصدر الذى يحس بما يحتمل فى نفسها قبل أن تبوح به . . . استمع إليها تقول وهى صادقة :

اغـبر آفـاق السـماء وكُـورت شمس النهـار وأظـلم العصـران
فالأرض من بعـد النبـى كئيـبة أسـفاً عليـه كثيـرة الرجـفان
فليبكـه شرق البـلاد وغربهـا ولتبكـه مضـر وكـل يمـان
ياخـاتم الرسـل المبارك ضـوؤه صـلى عليـك منـزل القـرآن

ووقفت على القبر الشريف وانهمل دمعها مدراراً فسقى التراب الذى

---

(٧٣١) راجع طبقات ابن سعد قسم ٢ صـ٩٠ فى هذه المراثى

تعطر بجسد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذت قبضة من هذا التراب الطيب تستنشقه وتبثه أحزانها وتقول :

ماذا على من شم تربة أحمد أن لايشم مدى الزمان غواليا
صبت علىَّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عُدْن لياليا . .

وكان إذا أصابها شىء بعده ، واستشعرت حيفا أو ضيقاً تنظر إلى القبر الطاهر مخاطبة إياه ثم تبثه أشجانها وأحزانها ، وتقول لأبيها مخاطبة إياه كأنه ماثل أمام عينها ـ وإنه لكذلك ـ فما كان لها أن تشعر بأنه غاب عنها . .

إنا فقدنا فقد الأرض وابلها وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا لما نعيت وحالت دونك الكُثُب

لقد ضرب الرواة ببلاغة فاطمة الأمثال ، وما بلاغتها إلا وحى الفطرة الصافية والطبيعة المواتية ، وكيف لاتكون بليغة ووالدها أبلغ العرب بيانا وأفصحهم لسانا وأصدقهم لهجة وأخلصهم لغة ؟ ؟ . . .

عن عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ قالت : مارأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فاطمة وكانت إذا مادخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها ، وأجلسها فى مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها . . . وقد دخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه فأسر إليها فبكت ثم أسر إليها فضحكت . قالت عائشة فعجبت من هذا الأمر بينما هى تبكى إذ هى تضحك . فلما توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سألتها ،

فقالت : أسر الى فأخبرني أنه ميت فبكيت ، ثم أسر إليَّ أني أول أهل بيته لحوقاً به فضحكت »[٧٣٢]

إن جزع فاطمة على أبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يخفف من وقعه عليها إلا يقينها بأنها لاحقة به وشيكاً . . لأن كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ صادق ، وهو لاينطق عن الهوى ـ ولانحسب إلا أنها ظلت تعد الأيام والساعات تعجلاً لهذه اللحظة التي تفارق فيها هذه الدنيا المليئة بالمنغصات ، لتنتقل إلى الآخرة وتلتقى بأبيها فى جنة عرضها السموات والأرض . .



(٧٣٢) فاطمة والفاطميون ص ـ ٥١ نقلاً عن العقد الفريد جـ٣ والرواية للرياشى .

الموضوع	الصفحة



انتهى المجلد الاول

ويليه بمشيئة الله المجلد الثانى